STALKING JACK THE RIPPER

الرواية الأكثر
مبيعاً بشهادة
النيويورك تايمز
#1



مطاردة جاك السفاح

كيري مانسكالكو

ترجمها للعربية
أثير أسعد جعفر



كيري مانسكالكو

مُطارَدة جاك السفّاح

ترجمة

أثير أسعد الطائي





الكتاب: مُطارَدة جاك السفّاح

الطبعة الأولى: 2020

تأليف: كيري مانسكالكو

ترجمة: أثير أسعد الطائي

Published in agreement with the author, c/o BAROR INTERNATIONAL, INC., Armonk, New York, U.S.A.

ISBN: 978-9922-627-69-4

العراق - بغداد - شارع المتنبي

هاتف: 00967706565807

لمراسلة الدار: darashurbanipal@gmail.com

Ashurbanipal.bookstore

Ashurbanipal_books

الإهداء

إلى جدّتي،

التي أحبّت دائمًا الروايات البوليسيّة الجيّدة

تقديم

هذه هي الرواية الأولى للكاتبة كيري مانسكالكو، وعندما قرأتُ سطرها الأول، علمتُ إنني سأحبُّ هذا الكتاب.

برزَ صوت كيري الذكيّ النابض بالحياة وقُدرتها الكبيرة على إثارة التشويق والعاطفة من خلال تلك الكلمات الافتتاحية. «مُطارَدة جاك السفّاح» هي حكاية ذات أجواء فريدة مليئة بالمُنعطفات المُخيفة والمُقلِقة، وأؤكّد للقارئ إنّها سَتفي بوعد تلك الجُملة الأولى. قد تكون الأحداث في لندن العصر الفيكتوريّ، لكنّكَ ستجد أودري روز اللامعة والمُفعَمة بالعاطفة مُعاصِرةً ومُلهِمة، حتى وفقًا لمعايير هذا الزمان.

ـ جيمس باترسون

«سيُسفَكُ دم؛ كما يقولون، الدّمُ بالدّم.»

ماكبيث ـ الفصل 3، المشهد 4

ويليام شكسبير

1

الشقّ الأوّلي

مختبر د. جوناثان وادزورث، هايغيت

30 أغسطس 1888

وضعتُ سبّابتي وإبهامي على اللحم البارد، لأوتّرهُ فوق عظم القصّ كما علّمني عمّي. إتقان الشقّ الأوّلي أمرٌ في بالغ الأهمية.

أخذتُ وقتي في معاينة وضع المعدن على الجلد، وضبط الزاوية الصحيحة لعمل شقٍّ نظيف. شعرتُ بعمّي يحومُ خلفي، متفحصًّا كل حركاتي، لكن اهتمامي انصبَّ بالكامل على الشفرة في يدي. بلا تردّد، سحبتُ المشرط من أحد الكتفين إلى عظم القصّ، بأكثر عمقٍ مُمكن، وارتفعَ حاجباي قليلاً، قبل أن أضبط وجهي كقناع بلا ملامح. انسلاخ اللحم البشري أسهل بكثير ممّا توقّعتُ، لم يختلف الأمر كثيرًا عن تقطيع خاصرة خنزير قبل شوائها، فكرةٌ كان يجب أن تُقلقني أكثر ممّا فعلَت.

هبَّت رائحة مُريعة من الشقّ الذي عملتُه. لم تكن تلك الجثة حديثة العهد كالأخرَيات. ساورَتني بعض الشكوك في حصولنا على كلّ تلك الأجساد

بطريقة مشروعة أو تطوّعية، بالتزامن مع نَدمي على رفض عرض عمّي السابق بتزويدي بأداة تنفّس. تسرّبَت نسماتُ نفَسي الضبابيّة من شفتيّ، لكنّني رفضتُ الاستسلام للارتعاش بردًا. تراجعتُ ليطحن نعلي نشارة الخشب بخفّة، وتفحّصتُ عملي. بالكاد سالَ دمٌ من الجرح، كان من السُمك والقِدَم بحيث لم يخرج قرمزيًّا، وغريبًا بما فيه الكفاية لكي لا يبدو مرعبًا. لو لم يتوفَّ الرجل منذ أكثر من ستّ وثلاثين ساعة لربّما سال دمُه على الطاولة ثم على الأرض، لتتشبّع به نشارة الخشب. مسحتُ النصل بمئزري، تاركةً خطًّا غامقًا عليها. كان شقًّا جيّدًا حقًّا.

حضّرتُ نفسي للشقّ التالي، لكن عمي رفع يده في الهواء لإيقافي. عضضتُ شفتيّ، محتقرةً ذاتي لنسياني إحدى الخطوات من درسه بتلك السرعة. كان عمّي على خلافٍ مستمرّ مع أبي، وادّعى كلاهما نسيان سببه لكنّني أتذكّره جيدًا. هزّ ذلك الخلاف من قرار عمي متابعة تدريبي، وإظهار تقصير لن يُساعدني في الاستمرار، خاصةً إن كنتُ آمل في حضور درسه في الصباح التالي.

«لحظة، أودري روز...» قال وهو يسحب النصل المتّسخ من بين أصابعي. فتحَ عمي قنينة سائل شفاف وسكب منها على قطعة قماش، لتفوح رائحة حادّة في الهواء، وتختلط مع رائحة الأعضاء المتعفّنة. تواجدَ المُطهّر بكثرة في مختبر قبوه وبين شفراته، ووجبَ عليّ تذكّر مسح النصل به. لن أكرّر ذلك الخطأ ثانيةً.

نظرتُ في ذلك القبو، حيث اصطفّت بضعة أجساد أخرى قرب الحائط، بأطرافٍ شاحبة كأغصان مغطّاة بالثلج. كنا سنقضي الليلة هناك إن لم أسرِع،

وأبي، اللورد المهمّ إدموند وادزورث، سيطلب سكوتلانديارد إن لم أعُد إلى البيت قريبًا. بالنظر لمركزه، ربما سيرسل جيشًا صغيرًا للبحث عني.

أعادَ عمي غلق قنينة حامض الكاربوليك، وسلّمني مشرطًا ثانيًا يشبه سكين الطعام الطويلة والرفيعة. كانت حافته أكثر حدّة بكثير من سابقه. باستعمال الأداة المُعقّمة، قمتُ بعمل شق مماثل للأول على الكتف المقابل، ثم نزلتُ فيه نحو صرّة المتوفي، لأتوقّف فوقها بالضبط. لم يكن عمي قد حذّرني من صعوبة قطع القفص الصدري، واسترقتُ نظرة إليه، لكن بصرهُ ثبتَ بتعطّش على الجثة. في بعض الأحيان كان الظلام في عينيه يُرعبني أكثر من الموتى الذين قطّعناهم.

«يجب أن تفتحي الأضلاع قبل أن تصلي إلى القلب.»

أحسستُ بمعاناة عمي وهو يُمسك نفسه عن القيام بالعمل. لقد رافقَتهُ الجثث في معظم لياليه، كالكتب المثيرة للاهتمام، وكان يستمتع بتشريحها وكشف الأسرار المُخبّأة بين صفحات جلودها وعظامها. قمتُ بكسر القفص الصدري بسرعة، قبل أن يُفسد هوسهُ ذلك الدرس، مُظهرةً القلب وبقية الأحشاء. غمرَت وجهي رائحةٌ كريهة، وترنّحتُ لأتراجع لا إراديًا، واضعةً يدي أمام فمي. انتهزَ عمي تلك الفرصة ليتقدّم، لكن قبل أن يتمكّن من دفعي جانبًا دفنتُ يديّ في البطن، أتلمّس الأغشية المرنة، حتى وجدتُ ضالّتي.

تأهّبتُ لإنجاز مهمّة إزالة الكبد، وأخذتُ الشفرة من عمي مرّةً أخرى. بعد بضع شقوق وسحب، انفصل العضو، وأسقطتهُ على صينيّة العيّنات المُنتظِرة بضربةٍ مسموعة، مُقاومةً الرغبة في مسح يدي على المئزر. مسح خدم عمّي للقليل من الدم شيء، والدم اللزج والمخاط الذي كسا أصابعي

شيئًا مختلفًا تمامًا. لم يكن بإمكاننا تحمّل خسارة المزيد من الخادمات، ولم يتحمّل العمّ المزيد من الشائعات عنه. بعض الناس اعتقدوا بالفعل إنه مجنون بما فيه الكفاية.

«ما هو استنتاجكِ الطبّي لكيفية انتهاء حياة هذا الرجل، ابنة أخي؟»

كان الكبد في حالة فظيعة، امتدّت ندباتٌ عدّة على طوله وعرضه، كأنهارٍ وروافد جافّة من المياه. كان تخميني الأول أن هذا الرجل لم يكن غريبًا عن شرابه. «يبدو أنه مات من تليّف الكبد.» أشرتُ إلى الندوب. «كبده كان في مرحلة العجز لبعض الوقت، على ما أعتقد.» مشيتُ إلى رأسه وسحبت أحد جفنيه للخلف. «يوجد اصفرارٌ طفيف حول بياض عينيه أيضًا، ممّا يزيد من شكوكي بأنه كان يحتضر ببطء شديد لعدّة سنوات.»

عدتُ إلى الكبد وقمتُ بإزالة مقطع عرضي بعناية لفحصه تحت المجهر لاحقًا، ثم شطفتُها ووضعتُها في حافظة زجاجية. كان عليّ تسميته وإضافته إلى جانب الأعضاء المحفوظة الأخرى، فمن المهم الاحتفاظ بسجلات دقيقة لكلّ حالة تشريح. أومأ العم.

«هذا جيّدٌ جدًّا، مُمتاز في الواقع. وماذا عن...»

ارتطم باب المختبر بالحائط، كاشفاً عن ظلّ رجل، استحالَ تمييز ملامحه أو عمره، بقبعته المنخفضة فوق جبينه، ومعطفه الذي لامس الأرض، لكنه كان طويلًا جدًّا. لم أجرؤ على التحرّك، وأملتُ أن يشهر العمّ سلاحًا ما، لكنه بدا غير متأثّر بالشخصية المظلمة التي أمامنا. ركّز الذكر فقط على عمي، متجاهلاً وجودي تمامًا.

«إنه جاهز يا أستاذ.»

كان صوته ناعمًا، ولمّح إلى شبابه. قوّستُ حاجبي، مترقّبةً ما كان الطالب وعمّي على وشك القيام به.

«بهذه السرعة؟»

تفقّدَ العم ساعة الجدار، ثم نظر إلى الجسد المسجى على الطاولة ثم إلى وجهي. لم أملك فكرة عن هويّة الصبي الفظّ أو ما كان جاهزًا، لكنني شعرتُ بأنه لا يمكن أن يكون شيئًا جيدًا في تلك الساعة المتأخّرة. فرك عمّي ذقنه، وبعد لحظاتٍ بدَت كالأبدية، حدّقَ بي بنظرةٍ متسائلة.

«هل أنتِ قادرة على خياطة الجثة بمفردك؟»

استقمتُ في وقفتي رافعةً ذقني. «بالطبع.» كان من السخافة حقًا اعتقاده بكوني عاجزة عن أمر سهل مثل ذلك، خاصةً بعد توغّلي الجيد في أحشاء الرجل الميت بمفردي. من بين كل مهامي هذا سيكون الأسهل.

«تقول العمة أميليا أن مهاراتي بأشغال الإبرة مثيرة للإعجاب.» استطردت، بالرغم من ثقتي أن خياطة الجلد لم تخطر على بالها عندما امتدحَت شغل يدي. «على أية حال، لقد تمرّنتُ على خياطة جلد الخنزير خلال فصل الصيف، ولم أواجه مشكلة في إدخال الإبرة وإخراجها من أدمته. هذا لن يكون مختلفًا.»

ضحك ذو الشكل المظلم بصوتٍ لطيف، وحافظتُ على تعبيري هادئًا، على الرغم من غلياني في الداخل. لم يكن هناك شيء مضحك في كلامي، سواءٌ في خياطة الجلد أو القماش، كانت الحرفة هي الأهمّ، وليس الوسط.

«جيد جدًّا.» ارتدى العمّ معطفاً أسود وأخذ شيئًا لم أميّزهُ جيدًا من صندوق بقربِ مكتبه. «يُمكنكِ إغلاق الجسد، وتأكّدي من إقفال القبو في طريقك للخروج.»

اختفى الشاب أعلى السلالم دون أن ينظر خلفه، وفرحتُ لرؤيته يذهب. توقّفَ العم عند الباب، نقرَت أصابعه المغطاة بالندوب بإيقاع عصبي على إطارها، وهو يقول «سوف تقلّكِ العربة إلى المنزل عندما تنتهين. اتركي العيّنات الأخرى إلى مساء الغد.»

«عمّي، انتظر!» ركضتُ حول طاولة الفحص. «ماذا عن المدرسة غداً؟ قلتُ أنك ستخبرني الليلة.»

تحوّل انتباهه إلى الجثة المفتوحة على الطاولة، ثم عادَ إلى وجهي المتلهّف، ورأيتُ عقله يخطّط ويخرج بآلاف الأسباب التي تمنعني من حضور فصل الطب الجنائيّ. كانت اللياقة آخر همومه، برغم أن والدي كان سيقطّعه إربًا إذا اكتشفَ أمر تدريبي هذا. تنهّدَ العم جوناثان أخيرًا. «عليكِ أن تأتي في زيّ صبي، وإذا تفوّهتِ بكلمة واحدة، فسوف تكون هذه المرة الأولى والأخيرة لكِ في صفي. مفهوم؟»

أومأتُ برأسي بقوة. «أعدُك، سأكون صامتةً مثل الموتى». قال العم وهو يضع قبعةً ويجرّها «آه، الموتى يتحدّثون لمن يُصغي لهم. يجب أن تكوني أهدأ منهم.»

2

إنتقام الدم

مدرسة هارو للأولاد، لندن

31 أغسطس 1888

لم يكن هناك الكثير من الدم، الذي يتوقعه المرء من ذلك القطع العنيف للحنجرة، وفقًا لعمي. بالكاد تابعتُ حكايته للمشهد المروّع الذي حضرهُ في وقت مبكّر من الصباح، وبدَت ملاحظاتي مبعثرة، مثل أفكاري.

«أخبروني، أيها الأولاد...» قال العم جوناثان، وهو يتمشّى على المنصّة المنخفضة وسط المعرض، توقّفَت عيونه الخضراء الشاحبة على وجهي قبل أن يردف: «إلامَ يُشير الدليل إذا كان الدم الموجود تحت الجثة مُتخثّرًا بالفعل؟ الأفضل من ذلك، إن كان هناك ما يكفي من الدم لملء نصف لتر، فماذا يمكن أن نقول عن نهاية ضحيّتنا؟»

كان الدافع لإعلان الجواب وحشًا بائسًا يتوق إلى التحرّر، من القفص الذي وافقتُ على حبسه فيه. بدلاً من استخراج ذلك الشيطان، جلستُ هادئةً، بشفاهٍ مُقفلة وقبّعة منخفضة. أخفيتُ انزعاجي من خلال تفقّد تعابير زملائي في الفصل. تنهّدتُ في داخلي، معظمهم بانوا بلون الخرشوف

وعلى وشك التقيّؤ، ولم أستوعب كيف سيتحمّلون تشريح جثّة. كشطتُ بخفّة الدم الجاف من أسفل ظفري، متذكّرةً شعور إمساك الكبد في يدي، وتساءلتُ عن الإحساس الجديد الذي يحملهُ لي تشريح اليوم.

رفعَ صبيٌّ ذو شعر بُنّي غامق ـ مُرتّب بعناية مثل زيّه الرسميّ الأنيق ـ يده بشكل مستقيم كالسهم في الهواء. غطّت بقع الحبر أغلب أطراف أصابعه، كما لو كان ولعهُ بكتابة الملاحظات أشدّ من اهتمامه بالمظهر. تعلّقَت نظراتي عليه في وقت سابق، مفتونةً بالطريقة المنهجيّة التي دوّنَ بها الملاحظات. كان تقريبًا مهووسًا بالتعلّم ـ وهي سمةٌ لا يمكنني إلا الإعجاب بها.

أومأ العم تجاهه، فَتنحنحَ الصبي ووقف واثقًا من نفسه، ساحبًا كتفيه النحيفين للخلف، بينما كان يواجه الفصل بدلاً من عمي. ضيّقتُ عينيّ، كان أيضًا طويل القامة. هل يمكن أن يكون نفس الزائر الغامض من الليلة الماضية؟

قال: «من الواضح إلى حدٍّ ما، إذا سألتَني،» اقتربَت نبرته من عدم الاهتمام، «أن قاتلنا إمّا عرضَ على المتوفّاة ارتكاب أفعال غير مشروعة لاستدراجها إلى مكان معزول، أو قام بالتسلّل إليها ـ لأنها كانت مخمورة بشكل واضح ـ وضربها من الخلف.»

كان من الصعب معرفة ذلك، لأنه بالكاد تحدّثَ بالأمس، لكن صوته بدا كَصوت زائر عمّي المتأخّر في الليلة الماضية. وجدتُ نفسي أميلُ بجسدي نحوه، كما لو أنّ القرب سيُساعد عقلي على التمييز.

تنحنحَ العم جوناثان لإسكات الصبي المتغطرس، وجلس على مكتبه الخشبي. ابتسمت، من المؤكد أن الظهور كصبي له مزاياه. لطالما كان الحديث عن البغايا يضع عمّي في حالة توتّر، والآن لم يستطع توبيخ شخص على تحدّثهِ بحرّية أمامي. فتح أحد الأدراج، ليُخرج نظارته، ويفرك لطخاتها على سترته المصنوعة من التويد قبل أن يضعها على وجهه. سأل العم، وهو يميل إلى الأمام: «لماذا تعتقد أن ضحيّتنا تعرّضت للاعتداء من الخلف يا توماس، بينما يعتقد معظم زملائي أن الضحية كانت مُستلقية عندما هوجمَت؟»

نظرتُ إليهما، متفاجئةً من مناداة عمي له باسمه المجرّد. حينها زاد يقيني من كونه ذلك الغريب المتأخّر. قرّب الصبي توماس حاجبيه إلى بعض. اتخذت عيناه الذهبية ـ البنية مكانًا مثاليًا في وجهه بارز العظام، كما لو أن ليوناردو دافنشي قد رسمه بنفسه. كانت رموشه مُترَفة، ومنحهُ ذقنه المربّع مظهر الحَزم. حتى أنفه كان رقيقًا وملكيًا، أعطى جوًّا من التيقّظ لكلّ تعابيره. افترضتُ أنه لو لم يكن مُدركًا باستفزاز لذكائه الحادّ، فسوف يكون جذّابًا للغاية.

«لأنه كما ذكرتَ يا سيدي، تمّ ذبح الحنجرة من اليسار إلى اليمين. بالنظر إلى أن معظم الناس في الواقع يمينيّون، يمكن للمرء أن يتخيّل، من الإسقاط الذي وصفتَه، ومن الاحتمال الإحصائي بكون مرتكب الجريمة كان على الأغلب يمينيًا، أنّ أسهل طريقة لارتكاب هذا الفعل ستكون من خلف الضحية.»

أمسك توماس بالطالب الجالس بجانبه وسحبهُ إلى وضعيّة الوقوف، موضحًا

وجهة نظره. صرَّت أطراف الكرسي على بلاط الأرضيّة بينما كان الصبي يكافح من أجل التحرّر، لكن توماس قبضَ بقوّة، كثعبانٍ يخنُق فريسته.

«من المحتمل أنه وضع ذراعه اليسرى على صدرها أو جذعها، وجرّها إليه، هكذا» ـ قام بالتمثيل على زميله ـ «وسحب النصل بسرعة عبر حلقها. مرّةً في أثناء وقوفها، ثم مرّتين عندما سقطت على الأرض. كل ذلك قبل أن تعرف ما كان يحدث.»

بعد مُحاكاة عملية النّحر، أسقطَ توماس الصبي وعبر من فوقه، ليعود إلى مقعده وعدم اكتراثه السابق. «إذا قمتَ بتفحّص تناثر الدم في مسلخ، فأنا متأكّد أنك ستجد شيئًا يشبه النمط المعكوس، حيث يتم قتل الماشية عادةً وهي مُتدلّية رأسًا على عقب.»

«ها!» صفّق العم بيديه بقوّة أجفلَتني، وارتحتُ لملاحظة أن معظم كراسي الطلاب الخشبية قد تحركت بردّ فعل مُشابه. لا أحد ينكر شغف العم بجرائم القتل.

«لماذا إذن، سيقول الرافضون، لم يتناثر الدم على الجزء العلوي من السياج؟» تحدّى العم، ضاربًا راحة يده بقبضته. «لو قُطع وريد رقبتها، لقامَ برشّ كلّ شيء برشقات.»

أومأ توماس برأسه كأنّه كان يتوقع هذا السؤال بالذات. «هذا سهل الشرح، أليس كذلك؟ كانت ترتدي منديلاً حول رقبتها عند مُهاجمتها في البداية، ثم سقط عنها. أو ربما انتزعهُ القاتل منها لتنظيف نصله. ربّما لديه نوعٌ من العُصاب أو غيره.»

عمّ الصمت بثقل، كضباب إيست إيند[1]، بينما تجسّدَت الصورة الحية التي رسمها توماس داخل أذهاننا. علّمني عمي أهمية إلغاء مشاعري في هذه الأنواع من الحالات، لكن كان من الصعب التحدّث عن امرأة كما لو كانت حيوانًا يتمّ جلبهُ إلى المسلخ، مهما انحرف سلوكها عن سلوك المجتمع المُهذّب.

ابتلعتُ ريقي بصعوبة. بدا أنّ لتوماس طريقة مزعجة في التنبّؤ بأسباب تصرّفات القاتل وإطفاء المشاعر تمامًا عندما يناسبه ذلك. استغرق الأمر بضع ثوانٍ حتى ردّ عمّي، لكن عندما فعل ذلك كان يبتسم مثل مجنون أطلقَت عيناه شرارتَين من نار في رأسه. عجزتُ عن كتم وخز الغيرة من السريان في أحشائي، ولم أستطع تحديد سبب استيائي، بين عدم كوني المسؤولة عن سعادة عمي البالغة تلك اللحظة، أو إن رغبتُ في نقاش الصبيّ المزعج بنفسي. من بين كل شخص في الفصل الدراسي، لم يكن على الأقل مذعورًا من عنف هذه الجريمة. الخوف لن يحقّق العدالة للأسرة ـ وبدا أن هذا الصبي يفهم ذلك. تحرّرتُ من أفكاري وأصغيتُ إلى الدرس.

«مهارات استنتاج رائعة، توماس. أنا أيضًا أعتقد أن ضحيّتنا تعرّضت للهجوم من الخلف خلال وقوفها. كان طول السكين المستخدم على الأرجح ما بين ست وثماني بوصات.» توقّف العم ليوضّح للصف حجم النصل باستعمال يديه. تسلّل قلقٌ إليّ، كان من الممكن أن يكون بنفس حجم المبضع الذي استخدمتُه الليلة الماضية.

---

(1)إيست إيند: (الطرف الشرقي) وهي إحدى ضواحي لندن التي تميّزت في القرن التاسع عشر بكثرة الفقراء والمهاجرين فيها. (المُترجِم)

«انطلاقًا من الجرح المتعرّج في البطن، أقول أن الجرح قد حدثَ بعد الوفاة، حيث تمّ اكتشاف الجثة. كما أجازف بالقول أن قاتلنا قد قوطع، ولم يحصل على مبتغاه الحقيقي. لكنّني أفترض أنه قد يكون أعسرًا، أو يستعمل كلتا يديه، بناءً على أدلّةٍ أخرى.»

رفع صبي جالس في الصف الأول يدًا مهزوزة. «ماذا تقصد بذلك؟ ماذا كان مبتغاه الحقيقي؟»

«آمل أن لا نعرف.» قام العم بِفتل شاربه الفاتح، وهي عادةٌ كان ينغمس فيها في كثير من الأحيان وهو يضيع في التفكير. كنت أعرف أن ما سيقوله بعد ذلك لن يكون مُسرًّا. دون أن أدرك ذلك، قمتُ بإمساك حوافّ مقعدي بقوة حتى ابيضّت مفاصلي، فَخفّفتُ قبضتي قليلاً.

«من أجل هذا الدرس، سوف أفصح عن نظريّاتي.» نظر العم حول الغرفة مرّةً أخرى. «أعتقد إنه كان يبتغي أعضاءها الداخلية. مع ذلك، مفتّشو المباحث لا يشاركونني الرأي حول هذا الجانب. لا يسعُني إلا تمنّي كونهم على حق.»

اندلعَت المناقشات حول نظرية إزالة الأعضاء تلك، بينما كنتُ أرسم الأشكال التشريحيّة التي رسمها عمي بعجل على السبورة في بداية الدرس، من أجل تصفية ذهني. زيّنَت صفحاتي من الداخل رسومات تشريح لخنازير وضفادع وجرذان، وبعض الأشياء المقزّزة مثل الأمعاء والقلوب البشرية. ملأت دفتر ملاحظاتي صورٌ لأشياء لا تثير افتتان أيّة سيّدة، ومع ذلك لم أستطع التحكّم في فضولي.

سقط ظل على دفتر ملاحظاتي، وعرفتُ بطريقةٍ ما أنه توماس قبل أن يفتح فمه. «يجب وضع الظل على الجانب الأيسر من الجسد، وإلا سيبدو مثل بُركة من الدم.»

توتّرت، لكنني أبقيتُ شفتيّ مغلقتَين، كما لو أن متعهّد دفنٍ أخرق قد خيّطَهُما. اشتعلت النيران بهدوء تحت جلدي، ولعنتُ رد فعل جسدي على مثل هذا الصبي. استمرّ توماس في نقد عملي.

قال: «حقًا، يجب أن تمحو تلك اللطخات السخيفة. كان نور مصباح الشارع قادمًا من هذه الزاوية، لقد فهمتَ كلّ شيء بشكل خاطئ للغاية.»

«حقًا، يجب أن تهتم بشؤونك الخاصة.» أغمضتُ عينيّ، موبّخةً نفسي داخليًا. كنتُ أبلي بلاءً حسنًا في الصمت وعدم التفاعل مع أيّ من الأولاد، زلّةٌ واحدة قد تُكلّفني مقعدي في الفصل.

قابلتُ نظرة توماس الحادّة عينًا بعين، مقرّرةً عدم إظهار خوفي أمام خصم عنيد. ارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتيه، وراح قلبي يعدو في صدري مثل حصانٍ يجرّ عربةً في ميدان ترافالغار[1].

ذكّرتُ نفسي بكونه وغدًا متكبّرًا، وقرّرت أن اضطراب قلبي كان بسبب القلق. فضّلتُ الاستحمام في الفورمالديهايد على أن أطرَد من الفصل بسبب مثل هذا الفتى المزعج، على الرغم من وسامته.

---

(1) ميدان ترافالغار: ساحةٌ شهيرة تقع في وسط لندن وهي من أهمّ المعالم التاريخية فيها. أصل تسميتها عربيّ نسبةً إلى معركة الطرف الأغر البحريّة التي انتصر فيها الإنكليز. (المُترجِم)

قمتُ بتغليظ صوتي بحذر، لأقول بين أسنان منطبقة: «مع تقديري لملاحظاتك، لكنني أودّ فعلاً أن تتفضّل بترك دراستي لشأنها.» رقصَت عيناه، كأنه اكتشف سرًّا ممتعًا إلى حد كبير، وعرفتُ أنني كنتُ الفأر الذي أمسكت به قطّةٌ ذكيّة للغاية.

«صحيحٌ إذن، سيّد...؟» نطقَ كلمة سيد بطريقة لم تترك مجالاً للشك. لقد أدرك تمامًا أنني لستُ شابًا، بل مُتقمّصة لذلك الدور لسبب لا يعلمه إلا الله. خفّفت حدّتي قليلاً، وأخفضتُ صوتي المُزيّف حتى لا يسمعهُ سواه، ليتسارع قلبي ثانيةً مع البوح بسرّنا المشترك.

»وادزورث. اسمي أودري روز وادزورث.»

بانَت مسحة من التفهّم على وجهه، وحوّلَ انتباههُ إلى عمي الذي كان يخوض نقاشًا مُحتدمًا. مدّ يده وصافحتُه على مضض، على أمل ألا تفضح كفّي مدى توتّري. ربّما يكون من الجيّد وجود صديق للتحدّث معه بشأن القضايا.

«أعتقد أننا التقينا الليلة الماضية،» غامرتُ بالقول بعد أن واتَتني بعض الجرأة. قطّبَ توماس حاجبيه وقلّت ثقتي الجديدة تلك. «...في مختبر عمّي؟»

انعكسَ ظلامٌ على ملامحه. «أعتذر، لكن لا فكرة عندي عمّا تُشيرين إليه. هذه هي المرة الأولى التي نتحدّث فيها.»

«لم نتحدّث بالضبط...»

«سررتُ بلقائك يا وادزورث. أنا متأكّد أنه سيكون لدينا الكثير لنناقشهُ

في المستقبل القريب. قريبٌ جدًا في الواقع، لأنني سأتدرّب هذا المساء مع عمّك. ربما ستتفضّلين بالسماح لي باختبار بعض نظريّاتي؟»

غمرَت موجةٌ قرمزيّة أخرى خدّي. «نظريّاتك حول ماذا بالضبط؟»

«قرارك الفاضح بحضور هذا الفصل بالطبع.» ابتسم ابتسامة عريضة. «لا أقابلُ فتاةً غريبة مثلكِ كلّ يوم.»

تجمّدَ الدفء الودّي الذي شعرتُ به تجاهه، مثل بُركة خلال شتاء شديد البرودة. خاصةً إنه بدا غير مدرك تمامًا لمدى إزعاجه لي، مبتسمًا لنفسه دون اهتمام بالكون. «أحبُّ الشعور بالرضى بعد حلّ الألغاز وإثبات أنني على صواب.»

بطريقةٍ ما، وجدتُ القوّة لِكبت حُنقي ورسم ابتسامة خفيفة على وجهي. كانت العمّة أميليا لتفتخر بتطبيقي لدروسها في الإتيكيت.

«أنا أتطلع بشدّة لسماع نظريّتك المتألّقة عن خيارات حياتي، سيّد...؟»

«السادة الأفاضل!» صاحَ العم. «إذا سمحتُم، أودّ أن يكتب كل واحد منكم نظرياته حول مقتل السيدة ماري آن نيكولز، وأن يُحضرها إلى الفصل غدًا.» ألقى توماس ابتسامة شيطانيّة أخيرة ثم عاد إلى ملاحظاته. بينما كنتُ أغلق دفتري وأجمع أغراضي، لم أقاوم التفكير في أنه قد يكون بنفسه لغزًا محيّرًا يستعصي حلّه.

3

شاي وتشريح

مسكن آل وادزورث، ساحة بلغريف

31 أغسطس 1888

«إلى أين تهربين في هذه الساعة؟»

وقف أبي بالقرب من ساعة الجدّ في المدخل ـ دقّت نبرته أعصابي كما دقّها إيقاع تلك القطعة الأثرية البغيضة ـ بينما كان يتفحّص ساعة جيبه. لم يفصل بين عمّي وأبي سوى بضع سنوات، وحتى وقت قريب كان من الممكن أن يمشيا كتوأم. اختلجَت عضلة في فكّه المربّع، كانت الأسئلة القادمة أسوأ، وفجأةً تعاظمَت فيّ الرغبة في الفرار إلى أعلى الدرج الكبير.

«لقد وعدتُ العم جوناثان بأنني سأشاركهُ تناول الشاي.» شاهدتُه يأخذ نفسًا حادًا لأضيف بهدوء «رفض دعوته سيكون وقاحة.»

قبل أن يقدّم فكرةً أخرى حول الموضوع، فُتحَ باب الصالون وطلّ منه أخي مثل شروق الشمس في نهار مُلبّد بالغيوم. لاحظ الموقف بسرعة فانقضّ بالكلام.

«يجب أن أقول، يبدو الجميع مبتهجين للغاية هذا المساء، إنه أمرٌ مزعج إلى حد ما. أعطِني عبوسًا مناسبًا، أيها الرجل الطيّب. آه...» ابتسمَ بعد حملقة أبي فيه. «هذه هي الروح! عملٌ ممتاز، أبي.»

«ناثنيل.» حذّرَ الأب منقلاً نظرهُ من خلف الزجاج بيننا. «هذا الأمر لا يعنيك.»

«هل نحن مرعوبون للسماح للفتاة بالخروج من الفقاعة الواقية مرّةً أخرى؟ يمكن لا سمح الله أن تُصاب بالجدري وتموت. أوه، انتظر» أحنى ناثنيل رأسه. «هذا حدث من قبل، أليس كذلك؟» أمسك معصمي بشكل دراميّ، بحثًا عن النبض، ثم ارتدّ إلى الوراء. «يا الله، أبي. إنها حيّةٌ تمامًا!»

اهتزّت يد الأب الشاحبة، ونظّف حاجبه بمنديل، والتي لم تكن أبدًا علامة جيّدة. لقد نجحَ ناثنيل عادةً في تبديد قلق الأب بمزحة في مكانها الصحيح، لكن اليوم لم يكن أحد تلك الأيام. لاحظتُ وجود خطوط إضافية حول فم أبي، ساحبةً شفتيه إلى عبوس شبه دائمي. لو تخلص فقط من بعض مخاوفه اللامُنتهية، لَمحا ذلك عقدًا من ملامحه التي كانت جميلة في السابق. بدأت خيوط من الشعر الرمادي بالانزلاق بين خصلات شعره الأشقر أكثر فأكثر مؤخرًا.

«كنت أقول لأبي إنني في طريقي إلى العربة.» قلتُ بسرور قدر استطاعتي، متصنّعةً جهلي بالجو المشحون. «سألتقي العم جوناثان.»

صفّق ناثنيل بيديه ذات القفّازين معًا، وظهرت ابتسامة ماكرة على وجهه. لم يستطع رفض مساعدتي في دراساتي الطبيّة المُختارة. في الغالب

لأن تفكيري المعاصر ـ حول سبب قدرة الفتيات على الحصول على مهنة أو تدريب عمل مثل الذكور ـ كان مصدر إلهام دائم له.

حبّ أخي للجدال جعل منه محاميًا ممتازًا تحت التدريب، لكن تركيزه المتقلّب كان يقوده إلى مكان آخر بسرعة. تضمّنت أهواؤه السابقة بضعة أشهر من دراسة الطب، ثم الفنّ، ثم جهودًا مروّعة في عزف آلة الكمان، والتي سارت بشكلٍ سيّء مع كل تعيس حظ سمعهُ وهو يتدرّب عليه. ذلك بالرغم من إنه لم يحتَج إلى تعلّم حرفة على الإطلاق، لكونه وريث العائلة. كان مجرد شيء يقضي به ساعات الفراغ والأمسيات، إلى جانب الشرب مع أصدقائه المُتعالين.

«آه، هذا صحيح. أتذكر أن عمي ذكر شيئًا عن الشاي في وقت سابق من الأسبوع. لسوء الحظ، اضطررت إلى رفض دعوته، بوجود دراستي وكل شيء.» عدّل ناثنيل قفازاته وقام بتمشيط سترته، وابتسم ابتسامة عريضة. «لباسُك استثنائي لطقس اليوم وللمناسبة المميّزة. عمرك سبعة عشر الآن، أليس كذلك؟ أنتِ مذهلة يا فتاة عيد الميلاد. ألا توافق، أبي؟»

قام الأب بتفحّص هندامي، ربما كان يبحث عن كذبة لمنعي من الذهاب إلى منزل عمّي، لكنه لم يجد واحدة. لقد قمتُ بالفعل بتعبئة العربة بملابس أكثر بساطة. إن لم يستطع إثبات أنني سأقوم بأفعال خطيرة على الموتى وأواجه خطر العدوى، فلن يتمكّن من إيقافي. في ذلك الوقت، ارتديتُ الملابس المُناسبة لشاي المساء. كان ثوبي الحريري المشبّك بلون قشر البيض مثل حذائي الحريريّ، ومشدّي ضيّقٌ بما يكفي لتذكيري بوجوده مع كلّ نفسٍ مؤلمٍ أخذتُه. فجأةً شعرتُ بالامتنان للقفازات الزهرية اللون، المُزرَّرة حتى مرفقيّ. كانت طريقة عصريّة لإخفاء مدى تعرّق راحة يديّ.

مرّرَ أبي يده على وجهه المُتعَب. «بما أنه عيد ميلادك، فيُمكنك الذهاب لتناول الشاي والعودة مُباشرةً. لا أريدك أن تذهبي إلى أي مكان آخر، ولا أريدك أن تشاركي في أيّ من هذا...» رفرفَت يده مثل طير جريح. «هذا النشاط الذي يُشارك فيه عمّك. فهمت؟» أومأتُ برأسي بارتياح، لكن أبي لم يُنهِ كلامه بعد. قال وهو يحدّق في أخي: «إذا حدث شيء لأختك، سأحمّلكَ المسؤولية.» دامَت نظرته إلى ناثنيل لبرهة، ثم غادر المكان تاركًا إيّانا في أعقاب عاصفته. شاهدتُ شكلهُ العريض يختفي أسفل الردهة، قبل أن يُغلق باب مكتبه بدفعةٍ واحدة إلى الخلف. كنتُ أعلم أنه سيشعل سيجارًا بعد قليل، ويحبس نفسه هناك حتى الصباح، في خضمّ أفكار وذكريات أمّي، حتى يستسلم لنومٍ مضطرب.

انتبهتُ إلى ناثنيل، وهو يسحب مشطه الفضي المفضّل عبر شعره. لا يمكن أن يُفلت خيط ذهبيٌّ واحد من محلّه، وإلا فقد ينفجر الكون. «الجوّ دافئ قليلاً لارتداء قفّازات جلديّة، ألا تعتقد ذلك؟»

هزّ ناثنيل كتفيه. «أنا في طريقي للخروج.» بقدر ما أردتُ التحدّث مع أخي، لكن كانت لديّ ارتباطاتٌ جادّة احتاجَت حضوري. عمّي مخلوقٌ ذو عاداتٍ كثيرة، ولا يتسامح مع التأخير، حتى في يوم عيد ميلادي. أنا شخصيًّا لم أعتقد أن الموتى سيُمانعون الانتظار لخمس دقائق اضافية قبل تقطيعهم واستكشافهم، لكنني لم أجرؤ على قول ذلك بصوت عال. كنتُ هناك لأتعلّم، لا لإشعال الشيطان الذي كمنَ بداخله أحيانًا. في آخر مرّة جرّبتُ فيها اختبار تلك القاعدة، جعلني عمّي أقوم بنقع نشارة الخشب الدامية لمدة شهر. لم أرغب في تلقّي تلك العقوبة مرّةً أخرى؛ قشّرَ الدم وقتَها قواعد

أظافري وصعُبَ عليَّ تنظيفها قبل العشاء. الحمد لله أن العمّة أميليا لم تزُرنا حينها، كانت ستفقد الوعي عند رؤيتها للمنظر.

«هل تريد تناول الغداء غدًا؟» سألتُه «يمكنني إخبار مارثا بأن تُعدّ لنا شيئًا نحضرهُ إلى هايد بارك، إن كُنتَ راغبًا في ذلك. يُمكننا حتى السير حول بحيرة السربنتين.»

ابتسم ناثنيل بحزن. «ربما يمكننا القيام بنزهة عيد ميلاد متأخرة حول البحيرة في الأسبوع المقبل؟ أودّ بالتأكيد معرفة ما الذي ستفعلينه أنتِ والعمّ جُثّة في بيت الرعب ذاك.» لمعَت عيناه بمسحةٍ من الحزن. «أنا قلق بشأن رؤيتك لكلّ تلك الدماء. لا يمكن أن يكون ذلك جيدًا لمزاجكِ الأنثويّ الهشّ.»

«آه؟ أيُّ قاموس طبي يقول أنّ المرأة لا تستطيع التعامل مع مثل هذه الأشياء؟ ممَّ صُنعَت روح الرجل ولم يدخل في تكوين روح المرأة؟» تكلّمتُ باستفزاز. «لم تكن لديّ فكرة أن أعضائي الداخلية تتكون من القطن وصغار القطط، بينما أحشاؤكَ مليئة بالفولاذ والأجزاء التي تعمل بالبخار.»

رقّ صوتُه، وهو يصل بالكلام إلى ما كان يُضايقه حقًا. «سيُجنّ جنون أبي إذا اكتشف ما تفعلينه حقًا. أخشى أن يكون فهمه للواقع أكثر ضعفاً هذه الأيام. لقد أصبحَت أوهامهُ... مُقلِقة.»

«كيف ذلك؟»

«أنا... رأيتُه يحدُّ السكاكين ويتحدّث إلى نفسه في صباح مُنصرم، كان يعتقد أنّ الجميع نائمون.» فركَ صدغيه وابتسامته تتلاشى. «ربما يعتقد إنّ بإمكانه طعن الجراثيم قبل أن تدخل منزلنا الآن.»

كانت تلك أنباءٌ مُقلقة بالفعل. آخر مرة حصل فيها ذلك لأبي جعلَني أرتدي قناعًا للوجه في كلّ مرة أغادر فيها المنزل، لتجنّب استنشاق عدوى. مع رغبتي في تخيّل نفسي فوق مستوى الغرور، لكنني كرهتُ التحديق الذي تلقّيتهُ في الخارج وقتَها. تجربة ذلك مرّةً أخرى سيكون عذابًا. رسمتُ على وجهي ابتسامةً كبيرة.

«أنتَ تقلق أكثر من اللزوم.» قبّلتُه على خده قبل أن أتوجه إلى الباب، وخفّت نبرتي ثانيةً. «إن لم تكن حذرًا، فسوف ينتهي بك الأمر بدون شعرك الفاخر هذا.» ضحك ناثنيل على ذلك. »صار معلومًا. عيد ميلاد سعيد، أودري روز. أتمنى أن تقضي وقتًا رائعًا في كلّ ما تنوين فعلُه. كوني حذرة، تعلمين أن العمّ يمكن أن يكون نوعًا ما... مجنونًا.»

بعد عشرين دقيقة كنت أقف في قبو مختبر عمي، أتأقلم مع رائحة كابوس شخص آخر. كان للّحم الميّت رائحة خفيفة، جذّابة بشكل مقزّز، تحتاج دائمًا إلى وقت للتعوّد عليها. تبعث الأجساد الطازجة غير المُصابة رائحة تشبه رائحة الدجاج النيء، بينما كان من الصعب تجاهل الجثث التي ماتت منذ أيام، بغضّ النظر عن مدى خبرة مَن يتعامل معها.

قُتلَت الآنسة نيكولز قبل أقلّ من يوم، لكن رائحة الفئران النافقة القويّة أكّدَت أن إصاباتِها كانت وحشيّة. تلوتُ صلاةً صامتة من أجل روحها المعذّبة وجسدها الممزّق قبل أن أخطو داخل الغرفة. كان مصباح السقف الغازيّ يُلقي بظلالٍ شرّيرة على ورق الجدران المزركش، بينما وقف شخصان مألوفان، مُحدّقَين في جثة موضوعة على منضدة المشرحة. لم يتطلّب الأمر عبقريّةً لاستنتاج أن الجسد انتمى إلى موضوعنا الدراسي ذلك الصباح، وأن الشخص الإضافي في الغرفة كان زميلي في الفصل، المُثير للغضب.

عرفتُ بالتجربة ألّا أقاطع عمي في أثناء فحصه للأدلة، وكنتُ ممتنّةً بشكل خاص لتلك القاعدة عندما وصفَ الرقبة المشوّهة ثانيةً - بتفصيلٍ أكبر - لتوماس. كان هناك شيء مألوف عن المرأة، ولم أستطع منع نفسي من تخيّل حياتها قبل أن ينتهي بنا الأمر أمامنا. ربّما هناك أشخاصٌ أحبّوها - زوجًا أو أطفالًا - وكانوا يندبون فقدها في هذه اللحظة بالذات، دون الاكتراث بانحلالِها في الأوقات العصيبة.

لا تستميل الموت الأمور الفانية مثل المكانة أو الجنس، فهو يأتي للملوك والملكات والبغايا على حدٍّ سواء، وغالبًا ما يترك الأحياء في حالة ندم. ما الذي يُمكن أن نفعله بشكل مختلف لو علمنا أن النهاية قريبةٌ جدًا؟ طردتُ تلك الأفكار، فهي تقترب من بابٍ عاطفيّ خطير كنتُ قد أغلقتُه بالفعل.

لقد احتجتُ إلى الإلهاء، ولحُسن حظي كان هذا المكان المثالي لذلك الشيء بالذات. اصطفّت رفوف الماهوغني على جدران الغرفة، بمئاتٍ من الجرار الزجاجية. لقد تمّت فهرستها بعناية وعرضها بالترتيب الأبجدي - وهي مُهمّة أوكلَت لي في الخريف الماضي، ولم أكمِلها إلا مؤخرًا. بشكلٍ عام، أحصيتُ ما يقرب من سبعمئة عيّنة مختلفة، وهي تشكّل مجموعةً رائعة لمتحف، ناهيك عن بيتٍ واحد. وضعتُ إصبعًا على الجثة المحفوظة الأقرب لي؛ حدّدَت التسمية المكتوبة بخطّ يدي الدقيق أنها مقطع عرضي لضفدع. تخلّلت رائحة الأمونيا الباهتة للفورمالين كل شيء في ذلك المخبأ السري، حتى رائحة التحلّل، لكنّها كانت برغم ذلك مريحةً بشكل غريب. رفعتُ بعناية الكبد الذي أزلتُه أمس، وأضفتُه إلى الرفوف، كأوّل إضافةٍ لي على الإطلاق.

شدّ انتباهي ما افترضتُ إنه ملابس الآنسة نيكولز. كان من الصعب رؤية بقع الدم على أجزائها الداكنة، ومع ذلك، نظرًا لمعرفتي بالهجوم عليها، فقد علمتُ بوجودها هناك. كان الحذاء طويل العنق ذا أربطة، صغيرًا ومغطّى بالطين، مُلطِّخًا الطاولة التي استقرّ عليها. لقد كان باليًا، كاشفًا عن فقرها.

سرَت فيّ قشعريرة ـ لا علاقة لها بمشاهد الموت الظاهرة في أنحاء الغرفة ـ وزحفَت إلى أسفل عمودي الفقريّ. كان الحفاظ على برودة ثابتة في ذلك الجزء من المنزل أمرًا ضروريًا، لمنع تعفّن العينات بسرعة. لم يوفّر الثوب القطني الأقلّ ضيقًا الذي ارتديتُه وقتها إلا القليل من الحماية من الهواء البارد، لكنني فضّلتُ العمل فيه، على ذلك الفستان الأنيق المشدود، حتى عندما كنتُ أفرك ذراعيّ من البرد. نظرتُ إلى الجدار المقابل لي، الذي احتوى على مجلات طبّية وأدوات قد تبدو مُخيفة بالنسبة لناظرٍ خارجي. سكين البتر، بشفرتها المقوّسة الشبيهة بالمنجل، ومناشير العظام، والمحاقن الزجاجية والمعدنية ستُلائم روايةً من الأدب القوطيّ، مثل رواية طفولتنا المفضّلة أنا وناثنيل: فرانكنشتاين. يُمكن بسهولة اعتبار تلك الأدوات من صنع الشيطان، إذا كان المرء ميّالاً إلى الاعتقاد بتلك المفاهيم الخرافية... مثل أبي.

تمّ كسر الصمت المخيف في الغرفة، بتثبيت عمّي للحقائق الأساسية، مثل الطول والجنس ولون الشعر والعينين، خلال تفقُّده الجسم، بحثًا عن الإصابات الأخرى التي لحقَت به في أثناء القتل. حقائقُ كنتُ قد حفظتُها بالفعل من مدوّنتي اليوميّة. شاهدتُ توماس يكتب ملاحظات على ورقةٍ طبّية بدقّةٍ آلية، وأصابعه ملطّخة بالحبر أكثر مما كانت عليه في الفصل.

كان تدوين الملاحظات بشكل عام مهمّتي في هذه الإجراءات. وقفتُ بصبر، أتنفّس الهواء الكيميائي وأستمع إلى الأصوات الخفيفة لفصل اللحم، محاولةً تجاهل اضطراب أمعائي. استغرقَت تهدئة أعصابي دائمًا عدّة لحظات.

بعد عدّة لحظات، لاحظَ عمّي أنني أقف في الزاوية، وأشار لي بأخذ مئزر والانضمام إليهم. عندما اقتربتُ من الجثة، بدا كما لو أنّ بابًا قد أُغلِقَ بين قلبي وعقلي، حابسًا كلّ المشاعر في الجانب الآخر. بمجرّد وقوفي فوق الجسد، لم أعد أرى الشخص الذي كانت عليه في الحياة. لم أرَ سوى القشرة المتروكة، واستحوذ عليّ الفضول بأسوء صوره. لقد تحوّلَت من امرأة لطيفة المظهر إلى جثّة مجهولة أخرى؛ ممّن أصبح لديّ الكثير من الخبرة معهم هذا الصيف. غطّت شرائط من القماش بعض أجزائها لإبقائها لائقة، رغم عدم وجود شيء لائق في حالتها. كانت بشرتها أكثر بياضًا من أجود الفخار المصبوغ يدويًا، الذي ورثَتهُ أمي عن جدّتها في الهند، باستثناء خطّ الفكّ، حيث برزَت الكدمات الغامقة على طوله. لقد سلبَتها الحياة القاسية رقّتَها السابقة، كما تخيّلت، ولم يكن الموت لطيفًا عندما خطفَها في أحضانه التي لا ترحم.

على الأقل كانت عيناها مغلقتَين، وإلى هنا انتهت حالة السكينة. وفقًا لما قالهُ العمّ، فقد فقدَت خمسة أسنان، كما أصيب لسانها بتمزّق، ما يشير إلى أنها قد ضُربَت على الأرجح إمّا لشلّ حركتها وإمّا لإفقادها الوعي، قبل قطع حنجرتها. كانت تلك الإصابات هي الألطف. زحف نظري إلى أسفل بطنها، حيث الإصابة البالغة في جانبها الأيسر. لم يُبالغ العم جوناثان في الصفّ، كان الجرح متعرّجًا وعميقًا للغاية. بانت عدة شقوق أصغر على الجانب الأيمن من جذعها، لكنها لم تكُن بذلك السوء، حسب تقديري.

فهمتُ سبب اعتقاد العمّ بكون القاتل من الأشخاص الذي يستخدمون كلتا اليدين. أشارَت الكدمات على فكّها إلى أن شخصًا ما أمسك وجهها بيده اليسرى، ومن المرجّح أن الشقّ الموجود على الجانب الأيسر من جسدها قد عملهُ شخصٌ يستخدم اليمين. ما لم يكن هناك أكثر من جزّار طليق...

هززتُ رأسي وركّزتُ على الجزء العلوي من جسدها مرة أخرى. تحدّثت جروح السكين في رقبتها عن هجوم عنيف. كان من السهل بشكل مدهش إطالة النظر إليهم في حالتي الجديدة المُنفصلة عاطفيًا، وتساءلتُ لفترة وجيزة إن كانت العمّة أميليا ستفترض أن تلك ضربةٌ أخرى ضدّ كياني الأخلاقي. كانت ستقول: «يجب أن تهتمّ الفتيات بالدانتيل، وليس بالعار الأخلاقي.» حلمتُ بيوم يمكن للفتيات فيه ارتداء الدانتيل والماكياج ـ أو عدم وضع المكياج على الإطلاق وارتداء أكياس الخيش إن رغبنَ في ذلك ـ لمهنهنّ المختارة، دون اعتبار ذلك «غير لائق».

تراجع العمّ فجأةً وعطس. تزاحمَت أفكار الإصابة بالأمراض المنقولة جوّاً في عقلي، قبل أن أستجمع نفسي لدقيقة. لن تنتقل مخاوف أبي إليّ لتُعيقني عمّا يجب القيام به. طقطق العم أصابعه، مشيراً إلى واحدة من أربع سكاكين جراحيّة على صينية معدنية. التقطتُها وسلّمتها إليه، مُمسكةً بكلّ أداة مستخدَمة لأضعها في حمّام كحول بعد أن ينتهي منها. عندما حان وقت رفع الأعضاء، جهّزتُ أوانٍ منفردة وزجاج عيّنات قبل أن يطلبها العمّ. كنتُ أعرف عملي جيدًا.

زفرَ موافقًا ثم قام بوزن الكليتين واحدة تلو الأخرى. «الكلية اليسرى حوالي مئة وسبعة وثلاثين جرامًا.» قام توماس بتدوين المعلومة، وسرعان

ما عاد تركيزه إلى كلمات عمّي التالية. كان صامتًا وهو مستغرق في عمله، بينما كنتُ كقطعة أثاث، لا يلاحظها أحد حتى يحتاجها. «اليمنى صغيرة نوعًا ما، حوالي مئة وتسعة عشر.»

أزال العم قطعة صغيرة من كل عضو، ووضعها على أطباق بتري لمزيد من الاختبارات. سرى هذا الروتين على القلب والكبد والأمعاء والدماغ. أصبح مئزر عمّي الأبيض أكثر دمويّة تدريجيًا، لكنه غسل يديه بشكل منهجيّ بعد كل تشريح لتجنّب تلويث الأدلة. لم يكن هناك دليل على حدوث مثل ذلك التلوّث، لكن للعمّ نظريّته الخاصة في هذا الشأن. كان يقول «اللعنة على مجتمع التقاليد. أنا متيقّنٌ ممّا أعرفه.» لم يختلف مظهره كثيرًا عن مظهر جزّار. حتّى افترضتُ أن البشر المتوفّين ليسوا أكثر من حيوانات تُسلخ باسم العلم بدلاً من الغذاء. يبدو كل شيء متشابهًا عندما تزيل طبقاته العليا.

كدتُ أضحك بصوتٍ عالٍ على أفكاري السخيفة. بقيَت العمّة أميليا وابنتها ليزا معنا مرّتين في السنة، وتضمّنَ جزءٌ من زيارتهم جعلي أتواصل مع فتيات في نفس سنّي، من خلال استضافة حفلات الشاي الفخمة. كانت العمّة أميليا تأمل في أن أستمر في حضورها بمفردي، لكني وضعتُ حدًّا لذلك. لم تفهم الفتيات في جلسات الشاي رأيي، وهذا بالضبط سبب رفضي لدعواتهنّ خلال الأشهر القليلة الماضية. كرهتُ الشفقة في عيونهنّ، ولم أستطع تخيّل نفسي وأنا أشرح لهنّ أمسياتي. بعضهنّ رأى أنه من الفاحش غمس سكين الزبدة في اللبن الرائب. ترى ما الرعب الذي سيشعُرنَ به عند رؤية مشرطي يختفي في نسيج دامٍ!

تسرّبَ شيءٌ بارد ورطب إلى أسفل حذائي، لم ألاحظ بركة الدماء التي

وقفتُ فيها. أسرعتُ بجلب كيس نشارة الخشب ونثرتُ منه على الأرض، مثل طبقة رقيقة من الثلج الأسمر. وجبَ عليّ التخلص من نعلي لاحقًا قبل العودة إلى المنزل، فلا داعٍ لإخافة الخادمة الجديدة أكثر مما فعلتُه عادةً، بعودتي إلى المنزل متّسخةً بمُخلّفات عملي اليومي.

طقطق العم أصابعه، ليُعيدني إلى المهمّة التي بين يديّ. بمجرد تطهيري لمنشار العظم، الذي استخدمهُ العمّ لفتح القحف، وإرجاعه إلى الرف، كان تشريح الجثّة قد اكتمل. قام العم جوناثان بخياطة الجسد، مثل خيّاط ماهر يخيط اللحم بدلاً من القماش الناعم. شاهدتُ الشق ذا شكل Y الذي فتحهُ سابقًا، يتحوّل من اللون القرمزي الغامق إلى لون الخيط الأسود. من زاوية عيني، رأيتُ توماس يرسم الجسد في حالته الأخيرة بشراسة. تباطأ قلمهُ، قبل أن يتسارع عبر الورقة. كان علي الاعتراف على مضض أن رسمه كان جيدًا حقًا. ستساعدنا التفاصيل التي التقطَها في التحقيق بعد إعادة الجثة إلى المشرحة.

«هل تعرّفتِ على المتوفّاة، أودري روز؟»

انجذب انتباهي إلى عمّي، وهو يزيل مئزره، وبصره ثابتٌ على وجهي. عضضتُ شفتي، وتمعّنتُ في وجه المرأة المشوه. كان هناك إحساسٌ مُقلق بالألفة، لكنني لم أستطع تفسيره. هززتُ رأسي ببطء، مع شعور بالهزيمة.

«لقد عملَت في منزلكِ، لفترةٍ قصيرة.»

غرس الذنب مخالبه بداخلي ـ ما زلتُ لا أعرف المرأة المسكينة. يا له من شيء بائس، عدم ملاحظة شخص ما في منزلي الخاص. لقد استحقّت

الآنسة نيكولز أفضل من ذلك، مني ومن العالم. شعرتُ باستياء شديد، بينما استدار العمّ إلى حوض الغسيل. «كنتِ مريضةً في ذلك الوقت.»

أثارَ ذلك انتباه توماس، وأخذ يقرأ جسدي بحثًا عن أيّة علامات تدل على استمرار المرض. كما لو أنه يهتمّ! ربما أقلقَتهُ هذه الأخبار لأنها قد تشكّل نوعًا من المخاطر المُحتملة عليه. احمرّ وجهي، وشغلتُ نفسي بالعيّنات.

«ما الذي تعلّمهُ أيٌّ منكما من تمريننا الصغير اليوم؟»

قاطعَ العمّ جوناثان أفكاري، وهو يفرك يديه وساعديه بقطعة من الصابون الكربوني. «أيّة نظريّات مُثيرة للاهتمام؟»

انتهزتُ الفرصة للتحدّث عن رأيي، لأننا لم نكن مُحاطين بالطلاب. كان جزء صغير مني متحمّسًا أيضًا لعرض نظرياتي أمام توماس، أردتُ أن أريه إنه ليس الوحيد الذي يحمل عقلاً مثيرًا للاهتمام. قلتُ: «كائنًا مَن كان القاتل، فلديه نوعٌ من التدريب في المجال الطبي. ربّما يكون طالبًا جنائزيًا، أو شخصًا تلقّى دروسًا في الجراحة على الأقل.» أومأ العم. «جيّد. أخبريني بالمزيد.»

دعمَتني موافقة عمي ودرتُ حول الجسد. «ربما تمّ مسكها من وجهها، ثم تلقّت ضربةً جعلتها تفقد الوعي.» فكّرتُ في الشقوق ومناطق الجسم المصابة. «أيضًا، ربما تم نقلها إلى مكان آخر. احتاج قاتلنا إلى وقت لإجراء الجراحة دون إزعاج.»

مشهد خادمتنا السابقة وهي تتعرّض للضرب، ثم تُسحب إلى قبو منسيّ أو إلى مكان آخر، رطب ومظلم، جعلَ الرعب يدبّ في أوصالي

مثل ديدانٍ في مقبرة. على الرغم من أنني لم أتذكّرها، لكن مجرد التفكير في حياتها وتواجدها وعملها في منزلي جعلني أشعر بالمسؤولية تجاهها بطريقة ما. كنتُ أرغب في مساعدتها الآن، بعد موتها، بعد خذلاني الفظيع لها في الحياة. ربما كانت لا تزال على قيد الحياة، وموظّفةً حسَنة السمعة إن كنتُ شجاعةً بما يكفي لمعارضة حاجة أبي المزمنة لتغيير العاملين كلّ بضعة أسابيع.

ارتكزت قبضتاي على خاصرتيّ. لقد رفضت، رفضتُ تمامًا أن تمرّ المعاملة القاسية للمرأة مرور الكرام. سأفعل كل ما في وسعي لحلّ هذه القضية، لأجل الآنسة نيكولز، ولأجل أيّة فتاة أو امرأة أخرى تجاهلها المجتمع ولم يسمع صوتها. كانت أمي لِتفعل الشيء نفسه. غادرَت كلّ الأفكار الأخرى عقلي، تاركةً المجال أمام الواقع المروّع الذي كنّا نتعامل معه. «لا بدّ إنه قطع حنجرتها في مكان لا تجذب الانتباه فيه كميّةً وافرة من الدماء. ربما أخذها إلى المسلخ وفعلها هناك.»

أطلقَ توماس شخيرًا من موضعه قرب الجثة، فاندفعتُ أمامه لأحملِق فيه بشكل مُباشر، مُزيلةً العلّاقات من مئزري بأكبر قدر ممكن من الغلّ، لألقي به في سلّة غسيل. كنتُ أعلم أن وجهي قد احتقن ثانيةً، لكنني أملتُ أن يسيء تفسير السبب.

«لماذا ذلك مُضحك، سيّد...؟»

تماسك ووقف قائلاً: «السيّد توماس كريسويل في خدمتك، آنسة وادزورث.» انحنى قليلاً عند الخصر بحركة مسرحيّة، قبل أن يستعيد طوله الكامل المثير للإعجاب ويبتسم. «أجدهُ مُمتعًا لأنه عمل خارق للعادة من

قاتلنا، نقلها إلى المسلخ بعد تكبّد عناء إفقادها الوعي. يبدو إلى حدٍّ ما غير ضروري.»

«عفوًا، لكنك لا...»

أغلق توماس الدفتر الذي كان يرسم فيه ومشى حول الجثة، مقاطعاً إيّاي بفظاظة. «خاصّةً عندما يكون بوسعه فعلها بسهولة عند النهر، ممّا يخفي الأدلة دون تلويث يديه، ناهيك عن...» أشارَ إلى حذائها المتّسخ «تراكم الطين على كعبيها.» عصرتُ أنفي كأنّ شيئاً أسوء من اللحم المتعفّن قد علق في الهواء. كرهتُ حقيقة فشلي في الربط بين أوساخ حذائها وضفاف النهر الموحلة، وكرهتُ أكثر أنّ ذلك لم يفُت توماس. تابع: «لم تمطر هنا منذ أسبوع تقريبًا، وهناك عدد من الزوايا المظلمة بالقرب من نهر التايمز، ملائمة تمامًا لذي مئزر جلديّ.»

«لقد ذكرتَ للتو أنه من السخف افتراض أنه قتلَها في مسلخ،» قلتُ وقد ضيّقتُ عينيّ. «الآن تدعوه بذي مئزرٍ جلديّ؟»

«كنت أقصد ذا المئزر الجلديّ. ألم تقرئي صحيفة هذا المساء؟» تفحّصني توماس، كما لو كنتُ عيّنةً قد يرغب في تشريحها. «بالتأكيد، اختيار الأحذية الحريرية المثالية ليس أكثر أهمية من العثور على قاتل مهووس بالدم. مع ذلك... انظري إلى تلك الأشياء في قدميك، كيف تلطخت بالدم والأوساخ. هل اهتمامك بالعلم مجرّد محاولة للعثور على زوج؟ هل يجب أن ألتقط معطفي، إذن؟» ارتسمَت على وجهه ابتسامةٌ خبيثة، أمام عُبوسي. «أنا متأكّد من أن عمّك لن يُمانع في إيقاف تحقيقاته ليجمع بيننا» ـ التفت إلى العمّ ـ «هلّا فعلت يا دكتور وادزورث؟ أنا أقرّ أن ابنة أخيك جميلةٌ جدًا».

أشحتُ بنظري عنه. لقد نسيتُ أخذ حذاء بزركشةٍ أقلّ خلال اندفاعي المجنون للخروج من المنزل. لا يعني ذلك إنه كان هناك خطأ في ذلك الحذاء. إذا اخترتُ أنا ارتداءه في التشريح، فهذا خياري وخياري وحدي. ربما كنت سأفعل ذلك من الآن فصاعدًا لمجرّد إزعاجه. قلتُ بعذوبة: «أنتَ تعرف الكثير عن طريقة تفكير هذا القاتل. ربما ينبغي أن نُحقق في مكان تواجدك ذلك المساء، سيّد كريسويل.»

حدّق في وجهي، مقوّسًا أحد حاجبيه الداكنين في تأمّل. ابتلعتُ ريقي بصعوبة، لكنني حافظتُ على نظرتي إليه. بعد دقيقة أومأ برأسه، كأنه قد توصّل إلى نوع من الاستنتاج عني.

«إذا كنت ستتبعينني في الليل، آنسة وادزورث...» حوّلَ انتباهه إلى قدمي «أنصحُك بارتداء حذاء أكثر منطقيّة.» فتحتُ فمي لأردّ، لكن السيد توماس كريسويل قاطعَني مرّةً أخرى، بكل غرور وحماقة. «ذو المئزر الجلديّ هو الاسم الذي يُطلقونه على قاتلنا.»

تحرّكَ حول طاولة الفحص، نحو المكان الذي وقفتُ فيه. أردتُ التراجع، لكن جاذبيته المغناطيسية منعَتني. توقّف أمامي، وسرت مسحةٌ من الرقّة عبر ملامحه لفترة وجيزة، فاشتعل قلبي بسرعة. أعانَ الربّ الفتاة التي تقع عليها تلك العيون. كان ضعفه الصبياني سلاحًا قويًا يُجرّد أسلحة المقابل، وكنتُ شاكرةً لكوني من النوع الذي لا يفقد عقله أمام وجهٍ وسيم. سَيحتاج إلى بذل مجهود أكبر لنيل إعجابي.

«للإجابة على سؤالك السابق، دكتور وادزورث،» قال وهو يرفع بصره عني، بنبرةٍ أكثر جدّية من ذي قبل، «أعتقد حقًا أن هذه ليست سوى

البداية. هذه بداية مشوار قاتل محترف. لن يرتكب شخصٌ بهذه البراعة الجراحيّة جريمة قتل واحدة ثم يتوقف.» ارتعدَت شفتاه قليلاً عندما لاحظ ملامحي المُرتابة في كلامه. «أعلم أنني لن أفعل. مذاقٌ واحد من الدم الدافئ لا يكفي أبدًا، آنسة وادزورث.»

4

رقصة مع الشيطان

مسكن آل وادزورث، ساحة بلغريف

7 سبتمبر 1888

احتلّ ذو المئزر الجلدي وقاتل وايتشابل عناوين الأخبار في الأسبوع الماضي. في كلّ مكان كانت هناك نظريّة جديدة من قبل خبير مُفترض آخر في هذا المجال. استعان مفتّشو التحقيقات بعدّة أطباء لفحص جثة الآنسة نيكولز، وجميعهم توصّلوا إلى نفس الاستنتاجات التي توصّلَ إليها العمّ جوناثان، لكن معظمهم اختلفوا مع نظريته عن تعرّضها للاعتداء وهي واقفة. لقد اتفقوا على إنّ ذبحها حدث قبل الجروح الممتدّة عبر بطنها، وإنه من غير المرجح أن يتوقف المسؤول عن ذلك الآن.

خشي سكان إيست إند من الخروج بعد غروب الشمس، خوفًا من كون أيّ شخص غامض هو القاتل الشيطانيّ. تم تبليغ البغايا بأن يكُنَّ في أقصى حالات الحذر، لكنّ حاجتهنّ إلى الدفع مقابل السكن منعَتهنّ من ترك الشوارع تمامًا.

كان والدي أسوأ من أي وقت مضى، وبدا مُختلاً في كلّ مرة غادرتُ فيها المنزل، حتى أصبح من الصعب التسلّل أو الخروج بحججٍ لا تثير شكوكه. قامَ بصرف جميع الخادمات واستأجر مجموعةً جديدة تمامًا، بدافع ارتيابه المجنون في نقلهم لعدوى لا يعلمها إلا الله إلى العائلة. لم تكن هناك جدوى من إخباره بأنّ الخدم الجُدد أكثر عرضةً لنقل عدوى، لأنهم كانوا يعيشون خارج منزلنا، في العالم المُخيف الناشر للأمراض. صرتُ أخشى أن يرافقني بنفسه إلى كل مكان، لسوء الحظ، ذلك يعني استحالة حضور فصل الطب الجنائيّ الخاص بالعمّ، برغم كوني محظوظةً لأنني ما زلتُ أستطيع الذهاب إلى المختبر.

«أعتقد تمامًا أنّ هذه ليست سوى البداية.» تكرّر تحذير السيد توماس كريسويل المشؤوم في ذهني كلّ يوم. شعرتُ بالسكون المضطرب قبل العاصفة، ووجدتُ نفسي أكثر قلقًا من المعتاد في الليل، مع إنّني قد واجهتُ صعوبة في تصديق نظريته بالكامل. مجرّد التفكير في وقوع المزيد من جرائم القتل غير وارد، فلم أسمع قطّ عن قاتل محترف مهووس من قبل. بدا أنّ توماس كان يبحث عن منفذٍ آخر لإظهار ذكائه، ولم أرغب بشيء أكثر من إثبات خطئه، كاسبةً المزيد من احترام عمّي خلال ذلك.

بين رغبتي في نيل رضى عمي وصلتي بالآنسة نيكولز، كنتُ عازمة على المساعدة في حلّ هذه القضية. حاولتُ اللجوء إلى أخي للنقاش في أفكاره حول الموضوع، لكنه كان منشغلاً بالدراسة، ولم يتوفّر له وقت فراغ، الأمر الذي فسحَ لي الكثير من الوقت للتفكير في الموت ونهاية كلّ شيء. لطالما أكّد لي ناثنيل أن ما حدث لم يكن خطأي، لكنّ ذلك لم يمنع وخزة الألم

في قلبي في كلّ مرّةٍ حدّق بي والدي فيها بذلك الخوف الشديد. من وجهة نظره، كان من واجبه حمايتي من كل شيء في العالم. لم تمُت أمّي وهي تعتني بناثنيل بعد شفائه من الحمّى القرمزية. لم يكن عليه أن يشاهد وجهها يحمرّ بذلك الطفح الرهيب، وأن يرى لسانها منتفخًا لأنّ أخي كان ضعيفًا. لم يعجز قلبها المتضرّر أصلاً بشكل كامل لأن ناثنيل جلب العدوى إلى منزلنا... بل أنا.

لم يسَعني إلا الشعور بكوني ابنة أبي القاتلة عديمة الفائدة، والتي تشبه والدتها كثيرًا ـ تذكير دائمي بكل ما فقده، وأهمّه تلك الليلة التي أخذتُ فيها أوّل أنفاسي بدون حمّى، وأخذَت فيها أمّي نفسها الأخير. كنتُ سبب جنونه المتزايد، ولم أسمح لنفسي بنسيان ذلك أبدًا. عندما أغمض عينيّ، لا أزال أرى طاقم المستشفى في ثيابهم الطويلة ومآزرهم المُنَشّاة. أرى وجوههم الجدّية تبتعد عن صرخاتي التي تصم الآذان، بينما كان قلب أمي يرسل نبضات متقطعة قبل أن يسكت إلى الأبد. ضربتُ صدرها بكلتا قبضتيّ، بينما تساقطَت دموعي على ثوبها الجميل، لكنها لم تتحرّك مرّة أخرى.

لا ينبغي لأيّة فتاة في الثانية عشر من عمرها أن تشاهد روح والدتها وهي تنجرف إلى الهاوية. تلك أوّل مرة شعرتُ فيها بالعجز. لقد خذلني الربّ. كنتُ أصلّي وأدعوهُ كما علّمَتني أمي دائمًا، لأجل ماذا؟ اختطفها الموت ببساطة في النهاية. علمتُ حينها أنني سأعتمد على شيء ملموس أكثر من الأرواح المُقدّسة. لم يتخلَّ العلم عني أبدًا مثلما فعل الدين في تلك الليلة. التخلّي عن الأب المقدّس يعتبر خطيئة، وقد فعلتُ ذلك مرارًا

وتكرارًا. في كلّ مرة التقى فيها نصلي باللحم، ازددتُ معصيةً وكنتُ أرحّب بذلك. لم يعُد الربّ يُسيطر على روحي.

هذا المساء خانَني صخب أفكاري وكان من المستحيل تهدئتها. مشيتُ ذهابًا وإيابًا بثوب نومي الخفيف، ركلتُ أغطيتي، وأخيرًا سكبتُ لنفسي كوب ماء من إبريق على منضدة بجانب سريري. «اللعنة على كل شيء.» لن يجدني النوم، ذلك ما تيقّنتُ منه. شعرتُ بحاجةٍ مُلحّة إلى الخروج والقيام بشيء ما، وربّما كنتُ بحاجة للهروب ببساطة من حدود غرفتي وكلّ الأفكار المحزنة التي حلّت مع الظلام. كل يوم يمرّ كان فشلًا في مساعدة عائلة الآنسة نيكولز على إيجاد الراحة. لقد خذلتُها بالفعل سابقًا، ولن أفشل مرّةً أخرى بهذا الشكل البائس. لممتُ قبضتيّ. يمكنني فعل الشيء الآمن والمعقول، وهو الانتظار في مختبر عمّي حتى تظهر ضحيّة أخرى، أو يمكنني أن أتصرّف الآن، هذه الليلة. يجب أن أجمع القرائن التي قد تساعدنا، وإثارة إعجاب كلّ من توماس وعمّي. كلّما فكّرتُ في الأمر، ازددتُ ثقةً في قراري.

اعتادَت أمّي أن تقول «للورود بتلاتٌ وأشواك، يا زهرتي الغامقة. لا تعتقدي بضُعف شيء ما فقط لأنه يبدو رقيقًا. أظهري للعالم شجاعتك». عانت أمي من ضُعفٍ في القلب، ومُنعَت من ممارسة الكثير من النشاطات البدنية عندما كانت طفلة، لكنها وجدت طرقًا أخرى لإثبات قوتها. لا يحتاج المرء أن يكون قويًا في الجوانب الجسدية فقط ـ بل في العقل والإرادة كذلك.

«أنتِ مُحقّة أمّي.» كنتُ أخطو في غرفتي، على طول السجّادة

الفارسية ذات اللون الذهبيّ الغامق، مستمتعةً ببرودة الخشب الصلب عندما تصل أقدامي إلى حافّة السجادة. قبل أن أدرك ما كنتُ أفعله، وجدتُ نفسي أقف أمام مرآتي، مرتديةً ملابس سوداء بالكامل. «حان وقت الشجاعة.» لففتُ شعري الداكن بجديلة بسيطة وثبّتُّه حول رأسي، قبل أن أدسّ بعض الشعرات الضالّة خلف أذنيّ. كان ثوبي بسيط التصميم، ذا أكمام طويلة ضيّقة ونسيج قطني خفيف. مرّرتُ يدي إلى أسفل من الأمام، مستمتعةً بنعومة الثوب وخياطته الدقيقة. حدّقتُ في الهالات السوداء تحت عينيّ، التي تفصح عن ليالي السهر العديدة. تباينَ بياض بشرتي الشاحبة أصلاً بشدّة مع الملابس السوداء، لذلك قمتُ بقرص خدّي، لمنحهم بعض اللون الضروري.

لم تقلق أمّي بشأن هذه الأشياء. كانت بشرتها بلون بيج ذهبيّ جميل، تُظهر انحدارها من الهند، وبشرتي مجرّد تقليدٍ شاحب لبشرتها. ذكّرتُ نفسي أنني لستُ بحاجة إلى أن أبدو على الموضة؛ فقد ذهبتُ للتجسّس، على الرغم من أنّ عمّتي ستكون سعيدة إن اهتممتُ بمظهري.

خطرَت في ذهني فكرةٌ سيّئة دون سابق إنذار. كان توماس والعمّ في الخارج مساء يوم الجريمة الأولى... كانا مهتمّين بدراسة الجسم البشري، وقد كذب توماس قطعًا بشأن ذلك. إذا اكتشفتُ أنهما يرتكبان أفعالاً مُشينة هل سيقومان بإيذائي؟ ضحكتُ وغطّيتُ فمي لكتم الصوت. يا لسخافة تلك الفكرة. لم يكن عمي قادرًا على مثل تلك الأفعال. توماس، مع ذلك... لم أستطع الجزم بشأنه، لكنني رفضتُ تتبّع مسار الفكرة.

تخيّلتُ أن القاتل طبيب يسافر إلى الخارج، أو يعمل لدى طبيب لسرقة

أعضاء للدراسة. أو ربما رجلٌ أو امرأةٌ ثرية على استعداد لدفع ثمن باهظ مقابل عملية زرع من نوع ما. رغم ذلك، لم يكن هذا العلم ناجعًا. لم يقُم أحد على الإطلاق بعمليّة زرع عضو ناجحة. في كلتا الحالتين، كنتُ أشكّ بشدة في أن ذا المئزر الجلدي كان يتسكّع، مُطاردًا نساء الليل. سأكون بخير، مُتخفّيةً تحت الظلام.

دون أن أسمح لنفسي بالتردّد للحظة، تسلّلتُ بخفّة إلى أسفل الدرج، وزحفتُ إلى غرفة الضيوف قبل أن أدخلها. نظرتُ إلى الغرفة الفارغة، وأطلقتُ تنهيدة. كل شيء كان هادئًا. مشيتُ على أطراف أصابعي، ثم فتحتُ النافذة الأبعد عن الباب. وضعتُ كلتا يديّ على الحافة السفلى للنافذة، ونظرتُ فوق كتفي، إلى القفل مرةً أخرى. كان أبي نائمًا، وليس مجنونًا كفاية للاطمئنان عليّ خلال الليل، لكنّ التفكير في إمساكه بي ضاعفَ من سرعة دقّات قلبي.

سرَت الإثارة في عروقي عندما اندفعت، قافزةً مسافة بضعة أقدام على رقعة العشب بين الحجارة. جعلَتني لحظات انعدام الوزن أشعر بالحريّة، مثل طائر يحلّق في السماء. ابتسمتُ وأنا أنفض قفازي الجلدي الناعم قبل أن أنسلّ في الظلال المحيطة بالمبنى. كان والدي ليحبسني في قبو الفحم القديم إن علم أنني قد تسلّلتُ خارجةً في وقت متأخّر جدًا، مما جعل مغامرتي الليليّة أكثر جاذبيّة. ليكتشف إنّني خرجتُ من المنزل في هذه الساعة غير اللائقة، وكنتُ قادرة تمامًا على الاعتناء بنفسي. لقد رحّبتُ بتلك الفرصة ليس فقط لاكتشاف أدلّة مفيدة لتحقيقنا، بل أيضاً لإثبات أن مخاوف أبي غير منطقية. حتى بوجود رجل مجنون طليق.

بدأت مهمّتي تفقد جاذبيّتها كلما دخلتُ وخرجت من ظلمة شوارع لندن المهجورة. لم أستطع ركوب عربة دون أن يعلم أبي بأنشطتي المُعيبة، ولم يكن التجوّل في الشوارع المرصوفة بالحجارة لمدّة ساعة جريئًا ومثيرًا كما تخيّلت. كنتُ بردانة والشوارع مليئة برائحة النفايات. شعرتُ بوخز أبر بين ألواح كتفيّ، وغمرَني شعور فظيع بأنني كنتُ تحت المراقبة. كدتُ أن أفقد الوعي عندما عبرت قطّة سخيفة طريقي. سمعتُ جلبةً أسفل الشارع فدخلتُ إلى أقرب زقاق لكي لا يراني أحد. انتشرت الأصوات مع الضباب الجاري، لتضيف إحساسًا بالأشباح إلى الشوارع المُخيفة أصلاً. حسبتُ أنفاسي في انتظار مرور الناس، وأنا أدعو ألا ينتبه أحد إلى مخبئي. دغدغَت الرياح مؤخرة رقبتي، لتنتصب شعراتها. لم أحبّ أن أكون محاصرةً بين المباني، ولم أفكر حقًا فيما سأقوله إذا واجهتُ شخصًا ما في هذه الساعة. كلّ ما فكّرتُ فيه أنني كنتُ أراقب الحانات التي زارتها الآنسة نيكولز قبل وفاتها، ربّما أتعلّم بعض الحقائق أو الأدلة الجديدة من الناس وهم في أقصى حالات الثمالة، لأتفوّق على توماس كريسويل. ربما وجبَ عليّ تجهيز نفسي بطريقة أفضل، بدلاً من أن أندفع بالرغبة في التباهي بذكائي أمام ذلك الصبيّ البغيض واللمّاح.

رفعتُ نظري عبر الضباب الخفيف عند التقاطع: هانبري. كيف وصلتُ إلى هذا الحدّ؟ كنت على وشك زيارة الأميرة أليس، لكنني ابتعدتُ قليلاً عن الطريق. يجب أن توصلني الشوارع القليلة التالية إلى وينتورث وكوميرشال. دون انتظار مرور زوج من المخمورين، قرّرتُ التسلّل كالأشباح، عائمةً بلا صوت أسفل الزقاق ثم عبر الطريق. خطت قدماي خطواتٍ ثابتة، على الرغم من أن بإمكان ريشة أن تُفقدني توازني، بقلبي الذي كان ينبض بقوّة. في

منتصف الطريق داخل الزقاق، سقطت حصاة من مكانها خلفي. استدرتُ لأرى... لا شيء. لا قاتل يحمل منجلاً أو زبون بار مخمور، فقط مساحة سوداء فارغة بين المباني. لا بدّ أنّ جرذًا قد زحف عبر القمامة.

وقفت أنتظر لبضع دقّاتٍ أخرى، وقلبي يضرب على ضلوعي مثل سمكة انتُشلَت من الماء. خشيتُ من وقوف وحش خلفي، ينفخ أنفاسه العفنة أسفل رقبتي إذا استدرت، لذلك أغمضتُ عينيّ. بطريقة ما، بدت الأمور أسهل عندما لا أستطيع الرؤية، على الرغم من أنه كان عملاً في غاية الحماقة. التظاهر بأن الوحش غير موجود لا يجعله يذهب بعيدًا، بل يجعل المرء عُرضةً لهجومه. أصغيتُ السمع، وحين انقطعَت الأصوات ابتعدتُ بسرعة، ملقيةً نظرات فوق كتفي للتأكد من كوني وحيدة. فور رؤيتي للحانة النابضة بالحياة أمامي، أخذتُ نفسًا عميقًا. فرصتي مع الأشرار المخمورين كانت أفضل بكثير من مواجهة الظلال التي تُطارد الليل.

ارتفع مبنى الطابوق ثلاثة طوابق، في مكان بارز بين شارعين، مما منح واجهتهُ شكلًا مثلثًا. انسابت الضوضاء وقعقعة الأطباق والكؤوس عبر الأبواب الأمامية، مع الضحك الماجن والكلمات التي لا ينبغي أن تسمعها أيّة سيّدة. غرستُ أسناني في شفّتي السفلى، ناظرةً إلى بعض الزبائن الأكثر شراسة. أعدتُ التفكير في خوفي السابق من الظلال. كان بعض الرجال مغطى بالسخام، بينما تناثر الدم على أطراف أكمامهم المطويّة، جزّارون وعمال مصانع. كانت أذرعهم مفتولة بمظهر الأعمال الشاقّة، وكشفت لهجاتُهم القاسية عن فقرهم، في حين برزَت عظامي الأرستقراطية الهشّة حتى في أبسط ثيابي. لعنتُ البطانة والخياطة الدقيقة ـ الظاهرة حتى في الظلام

ـ ودرستُ خيار العودة. رفضتُ أخيرًا أن أهزَم بسهولة، بسبب الخوف أو الثوب المصنوع جيّدًا. فردتُ كتفيّ، وخطيتُ خطوة واسعة نحو الحشد، قبل أن تجرّني قوة غير مرئية إلى الوراء. فتحتُ فمي لأصرخ، لكن سرعان ما أسكتتني يدٌ كبيرة غطّت النصف الأسفل من وجهي. لم تكن القبضة شديدة، لكنني لم أستطع الحصول على مجالٍ كافٍ لأعضّ مهاجمي. ركلتُ وقاومت دون جدوى. كان الشيء الوحيد الذي تمكنت من القيام به هو لف تنّورتي حول ساقيّ، والتعثّر للوراء نحو مهاجمي، مُعاونةً إيّاه في مهمّته الشريرة. كنتُ تحت رحمة ذلك الشيطان الخفي، عاجزةً عن التحرّر من قبضته الخارقة.

«رجاءً. لا تصرُخي. سوف تخرّبين كلّ شيء.» عكسَ صوته تسليةً لا تتناسب مع الوضع. على الأقل لم يكن شبحًا. صارعتُه بكل ما ملكت، أتلوّى وأضرب رأسي في صدره. لو لم يكن طويلاً ربما كنتُ سأصيب رأسه. «سنذهب إلى مكان هادئ، لنتمكّن من التحدّث. حسنًا؟» أومأتُ برأسي ببطء، مستجمعةً أفكاري المتسارعة. بطريقة ما، كان صوته مألوفًا. جذبني بلطف إلى الظل، وأجسادنا تضغط على بعضها بشكل غير لائق. على الرغم من اعتقادي أنني تعرّفتُ على صوته، إلا أنني لم أسهّل عليه عمله. كنتُ أريه كم كانت والدتي مُحقّة في أنّ للورود بتلاتٌ وأشواك. تمسّكتُ بحذائي لأركلهُ وحاولتُ خدش ذراعيه، دون نجاحٍ يُذكر. تعثّرنا في الزقاق، وأطرافنا تتشابك معًا، وأطلقَ آهةً في إثر ضربة كوعي لمعدته. جيّد، إذا متُّ الآن، على الأقل سأشعر ببعض الرضى عن إصابتي للوحش. لم يدُم انتصاري اللحظي طويلاً ـ فقد منعَت تنّورتي الثقيلة أيّة محاولات أخرى للفرار، وابتلعنا الضباب الرهيب أخيرًا.

فورَ ابتعادنا بما فيه الكفاية عن الحانة ومصابيح الغاز التي اصطفّت في الشوارع المرصوفة بالحصى، أطلق المهاجم سراحي كما وعد. خفقَ صدري بالخوف والغضب. استعددتُ للقتال، درتُ على عقبيّ، وشجّعتُ نفسي. وقف توماس كريسويل بذراعين متصالبتين على صدره، وقد أخفى عبوسٌ طفيف ملامحه الجميلة. ارتدى ملابس سوداء بالكامل مثلي، مع قبعة منخفضة على عينيه، وألقى جسده ظلالاً حادّة على الأرض في الضوء الباهت. شعرتُ بهالة خطرة حوله تحذّرني من المساس به، لكنّ الغضب غلى في عروقي. كنتُ سأقتُله.

«هل أنت مجنون إلى هذه الدرجة؟ هل كان ذلك ضروريًا؟» سألته وأنا أدفن قبضتيّ في أعلى فخذيّ لأتجنّب خنقه. «كان بإمكانكَ ببساطة الطلب مني بأن أتبعك! وماذا تعتقد نفسك فاعلاً وأنتَ تجوب الشوارع في هذه الساعة الشيطانيّة؟»

نظرَ إليّ بحذر، ثم مرّر يده على وجهه المُتعب. إن لم أكن أعرفه أكثر، لظننتُه قلقًا عليّ. «يمكنني أن أسألك نفس السؤال، يا آنسة وادزورث. لكنني أفضّل ترك ذلك المشهد لأخيك.» لم أجد وقتًا للردّ، قبل ظهور ناثنيل مثل شبح الكريسمس الماضي[1]، وبدا أقلّ انبهارًا. وقفتُ دون كلام للمرة الأولى. أومأ ناثنيل برأسه نحو توماس، ثم أمسك بي بقوّة من كوعي، وسحبَني نحو ظل عميق، بعيدًا عن مرمى السمع. تأرجحتُ وأنا أحملق فيهما، لكن انتباه توماس كان مركزًا على ذراعي التي تشبّثَ بها ناثنيل، وهو يُطبق فكّه. دفعَتني ردّة فعله لمرافقة أخي بسلام.

(1)شبح الكريسمس الماضي: شخصيّة خيالية من رواية ترنيمة كريسمس للكاتب الانكليزي الأشهر تشارلز ديكنز. (المُترجِم)

همس ناثنيل بقسوة عندما ابتعدنا بما يكفي: «أرجو أن تُعفيني من قصصكِ السخيفة يا أختي. لا أريد أن أعرف لماذا اعتقدتِ أنّ التجوّل في الشوارع المظلمة بينما يُطارد قاتلٌ النساء فكرةٌ جيّدة. هل لديك رغبة في الموت؟» تولّدَ لديّ انطباع بأن سؤالهُ بلاغيّ، وبقيتُ هادئة بفضل عَصر تنورتي بين أصابعي. ما أردتُ فعله هو دفع يده الغليظة التي تُمسك بي بقوّة. أردتُ أيضًا تأنيبهُ لأنه كان هستيرياً ومُفرطًا في الحماية مثل أبي، لكنني لم أستطع حمل نفسي على القيام بأيّ من هذه الأشياء.

أطلق ناثنيل سراحي، ثم شدّ قفازاته الجلدية الناعمة حتى عاد وجهه ببطء إلى لونه الطبيعي، بدلاً من اللون الأحمر المتوهّج لحرس الملكة. تنهّد وهو يمرّر يده من خلال شعره الفاتح. «فقدان أمّي كان سيّئًا بما فيه الكفاية.» تغيّرَ صوته لكنه سعلَ طاردًا المشاعر، وأخرجَ مشطه من تحت معطفه. «لا تتوقّعي مني أن أجلس وأتفرّج عليكِ وأنتِ تُعرّضين نفسك للخطر بتهوّر، أيتها الصغيرة.» تحدّتني عيناه على قول كلمةٍ غبيّة واحدة. «ذلك سيُحطّمني. مفهوم؟»

هدأ غضبي بنفس سرعة اتّقاد أعصابي. خلال السنوات الخمس الماضية، كنّا نحن الاثنَين بمواجهة العالم، أبي كان غارقًا جدًا في حزنه ليتواجد معنا بالفعل. وضعتُ نفسي مكان ناثنيل، وأمكنَني رؤية صدوع مشاعري المحطّمة في حال فقدتُه. «أنا آسفة لقلقك، ناثنيل. حقًا.» قصدتُ كلّ كلمة اعتذار، قبل أن تقفز فكرة في رأسي، فَضيّقتُ عينيّ. «لماذا، أريد السؤال، لماذا تتجوّل في الأزقّة الخلفيّة مع ذلك الشيطان السيّد كريسويل؟»

قال ناثنيل بغطرسة، وهو يعدّل ياقته: «إن كان يجب أن تعلمي، فَنحن لسنا

الوحيدين الموجودين هنا.» جذبَ ذلك كامل اهتمامي، رفعتُ حاجبًا، بينما تفحّصَ أخي المنطقة المهجورة من حولنا. «تقوم مجموعةٌ منا ببعض التحقيقات الخاصة. نحن منتشرون على مواضع في جميع أنحاء وايتشابل، ونبحث عن الأشخاص المشبوهين. نحن نطلق على أنفسنا اسم فرسان وايتشابل.»

حملقتُ فيه. الوحيدون الذين بدوا في غير محلّهم كانوا أخي بملبسه الفاخر ورفيقه المُضحك ذو القبعة. كان بإمكاني تخيّل أشكال بقيّة أولاد النبلاء في الحيّ. كرّرت: «فرسان وايتشابل». لم يقدر أخي على إيذاء ذبابة؛ وكرهتُ تخيّل ما قد يفعله به قاتلٌ شيطانيّ هنا في الظلام. «لا يُمكنكَ أن تكون جادًا، ناثنيل. ماذا ستفعل إذا واجهتَ القاتل وجهًا لوجه، هل ستُقدّم له مشطًا فضيًا أو ربما بعض النبيذ الفرنسي؟»

ظهرَت نظرة قاتمة على وجه أخي. «ستندهشين من أفعالي إذا دعت الحاجة.» صرّ ناثنيل على أسنانه. «سيكتشف بسرعة أنه ليس الوحيد الذي يُمكنه إثارة الخوف. الآن...» أعادَني إلى أسفل الزقاق، نحو الشخص الوحيد الذي وقف بالقرب من النهاية «سيتأكد سيّد كريسويل من وصولك إلى المنزل بأمان.» آخر شيء أردتُه هو أن يصحبني السيد توماس كريسويل إلى المنزل. كان متعجرفًا بما فيه الكفاية أصلًا.

«إذا كنتَ ستبقى هنا، فأنا كذلك.» ثبتُّ أقدامي رافضةً التزحزح، لكن ناثنيل جرّني خلفه ببساطة كما لو كنت مصنوعةً من الريش. «لا، لستِ كذلك.» سلّمني إلى زميلي في الفصل. «خُذ العربة إلى منزلي، توماس. سأعود مشيًا في وقت لاحق.» لم يبدُ على توماس انزعاج من توجيهات ناثنيل له كخادمٍ عادي. قام بلفّ أصابعه الطويلة حول ذراعي، وشدّني

إلى جانبه. كرهتُ تسارع نبضي عند لمسه، لكنني لم أعد أقاوم للتحرّر منه. سرقتُ نظرةً إليه، لألمح ابتسامة متكلّفة على وجهه. لم يُمسك بي كما لو كنتُ طفلاً جامحًا بحاجة إلى توبيخ، بل اختار بدلاً من ذلك إبقائي بعيدًا عن ناثنيل، كما لو كان هو الشخص الذي يحتاج إلى الإنقاذ. لقد حان أخيرًا وقت ملاحظة أحدهم إنني قادرة على الاعتناء بنفسي، حتى لو كان ذلك الشخص فتى يثير الغضب. فتى ذكي، مغرور ووسيم. وقفتُ باستقامة، وضحك توماس بصوت لذيذ لا أمانع سماعه مرة أخرى. رمقني أخي بنظرة أخيرة. «تأكّد من وضع عصا على حافّة نافذة غرفة الضيوف.» ابتسم أمام حملقتي العنيدة فيه. «آسف يا أختي الصغيرة، لكنني أعتقد أنّكِ نلتِ من الإثارة ما يكفي لليلة واحدة. ضعي في الحسبان نعمة إيجادك من قبلنا نحن الأثنان، وليس شخصًا أكثر شرًّا.»

قال توماس وهو يرشدني نحو العربة: «تعالي، أخوك على حق. هناك شرٌّ متربّص في هذه الظلال.» التفتّ إليه «أكثر شرًّا منك؟» فتح توماس فمه ليتكلّم قبل أن يسمع عبارتي، فَضحكَ بطريقةٍ جعلَت نبضي يتسارع ثانيةً. ربما كان هو أخطر ما يُمكن أن أواجههُ هنا، ولم يملك أخي أدنى فكرة. أخذَت حقيقة واحدة تتبلور ببطء: كنتُ في خطر الإعجاب بالسيد كريسويل، رغمًا عني. تشابكَ شعري في إثر الرياح، التي حملَت برودة داعبَت بشرتي. نظرتُ أخيرًا نحو أخي، لكنّ الضباب ابتلعهُ بالفعل.

5

أمورٌ مُظلِمة وخفّية

مسكن آل وادزورث، ساحة بلغريف

8 سبتمبر 1888

«لا تبدين على ما يرام هذا الصباح.» نظر إليّ أبي من فوق جريدته. «ربما يجب عليك العودة إلى السرير. سأرسل لكِ بعض الحساء. آخر شيء نحتاجه إصابتكِ بإنفلونزا، أو ما هو أسوء، خاصّةً مع اقتراب فصل الشتاء.» وضعَ الصحيفة جانبًا ومسح جبينه بمنديل. من بين أفراد عائلتنا، أبي لوحده مَن بدا مريضًا. كان يتصبّب عرقًا غزيرًا في الآونة الأخيرة.

«هل... هل أنت بخير أبي؟ تبدو قليلًا ـ»

قال: «كيف أبدو ليس من شأنك» قبل أن يعدّل نبرتهُ «لا داعٍ للقلق بشأن صحتي، أودري روز. اهتمّي بنفسِك. أفضّل جدًا أن لا تغادري المنزل لبعض الوقت. لقد سمعتُ أن المزيد من الأمراض تنتشر في الأحياء الفقيرة.»

بعد إضافة بضع قطرات من المُنشّط إلى الشاي، واصل قراءة الأخبار. أردتُ توضيح أنّ اكتساب مناعة لأشياء معينة سيُبقيني بصحّةٍ أفضل،

والطريقة الوحيدة لاكتساب هذه المناعة هي مغادرة المنزل، لكنه لم يُطِق أبدًا معرفتي في العلوم أو الطب. إنّ إبقائي في فقاعة يساوي الأمان بالنسبة له، بغض النظر عن مدى خطأ هذه الفكرة.

كان يرتشف من الشاي، وقد ملأ وجوده الغرفة دون أن يدفئها. انتبهتُ إلى الساعة، لقد احتجتُ إلى لقاء العمّ قريبًا. لا زال ناثنيل نائمًا، لذلك توجّبَ أن أعتمد على نفسي في مغادرة المنزل. تنحنحتُ بأدب. «أنا بحاجة إلى بعض الفساتين والأحذية الجديدة...» أنزلتُ نظري إلى أسفل واسترقتُ النظر من بين رموشي متظاهرةً بالحرج «وغيرها من الأمور الأكثر حساسيّة...»

لوّح لي أبي بالمغادرة، لم يتحمّل أفكار الكورسيهات والملابس الداخلية، على الرغم من مخاوفه من تدهور صحّتي. نظّفَ أنفه بالمنديل نفسه، ثم أعاده إلى جيبه.

قال: «افعلي ما يجب عليك فعله. لكن كوني في المنزل في موعد تناول العشاء، ودرسك في إدارة منزل مرتّب. تقول عمّتك إنك أظهرت تحسّنًا طفيفًا في المرة الأخيرة التي زارتنا فيها.»

قاومتُ رغبة تدوير عينيّ لتنبّؤي بما قاله. «نعم أبي.»

قال وهو يمسح جبينه مرة أخرى: «ارتدي قناعًا عندما تغادرين اليوم. هناك حديث عن المزيد من حالات مرض إيست إند.»

أومأت. لم يكن «القناع» أكثر من منديل قطني أشدهُ حول أنفي وفمي، شككتُ في أنه سيحميني من أي شيء. عاد إلى القراءة راضيًا عن طاعتي

له، وصوت فنجان الشاي يضرب الصحن. لم تتحدّث بعدها سوى أصوات أنفه وتقليب صفحات الجريدة.

قتلٌ مروّع في وايتشابل

قرأتُ العنوان بصوتٍ عالٍ لعمّي خلال خطوهِ أمام جرار العيّنات في مختبره في القبو. عادةً كان ورق الجدران ذو اللون البرغنديّ الغامق خلفيّةً دافئة، مقابل درجات الحرارة المتجمّدة والأجساد الباردة التي احتلّت طاولة الفحص في معظم الأيام. اليوم، برغم ذلك، ذكّرَتني الألوان الحمراء بالدم المسفوك، وقد نلتُ كفايتي من ذلك مؤخّرًا.

فركتُ يديّ على الأكمام الخفيفة لثوبي المصنوع من الموسلين وتفحّصتُ المقالة. لم يرد ذكر للجثة الجديدة التي عثروا عليها هذا الصباح؛ كانت تشرح تفاصيل وفاة الآنسة نيكولز المسكينة. لقد رحمَها القاتل، مقارنةً بالأفعال الشائنة التي ارتكبها ضد الضحية رقم اثنان. شاهدتُ العمّ يفتل شاربه بشرود، وهو يبذل قصارى جهده لحفر طريق في السجادة. خشيتُ أن تبلى ألواح الأرضية الخشبيّة قريبًا إذا استمرّ في المشي ذهابًا وإيابًا.

«لماذا وضع الجسم على هذا النحو؟»

نفس السؤال الذي طرحه على نفسه منذ وصوله من جريمة القتل الأخيرة، قبل أكثر من ساعتين. لم أملك نظريّة أعرضها عليه، بينما كنتُ أحاول فصل ذهني عن الرسم التخطيطي المروّع الذي رسمهُ على السبورة مسبقًا. انجرف انتباهي رغم إرادتي إلى الصورة المشوّهة التي ابتكرها، إلى الدماء التي لا يمكن تصوّرها كالمغناطيس.

لقد قرأتُ الكلمات المكتوبة فوق الرسم: الآنسة آني تشابمان، تبلغ من العمر سبعة وأربعين عامًا، طولها حوالي خمسة أقدام، زرقاء العينين، شعرها بنّي غامق متموّج يصل إلى الكتف. اختُزلَت حياةٌ كاملة إلى خمسة أوصاف جسديّة أساسية. لقد قُتلَت في شارع هانبري، نفس الشارع الذي وجدتُ نفسي فيه في وقتٍ متأخّر من الليلة الماضية. شقّت قشعريرةٌ طريقها عميقًا إلى عظامي، واستقرّت بين فقراتي مثل حَمامٍ جاثم على حبل غسيل.

مجرّد ساعات فصلَت بين نهايتها المُفاجئة ورقصتي مع الخطر. هل يُعقل أنني كنتُ قريبةً جدًا من القاتل؟ كان ناثنيل مُحقًا في قلقه. لقد ركضتُ إلى ذراعَي ذي المئزر الجلديّ المتلهّف للغاية، من خلال تسلّلي الطفولي في ساعة نشاطه. في حال حدوث أي شيء لي، سيفقد أبي ما تبقى من عقله، ويغلق نفسه بعيدًا في ذلك المكتب حتى يموت أخيرًا بسبب قلب مُحطّم.

«ماذا عن رمي أمعائها على كتفها؟» توقّف العمّ قبالة الرسم التخطيطي، وهو يحدّق في ما ورائها، في ذاكرةٍ لم يتمّ التقاطها على السبورة. «هل كانت رسالةً للمفتّشين، أم أسهل طريقة للحصول على العضو الذي يبحث عنه؟»

قلت: «ربّما.»

التفتَ العم إليّ مندهشًا، كأنّه نسيَ وجودي هناك، قبل أن يهزّ رأسه. «الله يعلم لماذا سمحتُ لكِ بتعلّم مثل هذه الأشياء غير اللائقة لفتاة.»

تمتم العمّ بمثل تلك المُضايقات في بعض الأحيان، وتعلّمتُ أن أتجاهلَهم في الغالب، لعلمي أنه سينسى تردّده بسرعة. «لأنّك تحبّني؟»

تنهّد عمّي. «نعم. وعقلٌ مثل عقلكِ ينبغي أن لا يضيع على الثرثرة والقيل والقال، على ما أعتقد.»

عادَ تركيزي على الرسم مرّة أخرى. كانت المرأة التي أخذَت قياساتي في وقت سابق تطابق أوصاف المرأة المتوفّاة تقريبًا. للحفاظ على مكان تواجدي المزعوم بالنسبة لأبي، توقّفتُ عند متجر خياطة وأنا في طريقي، واخترتُ أقمشةً غنيّة واكسسواراتٍ جديدة لإرسالها إلى المنزل. كنتُ قد اخترتُ فستانًا بلونٍ كحليّ غامق، مع خطوط ذهبيّة وكريميّة، بطانتهُ أصغر من باقي ثيابي، وموادهُ الثقيلة مثاليّة للطقس الأكثر برودة. ثوبي المفضّل على الإطلاق هو ثوب الشاي الذي ارتديتُه عند استقبال الزوار. كان فضفاضًا، بلون غزل البنات، مع ورود صغيرة مطرّزة على واجهته، يُكملهُ رداءٌ زهريّ ناعم يخطّ الأرض.

بصراحة، لم أستطع الانتظار حتى تجهز الثياب الجديدة، لا تعني دراستي للجثث أنني لا أقدِّر الملابس الجميلة. عادت أفكاري إلى المسألة المطروحة. لو لم يتم توظيف الخيّاطة هناك، لكان من الممكن أن ينتهي بها الأمر في الشوارع، وفي النهاية في مختبر العمّ أيضًا، جثة باردة أخرى للتقطيع.

عبرتُ الغرفة، إلى طاولة صغيرة موضوعة في الزاوية؛ حيث أحضرَت الخادمة صينيّة شاي وطبق من الكعك مع مربى التوت. صببتُ لنفسي كوبًا من شاي الإيرل غري[1]، وأضفتُ مكعبًا من السكر بملقط فضيّ مُزخرف

---

(1)إيرل غراي: هو مزيج ذو مذاق خاصّ من الشاي الأسود ونكهة زيت البرغموت. (المُترجِم)

ـ كان ذلك البذخ مقارنةً مع ضحيّتنا الجديدة مقزّزًا. أعددتُ فنجانًا ثانيًا لعمّي، وتركتُ الكعكات كما هي. أثارَ اللون القاني للفاكهة اشمئزازي ـ خشيتُ ألّا أشعر بالجوع مرة أخرى. أخرج العمّ نفسه من خياله عندما ناولتُه الكوب الساخن. حازَت الرائحة العشبية الحلوة الممزوجة بالبرغموت على انتباهه لبضع لحظات ثمينة، قبل أن يواصل الغمغمة والمشي.

«أين ذلك الفتى المُزعج؟»

قام بفحص الساعة النحاسيّة على الحائط، على هيئة قلب دقيق تشريحيًّا، والإحباط يعقد حاجبيه. كان من الصعب معرفة إن كان منزعجًا أكثر من الساعة نفسها، أم من السيد توماس كريسويل. كانت الساعة هديّة من والدي، نتيجة لطفٍ قديم أظهره لعمي عند إكمال دراسته في الطب. كان أبي يصنع الدمى والساعات قبل وفاة أمي، متعةٌ أخرى سلبَهُ إيّاها موتها. في حين أنني نبذتُ الدين لتخلّيه عني، نبذَ هو أخاهُ والعلم لفشلهما في إنقاذ أمّي. عندما ماتَت، ادّعى أبي أن العمّ لم يبذل جهدًا كافيًا لإنقاذها. على عكس ذلك، اعتقد العم أن أبي اعتمد بشكل كبير على معجزة لم يستطع تقديمها، وكان أحمقًا لإلقاء اللوم عليه في وفاة زوجته. لم أستطع تخيّل أن أكره أخي لهذه الدرجة، وشعرتُ بالشفقة على كليهما بسبب عدائيّتهما.

حوّلتُ تركيزي إلى الوقت. كان توماس قد غادر قبل أكثر من ساعة، مستفسرًا من أعضاء مجموعته المُتيقّظة. أملَ العم في كون أحدهم قد رأى شيئًا مريبًا، لأنه تمّ نشرهم ـ مثل الأولاد في لعبة فرسان العصور الوسطى ـ في جميع أنحاء وايتشابل، حتى الرابعة صباحًا. أنا شخصيًّا تساءلتُ لمَ لا

يعرف توماس بالفعل إن كانوا قد صادفوا شيئًا ما، إذ كان هذا هو الغرض المنشود من مجموعتهم الصغيرة. مرّت نصف ساعة أخرى ولم يعُد السيد كريسويل، غمر العمّ جنون الاضطراب. حتى الجثث والأشياء الميّتة المُحيطة بنا حبسَت أنفاسها، لكي لا توقظ الظلام النائم في داخله. لقد أحببتُ عمي واحترمتُه، لكن شغفه غالبًا ما تعدّى حدّ الجنون حين يصبح تحت الضغط.

بعد عشر دقائق انفتحَ الباب بِصرير، كاشفًا عن شكل توماس الطويل في الظل. قفز عمّي عبر المختبر، مع جوع مسعور للمعرفة في عينيه. أقسمُ أنني لو نظرتُ عن كثب، لرأيتُ رغوةً بيضاء تتجمّع في زوايا فمه. عندما يصبح هكذا، من السهل معرفة سبب اعتقاد البعض إنه غريب الأطوار، بما فيهم أخي.

«حسنٌ إذن؟ ما الأخبار؟ مَن يعرف ماذا؟»

قامت خادمةٌ بخلع معطف وقبعة توماس، قبل أن تختفي أعلى السلّم الضيّق. أولئك غير المهتمين بدراسة الطبّ الجنائي لا يحبّون البقاء هنا لفترة طويلة، مع الكثير من الأمور المُظلمة والبشعة، في عبوات زجاجية وعلى ألواح حجريّة. نظر توماس إلى الرسم الموجود على السبورة قبل الإجابة، متعمّدًا عدم النظر باتجاه العم. «أخشى أن أحدًا لم يرَ أو يسمع شيئًا غير عادي.»

ضيّقتُ عينيّ، لم يبدُ توماس منزعجًا جدًا ممّا قال. أضاف: «ومع ذلك، قمتُ بمرافقة المفتّشين خلال قيامهم ببعض التحرّيات، رغم تفاهتها. هاجمَني ذلك المهرّج بأسئلة تتعلّق بعملك، لكنني لم أقدّم له الكثير. قال أنه قد يتصل بك في وقت لاحق هذا المساء». هزّ رأسه. «تم رمي بعض البراغي والتروس بالقرب من الجثة، و... لقد تقدّمَ بعض الشهود.»

شهقَ العمّ بحدّة. «و؟»

«لسوء الحظ، أفضل وصف جاءنا من امرأة لم ترَ إلا رجلاً من الخلف. ذكرَت أنّ الاثنين كانا يتحدّثان، لكنها لم تستطع أن تتبيّن أكثر من موافقة المتوفّاة على شيء ما. لأنها كانت عاهرة، أنا متأكّد من إنه بإمكانكَ ملء التفاصيل الواضحة.»

«توماس!» أطلق العم نظرةً في اتجاهي؛ عندها فقط لاحظ زميلي وقوفي في الغرفة. «هناك سيّدةٌ شابة هنا.»

أدرتُ عينيّ. العمّ جوناثان يقلق من كون مفهوم الدعارة غير لائق بالنسبة لفكري الأنثوي، لكنّه لا يهتمّ مطلقًا برؤيتي لجثةٍ مفتوحة قبل تناول الغداء.

«خالص الاعتذار، آنسة وادزورث. لم أركِ هناك.» لم يكن توماس سوى كاذب قذر، أمالَ رأسه، بابتسامة خبيثة على زوايا شفتيه، كما لو كان مطّلعًا على أفكاري. «لم أقصد الإساءة بحضورك.»

«لستُ مُستاءة، سيد كريسويل.» رمقتُه بنظرةٍ حادّة. «على العكس، أنا منزعجة للغاية من كوننا نناقش مثل هذه الأشياء السخيفة عندما تُقتل امرأةٌ أخرى بهذه الوحشيّة.» عدّدتُ كلّ إصابة بأصابعي، مشدّدةً على وجهة نظري. «ممزّقة، مع أحشائها مُلقاة على الكتف. مُعلّقة من ساقيها نحو الأعلى، والرُكبتان نحو الخارج. ناهيك عن... أعضائها التناسلية المفقودة.»

«نعم،» أومأ توماس برأسه، «كان ذلك غير سارّ إلى حد ما، الآن بعد أن ذكرتِه.»

«أنتَ تتحدّث كما لو أنك شاهدتَها بنفسك، سيد كريسويل.»

«ربما فعلت.»

وبّخهُ العم: «توماس، من فضلك. لا تستثِرها.»

تحوّل انزعاجي إلى عمّي. «بالتأكيد، دعونا نستمرّ في إضاعة الوقت، في الحديث عن عدم ارتياحي المحتمل لمهنتها بين حينٍ وآخر. ما هي مشكلتكم مع البغايا على أيّة حال؟ ليس ذنبها أن المجتمع ظالم للنساء.»

تراجع العمّ جوناثان إلى الوراء، واضعًا راحة يده على جبهته، كما لو كان قادرًا على محو خطابي ببعض اللمسات المهدّئة. تجرّأ توماس على الغمز لي في أثناء تناول كوب الشاي الذي سكبهُ لنفسه.

«ممتاز.» رفع حاجبًا مبالغ فيه نحو العمّ. «السيّدة الشابة أوضحت موقفها يا دكتور. من هذه اللحظة فصاعدًا، سأتظاهر بأنها قادرة مثل الرجال.»

حملقتُ فيه بشدّة. «تتظاهر بأنني قادرة مثل الرجال؟ من فضلك سيّدي، لا تحطّ من قدري هكذا!»

«أيضًا،» تابع قبل أن أنفجر، واضعًا فنجان الشاي الخاص به على طبق ستافوردشير أزرق وأبيض مُطابق له، «نظرًا لأننا نتعامل الآن مع بعضنا البعض مثل أنداد وأقران، فأنا أصرّ على أن تناديني توماس، أو كريسويل. لا يلزم تطبيق الشكليّات السخيفة على أفرادٍ متساوين مثلنا.» ابتسم لي بطريقة يمكن اعتبارها مُغازلة.

رفعتُ ذقني، مُجاريةً له. «إن كان هذا ما تريده، إذن، أسمحُ لكَ بمناداتي أودري روز، أو وادزورث.»

حدّقَ العمّ في السقف وتنهّد، ثم قال وهو يرفع نظاراته من حقيبة جلديّة ويثبّتها على وجهه: «بالعودة إلى جريمة القتل، إذن. ما الذي حصل عليه أيّ منكما لي، عدا الوعد بصداعٍ شديد؟»

«لديّ نظريّة جديدة حول سبب كون هذا الفعل أكثر عنفًا من السابق»، قلتُ ببطء، وقد انزلقت قطعة أحجية جديدة إلى مكانها في ذهني. «خطرَ ببالي أن المشاهد ملوّثة... بالانتقام.»

لأوّل مرّة لفتُّ انتباههم ـ كما لو كنتُ جثةً لديها أسرارٌ لتُفشيها.

«خلال درسنا قلتَ إنّ القتلة لأوّل مرة يبدؤون على الأرجح بقتل مَن يعرفونهم.» أومأ العم موافقًا. «حسنًا، ماذا لو عرف القاتل الآنسة نيكولز، ولم يستطع السماح لنفسه بالوصول إلى ما كان يصبو؟ يبدو الأمر كما لو أنه يريد الانتقام، لكنه لم يستطع أن يقوم بذلك عندما حان الوقت. لم تكن الآنسة نيكولز مشوّهة بشراسة مثل الآنسة آني تشابمان، مما دفعَني إلى الاعتقاد بأن الآنسة تشابمان لم تكن معروفة لقاتلنا.»

«نظرية مثيرة للاهتمام، ابنة أخي.» مسح العمّ على شاربه بشرود. «ربما قُتلت الآنسة نيكولز على يد زوجها أو الرجل الذي كانت تعيش معه.»

تبنّى توماس عادة عمّي المفضّلة، السير في دائرة واسعة حول الغرفة. مع كل حركة قام بها، كانت رائحة الفورمالين والبرغموت تتطاير في الهواء، مما صنع رائحةً غريبة تبعث على القلق والارتياح معًا.

«مع ذلك، لماذا يأخذ أعضاءهنّ؟» تمتمَ لنفسه. راقبتُ بصمت التروس وهي تدور وتشقّ طريقها عبر متاهة دماغه. كان من الرائع دراستُه، بغضّ النظر عن مقدار ما تظاهرتُ به من كره تلك الحقيقة. كما لو أن نورًا أضاء الظلام، قام بطقطقة أصابعه. «لديه كراهيةٌ عميقة للمرأة، لما تمثّلهُ له، أو شيء من ماضيه. في مكان ما على طول الخط، قامت امرأةٌ بتخييب آماله كثيرًا.»

«لماذا يهاجم البغايا؟» سألت، مُتجاهلةً تذمّر عمي من اختيار الكلمات غير اللائقة.

«أولاً، لأنهن سهلات الحصول وفرصهنّ مُتاحة. كما إنهنّ يتبعنَ الرجال إلى الأماكن المُظلمة بلهفة.» اقترب توماس مني، وركز انتباهه عليّ للحظة خاطفة، قبل الانتقال إلى الجثة. «ربما يخشى التهديد الذي يُشكّلنه. أو ربما هو نوع من المتعصّبين الدينيّين، يقوم بتخليص العالم من البغايا والمُنحرفات.»

ضرب العم بيديه على الطاولة، مما تسبّب في انزلاق جرّة إحدى العيّنات على السطح الخشبي. «هذا يكفي! إنه من غير اللائق جدًا تعليم أودري روز مثل هذه الأشياء، ولا نحتاج إلى استخدام الألفاظ البذيئة في هذه العملية.»

تنهّدت. لم أفهم أبدًا الطريقة التي يعمل بها عقول الرجال. لم يُعيقني جنسي، ومع ذلك، فقد كنتُ محظوظةً بكون عمي منفتحًا بما يكفي للسماح لي بالتدرّب معه، لذا كنتُ أتحمّل تلك المضايقات البسيطة.

«أعتذر يا سيدي.» تنحنح توماس. «لكنني أعتقد أنه إذا تمكّنت ابنة

أخيك من تشريح الإنسان، فيُمكنها تحمّل حوارًا ذكيًا دون إغماء. قد يكون ذكاؤها مُفيدًا، على الرغم من بُعده الكبير عن سعة ذكائي.»

تنحنح توماس ثانيةً، مستعدًا لردّ فعل عمّي، لكن الأخير رضخ. لم أستطع منع نفسي من التحديق به بفم مفتوح. لقد دافع عني بالفعل، بطريقته الملتوية المزعجة. بدا أنني لستُ الوحيدة التي عاشت حالةً من الاحترام المتزايد.

«ممتاز. استمر.»

نظر إليّ توماس ثم أخذ نفسًا عميقًا.

«إنه يكره مخلوقات الليل هذه. يكرهُ أنهنّ على قيد الحياة، يبِعنَ أنفسهنّ. أراهن أنّ التي يحبّها، أو أحبّها، قد تركته. ربما يشعر بالخيانة بطريقة ما.» التقطَ توماس شايه، وأخذ رشفةً حذرة قبل وضعه مرة أخرى. «لن أتفاجأ إن كانت زوجته أو خطيبته قد انتحرَت ـ الفعل النهائي لتركه.»

أومأ العم، عائدًا بسرعة إلى عقليّته العلميّة. «كما أنه يشعر بأحقّيته في أخذ ما يريد، حرفيًا. هو في النهاية قد دفع الثمن. في رأيه، لقد أخبرَ هؤلاء النسوة بما يسعى إليه بالضبط، وبالتالي فهنّ قد شاركنَ بإرادتهنّ في...»

«جرائم القتل.» دبّ في معدتي شعورٌ بالغثيان. لقد جابَ شخص ما الشوارع، يخدع النساء ليُوافقنَ على ذبحهنّ. «هل من الممكن أن يعيش في خيال؟» سألت وأنا أفكّر بصوت عال. «ربما يحاول أن يلعب دور الربّ.»

كاد توماس أن يسقط من توقّفه الفجائي. دارَ على كعبه وعبر الغرفة بخطوات قصيرة قليلة، قبل أن يُمسك بمرفقي، ويقبّل خدّي، ما جعلَني

قرمزيةً وعاجزةً عن الكلام. تحوّل تركيزي على عمّي وأنا ألمس خدّي، لكنه لم يقُل شيئًا عن هذا السلوك غير اللائق؛ عقله كان متشبّثًا بالقاتل.

قال توماس: «أنتِ رائعة، أودري روز،» لمعت عيناه من الإعجاب، وثبّتَ نظرهُ على عينيّ للحظة أطول من أن تكون مؤدّبة. «يجب أن يكون الأمر كذلك! نحن نتعامل مع شخص يعتقد أنه إله من نوع ما.»

«أحسنتُما العمل، كلاكما.» أشرق في عيون العمّ أملٌ متجدّد ويقينٌ شبه تامّ. «لقد حصلنا على دافع محتمل.»

«وماذا هو؟» سألته. لم أفقه الدافع الذي تحدّثوا عنه بالكامل، وجدتُ صعوبة في التفكير بأيّ شيء عدا شفاه توماس على خدّي، وغرابة حديثنا الشاذّ.

تنفّسَ العمّ بعمق. «قاتلنا يستعمل آراءه الدينية لتحديد مصير هؤلاء النساء. لن أتفاجأ إن كان صليبيًا، أو ربما رجل دين فاشل، يقتل باسم الربّ.»

حطّ اكتشاف جديد بثقله على صدري. «ذلك يعني أنه قد يكون هناك المزيد من الضحايا.» والكثير من الدماء، قبل أن ينتهي هذا. تشارك العمّ نظرة قلقة مع توماس، ثم معي. لا حاجة لقول الكلمات.

سكوتلانديارد سيضحكون علينا إن ذهبنا إليهم بهذه النظرية. ومن يلومهم؟ ماذا نقول ـ «هنالك كاهن أو رجل دين مجنون طليق، يقتل لأنّ الله أمره، ولن تكون لندن آمنة حتى نجد طريقة لإيقافه؟»

كان عمّي مشهورًا، لكن الناس ما زالوا يثرثرون من وراء ظهره. لن يتطلّب

الأمر الكثير لكي يُنظَر إليه على أنه رجل يدفعهُ للقتل تقطيع الموتى مثل صيّاد الجيَف. سيرسم الناس علامة الصليب ويصلّون أن يقضي أيامه بسلام في مكان بعيد، ويفضّل أن يكون ذلك في الحبس الانفرادي. أمّا توماس وأنا فلن نكون أفضل حالًا منه في استطلاع آراء الجمهور. كان عملنا يُعتبر تدنيسًا للأموات.

قال العمّ أخيرًا، وهو يرفع نظارته ويقرص عظم أنفه: «من الضروري ألا نخبر أحدًا بهذا. لا ناثنيل، ولا الأصدقاء أو زملاء الدراسة. على الأقل حتى يمكننا إثبات أنفسنا للشرطة. في الوقت الحالي، أريدكما أن تبحثا عن الأدلّة التي جمعناها. لا بدّ أنّ دليلًا قد فاتَنا. أيّ شيء على الإطلاق يمكننا استخدامه لتحديد الجاني، قبل أن يضرب مرة أخرى.»

القاتل مجنون حقًا إن كان يعتقد أن ما يفعله صواب أو عمل صالح، كان هذا الفكر مرعبًا أكثر من أي شيء آخر. طرقةٌ على الباب الخشبيّ السميك، تبعها خادمٌ اتّجهَ بسرعةٍ إلى عمّي. «السيّد ناثنيل وادزورث في الصالون، سيّدي. يقول إنه من الضروري أن يرى أخته على الفور.»

6

وكر الخطيئة

صالون د. جوناثان وادزورث، هايغيت

8 سبتمبر 1888

كان ناثنيل شاحبًا كجثة عندما هرعتُ إلى صالون العمّ المكتظّ بالأثاث. من المفترض أن تبعث الألوان الخضراء الداكنة والدوّامات الزرقاء لورق الجدران إحساسًا بالسكينة، لكنها لم تفعل شيئًا لتهدئة أخي. تصبّبَ العرق على جبينه، مكوّنًا حلقة حول ياقة قميصه المُقوّاة. بدا شعره كحال عينيه المزري، وشوّهت الهالات السوداء الكبيرة بشرته التي لا تشوبها شائبة. لم ينَم أخي طوال الليل، على ما يبدو، لكن حالة شعره المؤسفة كانت أكثر ما أقلقني.

جمعتُ تنّورتي واصطدمتُ به في منتصف الطريق عبر الغرفة، متجاهلةً الطريقة التي حفرت بها قطع المعدن على مشدّي بشكل مؤلم في ضلوعي. غمرني في عناق قويّ بشكل غير مريح، ودسّ ذقنه في رقبتي ليتنفّس بعمق.

«أنتِ بخير،» همس كالمجنون. «الحمد لله أنّكِ بخير.»

تراجعتُ قليلاً، ونظرتُ إلى عينيه. «بالطبع أنا بخير ناثنيل. لماذا تظنّ غير ذلك؟»

«سامحيني يا أختي. علمتُ للتو بالجريمة الثانية ومكان حدوثها. كنت أعرف أن الضحيّة لم تكن أنت، لكنني لم أستطع التخلص من الشعور بالسوء الذي أمسك قلبي.» ابتلع ريقه بشدّة. «تخيّلي قلقي. ليس لديك أفضل تاريخ عندما يتعلق الأمر بالأحكام السليمة. كنت أخشى أن يتمّ استدراجك بعيدًا، في مكان مروّع. لقد كان اليوم بالفعل قاسيًا على عائلتنا. لم يسعُني إلا الخوف من الأسوأ.»

«لماذا لم تفكّر في العثور عليّ هنا في وقت مبكّر؟» سألتُه ممسكةً بآخر خيوط صبري. كم هو مُغضب الاضطرار للتعامل مع مثل هذا الشك طول الوقت. لو كنتُ رجلًا من المؤكد أن ناثنيل لن يعاملني كعاجزةٍ عن الاعتناء بنفسي. «أنتَ تعلم إنّني أقضي معظم وقتي مع عمّي. لا يُعقل أن تقوم بالركض في الشوارع بلا هدف طوال المساء، وماذا حصلَ اليوم لعائلتنا وكان رهيبًا لهذه الدرجة؟»

التوت ملامح ناثنيل بغضب. «حقًّا لمَ سأكون مرتبكًا؟ ربّما لأن أختي لا تستطيع أن تتكلّف عناء البقاء في المنزل مثل فتاة عاديّة ومحترمة!»

في البداية سرقَت كلماته أنفاسي. لماذا يجب أن أكون إمّا مُنصاعةً ومحترمة، وإمّا فضوليّةً وسيّئة؟ لقد كنتُ فتاةً محترمة، حتى لو قضيتُ وقت فراغي في القراءة عن نظريّات العلوم وتشريح الموتى. رفعتُ نفسي وأدخلتُ إصبعي في صدره. «لماذا بحقّ السماء أترك ملاحظة يمكن أن يجدها أبي؟ أنت تعرف كيف سيكون ردّ فعله عند اكتشاف أكاذيبي. هل

أصبتَ بالجنون تمامًا، أم أنّ هذه مجرّد نوبةٌ مؤقتة من فقدان العقل؟» لم أترك له فرصة للرد. «الحمد لله، يبدو أنه يؤثر على الوادزورث المولودين من الجنس المتفوّق فقط. أنوثتي الواطئة ستُنقذني من حالتكم. الآن ما هذا الهراء عن اليوم؟ هل له علاقة بأبي؟»

تلاشى قتال أخي بسرعة كما حدث. تراجعَ إلى الوراء، وفرك التوتّر من صدغيه.

«لا أعرف من أين أبدأ.» فجأةً أصبحت الأرضية تثير فضوله بشدة، فَحدّق بها رافضًا النظر في عينيّ. «أبي سيكون... بعيدًا عنا، لبضعة أسابيع.»

«هل هو بخير؟» لمستُ كوعه. «ناثنيل، من فضلك، أنظر إليّ.»

وقف ناثنيل مستقيمًا، مقابل نظراتي القلقة. «لقد زارَ مسؤول الشرطة منزلنا هذا الصباح. الآن، أودري روز، أنا على وشك إخبارك بأمر مُزعج للغاية، تماسكي.»

رفعتُ عينيّ. «أؤكد لك أنني أكثر من قادرة على سماع ما تقوله يا أخي. الشيء الوحيد الذي قد يقتلني هو التشويق غيْر المبرّر.»

شخر أحدهم من المدخل، وانتبهنا أنا وناثنيل إلى الدخيل غير المرغوب فيه، توماس. كان يغطّي فمه، لكنه لم يكلّف نفسه عناء إخفاء حقيقة ارتجافه من الضحك.

«استمر،» قال من بين نوبات الضحك. «تظاهَر إنني لستُ هنا إن كان عليك ذلك. هذا جيّد.»

«هل يجب أن تتطفّل على محادثات الآخرين؟» قلتُ بحقدٍ شعرتُه

بنفسي. «أليس لديك شيء أفضل لفعله؟ أم إنّك تتفوّق ببساطة في كونك متعجرفًا ومكروهًا في كل أحوالك؟»

لم يعيق ذلك ابتسامة توماس، لكن المتعة فارقت عينيه. رغبتُ في الزحف إلى أقرب قبر والاختباء فيه.

«توماس، أنا أعتذر. كان ذلك _ »

«طلب عمّك مني أن أتفقّد الشجار القادم من هذه الغرفة. لقد أراد التأكّد من أنكما لم تقتلا بعضكما على سجّادته المُحيطيّة المفضّلة.» سكتَ توماس، عدّلَ أكمامه، وصارت نبرته باردة وبعيدة مثل تندرا القطب الشمالي. «أؤكد لك أيتها السيّدة الصغيرة، إنني أفضّل أن تقلع أظافري من أماكنها، واحدة تلو الأخرى، في هذه اللحظة بالذات، على أن أبقى هنا، بقاءً غير مرغوب فيه، للحظة واحدة.»

تحوّلَ انتباهه إلى ناثنيل. «أخبرها عن لقاء والدك مع سكوتلانديارد هذا الصباح. أعدُك، إنها الأكثر استعدادًا لتلقّي الخبر.»

دون كلمة أخرى، أمال توماس رأسه، ثم خرج من الغرفة. من الواضح أنني آذيتُه، لكن لم أجد الوقت للتفكير في الأمر. وقفتُ في مواجهة ناثنيل. «ما علاقة هذا بأبي؟»

مشى أخي إلى المقعد وجلس. «على ما يبدو، في وقت ما، بعد الإفطار، ذهب أبي إلى وايتشابل. كان مفتشو المباحث يجوبون الحي، بعد جريمة القتل وكل ذلك، ووجدوه في... مؤسسة معيّنة لا تليق بلقبه.» ابتلع ناثنيل ريقه. «إنه محظوظ لأن الرجل الذي وجده عرف مَن هو. اصطحب مُشرف

الشرطة أبي إلى المنزل، واقترح عليه مغادرة المدينة لبضعة أسابيع، أو على الأقل حتى يُنظّم... شؤونه».

أغمضتُ عينيّ، وهربَت مخيّلتي بقفزات مذهلة. لم يكن هناك سوى عدد قليل من «المؤسسات» غير اللائقة في إيست إيند. الحانات، وبيوت الدعارة، و... أوكار الأفيون. بطريقة ما وجدتُ نفسي أنهار على الأريكة الصغيرة بجوار ناثنيل. لقد تعاطى أبي اللودانوم ـ صبغة الأفيون ـ كل يوم منذ وفاة أمّي. أكّد لنا الطبيب أنه سيشفيه من أرقه وأمراض أخرى، لكن بدا أن له تأثير معاكس. مرّت صورهُ وهو يمسح جبينه ويمشي في الصالة ليلًا، وارتيابه المتزايد في ذهني. لم أصدّق أنني لم أربط مزاجه المتوتّر وسلوكه بإساءة استخدام منشّطه الثمين. التقطتُ خيوطًا بارزة من تنّورتي. «كيف حال أبي؟»

قال ناثنيل بعدم ارتياح: «بصراحةٍ تامّة، لم يكن في حالة تسمح بمناقشة شيء عندما غادرت. المُشرف سيأخذ أبي إلى الكوخ بدلاً مني.»

أومأت. «الكوخ» عبارة عن عقار ريفيّ مترامي الأطراف في باث، يُدعى ثورنبراير. كان جميلًا وباهظًا، مثل معظم الأشياء التي ورثها اللورد وادزورث، وهو مكانٌ مثالي ليستعيد فيه المرء... عقله.

أضاف ناثنيل: «لقد كان المُشرف شديد التحفّظ والمساعدة.»

أغلقتُ فمي. ربما دفع الأب لذلك الشرطي مقابل صمته في الماضي، وكان لطفه نتيجة أمله في كسب المزيد من المال. «هل هناك أي شيء تريد مني أن أفعله؟»

هزّ ناثنيل رأسه. «المُشرف بلاكبيرن، كما أظنّ اسمه، كان يجمع حاجات الأب مع الخادم الجديد، وقال إنه يجب أن أركّز على العثور عليكِ. لقد انطلقوا منذ حوالي ساعة.»

حدّقتُ في أخي لبرهة، لقد غادر أبي بالفعل. بغض النظر عن مدى صعوبة حياته في المنزل، لم أستطع منع نفسي من القلق بعده. أخذتُ نفسًا عميقًا. كان التفكير في أشياء خارجة عن إرادتي، بوجود جرائم قتل يجب حلّها وأجسادٌ تجب دراستها، ترفًا لا يُمكنني تحمّله.

«هل ستكون بخير بدوني لبعض الوقت؟» سألت، وأنا أقف وأمسح الجزء الأمامي من صدري. «حقًا يجب أن أعود لمساعدة عمي إن لم يكن هناك شيء يمكن القيام به في المنزل.»

تحوّلَ تركيز ناثنيل نحو الباب المؤدي إلى المختبر، الله أعلم بما دارَ في عقله. وفقًا لأخي، كان العمّ «على بُعد حالة واحدة من العبور إلى الظلام» الذي أحبّ دراسته للغاية. بدلاً من إثارة جدال آخر، أمسكتُ يديه في يديّ وابتسمت. خفّ قليلًا واتّسعَت ابتسامتي. ظهر أنّ دروس العمّة أميليا حول كيفية إقناع الجنس الآخر مفيدة في النهاية. كنتُ بحاجة لتجربة تكتيكات أفضل مع توماس، لإصلاح مشاعره المجروحة.

«سأعود إلى المنزل في الوقت المناسب لتناول عشاء متأخّر. يمكننا مناقشة خطة علاج لأبي بعد ذلك.» وقفتُ إلى الخلف، وتركتُ القليل من الفكاهة تتسلّل إلى صوتي. «إلى جانب ذلك، يجب عليك حقًا معالجة مسألة شعرك يا أخي. أنتَ حُطام.»

بدا ناثنيل حائرًا بين الضحك، والمطالبة بعودتي إلى المنزل معه، والسماح لي بالحرية التي يعرف رغبتي الشديدة فيها. أخيرًا، هزّ كتفَيه. «سأرسل العربة مرة أخرى في تمام الساعة السابعة، بدون جدال. في ذهاب أبي، أنا المسؤول، حتى وصول العمّة أميليا.»

على الرغم من كل شيء، كانت هذه أخبارًا سارّة إلى حد ما. يمكنني التعامل مع العمة أميليا ودروسها في الإتيكيت. كانت صباحاتها مليئة بالزيارات إلى المتاجر، وبعد الظهر مع الشاي والقيل والقال، ثم تقاعدَت في وقت مبكّر بما فيه الكفاية، مدّعية أن جمالها بحاجة إلى راحة، لكنني كنتُ أعرف إنها استمتعت كثيرًا ببعض المشروبات الروحية قبل النوم. كانت تصول وتجول أكثر مني، فالحرّية نعمة. بطريقة ما، في خضمّ إدمان أبي، وجود قاتل محترف، نساء مشوّهات، ودلاء من الدم، تدبّرتُ ابتسامة صغيرة.

«أنتِ مسرورة بأنّ والدك سيرحل.»

لم يكن توماس يسأل، بل يخبرني كيف شعرت، بثقة أكبر من أي شخص له حقّ امتلاكها. تجاهلته، وقمتُ بقراءة الملاحظات التي خربشها عمي في كلّ مسرح جريمة. يجب أن يبرز منها شيء ما، يجب أن أعثر على ذلك الربط قبل عودة العمّ من سكوتلانديارد...

«كانت علاقتك به سيئة للغاية، ربما لبضع سنوات.» توقّفَ مؤقتًا، وانتبه إلى حيث قمتُ بتدوير خاتم والدتي. كان ماسةً على شكل كمثرى ـ حجر ولادتها ـ وإحدى ممتلكاتها القليلة التي سمح لي أبي بالاحتفاظ بها. أو، يجب أن أقول، أحد الأشياء القليلة التي أمكنه التخلّي عنها. كانَ لأبي قلبٌ عاطفيّ. خلال نموّي، تمنّيتُ دومًا أن يكون عيد ميلادي في أبريل أيضًا.

الألماس كل ما تمنّيتُ أن أكون؛ جميلة، مع قوّة لا يُمكن تصوّرها. بطريقة ما كنتُ مثل ماسة هيركايمر، مُشابهة في المظهر للشيء الحقيقي، لكنّه ليس أصليًّا بالكامل.

زحفَت ابتسامة حزينة على فم توماس. «آه، فهمت. لم تكوني على علاقة جيدة معه منذ وفاة والدتك.» تلاشت ابتسامته، وأصبح صوته هادئًا. «أخبريني، هل كان... صعبًا عليك؟ هل توسّل إلى عمّك ليعالجها بالعلم؟»

وقفتُ بسُرعةٍ أسقطَت كرسيّي على الأرض، بقعقعةٍ توقظ الموتى، لو كان هناك أيٌّ منهم في المختبر.

«لا تتحدّث عن أشياء لا تعرف عنها شيئًا!»

قمتُ بتكوير قبضتيّ لمنعهما من ضربه. سقط قناع لامبالاته، وانكشف تحته ندم صادق. بعد عدّة أنفاس، سألت بهدوء: «كيف عرفتَ هذه التفاصيل الحسّاسة في حياتي؟ هل سألتَ عمّي عن ذلك، عمدًا لإيذائي؟»

«يبدو... عليك إدراك إلى أيّ مدى...» هزّ توماس رأسه. «إيذاؤك لم يكُن هدفي. أعتذر، آنسة وادزورث. اعتقدتُ إنني ربما أستطيع...» هزّ كتفيه وسكت، وتركني أتساءل عمّا يعتقد أن بوسعه فعله عبر طرح مثل هذا الموضوع الرهيب. تنفّست بعمق، وفضولي يتغلّب على غضبي. «حسنًا. سوف أسامحك هذه المرّة»، رفعتُ اصبعًا أمام نظرة الأمل التي بانت عليه. «فقط إن أخبرتَني، بصدق، كيف عرفتَ ذلك.»

«أعتقد أنني سأتدبّر ذلك. كان الأمر سهلًا للغاية.» سحب كرسيّه حول الطاولة، إلى الحدّ الذي يعتبره المجتمع المهذّب لائقًا. «أنتِ ببساطة

بحاجة إلى صقل قدراتكِ في الاستنتاج يا وادزورث. انظري إلى ما هو واضح وانطلقي من هناك. يتجاهل معظم الناس ما هو أمام أعينهم مباشرةً. يعتقدون إنهم يرون، لكن في أغلب الأحيان لا يرون سوى ما يريدون. وهكذا بالضبط فاتكِ إدمان والدك على الأفيون لفترة طويلة.»

ربّتَ على الجزء الأمامي من سترته وجيوب سرواله، وعقد جبينه عندما لم يؤدّ بحثهُ إلى نتائج. «الأمر يتلخّص في المعادلات والصيغ الرياضية. إذا كان الدليل e والسؤال q، إذن ما يساوي a للوصول إلى الإجابة؟ ما عليكِ سوى إلقاء نظرة على ما أمامكِ وتحليله.»

رفعتُ حاجبيّ. «أتقول إنّكَ اكتشفتَ كلّ ذلك بمجرد مشاهدتي؟ معذرةً إن وجدتُ ذلك صعب التصديق للغاية. لا يمكنك تطبيق الصيغ الرياضية على الناس يا كريسويل. لا توجد معادلة للعاطفة البشريّة، هنالك الكثير من المتغيّرات.»

«صحيح. لا أملك صيغة تحلّ بعض المشاعر... المعيّنة التي أشعر بها بجوارك.»

عادت تلك الشرارة الحيّة إلى محيّاه، انحنى متراجعًا، وطوى ذراعيه عبر صدره بابتسامة عريضة على احمراري الشديد.

«ومع ذلك، عندما قال أخوك أن والدك سوف يرحل، ابتسمتِ، ثم عبستِ على الفور، ما يجعل المرء يعتقد أنّكِ تستّرتِ على سعادتك بتركك وحيدةً لبضعة أسابيع. لا تريدين أن تظهري كوحشٍ غير حسّاس، خاصّةً مع كون والدك المسكين ليس على ما يرام.»

«كيف رأيتَ ذلك؟» سألت، مضيّقةً عينيّ. «لقد غادرتَ الغرفة بالفعل وقتها.»

لم يكشف توماس عن إجابة هذا السؤال، لكن بريقًا من المتعة بدا على وجهه واختفى، لذلك علمتُ أنه سمعني، ذلك الوغد المتجسّس. تابع: «الآن، عندما ذكرتُ علاقتكِ السيّئة، اندفعَت عيناك إلى هذا الخاتم ودوّرتِه بإصبعكِ بشرود. بالحكم على طرازه وحجمه، استنتجتُ أنه ليس خاتمكِ في الأصل.»

توقّفَ مرة أخرى، وأعادَ تفقّد جيوبه. لم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا بحثَ عنه، لكن هيجانه كان يتزايد. هزّ يديه في النهاية.

«لمَن كان هذا الخاتم، قد يسأل المرء؟ بالنظر إلى طرازه القديم نوعًا ما، فليس من الصعب اعتقاد أنه يخصّ شخصًا كبيرًا بما يكفي ليكون والدتك. بما أنّكِ تتسلّلين في ساعات متأخّرة من الليل وتقضين وقتًا في هذا المختبر، التوصّل إلى استنتاج أن والدتك ليست حيّة ووالدك لا يعرف مكان وجودك لم يكن صعبًا.»

عضّ توماس شفته، وبدا حائرًا في كيفية الاستمرار. الآن فهمتُ طريقة عمل عقله، الانفصال العاطفي كان مفتاحًا يُشغّله خلال حلّ المشكلات. استعددتُ للأقوال غير السارّة ولوّحتُ له بالمتابعة. «أكمل. قُل ما عندَك.»

تفحّصَ وجهي، مُستطلعًا مدى صدقي. «أي نوع من الآباء لا يعرف مكان ابنته؟ شخص ليس لديه أفضل علاقة مع الابنة المذكورة، لأنه غالبًا غارقٌ في حزنه أو إدمانه ولا يهتمّ بها حقًا.»

انحنى توماس إلى الأمام، ولمعَت في عينيه إثارةٌ، ربّما مع بعض الإعجاب. «كيف يمكن أن تصبح شابّةٌ مثلك مهووسةً بالأمور المُخيفة؟ من كونكِ شاهدةً على فعل علميّ يائس هدفَ إلى إنقاذ روح. أتساءل أين يُمكنك فعل ذلك؟»

ألقى نظرة سريعة عمدًا في جميع أنحاء الغرفة، موضّحًا وجهة نظره. «أترين؟ كانت جميع الإجابات التي طلبتُها واضحةً للعيان. لم أكن أعرف حتى الآن أن لعمّك علاقة بموضوع والدتك...» تباطأ مدركًا أنه كان يقترب من موضوع حسّاس. «على أيّة حال. ما عليكِ سوى معرفة مكان البحث عن الأسئلة. معادلة رياضية سهلة تنطبق على الجنس البشري. وها! العلم يسود على الطبيعة مرة أخرى. لا حاجة للعواطف.»

«ما عدا أنّكَ مخطئ،» همستُ وأنا مرتبكة من مستوى دقّته. «بدون البشر والطبيعة، لا يوجد شيء اسمه العلم.»

«هذا ليس بالضبط ما أعنيه، وادزورث. ما أتحدّث عنه هو محاولة حل لغز أو جريمة. لا تلعب العواطف أي دور هناك، إنها فوضويّة وتُعقّد الأمور للغاية.» استندَ على مرفقيه، محدّقًا في عينيّ. «لكنها جيّدة في مواقف أخرى، حسب اعتقادي. على سبيل المثال، لم أتوصّل بعد إلى صيغة الحب أو الرومانسية. ربما سأتعلّمها يومًا ما في القريب.»

هتفت: «هل ستتحدّث بهذا الشكل غير اللائق لو كان عمّي حاضرًا؟»

قال: «آه، ها أنتِ ذا،» التقط دفترهُ وتجاهل سؤالي الأخير. رفعتُ كرسيّي عن الأرض قبل قراءة ملاحظات عمّي مرة أخرى، أو التظاهر بذلك على الأقل.

حدّقتُ في توماس حتى احولّت عيناي، محاولةً إجبار بعض الأدلّة على الظهور إلى السطح بشأنه أو بشأن أسرته. الشيء الوحيد الذي استطعتُ استنتاجه أنه كان جريئًا لا يخجل، بتعليقاته التي اقتربَت من عدم اللياقة.

قال دون أن يرفع رأسه من دفتر ملاحظاته: «ألم يُحالفكِ الحظ في استكشافي، إذن؟ لا تقلقي، سوف تتطوّرين بالممارسة. ونعم...» ابتسم ابتسامة عريضة، وعيناه ثابتتان على ورقته «ستظلّين مُعجبةً بي غدًا، بغضّ النظر عن مدى رغبتك خلاف ذلك. أنا شخص لا يمكن التنبّؤ بتصرّفاته وأنتِ تعشقين هذا، مثل عشقي لعجز عقلي الهائل عن إيجاد معادلة لك.»

سقطَ كلّ رد فكّرتُ فيه من أفكاري، ورفع نظره إليّ كما لو شعر بتحوّلٍ في الغرفة. إن كنتُ أتوقّع أن يشعر توماس بالخجل بسبب صراحته، فسأكون مُخطئةً تمامًا، فقد نظر إليّ بجرأة وحاجبٍ ملتوٍ. لم أكن من نوع الفتيات التي تتراجع، لذا أبقيتُ نظري معلّقًا عليه، معلنةً عن التحدي الخاص بي. يمكن أن يلعب اثنان لعبته في المُغازلة.

«هل انتهيت من لعب دور المُحقّقة، إذن؟» سأل أخيرًا، مشيرًا إلى مقطع في مجلة العمّ، مؤرّخ تقريبًا قبل أربعة أشهر من جريمة القتل الأولى. «أعتقد إنّني وجدتُ شيئًا مثيرًا جدًا.»

نملَ جلدي بسبب قُربنا، لكنني رفضتُ الابتعاد بينما كنتُ أتّكئ وأقرأ.

تعرّضت الضحية، إيما إليزابيث سميث، للاعتداء من قبل اثنين أو ربما ثلاثة مهاجمين، وفقًا لشهادتها الخاصّة، في ساعات الصباح الباكر من يوم *3* أبريل *1888*. إمّا أنها لم ترَ أو، كما تعتقد السلطات، رفضت عمدًا التعرّف

على الجاني أو الجناة المسؤولين عن الفعل المروّع الذي ارتُكبَ ضد شخصها. ثبت أن جسمًا (أدخِلَ عنوةً في جسدها) هو سبب وفاتها، بعد يوم واحد، حيث قام بتمزيق الصّفاق.

ابتلعتُ العصارة المريرة التي صعدت بسرعة في حنجرتي. كان الثالث من أبريل عيد ميلاد والدتي. كيف يمكن أن يحدث شيء مروّع إلى هذا الحد في مثل هذا اليوم المُبهج. كان الصفاق، إن خدمَتني الذاكرة بشكل صحيح، جدار البطن. لم تكن لديّ فكرة عن سبب اعتقاد توماس بأهميّة هذا، في حين أنه من الواضح فعلٌ ارتكبه وحشٌ آخر يتجوّل في شوارع لندن. لقد حدثت جريمة القتل هذه في أبريل، وكان ذو المئزر الجلدي عندنا قد بدأ جنونه للتوّ في أغسطس.

قبل أن أجلده بلساني بطريقة مناسبة، قام بالإشارة إلى الجزء الأكثر وحشيّة على الإطلاق. «نعم. لقد وجدتُ هذا مزعجًا في النظرة الأولى، كريسويل. لا داعي لإعادة النظر في الرعب مرّةً أخرى، إلا إذا كنتَ تستمدّ متعةً مريضة من مشاهدتي وأنا على وشك التقيّؤ.» لم أستطع منع السمّ من التغلغل في نبرة صوتي.

«أخرجي عواطفكِ من المعادلة، وادزورث. امتلاك قلب يتشتّت انتباهه بسبب مثل هذه الأشياء التافهة لن يُساعدكِ في هذا التحقيق.» قال توماس بهدوء، وقطعَ المسافة القصيرة التي تفصل بيننا، كما لو كان يتوق إلى لمس يديّ ثم تذكّرَ مكانه. «انظري إليها كما لو كانت مجرد قطعة أحجية ذات شكل فريد للغاية ـ وإن كان بشعًا.»

أردتُ مجادلتهُ في أن العواطف لم تكن أشياء تافهة، لكن اهتمامي كان

مستثارًا من انفصاله العاطفي أثناء التحقيقات. إذا نجحَت طريقتُه، فقد تكون مفتاحًا مفيدًا لتشغيله وإيقافه في داخلي عند الحاجة. قرأتُ الدفتر ثانيةً، هذه المرة بتركيز على التفاصيل البغيضة بوضوح. قد يكون توماس مجنونًا، لكنه كان عبقريًا مجنونًا.

ظاهريًا، لم تشبه هذه الجريمة ما حدث للآنسة نيكولز أو الآنسة تشابمان. لم يكن الجدول الزمنيّ مناسبًا. كانت المرأة لا تزال على قيد الحياة عندما تمّ اكتشافها، ولم تتمّ إزالة أي أعضاء، ولم تكن امرأة ذات شعر أسود. مع ذلك، فقد تناسبَت مع نظريّتنا عن رجل مدفوع برغبته في تخليص إيست إيند من الخطيئة. لم تكن سوى عاهرة وضيعة تنشر المرض، ولم تستحقّ العيش.

لو لم أحوّل نفسي بالفعل إلى كتلة ثابتة من الجليد، لنزلت مخالب القشعريرة الباردة في عمودي الفقري. مفتّشو المباحث كانوا مخطئين. لم تكن الآنسة نيكولز الضحيّة الأولى لقاتلنا، بل الآنسة إيما إليزابيث سميث.

7

دراسة في الأسرار

مسكن آل وادزورث، ساحة بلغريف

10 سبتمبر 1888

دفعتُ حبّات البطاطس بالأعشاب حول صحني، حتى شكّلنَ علامة استفهام في مرق اللحم.

مرّ يومان منذ ذهاب والدي إلى الريف واكتشافنا أنا وتوماس الضحيّة الأولى لقاتلنا. لم يتمّ إحراز تقدم كبير في هذه الفترة. الآن باتَت مساحة الليل، المسكونة بأشباح الأشياء التي لم أستطِع السيطرة عليها، مليئة بالأسئلة التي لم أستطع الإجابة عليها. أقسم أنني أكلتُهم على الإفطار والغداء والعشاء. كلّما أظنّ أنني قد شبعت، يتمّ تقديم مجموعة جديدة كاملة ملأى بالمزيد من الأسئلة على طبق فضيّ.

راقبَني ناثنيل عبر حافّة كأس النبيذ الخاصّ به، بتعبيرٍ مزجَ بين القلق والانزعاج. ستصل عمّتنا وابنتها في غضون أسبوع، لذا كنتُ بحاجة إلى استجماع نفسي بحلول ذلك الوقت. لم أكن رفيقة منزل ممتعة، وتبخّرَ صبر أخي بسرعة. جعلني عمي أقسم على السرّية؛ فلم أستطع مشاركة أفكاري

مع ناثنيل، حتى لو أردتُ ذلك. بالإضافة إلى أن الموضوع ليس مناسبًا لمائدة العشاء. مناقشة المبايض المفقودة، ثم المطالبة بتمرير الملح سيكون أمرًا مقززًا لأيّ شخص، ناهيك عن فتاةٍ في مكاني.

تناولتُ لقمةً صغيرة، وأرغمتُ الطعام على النزول قدر المستطاع. لقد قامت مارثا بعمل استثنائي في صنع الديك الرومي المشويّ، مع الجزر المسلوق، والبطاطس العشبية بالروزماري، لكن الرائحة العطريّة والمرق البني الداكن المُتكثّف كانا يقلبان معدتي. بعد التخلّي عن كل التظاهر بتناول الخضار، دفعتُ ديكي الروميّ حول الطبق الأبيض الناعم.

ضرب ناثنيل كأسه على المنضدة، بقوّةٍ قعقعَت كأسي. «هذا يكفي! لم تأكلي سوى بضع قضمات في اليومين الماضيين. لن أسمح لكِ بمواصلة مساعدة هذا المجنون إن كانت هذه هي النتيجة.»

حدّقتُ فيه، وقد وقفَت شوكتي على عشاء لم يؤكل. كلانا عرف إنه تهديدٌ فارغ. أبعد ناثنيل نظره أولاً، فاركًا صدغيه في دوائر. كانت بدلته على آخر موضة هذا المساء، منسوجة من أقمشة مستوردة، مصمّمة خصيصًا لبُنيتِه بشكل مثالي. دعا خادمًا إلى إحضار زجاجة من نبيذه المفضّل، تمّ صنعه في عامٍ سبقَ حتى ولادة أبي. استطعتُ الجزم، من خلال الطريقة التي مالَ بها كتفاهُ قليلاً إلى الأمام، كما لو إنّه مُتعب من حمولةٍ ما، أنّ صحة الأب السيّئة أثقلَته.

لقد كان دائمًا الشخص الأكثر حساسيّة ولُطفًا، حيث أطلقَ سراح كل حشرة وجدت طريقها إلى منزلنا، وأطعم كل حيوان متشرّد انتهى به الأمر عند عتبة بابنا طعامًا أكثر من حاجته، بينما كنتُ أتخيّل كيف ستبدو دواخل

الحيوان عند نفوقه. لقد رأى الفراشة كمادّة للجمال، تستحق أن ترفرف حول العالم، عارضةً رونقها متعدّد الألوان، بينما رأيتُ الإبرة المعدنيّة اللامعة التي تقتُ إلى وضعها في جسدها، وتثبيتها على لوح، لمزيد من الفحص العلميّ. لقد كان يعتني بوالدتنا.

«لا يمكن أن أتركك تجوعين، أختي.» دفع ناثنيل صحنه للأمام، ساكبًا لنفسه كأسًا آخر من النبيذ، من الدورق الكريستالي المملوء والموضوع أمامه. راقبتُ بمتعة، بقعًا صغيرة من اللون الأحمر تتناثر على مفرش المائدة الأبيض، مثل الدم المتناثر على الجدران بالقرب من رؤوس الضحايا. أغلقتُ عينيّ. في كل مكان نظرتُ إليه كان هناك تذكير بالأعمال الوحشية التي ارتُكِبت في وايتشابل.

ربما كنتُ منشغلةً جدًا بالموت. شككتُ بصدق في أن تفكّر ابنة عمي ليزا في تناثر الدم. من المحتمل إنها كانت ستطلب من أحد المرافقين المجيء ومعالجة البقعة قبل أن يتاح لها الوقت لتستقرّ. لقد ربّتها العمة أميليا بشكل جيد، وأملَت بلا شك في أن أصبح مثلها، مع القليل من الصقل.

أخذ ناثنيل رشفةً طويلة من شرابه، ثم وضعه برفق. نقرت أصابعه بضربات بطيئة على جذع الزجاج، وقد فكّرَ بتكتيك آخر لثنيي عن دراستي. كان هذا العرض المتعمّد لتوجيه الوالدين مملاً. مثل العلم الأبيض، رفعتُ يدي لأعلى ولوّحتُ بها، متعبةً جدًا من الجدال عندما يُصبح هكذا. إذا كان إبعاد نفسي عن مختبر عمي لبضعة أيام من شأنه أن يُرضي أخي، فليكُن. لم أكن بحاجة لإجراء بحثي من هناك. لكنّه لا يحتاج إلى معرفة ذلك.

«أنتَ على حق يا أخي العزيز. الابتعاد عن كل هذا الإزعاج هو بالضبط

ما يأمر به طبيب.» قدّمتُ له أخلص ابتسامتي، وسعدتُ برؤيته يردّ بواحدةٍ أبطأ منها. «أعدُك أن أتناول وجبة خفيفة قبل النوم في وقت لاحق.» وضعتُ منديلي على الطاولة ووقفت. «إن كنتَ لا تمانع، أعتقد أنني سأرتاح قليلًا. أنا مُرهَقة.»

نهض ناثنيل وأمال رأسه إلى الأمام. بالنسبة له، طالما كنت آكل وأنام بانتظام، فلا بد أن أكون على ما يرام، مثل الشمس في ظهيرة يوم صيفيّ. «أنا سعيد جدًا لأنك تستمعين إلى أخيك الأكبر لمرّة. القليل من الوقت والبُعد عن كل البؤس في العالم سينفعُك، أودري روز.»

«أنا متأكّدةٌ إنّكَ على حق.» أعطيتُه ابتسامةً أخرى قبل مغادرة الغرفة. أغلقَ الخدم الأبواب الخشبيّة ورائي، حابسينَ أخي وأنفسهم على الجانب الآخر. أخذتُ بعض الأنفاس، ثم نظرتُ إلى الرواق المظلم.

كان هناك سببٌ آخر لنهوضي المبكّر من العشاء. لقد احتفظَ أبي بسجلات لجميع خدَمنا، وكنت آمل أن أكتشف شيئًا مفيدًا بخصوص الآنسة ماري آن نيكولز. تسلّلتُ نحو مكتب أبي، متجنّبة بحذر كل بقعة على الأرض تُصدر صريرًا. لم أرِد أن يعلم ناثنيل أو أي من الخدم بهذا الأمر. توقّفتُ عند الباب، وحدّقتُ في المقبض المزخرف. سيقتلني أبي إذا اكتشف أني تسلّلتُ إلى مكان عمله الخاص. على الرغم من عدم ذكر ذلك صراحةً، إلا إنها كانت حقيقة معروفة، أن غرف أبي محظورة بعد وفاة أمي. كنت أشبه بظلٍّ غير مرّحب به، يتربّص حول الزوايا في منزلي.

ارتفعَ ضجيج القعقعة من الدرج الخلفي، حيث كان معظم الخدم ينظفون بقايا العشاء في الأسفل. الآن هو الوقت المثالي للتسلّل إلى غرفة

المكتب دون أن يتمّ اكتشافي. شعرتُ برغبة في فتح المقبض النحاسي والانزلاق إلى الداخل، لكنني لم أستطع حمل نفسي على القيام بذلك. ماذا لو عرفَ أنني دخلتُ هناك؟ شككتُ في نصبه لشيء معقّد، لكن ربما قام بوضع نوع من السلك المُعترض لإصدار صوت إنذار...

اتكأت على الحائط، وأنا أضحك تقريبًا. كم هذا سخيف! اعتقادي أن أبي سيفعل شيئًا كهذا، خاصةً مع دخول الخادمات المستمر للتنظيف. كنتُ كطفل أحمق، مرعوب من أشياء مجهولة مختبئة تحت سريره. أخذتُ نفسًا عميقًا، وثبّتُ قلبي. لم أدرك كيف تسارع إيقاعهُ في اللحظات القليلة الماضية. بالتأكيد إن كان بإمكاني التجوّل في الشوارع ليلاً مع طواف القاتل، يمكنني التسلّل إلى مكتب والدي في أثناء غيابه.

تصاعدَت أصوات من المطبخ، لا بدّ أنهم يقدّمون مجموعة حلوى فاخرة لناثنيل. تدفّقَ نبضي عبر عروقي. كان عليّ فعلها إمّا الآن أو أبدًا. عندما اقتربَت الأصوات، انطلقتُ وأدرتُ المقبض، وانزلقتُ إلى الداخل، لأغلِق الباب بنقرة خافتة بدت كرصاصةٍ تنزلق إلى حجرتها.

وقفتُ وظهري مضغوط بقوّة على الباب الخشبي، بينما تردّد صدى وقع الأقدام، قبل أن تختفي في الممر. كإجراء إضافيّ، أدرتُ المفتاح، حابسةً نفسي عن كلّ مَن في الخارج. كانت الغرفة مظلمة بشكل استثنائي. رمشتُ بعينيّ حتى تأقلمتُ مع السواد الذي غطى كل شيء، مثل الحبر المسكوب. كان الأب قد أغلق الستارة الخضراء الغامقة، حاجبةً برودة سبتمبر وأنوار المساء معًا، والنتيجة غرفةٌ شبيهة بسرداب في ترحيبها لي.

حتى مختبر العم بجثثه احتوى دفئًا أكثر بين جدرانه. فركتُ البرودة من

ذراعيّ بينما كنتُ أشقّ طريقي ببطء نحو المدفأة، وتنّورتي الحريريّة تنبس بهمساتٍ غادرة ورائي. أثارت رائحة خشب الصندل والسيجار شبح والدي، ولم أستطع منع نفسي من النظر فوق كتفي باستمرار لأتأكد من أنه لم يقف خلفي، في انتظار الانقضاض عليّ. أقسم أن عيونًا راقبَتني من الظلال.

قطّرَت عدّة شموع في مصابيح زجاجية دموعًا شمعية، بينما زيّنَ شمعدان ضخم رفّ المدفأة، بجوار صورة أمي. كان لدينا عددٌ قليل جدًا من الصور لها، كلّ واحدة منها كنزٌ عزيزٌ على قلبي. تفحصتُ الانحناء الرشيق لشفتيها، المائلة إلى أجمل ابتسامة. كان الأمر أشبه بالتحديق في مرآةٍ تُظهر شكلي في المستقبل؛ حتى تعبيراتنا تشابهَت. ثبتت مدالية على شكل قلب مع تروس صغيرة في يديها، وعلى إصبعها نفس الخاتم الذي لم أقلعُه. أشحتُ ببصري وعدتُ إلى هدفي.

كل ما احتاجه هو إضاءة أحد المصابيح حتى أتمكن من قراءة سجلات أبي. كنت آمل ألا يلاحظ أحد النور الطفيف القادم من تحت الباب. عندما امسكتُ قاعدة المصباح الزجاجي، ارتطم جسمٌ بالأرض. تجمّدت كل عضلة في جسدي. انتظرتُ بضع لحظات، متأكدةً من أن شخصًا ما ـ أي شخص ـ سوف يكتشفني، لكن صوت الصمت المُهيب تردّدَ حولي. أجبرتُ نفسي على العمل، وأشعلتُ المصباح. جعلتني هسهسة اللهب وهو يشتعل أحبس أنفاسي للمرّة الثانية؛ بدا كل صوت صغير كأنّه مدفع ينطلق ليعلن مكاني. أخيرًا، انحنيتُ لألتقط مفتاحًا نحاسيًا صغيرًا. يا للغرابة. لم أرغب في إضاعة اللحظات الثمينة لاكتشاف ما يفتحه ذلك المفتاح، فَسارعتُ في إرجاعه والإمساك بالمصباح مرة أخرى.

رفعتُ الضوء، وعينيّ تدور على كل شيء في الغرفة، كما لو كانت المرة الأولى والأخيرة التي أراها فيها. تقتُ إلى فهرسة كل قطعة داخل ثنايا ذهني وزيارتها متى أردت. تم تركيب صورة كبيرة ـ يُفترض لأحد أسلافنا ـ على الحائط، بين رفوف الكتب الممتدّة من الأرض إلى السقف. كان صدره منتفخًا بأهميّة الذات، وقد استقرّت قدمه على جثة دبّ ضخم قامَ بقتله. استغربتُ عدم وجوده هناك آخر مرة كنتُ هنا، على الرغم من مرور فترة طويلة. همستُ لنفسي «يا له من ساحر». أحاطَ بحرٌ من الدم بجزيرة الجثة ذات الفرو التي وقفَ عليها. التقط الفنان مكوّنًا جنونيًا في عيني سلفنا، جعل النخاع يبرد في عظامي.

قمتُ بتفقّد الغرفة مرة أخرى. كلُّ شيء مُظلِم: الخشب، البساط، والأريكة الكبيرة، بدَت بقعٌ قليلة من ورق الحائط المزركش من خلف القطع الأثرية التي تمّ جمعُها على مدى عدّة أجيال. حتى الرخام الذي تكوّن منه الموقد كان أخضر غامق مع عروق غامقة أكثر. لا عجب أن أبي لم يستطع تجاوز حزنه؛ كان الظلام رفيقه الدائم.

مشيتُ إلى مكتبه، وهو شيء هائل احتلّ معظم الغرفة، وهدّدني بشكله الضّخم. دوّرتُ عينيّ. دع الأمر لي لمنح مكتب عادي هذا القدر من الشخصية الشرّيرة. شكلُه مُهدِّدٌ بالفعل. وضعتُ المصباح، جالسةً على كرسي أبي المصنوع من الجلد الفخم، بحرص شديد على عدم تحريك أيٍّ من الأوراق المتناثرة حوله. لم أقاوم ملاحظة أن أبي قد رسم عددًا من الرسومات الميكانيكية. كانت التفاصيل التي تمكن من التقاطها باستخدام الفحم والورق فقط مذهلة. أقسم إنني سمعتُ تقريبًا صوت تحريك التروس

وشممتُ رائحة الزيت وهي تشحّم أجزائها. كان هناك تدميرٌ جميل في جميع أجزاء الصفحة.

استحوذت سفن طائرة مدجّجة ببنادق على الجوانب، ودمى مصغّرة أخرى من زمن الحرب، على كلّ بوصةٍ من الورق. من المؤسف أنه كفّ عن صُنع قطع الساعات. انطلاقًا من الصور التي رأيتُها، لم يفقد الرجل موهبته. توقّفتُ عن اجترار الأفكار، وفتحتُ كل درج من أدراج المكتب، بحثًا عن الملفات التي احتفظ بها لجميع خُدّامنا، في الماضي والحاضر. على الرغم من أن كبير الخدم الخاص بنا كان يهتمّ بالسجلات، كما هو معروف، أصرّ أبي على أن يكون لديه سجله الخاص. عندما وصلتُ إلى الدرج السفلي، اكتشفتُ أنه مقفل. انحنيتُ إليه، بدا كما لو أن أبي قد صنع آلية القفل بنفسه.

«أين يُمكنني إخفاء شيء مهم؟» نقرتُ بأصابعي على ذراعَي الكرسي، ثم تذكرتُ المفتاح الذي سقط من تحت المصباح. ركضتُ إلى الرف، وجلبتُه مسرعةً إلى مكتبه. مرّ الوقت بسرعة، شارفت الحلوى على الانتهاء، وسيبدأ الخدم في عبور الرواق قريبًا. كانت الفرصة ضئيلة في أن يعمل المفتاح، لكن وجبَت عليّ المحاولة.

قمتُ بتقريب الضوء، ودفعتُ المفتاح ببطء بأيدٍ مرتعشة في مكانه. أدرتُه إلى اليسار، حيث وجبَ أن يفتح إذا كان هو الصحيح، عندها سمعتُ نقرةً صغيرة وانفتحَ الدرج. شكرًا للسماء. عند فتح الدرج بالكامل، مررتُ أصابعي على أعلى الملفات التي تم جمعها معًا. كان هناك الكثير حتى خشيتُ أن يستغرق الأمر طيلة المساء لإيجاد ما احتجتُه. لم أستطع حتى

تذكّر عدد الخادمات اللواتي مررن بنا خلال السنوات الخمس الماضية. لحسن الحظ، قام أبي بتنظيم هذا الدرج بشكل أفضل من سطح مكتبه.

ظهرَت علامات أسماء صغيرة فوق المجلدات، مثل جزر تبرز على محيط من الحبر على الورق. مررتُ إبهامي عليها مرة، ثم أخرى، قبل أن أجد مجلد الآنسة ماري آن نيكولز. نظرتُ خلفي للتأكد من أن الباب لا يزال مغلقًا، وسحبتُ الملف، لأسرع في قراءة... لا شيء. كان هناك فقط كشف حسابها مع المدفوعات.

لم توجد معلومات عنها، لا خطاب توصية، ولا لمحة واحدة من حياتها قبل العمل لدينا. لم أصدّق أنّ العمّ قد تعرّف عليها بهذه السهولة. وفقًا لسجلات أبي، لقد عملت لدينا لمدة أسبوعين فقط. استلقيتُ على الكرسي وهززتُ رأسي.

رفعتُ ملفًا عشوائيًا، عاقدةً حاجبيّ. كان لطبّاختنا مارثا، وهي أيضًا أقدم خادمة لدينا، لكونها لا تتفاعل معنا كثيرًا ولأنّ أبي يحبّ السجق الأسود. احتوى ملفها على رسالة توصية من ربّ عملها السابق، ورسالة من سكوتلانديارد تفيد بأنها لم تخضع لتحقيق مطلقًا، مع أجورها الشهرية، والعلاوات، وأجور مجلس الإدارة، وصورة لها في ملابس الطهي النموذجية.

قمتُ بفحص المزيد من الملفات، ووجدتها جميعًا تشبه ملف الطبّاخة. بحثتُ في الدرج متّبعةً حدسي، حتى وجدتُ خادمةً أخرى تم فصلها لبقائها معنا لأكثر من شهر. بدا ملفها تمامًا مثل ملف الآنسة نيكولز، مما أكّد شكوكي في أن أبي كان يتخلّص من غالبية معلوماتهم بمجرّد توقّفهم عن

العمل. أغلقتُ المجلّدات، وبذلتُ مجهودًا كبيرًا لإعادة كل شيء إلى المكان الذي وجدتُه فيه بالضبط.

لعنتُ والدي لاحتفاظه بسجلات لا طائل من ورائها، وتمنّيت أن أضرم النار في الفوضى الورقية برمّتها. عندما أدخلتُ الملف الأخير في مكانه، لفتَ انتباهي اسمٌ مألوف. تردّدتُ لفترةٍ وجيزة قبل رفع المجلد وفتحه. لقد احتوى على قصاصة من صحيفة واحدة، وغمرَتني برودةٌ متوحّشة حيث جلست.

لماذا كان عند أبي مقال عن مقتل الآنسة إيمّا إليزابيث سميث؟

8

على وشك الموت

فندق غريت ويسترن رويال، محطة بادنغتون

11 سبتمبر 1888

كانت غرفة الشاي في فندق غريت ويسترن رويال دافئة بشكل لا يُطاق، أو ربما كان ذلك الغضب الناريّ الذي اتّقدَ بداخلي. جلستُ ويداي مطويّةٌ بأدب في حضني، صلّيتُ من أجل القوة التي أحتاجها لمنع نفسي من عبور الطاولة ولفّ أصابعي حول رقبته، بدلاً من شطائر الخيار وقطع الكعك.
«يبدو أنّك لم تنَم يا سيد كريسويل.»

«مَن قال إنني فعلت، يا آنسة وادزورث؟»

رفعتُ حواجبي. «تقوم بأمور غير قانونيّة في ساعاتٍ غير لائقة؟»

«هل سيُزعجكِ لو كنتُ كذلك؟» ابتسم توماس للنادل وانحنى، هامسًا في أذنه. أومأ النادل برأسه، ثم انطلق.

بمجرّد أن أصبحنا بمفردنا، حوّلَ تركيزه الثابت نحوي، يحسب ألف شيء في وقت واحد. رفعتُ الكوب الخزفيّ إلى شفتيّ، لتناول رشفة من

الشاي. لقد وافقتُ على مقابلته هنا فقط لاستعراض تفاصيل القضية. الآن كان يفعل ذلك الشيء المثير للغضب، حيث لا مفر من أن يحزر خططي السرّية، وسأضطر إلى قتله، أمام كل هؤلاء الشهود. يا للأسف.

«سيّدي المحترم.» عاد النادل إلى الطاولة، وقدّم لتوماس ثلاثة أشياء: منفضة سجائر فضية مملوءة بالسجائر، أعواد ثقاب أخرجها من سرواله الأسود، وزهرة أوركيد. سلّمني توماس الوردة ثم سحب سيجارةً من الصينية، سامحًا للنادل بإشعال طرفها. انتفخت سحابةٌ رمادية في الهواء بيننا، وسعلتُ عمدًا، دافعةً الدخان نحو جوانب الطاولة.

«لا أصدّق أنك ستشتري لي زهرةً جميلة فقط لتفسدها بالدخان،» قلتُ متجهّمة. «يا لها من وقاحة لا تُصدّق.»

كان التدخين أمام فتاة دون إذنها مخالفًا للأعراف الاجتماعية، لكن توماس بدا غير مهتم لهذه القاعدة ولو قليلاً. وضعتُ الوردة من يدي، مُحدّقة فيه خلال حافّة من الرموش المتفرّقة، لكنه سحب نفَسًا آخر، تاركًا الهواء السامّ يخرج ببطء، قبل صرف النادل. ذكّرني باليسروع من مغامرات أليس في بلاد العجائب، جالسًا على فطره العملاق بكسل، دون أدنى اهتمام بالعالم. فقط لو كان صغيراً بما يكفي للتهشّم تحت حذائي.

«هذه عادةٌ مثيرة للاشمئزاز.»

«وكذلك تشريح الموتى قبل الإفطار. لكني لا أستهزئ بك بسبب هذه العادة غير اللائقة. في الواقع،» انحنى أقرب، وأكملَ في همسة تآمريّة: «إنه من المحبّب رؤيتُك والأحشاء تصل إلى مرفقيكِ كلّ صباح. أيضًا، أنتِ على

الرحب والسعة بخصوص الزهرة. ضعيها على منضدة السرير وفكّري بي وأنتِ ترتدين ثياب النوم.»

أسقطتُ شطيرتي على صحني، ودفعته بعيدًا بأقصى قدر من القوّة. سحب توماس نفسًا عميقًا آخر من الدخان، مقابلًا نظراتي بوميض من التحدّي، وشيء آخر لم أستطع فهمه تمامًا.

«حسنًا إذن. أرى أنه لا يوجد شيء آخر أقوله. نهارك سعيد، سيد كريسويل.» قبل أن أقف، انطلقت يد توماس، لتمسك معصمي برفق. شهقتُ وسحبتُ يدي إلى الوراء، ناظرةً حولي. لحسن الحظ، لم يرَ أحدٌ طيشه. تخلّصتُ من محاولته الثانية للإمساك بي، على الرغم من أنني لم أمانع لمسه. «أرى أن إدمانك قد شوّش دماغك.»

«على العكس من ذلك، عزيزتي وادزورث،» قال بين نفثاته، «أجد أن النيكوتين يعطيني دفعةً إضافية من الصفاء الذهني. يجب أن تجرّبيه.»

قام بقلب الشيء الفظيع وعرضه عليّ، لكن كانت هناك حدود أضعها لنفسي فيما يتعلق بهواية التحقيق، والتدخين واحد منها. هزّ كتفيه، وعاد إلى تعاطي النيكوتين.

قال: «مثلما يناسبك. الآن، إذن، أنا قادمٌ معك.»

نظرتُ في عينيه مباشرة. لم يعُد توماس يُمطرني بلامبالاته الباردة؛ كان دافئًا مثل ظهيرة أحد أيام أغسطس، بشفتيه المرفوعتين عند الزوايا. شبّت شعلةٌ في جسدي حينَ أدركتُ أنني كنتُ أتفحّص شكل فمه، وشفته السفلى الممتلئة قليلاً والمُغرية للغاية، لفتاةٍ دون مُرافقٍ تخشاه. جمعتُ

أفكاري مثل عيّنات يلزمُها تشريحٌ أكثر. من الواضح إنني أعاني من حالة طبّية انتكاسيّة إن فكّرتُ مثل هذه الأفكار غير اللائقة حول هذا الوغد. من المحتمل أنه كان يحثّني على قُبلة.

«أنا ذاهبة إلى البيت. أنتَ بالتأكيد غير مدعوّ للقدوم.» تجرّأتُ على مُلاقاة بصره، على الرغم من هفوتي القصيرة في الحُكم. «لن يوافق ناثنيل على العثور على صبيّ في منزلنا، بغضّ النظر عن براءة وضعنا في العمل.»

«أنتِ عائدة إلى المنزل، أليس كذلك؟» هزّ رأسه، وقال: «دعينا نعد بعضنا البعض بشيء واحد.» انحنى عبر الطاولة، مادًا يده إلى يديّ، اللتين أخفيتُهما بسرعة تحت الطاولة. «أن نقول الحقيقة لبعضنا البعض دائمًا، بغضّ النظر عن قسوتها. هذا ما يفعله الشركاء يا وادزورث، إنهم لا يُزعجون أنفسهم بأكاذيب مُنافية للعقل.»

همستُ بقسوة «أستميحكَ عذرًا،» مغتاظةً من استخدامه العرضي للّقب الخاص بي بتلك الطريقة، رغم أنني أصلًا سمحتُ بذلك. «لم أكذب ـ» رفع توماس يده وهو يهزّ رأسه. «وما الذي يجعلكَ متأكدًا من حاجتي إلى شريك؟ أنا قادرة تمامًا على فعل الأشياء بمفردي.»

قال بهدوء: «ربما لستِ أنتِ مَن سيستفيد من شراكتِنا.»

كان رده مفاجئًا للغاية، حتى غطّيتُ فمي بظهر يدي ذات القفّاز. مجرّد فكرة أنه قد يحتاج إلى شخص ما، واختارني من بين جميع سكان لندن، جعلَت أفكارًا حمقاء تتراقص في رأسي قبل أن أطردها. لن أرغب في توماس كريسويل. لن أفعلها.

خرجَت مني تنهيدة عميقة وأنا أشاهده يطفئ سيجارته، «إذن يجب عليكَ شراء تذكرة. سنغادر إلى...»

سحبَ تذكرة مطويّة من سترته، بابتسامةٍ ماكرة. سقط فكّي عمليًا على الطاولة. «بحقّ الملكة! كيف عرفتَ إلى أين سنذهب؟»

طوى توماس التذكرة، وأعادها إلى مكانها الآمن، وبدا مظهره متعجرفًا أكثر من مغفل يسرق وزّة عيد الميلاد. «هذا سؤال بسيط للغاية، وادزورث. أنتِ ترتدين حذاءً جلديًا ذا رباط.»

«حقًا، بسيطٌ جدًا.» دوّرتُ عينيّ. «إن لم أقتُلك مساء هذا اليوم، فستكون تلك هديّةً مُرسَلة من الربّ نفسه، وسآخذ على نفسي حضور الصلوات مرّةً أخرى.» قلتُ مُمسكةً قلبي بيدي.

«كنت أعرف أنني سأوصلكِ إلى الكنيسة في النهاية.» مسح الجزء الأمامي من بدلته إلى أسفل. «أنا مُعجب بالسرعة التي تراجعتِ بها، رغم صعوبة مقاومتي.»

جلس مستقيمًا، مثل طاووس يتباهى بريشه الملوّن. تخيّلته ينظّف ريشاته بمنقاره، كما لو كان ذيله البهيّ بارزًا من مؤخرته. أشرتُ إليه ليواصل الكلام. «كنتَ تقول..؟»

«في يوم عادي، كنتِ سترتدين حذاءً حريريًا. الجلد هو الأنسب للمطر.» قال بنبرة الأمر الواقع. «نظرًا لأنها لم تمطر في لندن بعد، ووفقًا للصحيفة، فإنّ ريدينغ كانت تحت سكب الدلاء طيلة الصباح، لا يحتاج الأمر للكثير لاستنتاج أنك متّجهة إلى هناك.»

أردت بشدة قول شيء جارح، لكن توماس لم ينته من إثارة إعجابي بعد.

«عندما هرعتِ لأوّل مرة عبر الردهة، تحوّل انتباهكِ إلى الساعة المثبّتة على الحائط؛ لم تريني أقف بالقرب منك، في انتظارك. ما يقودني إلى الاعتقاد بأنك كُنتِ في عجلة من أمرك.» تناول رشفةً من الشاي. «بفحص سريع للوحة المغادرة لاحظتُ أن القطار التالي المتّجه إلى ريدينغ كان في الساعة الثانية عشر ظهرًا. سهلٌ للغاية، لأنه كان أيضًا القطار الوحيد المُغادر في ذلك الوقت.»

جلس إلى الوراء بابتسامة متسامحة على وجهه. «لقد دفعتُ للنادل ليحضر لي تذكرة، وركضتُ إلى طاولتنا، ثم طلبتُ الشاي قبل أن تلتحقي بي.»

أغلقتُ عينيّ. لقد كان حقًا اختبارًا هائلاً لصبري، لكنه قد يكون مفيدًا في مهمتي التالية. إن كان أي شخص قادرًا على استقراء موقف ما، فهو توماس كريسويل. أردتُ إجابات بخصوص الآنسة إيما إليزابيث سميث وارتباطها بعائلتي، ولم يكن بوسعي سوى التفكير في شخص واحد قد يعرف عنها. وقفتُ، وانضمّ إليّ توماس، متحمّسًا للانطلاق في مهمّتنا التالية.

قلت «أسرِع، إذن.» أمسكتُ بزهرة الأوركيد الخاصّة بي ووضعتُها بأمان في دفتري. «أريد أن أجلس بجوار النافذة.»

«هممم.»

«ماذا الآن؟» سألتُه بفقدان صبر.

«عادةً ما أجلس بجوار النافذة. قد تضطرّين إلى الجلوس في حضني».

في غضون عشر دقائق، كنا نقف تحت الأقواس الحديدية العملاقة التي امتدّت على طول محطة بادينغتون، مثل عظام حديديّة تحمل البدن الزجاجيّ للسقف، مظهرةً كمال صُنع الإنسان. شعرتُ بشيء مثير في الشكل الأسطواني للمحطة، وهي تعجّ بالناس والمكائن الضخمة التي تتنفّس البخار. كان قطارنا ينتظر بالفعل على القضبان، لذا صعدنا على متنه واتخذنا أماكننا، وسرعان ما انطلقنا. شاهدتُ العالم الرمادي المليء بالضباب يتلاشى، بينما كنّا نشقّ طريقنا للخروج من لندن عبر الريف الإنجليزي، واستنزفَ أفكاري ألف سؤال.

أوّلها، هل كنتُ أضيّع وقتي؟ ماذا لو لم يعرف ثورنلي شيئًا؟ ربما كان ينبغي علينا البقاء في لندن وتأمّل المزيد من ملاحظات العمّ. على الرغم من إنّ الأوان قد فات للعودة الآن. بمجرّد أن استيقظ توماس من قيلولة مضطربة، أصبح يتململ في مقعده بما يكفي لجذب انتباهي إليه. كان مثل طفل أكل الكثير من الحلوى ولا يستطيع الجلوس ساكنًا.

«ماذا تفعل بحقّ السماوات؟» همستُ وأنا ألقي نظرة خاطفة على الركاب من حولنا، الذين كانوا يرمقون توماس بنظرات قذرة. «لماذا لا يُمكنك التصرّف بعقل لساعة واحدة؟»

قام بوضع ساقيه الطويلتين على بعض ثم تراجع، قبل أن يفعل نفس الشيء بذراعيه. بدأتُ أفكر أنه لم يسمعني عندما تكلّم أخيرًا. «هل ستُفصحين إلى أين نحن ذاهبان بالضبط؟ أم إنّ التشويق جزءٌ من المفاجأة؟»

«ألا يُمكنك استنتاج ذلك يا كريسويل؟»

«أنا لست ساحرًا يا وادزورث. يمكنني الاستنتاج عندما تُقدَّم الحقائق لي - ليس عندما يتمّ حجبها عن قصد.»

لقد ضاقت عيني. على الرغم من وجود آلاف الأشياء الأخرى التي وجب أن أهتمّ بها، لم أستطع منع نفسي من سؤاله. «هل تشعر بالمرض؟» تحوّل انتباهه إلي قبل أن يعود إلى النافذة. «هل تعاني من رهاب الأماكن الضيّقة، أو رهاب الخلاء؟»

«أجد السفر مملاً للغاية.» تنهّد. «لحظةٌ أخرى من المحادثات التافهة للأشخاص الذين خلفنا أو من صوت صرير المحرك قد تفقدني صوابي تمامًا.»

صمتَ توماس مرة أخرى، مؤكّدًا وجهة نظره حول المحادثات المزعجة والصوت الهادر للقطار.

تمتم: «ربما كان هذا هو دافع قاتلنا للقتل.»

وضعتُ رأسي على المقعد واسترقتُ السمع. وفقًا للمجتمع، كان هذا بالضبط ما يفترض أن تهتم به الشابات. أحذية، حرير، حفلات عشاء، ومَن الدوق أو اللورد الأكثر وسامةً في المملكة. كيف يمكن للمرء أن يضمن دعوة إلى حفلة أو جلسة شاي مهمة. مَن كان مقرّبًا إلى الملكة ومن لم يكن. من كان مسنًّا وكريه الرائحة لكنه يستحقّ الزواج على أية حال. اختلفت همومي اليومية تمامًا عن هذه، حتى خشيتُ أن أتعرّض دائمًا للنبذ بين أقراني. مع تمتّعي بالزينة، حاولتُ تخيّل نفسي أثرثر عن تصميم منديل، لكن أفكاري قفزت إلى أجساد المتوفّين، وضحكتُ على فشلي في تصوّر نفسي ما يعتبرونها سيّدةً شابّة طبيعيّة.

كنتُ مصمّمة على أن أكون جميلةً وشرسة، كما قالت والدتي. مجرّد اهتمامي بعمل الرجال لا يعني أنني يجب أن أتخلّى عن أنوثتي. من حدّد هذه الأدوار على أية حال؟

«حقًا، توماس،» قلتُ محاولةً احتواء ضحكتي. «لا يحتاج الناس إلى النقاش ببلاغة من أجل أن يُصبحوا ممتعين. ألا يوجد شيء تحبّه خارج المختبر؟»

بدا توماس غير مستمتع. «لستِ ملكة الحوار المُثير للعقل هذا المساء.»

«تشعر بالإهمال، أليس كذلك؟»

«ربما.»

قلت: «نحن ذاهبان لمقابلة خادم والدي السابق، أيها الشيء الذي لا يُحتمل. لدي سببٌ للاعتقاد بأنه قد يملك معلومات بشأن إحدى ضحايانا. ارتحت؟»

توقفت ساق توماس عن الحركة واستدار ليُواجهني. لقد كرهتُ صدقًا فحصه لي بذلك الوضوح، كما لو كنتُ معادلة رياضيّة معقّدة عليه حلّها. قام بنقر ساقه بشرود، تاركًا لي استنتاج أنّ دماغه عملَ بشراسة. أطلقَت صافرة القطار تحذيرًا مليئًا بالبخار بأنّ محطة ريدينغ اقتربت، في نفس الوقت الذي هطلت فيه الأمطار على نوافذنا.

ابتسم لنفسه. «يبدو أن هذا المساء أصبح أكثر إثارةً للاهتمام.»

صدمَت حوافر الخيول الحجارة الرطبة لشارع برود، بينما تحرّكت عربتنا

المستأجرة أعلى التل، إلى مسكن آلدوس ثورنلي. تقلّبَت معدتي مع كل اهتزاز، وخشيتُ أن أفقد غدائي على الحصى المبلّل بالمطر. سحبتُ الستارة الكحليّة للخلف، وركّزت على مُحيطنا بدلاً من الغثيان المتزايد. كانت البلدة تعجّ بِباعة البضائع، على الرغم من سوء الأحوال الجوية. حمَت المظلّات الباعة من المطر؛ وشاهدتُ امرأة تجادل رجلًا على سلّة بذور كانت تبيعها.

أشار توماس إلى مبنى كبير على يميننا، وهو يتّكئ عمدًا على كتفي، وأنفاسه تدغدغ طوق الدانتيل العالي الذي غطّى رقبتي. «ريدنغ، تشتهر بالأعمال الثلاثة: مصانع الجعة واللمبات والبسكويت. هذا هو مصنع هنتلي وبالمرز.»

قلت: «بسكويتهم هو المفضّل لديّ مع الشاي.» على الرغم من أنني لم أستوعب الكثير مما قاله توماس فيما يتعلق بتاريخ شركتهم. لويتُ يديّ حتى انقطع زرٌّ من قفّازي، ثم توقفت.

إذا لاحظ توماس ذلك ـ وهو ما فعله على الأرجح ـ فهو لم يُعلّق على توتّري. كنتُ ممتنةً لأنه لم يطلب مني أن أشرح المزيد عن رحلتنا، وأكثر امتنانًا لمحاولته تشتيت انتباهي، من خلال الإشارة إلى كلّ مصنع مَررنا به. قام مبنى عملاق آخر بنفث الدخان في السماء المُمطرة، مثل رجل ينفث سيجارًا في الجوّ.

كنتُ متأكدةً أن المجيء إلى هنا هذا الصباح هو أفضل مسار للعمل؛ الآن، تفتّحَت براعم الشكّ الصغيرة في ذهني. كل قطرة ماء اصطدمت بأعلى عربتنا تردّد صداها بصوت عالٍ في أذني، مما جعل أعصابي على حافة الهاوية.

قلتُ: «ربما عملَت الآنسة إيمّا إليزابيث لمنزلي قبل أن تهوي إلى الفقر المُدقع. ربّما إلى هنا تنتهي علاقتها بوالدي.»

قال توماس: «ربّما. من الأفضل معرفة ذلك بالتأكيد.»

مضغتُ شفتي السفلى، وكرهتُ نفسي لقلقي الشديد. هل قلقتُ في الغالب من كوني مخطئة، أم من كوني مخطئة بشكل مروّع أمام توماس؟ أزعجَني النصف الأخير من هذا السؤال. منذ متى أصبح رأيه في ذكائي مهمًا جدًا؟ بالكاد استطعتُ تحمّله أصلًا. فكرته عني يجب أن لا تعني شيئًا على الإطلاق. لكنها كانت مهمّة، أكثر مما وددتُ الاعتراف به.

ثمّ كان هناك السؤال الأكثر قتامة، والذي لم أرغب في التفكير به مطلقًا. ما الذي ربطَ والدي بهاتين المرأتين المقتولتين؟ لم يسَعني إلا أن أخشى كون الاحتمالات التي أشارَت لهذا مجرّد مصادفات عجيبة. لكن كيفية توافق كل الأشياء معًا ظلّت لغزًا.

قلت: «حسنًا، إن كان أيّ شخص في منزلنا يعرف تفاصيل خاصّة عن حياة والدي قبل وفاة والدتي، فهو السيد ثورنلي.»

كان يُحضّر ملابس والدي في كل مناسبة، ويعرف متى وأين وُجِد في جميع الأوقات. ربما عرفَ والدي مثلما عرفتهُ أمّي، أو أكثر منها. لو لم يكن قد تقدّمَ في السن لأداء واجباته، فأنا متأكدة من بقائه في نفس مكانه، إلى جانب أبي.

«كل شيء سيكون على ما يرام يا وادزورث. إمّا أن تكون لدينا إجابات أو لا. لكنّنا على الأقل خرجنا وحاولنا.»

أضاء وميض من البرق السماء المظلمة، كما لو إنّ العمالقة يتصارعون في السماء. تبعه رعدٌ، ذكّرَني بوالديّ. عندما كنتُ أصغر سنّاً وأخاف من العواصف التي تهبّ في لندن، كنتُ ألتفّ في حضن أمي، بينما يخبرني أبي أن الرعد هو صوت الملائكة عندما يلعبون لعبة البولنغ الخشبيّ. كانت والدتي تنادي الطبّاخة، لتجلب لنا بعض الكاري والخبز المسطح الذي يذكّرنا بوطن الجدّة، ثم تملأ رأسي بقصص البطلات من أماكن بعيدة جدًا. منذ ذلك الحين، استمتعتُ بالعواصف الرعديّة.

سرعان ما انتهت رحلة العربة، لحسن حظّي. حشرنا أنفسنا تحت مظلّة، في مدخل منزل حجريّ صغير، محصور بجانب عشرين منزلاً مماثلاً آخر أشبه بحظائر الأبقار. طرق توماس الباب ثم تراجع، سامحًا لي بتحيّة خادم أبي السابق أوّلاً. فُتح الباب بصرير عال ـ مفصلاته بحاجة ماسّة إلى تزييت ـ وانبعثَت بكسل رائحة سلق الخضروات الكريهة إلى الخارج. كنتُ أتوقّع رؤية التجاعيد المألوفة حول العيون الطيّبة والشعر الأبيض الثلجيّ. لم أتوقّع مقابلة امرأة شابة، لها طفل حملتهُ على وركها، بدت أقل من سعيدة بزيارتنا المسائية غير المُعلن عنها. كان شعرها الأصهب مشدود في جديلة ملفوفة حول مؤخرة رقبتها، وملابسها بالية مع بقعٍ على مرفقيها. نزلَت شعراتٌ طائشة حول وجهها لتنفخها بعيدًا، فَلم يحالفها الحظّ في إبعادها عن عينيها.

تنحنح توماس بهدوء، ليحثّني على التكلّم.

«أنا... عفوًا. أنا، كنتُ أبحث عن شخص ما،» تلعثمت، وألقيتُ نظرة خاطفة على الرقم 23 على الباب. «يبدو أنني أخطأتُ في العنوان.» كان هناك أمرٌ

مخيف في الطريقة التي وقفَت بها هناك وهي تحدّق، لكننا قطعنا كل ذلك الطريق، ولم أكن سأسمح لشخص بمزاجٍ متعكّر أن يتغلّب عليّ. مرّت نظراتها ببطء على توماس، مرّتين. ذكّرتني بشخصٍ يُغريه منظر شريحة لحم طريّة، ولم أهتم بذلك ولو قليلاً. تنحنحتُ مع اندفاع وميض آخر من البرق عبر السماء. «لن تعرفي أين يمكنني إيجاد السيّد ثورنلي، أليس كذلك؟»

اختار الطفل تلك اللحظة لبدء بكائه، وحملقَت بي الشابة كما لو كنتُ أنا مَن أخرجَ شيطانه، وليس الرعد الهادر. قامت بتهدئة الشيطان الصاخب على وركها، وهي تربّت على ظهره برفق. «إنه ميّت.»

لو لم يمسك توماس بذراعي لإسنادي، فربما كنتُ قد سقطتُ للخلف. «إنه... لكن... متى؟»

اعترفَت: «حسنًا، إنه لم يمُت بالكامل بعد. لكن لم يبقَ أمامه الكثير في هذا العالم. إذا نجح في عبور الليلة فسوف تكون تلك معجزة.» هزّت رأسها. «المسكين، لا يبدو بنفس شكله الآن. من الأفضل أن تحتفظي بذكرى غير مشوّهة عنه، وإلا ستواجهين كوابيسًا لسنواتٍ قادمة.»

أراد الجزء المتعاطف مني قول كلمات لطيفة لوفاة خادمنا السابق الوشيكة، لكن هذه كانت فرصتنا الوحيدة لمعرفة مكان وجود والدي في أثناء جرائم القتل وعلاقته المحتملة بالآنسة إيما إليزابيث سميث. شددتُ قامتي، متخيّلةً أن عروق جسدي ليست أكثر من أسلاك فولاذية، باردة وعديمة الإحساس. حان الوقت الآن لإيجاد المفتاح العلميّ الذي اعتمد عليه توماس. «يجب أن أراهُ حقًا. الأمر في بالغ الأهمّية. لن تحرميني من وداع صديق عزيز ـ لا سيّما وهو يقاسي آلام الموت، أليس كذلك؟»

حدّقت الشابة بفم مفتوح قبل أن تغلق فكّها. فتحت الباب بفخذها الحرّ، مُشيرةً إلينا بالدخول بنفاد صبر. حرّكت ذقنها نحو حاملةٍ في الزاوية قائلةً: «ضعي مظلّتكِ هناك وحضّري نفسكِ إذن. إنه في الطابق العلوي، الباب الأول على اليمين.»

«شكرًا جزيلاً.» عبرتُ الردهة الصغيرة مع توماس في أعقابي، متوجهةً لصعود السلّم البالي بأسرع ما يمكن. لاحقَتنا رائحة الملفوف المسلوق خلال صعودنا، مما زاد من الشعور بالضيق في معدتي. عندما وصلتُ إلى أعلى درجة، هتفَت المرأة بنبرة ساخرة: «ستُرافقكِ الكوابيس الليلة. كل الملّاءات الفاخرة في العالم لن تُحدث فرقًا. لا تقولي إنني لم أحذّركِ يا سيّدتي.»

هذه المرّة، عندما سمعتُ صوت الرعد ارتجفت.

9

رسالة من القبر

مسكن ثورنلي، ريدنغ

11 سبتمبر 1888

امتدّت ستائر الشاش ـ التي ربما كانت بيضاء في يوم ما ـ نحونا، كأذرُعٍ مُتحلّلة تحاول التحرّر بيأس.

لو أُجبِرتُ على البقاء في هذه الغرفة التي تشبه القبر لفترة طويلة، فأنا متأكدة من أنني سأصبح يائسةً مثلها. تناثرت قطرات المطر على العتبة، لكنني لم أجرؤ على إغلاق النافذة. أظهر سريرٌ صغير من الحديد المطاوع بفراشٍ مخطط هيكلاً لجسم بالكاد بدا على قيد الحياة. لقد ذاب ثورنلي المسكين، ولم يعد أكثر من كومة جلد رماديّ مشدود على عظام هشّة. كانت القروح المفتوحة على جذعه وذراعيه تنضح بمزيج من الدم والقيح يفوح منه رائحة اللحم النتن، وصلَت حتى المدخل. من الصعب الجزم، لكنه بدا مصابًا بنوع من أنواع الجذام.

غطّيتُ أنفي بظهر يدي، ولمحتُ توماس يفعل الشيء نفسه من زاوية

عيني. كانت الرائحة غامرة، والمشهد أمامنا أسوء شيء رأيتُه على الإطلاق، برغم مشاهدتي للدواخل الفاسدة للموتى في مناسباتٍ لا حصر لها، خلال جلسات تشريح العمّ. أغمضتُ عينيّ، لكن الصورة العفنة انطبعَت على ظهر جفوني. كنتُ سأظنّه قد مات منذ فترة طويلة، لكن الارتفاع والانخفاض الطفيف في صدره نفى ما أخبرَتني به عيناي. لو آمنتُ بالخرافات، لاعتقدتهُ واحدًا من الموتى الأحياء الذين يجوبون المستنقعات الإنجليزية، ويبحثون عن أرواح لسرقتها، أو ربما لالتهامها.

اهتممتُ طوال حياتي بدراسة التشوّهات البيولوجية، مثل رجل الفيل، العملقة، التوائم المتلاصقة، وانعدام الأصابع، لكن هذا بدا فعلاً قاسياً من الربّ. كانت الشابة على حق. هذا هو المكان الذي تستوحي منه الكوابيس الإلهام.

استنشقت الستائر أنفاسًا رطبة، ثم زفرت ببطء ـ حيث التصقَت رطوبتها بالخشب، قبل أن تتلاشى مع الضربة التالية من الريح العاصفة. أخذتُ نفسًا من فمي. كنا بحاجة إمّا إلى الركض نحو الطابق السفلي ـ ويفضّل أن يستمر ذلك على طول الطريق إلى محطة القطار ونحن نصرخ ـ وإمّا التحدّث مع الرجل المسكين على الفور. انحازَ صوتي للخيار الأول، حتى لو عنى ذلك الركض تحت المطر، بجزمتي ذات الكعب، وربما كسر رقبتي، لكننا كنّا حتمًا سنفعل الخيار الآخر.

أومأ توماس مشجّعًا، ثم دخل الغرفة بالكامل، ليتركني مستندةً على إطار الباب، لا يدعمني شيء سوى فطنتي. إن كان قادرًا على مواجهة هذا، فأنا كذلك، فقط لو امتلكَ جسدي شجاعة عقلي.

سحبَ كرسيّين إلى جانب السرير ـ وأطرافهما تتقشّر باحتجاج ـ قبل أن يشير لي بالجلوس. حملتني ساقاي عبر الغرفة، على ما يبدو بمحض إرادتهما، مما دفع قلبي إلى التسارع بثبات. دفنتُ يديّ في ثنايا تنّورتي بمجرّد جلوسي. لم أرغب بأن يرى ثورنلي المسكين كيف كانتا ترتجفان بشدة؛ لقد عانى بما فيه الكفاية أصلاً.

هزّ سعالٌ شرس جسده، مما أجبرَ أوردة رقبته على البروز مثل جذور أشجار انتُزعَت من الأرض. صببتُ كوبًا من الماء من إبريق بجانب السرير، ورفعتهُ بعناية إلى شفتيه.

قلتُ برفق: «اشرب هذا، سيد ثورنلي. سوف يهدّئ حلقك.»

ارتشف الرجل العجوز ببطء من الكأس، لينسكب الماء على ذقنه. قمتُ بلمسه بمنديل لتجنّب منحه بردًا فوق أمراضه الأخرى. عندما شرب كفايته، تحوّلت عيناه الحليبيّتان إلى عينيّ. لم أعرف إن كان يراني أم لا، لكنني ابتسمتُ له. بدا التعرّف على ملامحه بعد لحظة أو اثنتين.

«الآنسة وادزورث.» سعل مرة أخرى، هذه المرة بعنف أقل من السابق. «أنتِ محبوبةٌ مثل والدتك. كانت ستسعد بمدى جمالك، رحمة الربّ على روحها.»

على الرغم من إنني سمعتُها طوال حياتي، إلا أنها لا تزال تجلب لعينيّ لسعة الدموع. مددتُ يدي، لأقوم بتنعيم شعره الخفيف على جبينه، مع مراعاة تجنّب القروح المفتوحة. لم أظنّهُ مُعديًا، لكنني لم أخاطر وأبقيتُ على قفّازاتي. أغمض عينيه، واستكانَ صدره.

في البداية خفتُ من كونه قد عبر إلى الآخرة، ثم رفرفت عيناه، فتنهّدت. كنا بحاجة إلى إجابات سريعة. كرهتُ نفسي لذلك، لكنني خشيتُ أن يفقد طاقته قريبًا ويعجز عن التحدّث لفترة أطول. صلّيتُ بصمت لأن تكون تذكرة عودتي متّجهة مباشرةً إلى لندن، دون انعطاف إلى الجحيم.

راقب توماس الخادم بانفصالٍ تام، مُتجاهلًا كل شيء آخر تمامًا. لقد أخافَني ذلك، رؤية مدى عدم تأثره بوضعنا الحالي؛ قدرته على التخلّص من مشاعره عند الحاجة. بغضّ النظر عن مدى فائدة ذلك، فإنه لا يزال غير طبيعي، وذكّرَني بضآلة معرفتي به خارج مختبر العمّ. كما لو شعر توماس بضيقي، فقد سحب نفسه من استنتاجاته بما يكفي لتلبية نظراتي المُقلقة والإيماء. خرجتُ من أفكاري، انحنيتُ أقرب إلى السرير، رابطةً أعصابي في عُقد.

«أعلم أنك لست على ما يرام، سيد ثورنلي، لكنّني كنتُ آمل أن أسألك قليلاً عن والدي.» أخذتُ نفسًا عميقًا. «أودّ أيضًا أن أعرف مَن كانت الآنسة إيمّا إليزابيث سميث.»

كان يحدّق، وعيناه ـ بكمّ الذكريات التي وراءها ـ تُغلق أمامي. التفت إلى توماس قائلاً: «هل أنتَ خطيب فتاتي العزيزة؟»

تحوّل توماس في الواقع إلى اللون القرمزي، اهتزّ سلوكه المُحصّن جيدًا. تلعثم في الإجابة، وهو ينظر في كل اتجاه عدا اتّجاهي. «أنا، حسنًا... نحن، هي...»

«زملاء،» لم أتمكن من منع نفسي من الاستمتاع بمدى ارتباكه. على

الرغم من غرض زيارتنا، ومدى غرابة سلوكه، فقد سررتُ جدًا بوجود شيء أزعجه، خاصّةً لكونه يتعلّق بي. رفع عينيه عندما ابتسمتُ له. «كلانا نتدرّب عند عمّي.»

أغمض ثورنلي عينيه، لكن ليس قبل أن ألحظ فيهما لمحة استنكار. لقد رفض ارتباطي بعمّي وأبحاثه المُنكَرة، حتى مع دنوه من عتبة الموت. كانت حقيقة أنني لم أقضِ المزيد من الوقت في تأمين زوجٍ لي ضربةً أخرى ضدّي، وكنتُ سأشعر بالخجل لو لم أملك هدفًا أكبر لوجودي هنا. دعي الناس يفكرون بما يحلو لهم، فكّرتُ بانزعاج، ثم حنيتُ رأسي. الرجل يحتضر، لا داعٍ للقلق بشأن رأيه أو ازدرائه بسببه. جلستُ باستقامة أوضح، وقلتُ بنبرةٍ لطيفة لكن قويّة. «أريدكَ أن تخبرني كيف عرف أبي الآنسة إيمّا إليزابيث سميث.»

حدّقَ خادم والدي السابق فوق كتفي عبر النافذة، التي انسابَ المطر عليها كالدموع. لم أعرف إن كان يتجاهل سؤالي أو يفقد إدراكه. ألقيتُ نظرة خاطفة على توماس، وعكسَت ملامحه الحائرة شعوري. الضغط على رجل يحتضر أمرٌ فظيع، وإن أصبح توماس كريسويل يشكّ في جدوى وجودنا هنا، فَقد ابتعدتُ حقًا عن فعل الشيء الصحيح.

ربما كنتُ مخلوقةً مؤسفة حقًا، كما ظنّني المجتمع. كان بإمكاني تخيّل ما ستقوله العمّة أميليا المُولعة بالدين، أو عدد المرّات التي سترسم فيها علامة الصليب، وتطلب مني أن أصلّي من أجل خطاياي. وقفتُ مقرّرةً أنني أتعبتُه بما فيه الكفاية.

«يجب أن أعتذر، سيّد ثورنلي. أرى أنني أزعجتُك، وهذه لم تكن نيّتي.»

شبكتُ يديه الباردتين في يديّ، تاركةً تنّورتي. «لقد كنتَ صديقًا رائعًا لعائلتنا. لا أستطيع شكركَ بما يكفي لخدمتنا جميعًا بذلك الشكل.»

«ربما يجب عليك إخبارهم يا جدّي.»

وقفَت الشابّة، التي فتحت لنا الباب، وذراعاها متشابكة عند أسفل السرير، وقالت بصوت ألطف مما تصوّرت: «صَفِّ ضميرك قبل القيام بهذه الرحلة الأخيرة. ما الضرر المُمكن من إخبارها بما تريد أن تعرفه؟»

الآن رأيتُ التشابه العائلي القوي. كلاهما له نفس الحواجب السميكة، فوق عيون كبيرة ساحرة ووجنات عالية. لمّحَ اللون الأحمر لشعرها إلى جذورهم الإيرلندية، وجعلتها حفنة النمش المتناثرة على أنفها أكثر شبابًا مما اعتقدتُ في الأصل. لولا الطفل الذي عكّر سلوكها، كنت سأقول إنها لم تكن أكبر مني بكثير. تكرّر جزء من كلامها في ذهني.

«هل تعرفين شيئًا عن ذلك؟» سألتها. حدّقَت بفراغ، كما لو كنتُ أتحدّث لغةً أخرى. «عن سبب حاجته إلى تصفية ضميره؟»

هزّت رأسها وحوّلت تركيزها إلى هيئة جدّها المضطربة. «لم يقل شيئا محددًا عن ذلك. كل ما في الأمر بعض القلق في الليل، أحيانًا عندما يكون نائمًا، يغمغم ببعض العبارات، لم أتمكّن مطلقًا من فهمها.»

حكّ ثورنلي ذراعيه بقسوة حتى خشيتُ أن يمزّق جلده. فسّر ذلك بعض القروح ـ كان جلده يتقشّر، ثمّ يحكّه حتى يُصاب بعدوى. إنّهُ ليس مرض الجذام إذن، بل يشبهه بالشكل فقط. ابتلعتُ الغثيان في جرعة واحدة غير سارة. لا بدّ أنّ آلامه فاقت التصوّر.

أخذَت حفيدته علبة مستحضر من طاولة السرير، واندفعَت إلى جانبه ووضعت منها على ذراعيه. «أعضاؤه تفشل، وتسبّب له حكّةً فظيعة. على الأقل هذا ما قاله الطبيب.» قامَت بوضع كميّة سخيّة من الكريم حتى هدأ. «المستحضر يساعد، لكنه لا يدوم طويلاً. حاول ألا تخدشها بشدة يا جدّي. أنت تمزّق بشرتك إلى أشلاء.»

تحرّك توماس في كرسيّه، وهي علامة تنبيه للهفته في مشاركة رأيه. رمقتُه بنظرة تهديد، أملتُ أن توضّح مقدار الألم الذي سيعانيه إذا تصرّف نفس تصرفاته المعتادة الساحرة مع آل ثورنلي. لكنه تجاهلَني، أنا ونظرتي.

«ما أذكرهُ من دراستي، أنّ كل هذا جزء من عملية الموت،» قال مشيرًا إلى كل عرَض على أصابعه: «تكفّ عن الأكل، تنام أكثر، يصبح التنفس مُجهدًا، ثم تبدأ حكّة الجسم، و- »

«هذا يكفي تمامًا.» قاطعتُه، ونظرتُ إلى ثورنلي وحفيدته بتعاطف. كانوا يعلمون أن النهاية وشيكة. لم يحتاجوا إلى سماع تفاصيل دقيقة عمّا سيحدث في كل خطوة.

همس: «لم أفكّر إلا في المساعدة. من الواضح أن خدماتي غير مرحّب بها.» رفع توماس كتفه، وعاد يتفحّص الغرفة بهدوء. سنحتاج إلى العمل على مهارات «المُساعدة» في المستقبل. عدتُ إلى خادم والدي. «حقًا، أي شيء يمكن أن تُخبرني به عن تلك الفترة الزمنية سيكون مفيدًا للغاية. لا يوجد شخص آخر يمكنني اللجوء إليه للحصول على إجابات. لقد حدثت بعض الأمور مؤخرًا... وهذا سيُريحني.»

شخصَت عيون ثورنلي، وأشار لحفيدته أن تقترب. «جين، حبّي. هل يمكن أن تحضري لنا بعض الشاي؟»

ضيّقت جين عينيها. «تحاول التخلّص مني الآن، أليس كذلك؟ لم تطلب الشاي منذ أيّام.» كانت نبرتها مرحة أكثر من كونها اتهامية، وحصلت على ابتسامة صغيرة من جدها. «ممتاز. سأذهب لإحضار الشاي، إذن. تدبّر نفسك حتى أعود. ستشنقني أمي إذا ظنّت أنني أسأتُ معاملتك.»

بعد خروج جين من الغرفة، أخذ ثورنلي أنفاسًا قليلة، ثم نظر إليّ، بتركيز أكثر وضوحًا مما كان عليه قبل بضع ثوانٍ.

«كانت الآنسة إيمّا إليزابيث سميث صديقة عزيزة لوالدتك، آنسة أودري روز. ربما لا تتذكرينها، لقد توقفت عن المجيء عندما كنتِ صغيرة.» سعل، لكنه رفض عرضي المزيد من الماء. «لقد عرفَت أيضًا عمّك ووالدك. كانوا أربعتُهم مقرّبين من بعض مثل عصابة في سنين شبابهم. في الواقع، كان عمّك خطيبَها في وقتٍ ما.»

لفّت الحيرة أصابعها حول عقلي. الطريقة التي كُتبت بها ملاحظات العمّ جعلَتها تبدو كما لو أنها غريبةٌ عنه. لم أكن لأخمّن أبدًا أنها كانت أحد معارفه، ناهيك عن امرأة أوشك على الزواج منها. رفع توماس حاجبيه. بدا أنه لم يتوقع شيئًا كهذا. واجهتُ ثورنلي مرّةً أخرى. «هل لديكَ فكرة لماذا كان أبي يتتبّعها؟»

تحطّم الرعد فوقنا، مُطلقًا تحذيرًا من تلقاء نفسه. ابتلع ثورنلي ريقه، واندفع انتباهه يدور حول الغرفة، كما لو كان خائفًا من شيء مروّع يحاول

الوصول إليه من وراء القبر. انتفخ صدره قبل أن تغمرهُ نوبة أخرى من السعال. إذا استمر هكذا، كنتُ متأكدة أنه سيفقد القدرة على التواصل تمامًا.

جاء صوته كالحصى تحت حوافر حصان عندما تمكّن من الكلام ثانيةً. «والدكِ رجل قويّ وثريّ للغاية، آنسة أودري روز. لا أدّعي معرفة شيء عن تحقيقاته الشخصية. أعرف شيئين فقط بخصوص الآنسة سميث. لقد كانت مخطوبةً لعمّك، و...» اتّسعت عيناه حتى طغى عليها البياض، وكافح للجلوس على السرير، وهو يركل ويسعُل في جنون.

قفز توماس محاولاً الإمساك بالرجل العجوز لمنعه من إصابة نفسه خلال تلك التشنّجات. هزّ ثورنلي رأسه بعنف، والدم يتجمّع في زوايا فمه. «لقد... تذكّرتُ... للتو. إنه يعرف! يعرف الأسرار المُظلِمة المُخبّأة داخل الجدار.»

«مَن يعرف؟» توسّلت، مُحاولةً بيأس معرفة إن كان هذا جزءً من وهم مُتقن، أو أنه ذا فائدة في تحقيقنا. «أيّ جدار؟»

أغمضَ ثورنلي عينيه، وانساب أنين حنجرته من فمه. «إنه يعرف ما حدث! كان هناك في تلك الليلة!»

قال توماس بنبرة دافئة، لم أسمعه يستخدمها مع شخص آخر من قبل: «كل شيء على ما يرام. لا بأس يا سيّدي. خُذ نفسًا من أجلي. هذا هو. جيّد.» راقبتُ توماس وهو يمسك الرجل العجوز بثبات، بلمسةٍ قوية لكن لطيفة. «الآن أفضل؟ حاول إخبارنا مرّة أخرى، بشكل أبطأ.»

«نعم، نعم... لا يمكن لومه، برغم ذلك.» شهق ثورنلي، وهو يكافح لإخراج المزيد من الكلمات، بينما كنتُ أفرك ظهره، محاولةً تهدئته بشكل

بائس. «لا، لا...» قال وهو يسعل من جديد. «لستُ متأكدًا من أنني سأكون أفضل بكثير، في ظلّ هذه الظروف.»

«لوم مَن؟» سألت، وأنا لا أعرف كيف أهدّئه بما يكفي لجمع معلومات مترابطة. «عمّ تتحدّث، سيّد ثورنلي؟ أبي؟ عمّي جوناثان؟»

كان يتنفس بشدّة وتدحرجَت عيناه إلى مؤخرة رأسه. شعرتُ بالرعب من كون الأمر قد انتهى، وأنني شهدتُ للتو رجلاً يموت، لكنه انقلب، جالسًا بشكل كامل، مُمسكًا بالملاءات على جانبي جسده الهزيل. «أليستير يعلم.»

احترتُ في أمري أكثر من أي وقت مضى. لم أسمع مسبقًا باسم أليستير، ولم أكن متأكدة من أن ثورنلي يعرف ما يقوله بعد الآن. ربّتُ على يده بلطف، بينما كان توماس ينظر في رعب. «ششش، ششش الآن. لا بأس يا سيّد ثورنلي. لقد كنتَ في غاية...»

«إنه... بسبب... ذلك... اللعين...»

اختلجَ جسده بشكل مضطرب، حتى بدا كطائرةٍ ورقيّة تتخبّط وسط العاصفة الرعديّة في الخارج. ظلّ يختضّ حتى تدفّقَ خيط دم من جانب فمه ومن فتحات أنفه. قفزتُ إلى الوراء، وأنا أصرخ لحفيدته كي تعود وتساعدنا، لكن الأوان كان قد فات. لقد ماتَ السيّد ثورنلي.

10

الماري سي

بحيرة السربنتين، هايد بارك

13 سبتمبر 1888

«بالطبع أتذكر أليستير الذي يعرفه أبي. لا أصدّق أنك لا تتذكّرينه.» قال ناثنيل، وهو يتطلّع إلي للحصول على تفسير لم أكن مستعدّةً تمامًا لتقديمه «لمَ الفضول المفاجئ؟»

«بلا سبب، حقًا.» تجنّبتُ نظرته، وشاهدتُ قطيعًا من الوزّ يطير فوق سطح البحيرة الشبيه بالزجاج، باتجاه مبنى استقبال الجمعيّة الملكيّة الإنسانيّة، بتشكيل حرف V مثالي، مثل طقس الخريف المُنعش. كانوا بلا شك في طريقهم جنوبًا، سعيًا إلى مناخ أكثر اعتدالاً. كنتُ أتوق لفهم الآلية الفطريّة التي تحذّرهم من الشتاء القادم. تمنّيتُ لو أن النساء اللواتي يتجولن في شوارع وايتشابل الباردة يشعرنَ بنفس الخطر ويحلّقنَ إلى برّ الأمان.

التقطتُ بضع ورقات من العشب المصفرّ، وقمتُ بتدويرها بين إصبعي

السبّابة والإبهام. «من الصعب التصديق أن الشتاء سيدمر العشب في غضون أسابيع قليلة.»

بدا ناثنيل غاضبًا. «نعم، حتى الربيع المقبل، عندما يشقّ طريقه بعناد للخروج من قبره المتجمّد، آملاً في حياة أبدية.»

تمتمتُ لنفسي: «لو كانت هناك طريقة لعلاج أشدّ مصائب الحياة.»

«وما ذلك، بالضبط؟»

نظرتُ إلى أخي ثم نظرتُ بعيدًا هازّةً كتفيّ. «الموت.»

حينها يمكنني إحياء ثورنلي وسؤاله جميع الأسئلة التي تركها لي. حتى إنني سأمتلك أمًّا، إن كان من الممكن إعادة الموتى مثل النباتات المعمّرة. ثبتت عينا ناثنيل بقلق على عينيّ. اعتقدَ على الأغلب أن غرابة العم كانت تؤثر عليّ بشكل سيّء. «إن كنتِ تستطيعين، فهل... ستحاولين القيام بمثل هذا الشيء باستخدام العلم؟ هل سيصبح الموت شيئًا من الماضي، إذن؟»

كانت حدود الصواب والخطأ أقلّ وضوحًا عندما تعلّق الأمر بأحد الأحباب. ستكون الحياة مختلفة بشكل يفوق التصوّر مع بقاء أمي على قيد الحياة، لكن إن عادت هل ستكون شبيهة بأمّي الحقيقية؟ ارتجفتُ وأنا أفكر في ما يمكن أن يحدث. قلتُ ببطء: «كلا. لا أعتقد أنني سأفعل.»

زقزقَ بلبلٌ صغير على غصنٍ امتدّ بتكاسل فوق رؤوسنا. كسرتُ قطعة من بسكويت العسل، ورميتُ بها، فانقضّ عصفوران أكبر، يتقاتلان من أجل قضمة. بانَ بقاء داروين للأصلح، بكلّ وضوح، حتى كسرَ ناثنيل بسكويته

بالكامل، وألقى بمئة قطعة منه على الطيور المتنازعة، مانحاً لكلّ منهم طعامًا أكثر من أن يعرف ماذا يفعل به.

«لا أملَ فيك.» هززتُ رأسي. كان ليفشل في علوم الطبيعة، وهو يغيّر البيانات العلمية على الدوام بلطفه. قام بتنظيف يده ذات القفاز بمنديل مُخيّط يدويًا، ثم جلس إلى الوراء، وهو يراقب الطيور الصغيرة تتقافز وتلتقط كل لقمة، بابتسامة رضى على وجهه. ظللتُ أحدّق في المنديل. «أعترف، أنا أكره مجيء العمّة أميليا.»

تبع ناثنيل نظري ولوّح بالمنديل في الهواء. «أنا متأكد من أنه سيكون وقتًا جميلاً. على الأقل ستكون مسرورة بتطريزك، لن تعرف أنّكِ تتدرّبين على الموتى.»

بصرف النظر عن دروس العمة أميليا اليَومية، حول رعاية الأسرة المناسبة وجذب زوج لائق، كان لديها شيء لا يمكن تفسيره في خياطة المونوغرامات، على كل قطعة قماش يمكن أن تجدها. لم أملك أدنى فكرة عن كيفيّة تدبّري لخياطة الكثير من المناديل غير النافعة جنبًا إلى جنب مع تدريب العمّ. بين ذلك وبين نوباتها الدينيّة المستمرّة، صرتُ على يقين أن الأسابيع القليلة المقبلة ستكون مملّة أكثر مما اعتقدت في البداية.

«إلى أين هربتِ في ذلك اليوم؟» سأل ناثنيل، وهو يجرّ أفكاري بعيدًا عن الخياطة وغيرها من الأمور الممتعة. لم يكن ليتخلّى عن تحقيقه بسهولة. «بصراحة، لا أعرف لماذا لا تثقين بي. أنا مستاء للغاية، أختي.»

«حسنًا.» تنهّدت، لعلمي بوجوب الكشف عن سر واحد من أجل التمسّك

بالأسرار الأخطر. «لقد تسلّلتُ إلى مكتب أبي في تلك الليلة ووجدتُ اسم أليستير. هذا كل شيء، حقًا.»

عبس ناثنيل وهو يسحب قفّازاته الجلدية دون أن يخلعها. «ماذا بحقّ الملكة كنتِ تفعلين في مكتب أبي؟ لا يمكنني حمايتك من غبائك يا أختي، ولا يوجد علاج طبّي لذلك حتى الآن، لسوء حظّي.»

تجاهلتُ كلامه، وأنا أقطف حبّة عنب من سلّة النزهات التي طلبها ناثنيل من فورتنام آند مايسون. كانت مليئة بالمأكولات الشهية، من الأجبان المستوردة إلى فواكه البيوت الزجاجية الدافئة. لكي أبدو أقلّ حرصًا على المعلومات، قمتُ بسحب الجبن والخبز ببطء من حزمة القماش ووضعت الطبق على البطانيّة أمامنا. «كان خادمًا، إذن؟»

قال ناثنيل: «كان أليستير دنلوب سائق عربة أبي القديم. بالتأكيد تتذكرينهُ الآن؟ لقد كان لطيفًا، لكنهُ غريب الأطوار للغاية.»

تشكّلَت طيّةٌ بين حاجبيّ. «يبدو الأمر مألوفًا بشكل غامض، لكن أبي يغير طاقمه في كثير من الأحيان، ومن الصعب إبقاء الجميع في الذاكرة.»

قمتُ بنشر جبن البراي والتين المحفوظ على التوست وسلّمتُها إلى ناثنيل، قبل أن أكرّر العملية لنفسي. كلّ مرة أتأكّد فيها أنني قد قمتُ بحلّ عنصر مهم يرضيني، يتّضح بعدها أن الأمر مختلف. تمنّيتُ العثور على دليل لعين واحد يمكن أن يوجّهني في اتجاه مثمر. سيكون حتى من الأفضل لو قام القتلة والمختلّون عقليًا والأشرار بحمل إشارة ما للعقول الباحثة عنهم لينكشفوا بسرعة. لقد أزعجني أن مثل هذا الوحش يُمكن أن يسير بيننا.

قلتُ: «أنا لا أحتاج إلى جليسة أطفال. لكنّك على حق. أودّ قضاء القليل من الوقت للاستمتاع بما تبقى من حرّيتي.»

ابتسمتُ ابتسامةً عريضة، وأنا أعلم جيدًا أنه إن كان الأمر بيد ناثنيل، بصرف النظر عن خادمتي والمُرافق اللذَين كانا حاضرَين، فسيكون لدي حارس شخصي، ومربّية، وممرّضة، وأيّ مرافق آخر يمكنه التفكير فيه لمراقبتي.

«اذهب.» قلتُ مشيرةً له بالذهاب. وقف هناك ينقر على جوانبه، غير متأكد. «سأكون بخير. سأستمتع بالهواء النقي قليلاً، ثم سأعود للمنزل.» أمسكتُ قلبي. «أؤكد لك أنني لن أجلس لتناول الشاي مع أيّ قاتل متوحّش من الآن حتّى العشاء. كفّ عن هذا القلق الشديد.»

تصارعَت ابتسامة مع عبوس على وجهه، قبل أن تسود في النهاية، ورفّت شفتاه. «تأكيداتُك تجعلني أشعر بكلّ شيء سوى الراحة.» أمال قبّعته. «نلتقي هذا المساء. أوه،» توقّف متطلّعًا إلى ملابسي. «قد ترغبين في تغيير هندامك إلى شيء أكثر... تلبيةً لذوق العمّة أميليا.»

لوّحت له بالوداع، وقاطعتُ أصابعي من خلف ظهري بمجرد اختفائه عن الأنظار. من المؤكد أنني سأعود إلى المنزل وأغيّر ثوبي إلى فستان جديد، بعد أن أقوم بزيارة إلى أرصفة السفن، للتحدّث مع الغامض أليستير دنلوب، وكشف الأسرار التي حملها على متن ماري سي.

«بصراحة، لا أعرف لماذا أصررتَ على إحضار هذا الوحش البائس معنا،» اشتكيتُ إلى توماس، بعد أن كدتُ أتعثر بالمقود للمرّة الثالثة. «من الصعب

للغاية المناورة في هذا الكعب الملعون، دون وجود عقبة إضافية تتمثل في ربط أطرافي معًا كلّ خمس ثوانٍ بسبب كلب قصير النظر.»

نظرَ توماس إلى الأزرار الفضية في مقدّمة ثوب ركوبي الأسود، باحثًا عن عبوسٍ مني. عنَت نظرته ضمنيًا أن اختياري للملابس ـ بما في ذلك بنطلوني المُطابق للثوب ـ يجب أن يجعل المشي أسهل عليّ.

«أودّ أن أراكَ أنت، في مشدٍّ يحفر عظامهُ في قفصك الصدريّ،» قلتُ وأنا أردّ له الجميل وأتطلّع في ملابسه. «وفي تنّورة تغطّي معظم ساقيك، وترفرف حول فخذَيك في هذه الريح.»

«إن كنتِ ترغبين في رؤيتي بلا بنطلون، قوليها ببساطة، وادزورث. سأكون أكثر من سعيد لتلبية طلبك من هذه الناحية.»

«وغد.»

من المفترض أنه كان يصطحب الكلب الهجين البنّي والأبيض، متدلّي الأذنين، في نزهة حول البحيرة، عندما صادفَني في نزهتي ـ عذرٌ شككتُ فيه للغاية. خاصةً عندما تصادف أن يلتقي بي بينما كان جون، المُرافق، يعيد توضيب السلّة الكبيرة. التقطَ توماس قطعًا قليلة من لحم الخنزير المسلوق ليعدّ وجبةً سريعة لرفيقه الكلب. قمتُ بإرسال السلّة إلى المنزل، مع جون وخادمتي، وبدا كلاهما سعيدًا للهرب من إحدى مخطّطاتي.

عندما أشرتُ إلى استحالة وقوع صدفةٍ كهذه، صرّح توماس أنها كانت فرصة سارّة لأن أكون ممتنّةً لـ«صحبته الكريمة في أثناء التجوال مع القراصنة والأشرار». يجب أن يكون هو ممتناً لأنني لم أطعنه بالخطأ بدبّوس قبعتي، على الرغم من فرحتي سرًّا بسعيه ورائي.

كان الشارع المرصوف بالحصى عريضًا، لكنه صعب التنقّل مع كل تلك الحركة. رفع الرجال الصناديق من جانب السفن الكبيرة، وتدلَّت صناديق خشبيّة بشكل غير مستقرّ من الحبال فوق رؤوسهم. تمّت دحرجة براميل النبيذ إلى مستودعات، جنبًا إلى جنب مع صناديق معدنية كبيرة لحفظ التبغ؛ بينما صاحت النساء بعروض خاصة حول ما عرضنَهُ على بُعد مسافةٍ قليلة - كلّ شيء، من المخبوزات إلى إصلاح الأشرعة الممزّقة.

عبرنا من حوض إلى آخر، الذي فصلَ المجموعة التالية من السفن. اصطفّت المتاجر المخصّصة لمغامرات البحار، تضمّ في واجهاتها بوصلات ذهبية، وسُدسيّات، وعدّادات الزمن، وجميع الأدوات الأخرى ذات الطابع البحريّ التي قد يرغب فيها المرء. شاهدتُ ضابط جمارك يفحص البضاعة القادمة من أقرب سفينة، والأزرار النحاسية على سترته تلمع في شمس الظهيرة. ابتسم وهو يرفع قبعّته عندما اقتربت، مما تسبّب في تورّد خديّ.

«بحقّك.» زفر توماس. «إنه حتى لا يقترب من وسامتي.»

«توماس!» همستُ وضربتُه بكوعي. تظاهرَ بالإصابة، لكن أمكنَني القول أنه سعيد باستعادة انتباهي إليه.

أفسحَت المتاجر الطريق لمنازل متهالكة، تراكمت مثل جحور الفئران. غمرَت المُخلّفات مزاريب هذا الحيّ، واختلطَت معها رائحة غسل الأسماك الميّتة على الشاطئ. الحمد للربّ على النسيم القوي الذي خرج من الماء، مزيحًا خصلات شعري العقيقيّة ومُختبرًا استقرار قبّعتي المخمليّة.

«توبي،» قالَ ردًا على سؤال لم أطرحه، بينما كان يراقب الضوضاء التي

تدور حولنا. «أكثر ذكاءً من نصف شرطة سكوتلانديارد، وادزورث. يجب أن تُقبّلي يديّ لإحضار مثل هذا الحيوان الرائع. أو ربّما يمكنكِ تقبيل خدّي، لنمنح الضبّاط والأشرار هنا بعض الإثارة.»

مُتجاهلةً محاولته للمغازلة بشكل غير لائق، شاهدتُ الكلب يتأرجح في سيره على الطريق ثمّ على الرصيف، مندهشةً كيف لم يسقط عن الأرصفة حتى الآن. لقد كان أكثر حيوان أخرق رأيتُه على الإطلاق. فضّلتُ القطط وفضولها النّهم. «هل توبي كلب عائلتك إذن؟»

عدّ توماس القوارب، وقرأ الأسماء مع نفسه بينما كنّا في طريقنا إلى ماري سي.

«لقد اقترضتُه.» توقّفَ أمام حوض سفن جديد، ولاحت غابةٌ من الصواري في الأفق، عالياً فوق رؤوسنا، تتأرجح وتئنّ تحت وطأة المدّ المُتدحرج. كان هذا القسم أكثر ضوضاءً؛ بالكاد استطعت الاحتفاظ بفكرة في رأسي دون أن تتحوّل إلى نغمة بحّار صاخبة. سيرتعب ناثنيل إذا علمَ أنني أستمع لمثل هذه اللغة الواطئة، وجعلها ذلك أكثر جاذبية بطريقة ما.

جاءت أصوات ماعز وطيور غريبة من ظهر سفينة واحدة، مما دفعني إلى رفع رقبتي حتى لمحتُ ريش الببغاء زاهي الألوان يرفرف على قفص. على نفس المركب، هتف فيل ضخم، وداس بأقدامه بينما حاول عدد كبير من عمّال السفن تنزيله.

أشارت الأسماء الموجودة على الصناديق إلى أنها كانت جزءً من السيرك المتنقّل الذي يصل إلى المدينة. حتى الأسابيع القليلة الماضية، تطلّعتُ

إلى حضور الحدث مع أخي. كانت عوامل الجذب للفضول البشري مشهورة على نطاق العالم، وتفاخروا بالعديد من الأعمال «التي يجب مشاهدتها كي تصدّقها».

«لقد سمعتُ شائعاتٍ عن رجل يبتلع النار،» قلتُ لتوماس في أثناء عبورنا السفينة. «وآخر لديه أربعة أرجل، إذا كنا نصدّق مثل هذه الأشياء.»

قال: «لا تقوليها، أنا شخصيًا أفضّل البقاء في البيت للقراءة.»

كانت الملكة فيكتوريا من أشدّ المُعجبين بالسيرك، وستحضر في ليلة الافتتاح. كلّ مَن يعتقد إنه مهمّ ـ وبعض ممّن كانوا كذلك بالفعل ـ سيحضُر. أشرتُ إلى السفينة التي كنا نبحث عنها، «أنظر، ها هي. ماري سي!»

قال: «ابقَي على مقربة منّي يا وادزورث. لا أحبّ مظهر هؤلاء الناس.»

نظرتُ إلى توماس، وانتشرَ دفء خفيّ عبر أطرافي. «كُن حذرًا، سيد كريسويل. قد يعتقد شخصٌ ما أنّكَ بدأتَ تهتمّ بي».

نظرَ باتّجاهي، عاقدًا حاجبيه كما لو كنتُ قد قلتُ شيئًا غريبًا بشكل خاص. «إذن أودّ مقابلة ذلك الشخص؛ لأنّه ذكيّ.»

دون أن ينطق بكلمةٍ أخرى، سارَ إلى الأمام بسرعة، ليتركني خلفه فاغرةً فاهي في لحظة ذهول. يا له من كذّاب فظيع! تماسكتُ واندفعتُ وراءه. كانت السفينة بحجم جزيرة فولاذيّة صغيرة من صنع الإنسان، رمادية اللون ومنعزلة مثل أيّام لندن العاديّة. بلغ طولها على الأقل ضعف طول أيّة سفينة أخرى في الرصيف، وبدا طاقمها بضعف لؤم غيرهم.

عندما اقتربنا من القبطان، وهو رجل ضخم البُنية، بعيون سوداء وأسنان

مكسورة، اتّخذَ توبي المُنقاد ضراوة ذئب مفترس، كشفَ عن أنيابه وزمجر بصوتٍ عالٍ بما يكفي ليكون مُخيفًا.

ألقى القبطان نظرةً على الكلب، ثم نظرةً سريعة علينا. «هذا ليس مكانًا لسيّدة شابّة. تحرّكا.»

أوشكتُ على التكشير عن أنيابي كما فعل توبي، لكنني ابتسمتُ بلطف، مُظهرةً المقدار المناسب من بياض أسناني. قالت العمّة أميليا دومًا إنه يمكن سحر الرجال بسهولة. «أنا أبحث عن أليستير دنلوب. قيل لنا إنه يعمل عندك.»

بصقَ القبطان ـ وهو مخلوق كريه ـ في الماء، وهو ينظر إليّ بريبة. «ماذا تريدين أنتِ؟»

توتّر توماس بجانبي، ويده تنثني إلى جانبه. ابتسمتُ ثانيةً، هذه المرّة حدّقتُ عن قصد في نقطة فوق كتف القبطان. لقد جرّبتُ طريقة عمتي الماكرة والمهذّبة، حان الوقت الآن لفعل الأشياء بطريقتي الخاصة.

قلت: «أكره أن أصنع مشهدًا وأقوم باستدعاء ضابط الجمارك الساحر ذاك إلى هنا. حقًا، لا ينبغي لأحد تشغيل مثل هذه السفينة المهمّة دون الوثائق المضبوطة لكلّ حمولتها. ألا توافق، سيّد كريسويل؟»

قال توماس، «بالتأكيد،» وترك مقود توبي يتراخى. اتّخذ القبطان خطوةً غير ثابتة بعيدًا عن المغفّل النابح. «ناهيكَ عن أنها ستكون كارثة إذا اكتشف مالكو هذه السفينة أنّ جزءًا من حمولتهم يُباع خلسةً. ألا تعرف عائلتك معظم الطبقة الأرستقراطية في أوروبا، آنسة وادزورث؟»

«بالتأكيد،» أكّدتُ بينما كان القبطان يتلوّى في حذائه، «نحن كذلك. أنتَ من عائلة معروفة بنفس القدر، أليس كذلك، سيّد كريسويل؟»

أجابَ مبتسمًا: «نعم، بالفعل.»

بدت نظرة كراهية خالصة على وجه القبطان. على ما يبدو، لم يستمتع بأن يغلبه فتى وفتاة ذكيّان. شخرَ القبطان: «إنه يقوم بعملية توصيل في جولي جاك. يجب أن يكون في جولة التفريغ في الزقاق.»

11

شيءٌ شرّير

حانة جولي جاك، لندن

13 سبتمبر 1888

بفضل التوجيهات السيئة التي قدّمها القبطان البغيض، تجوّلنا في عدد قليل من الفروع المسدودة قبل أن نجد أنفسنا في حانة سيّئة السمعة لكنّها نابضة بالحياة. تعلّقَت على الباب لوحةٌ خشبيّة مطليّة، تُصوّر جمجمة بيضاء مبتسمة على راية سوداء. في الداخل، جلس الرجال مُنكبّين على أكواز البيرة، وهم يشربون الشراب بنهم ويمسحون أفواههم بأكمام ممزّقة، بينما تسلّلت النساء مثل القطط البرّية في رحلة صيد. مشيتُ عبر المكان برأسٍ مرفوع، تاركةً التظاهر بالانتماء إليه، والنظرات والهمسات تتدحرج في أعقابي.

لم تتجوّل معظم النساء النبيلات في ثياب ركوب سوداء بالكامل مع حذاءٍ جلديّ وقفّازات. رغم أن ارتداء بزّة ركوب خيل في غير أوقات الركوب كان يتحوّل ببطء إلى موضة، فقد ميّزَني لون ملابسي والمواد التي أرتديها. أملتُ أن يثير وجودي شعورًا بعدم الارتياح، حتى لو كان عابرًا. بمجرّد

وصولنا إلى الزقاق الخلفي، لم نسمع شيئًا سوى خفقات قلوبنا ولهاث توبي. خلعتُ القفّازات وفركتُ خلف أذنيه المكسوّة بالفرو.

«هل تراه؟» سألت، مع تقييم سريع لما يحيط بنا.

قبع صندوق مفتوح فوق العديد من الصناديق الأخرى، التي بدا أنها قد تمّ تفريغها مؤخرًا، لكن لم يكن هناك أحد بالقرب. مشيتُ إلى الصندوق الخشبي ونظرتُ إلى داخله. كان مليئًا بصفوف من الكؤوس. تخيّلتُ روّاد الحانة المشاغبين يكسرون الكثير منهم بعد الثمالة. ليس بالضبط ما توقّعتُ أن يبيعه القبطان في السوق السوداء، لكنّه مع ذلك مُربح له.

عقدَ توماس حاجبيه وهو يحدّق في الصندوق. «يبدو غريباً بعض الشيء أن السيد دنلوب قد ترك هذه البضائع دون مراقبة.»

«ربّما يكون في الداخل؟»

دون انتظار رده، استدرتُ على عقبي عائدة إلى الحانة الصاخبة. اتّكأتُ على عارضة البار الخشبية، وأنا أصرخ لجذب انتباه الساقية. مسحَت امرأة ممتلئة يديها بمنشفة أطباق قذرة، وحرّكت نظراتها فوقي كما لو كنتُ مضيعةً للوقت. لم تفلح ثيابي في بثّ الخوف. ربّما كان عليّ ارتداء ثوب الأحد، وترك الجلود للجزّارين.

«كأس بوربون، يا آنسة؟» قالت بسخرية، ماسحةً إناءً زجاجيًا كبيرًا بتلك المنشفة، قبل أن تملأه بسائل كهرماني غامق وتدفع بها إلى رجل ضخم البنية في نهاية العارضة.

شاهدتُه يأخذ شربةً عميقة منه، ولم أستطع منع شفتيّ من الالتواء

لقدرته على تجاهل بالوعة القذارة التي مسحت الإناء من جميع جهاته. الله أعلم بنوع المرض الذي قد يتعرّض له. كنتُ أتوق لإعادة قطعة القماش تلك إلى مختبر العمّ وإجراء سلسلة اختبارات عليها.

ضحك مجموعة الرجال الأقرب إليّ، ليعيدوني إلى الحاضر. أمسكتُ بقبضتي، وحفرتُ أظافري في راحة يدي بهدوء على شكل هلال.

«أين الرجل الذي يقوم بتوصيل الكؤوس؟ لم يكن في الخارج، وصاحب عمله لديه رسالة له.» اقتربتُ أكثر، مخفضةً صوتي إلى همسةٍ مسرحيّة. «أظنّ أن الأمر يتعلّق بضابط الجمارك الذي صعد إلى سفينته مع مجموعة من الرجال، بحثًا عن سلع مسروقة. ربما يتّجهون إلى هنا خلال حديثنا.» تركتُ اقتراحي معلّقًا في الهواء.

اتّسعَت عيناها في وجهها الأحمر. أبقيتُ تعبيري مُحايدًا، على الرغم من أنني سررتُ بالطريقة التي جاءَت بها الكذبة بشكل طبيعيّ، وردّ الفعل الذي عزّزَته في امرأة بدَت مرعبة أكثر من بعض الرجال المخضرمين في البحر. ابتلعَت بصوتٍ مسموع، وأشارت نحو الباب المؤدي إلى الزقاق. «إنه في الخارج.»

أخرجَت سكينًا كبيرًا من تحت المنضدة، وقامت بقطع سمكة على لوح تقطيع خشبيّ، وهي تقول: «سأطعنهُ عندما أراهُ ثانيةً. أخبريه أنه حين يرى ماري ثانيةً، فمن الأفضل له أن يهرب.» هذا يُفسّر اسم السفينة. لوّحَت بالسكين في الهواء، وهي تصرخ على زبون نافد الصبر، حمل قدحه الفارغ في مرمى بصرها. «داوم على أرجحة قدحك في وجهي ولن تكون هذه الشيء الوحيد الذي سأقطعهُ، بيلي.»

خرجتُ من الباب مرة أخرى، وهززتُ رأسي لتوماس قبل خروجه بسرعة.

ركع توماس بجانب أحد الصناديق، ودسّ إصبعه في شيء مبلّل، قبل أن يفركه بين إبهامه والسبّابة. غمرني إحساس متصاعد بالذعر عندما لاحظتُ ما وجدهُ. «ربما كسر كأسًا وذهب ليضع ضمّادة.»

لم يتفضّل توماس بإجابة، بل وقف وقادَ توبي بالقرب من الدم، آمرًا إياه بلطف: «توبي، ابحث.»

راقبتُ الكلب بذهول وهو يستنشق بطاعة إلى أن التقط الرائحة. كان ذيله يهتزّ بقوّة حتى بدا أنه سيُقلع مثل طائر، ليحلّق في الشوارع والأزقّة. ترك توماس مقودهُ، وهرَعنا وراء الكلب، وهو يجري في أحد الأزقة، ثم في الزقاق التالي. كنّا قد عبرنا خمسة شوارع عندما رأيتُ كومةً من الملابس الرثّة، متّكئة على مبنى مهجور.

جلس رجلٌ بساقين ممدودتَين، وذقنه مُستلقٍ على صدره، بينما أغمضَت عيناهُ بسلام. قطرَت يده دمًا على قميصه. تنفّستُ الصعداء، إذ يمكنني التعامل مع مخمور بائس بجرح بسيط. توقّفَ توبي على بُعد بضعة أقدام من الرجل، وهو يزمجر بصوت منخفض.

«أودري روز، انتظري.» حاول توماس الإمساك بكمّ معطفي، لكنني تحرّكتُ بعيدًا عن مناله. اعتقدتُ أنه من الغريب أن يستخدم توماس اسمي المجرّد أخيرًا، لكنني لم أتوقّف للتفكير في الأمر أو في نبرته القلقة. كان الوقت قد تأخّر في النهار، ناثنيل يتوقّع مني حضور العشاء قريبًا، ولم أرغب في توضيح سبب وصولي متأخّرةً إلى المنزل بعد تناول الغداء في الحديقة. تنحنحتُ وأنا أسير إلى الرجل المتوعّك، فَلم يتحرّك. حاولتُ مرّةً أخرى، بصوت أعلى هذه المرة، بنفس النتيجة.

اللعنة على البحّارة وحبّهم لكلّ ما هو سائل. سمعتُ توماس يقول شيئًا خلفي، لكنني تجاهلتُه، وانحنيتُ للنقر على كتف الرجل. بصراحة، كنتُ أكره اعتقاد جميع الذكور في حياتي بكوني عاجزة. سأُظهِر لكلّ واحد منهم أنه بإمكاني التعامل مع أيّ شيء يمكنهم التعامل معه، وربما بشكلٍ أفضل منهم.

ضغطتُ عليه أكثر قليلاً. «اعذُرني سيدي. هل أنت ـ»

بالكاد لمستُه عندما تأرجح رأسه للخلف، كاشفًا عن ابتسامة قرمزيّة شرّيرة، من جرحٍ على طول رقبته. لم تكن يده التي جُرِحت بعد كل ذلك! صرخ أحدهم، ربّما أنا، على الرغم من أنه كان ليُسعدني صراخ توماس كريسويل اللعين.

سحبَني توماس للوراء، وتلقّفني بلطفٍ بين ذراعيه، ولم أهتمّ حتى إلى عيب ذلك الفعل المُشين. «حرّري نفسكِ من المشاعر، أودري روز. انظري إليه كمعادلة تحتاج إلى حلّ. هذا ما هو عليه الآن. كلّ شيء سيكون على ما يرام.»

عندما نظرتُ إلى يديّ عرفتُ أنّ تلك كذبةٌ مروّعة. بكلّ تأكيد لم يكُن كلّ شيء على ما يرام، وليست هذه معادلة رياضية؛ فقد غطّت يديَّ الدماء اللزجة. مسحتُهما بشكل محموم على صدري، لكن بلا فائدة. لطّخَ الدم أصابعي بتهمته القرمزيّة. بطريقةٍ ما، كنتُ مسؤولةً عن موت هذا الرجل.

جلس ناثنيل وذراعاه متشابكة بإحكام فوق صدره، وبدا أكثر جدّية من رجل يواجه فرقة الإعدام. كان شاحبًا للغاية عندما ظهر مفتّش التحقيق على

عتبة بابنا معي، وأنا ملطّخة بالدماء وأرتجف تحت بطانيّة خيول. كادت عمّتي أن يغمى عليها عندما رأتني، وقامَت بإدخال ابنتها إلى غرفتهما، واعدةً بإجراء نقاش شامل حول السلوك السليم بمجرد أن أصبح لائقة. شيءٌ آخر أتطلّع إليه.

في كل مرّة أغمض فيها عينيّ كان المشهد يتكرّر في ذهني، الابتسامة الرهيبة تسخرُ مني. سمعتُ الشرطة يقولون أن رقبته قد قُطعَت بالكامل. أنقذتهُ بعض الأوتار والأربطة بالكاد من انفصال الرأس، وهي حقيقة كنتُ على دراية جيّدة بها. ارتجفتُ. لمسُ شخص ميّت لا يزال دافئًا أسوء بكثير من تشريح الأجساد الباردة في مختبر العمّ.

«هاكِ. اشربي هذا.» ضغط ناثنيل كوبًا ساخنًا من الشاي في يدي. لم أرهُ يعبر الغرفة. حدّقتُ في البخار وهو يتصاعد من السائل الباهت، الذهبيّ تقريبًا. كان ذلك مستحيلًا، لكنني أقسم أنّني سمعتُ النبضات القليلة الأخيرة المُتعبة من قلب الرجل، وهو ينزف دمه أمامي.

أكّد لي توماس أنه حتى لو وصلنا بعد لحظات من الهجوم، فمن المحتمل أن موته كان فوريًّا. غمرني شعور مؤلم، عميقٌ في داخلي، متسائلةً عن احتمال نجاته لو قمتُ بضغط قطعة قماش على جرحه، بدلاً من طرق رأسه بارتياب. أيّ نوع من الفتيات اعتادت على الدم لدرجة أنها لا تهتمّ به مطلقًا؟ فتاةٌ فظيعة.

قال ناثنيل، وهو يقود الرجل من غرفة الضيوف: «إن كان هناك أي شيء آخر يمكننا القيام به، أيّها المحقق.» لقد نسيتُ حتى وجوده هناك. سمعتُ مقتطفات من حديثهم وهم يشقّون طريقهم إلى الباب الأمامي.

تمّ العثور على بطاقة هوية في جيب الرجل، مؤكّدةً أسوأ مخاوفي: لقد وصل شخص ما إلى السيّد دنلوب قبل أن أتمكن من استجوابه. لفّ الشعور بالذنب نفسه بإحكام شديد عليّ، حتى صعبَ عليّ التنفّس. كم من الرجال سيموتون قبل أن أكتشف الحقيقة؟

شربتُ الشاي المعطّر، وتركتُ الدفء ينزلق في حلقي حتى وصل إلى المريء، ليسخّنني من الداخل إلى الخارج.

لم أعرف شيئًا عن السيد دنلوب وحياته الشخصية، لذلك لم تكن عندي أدنى فكرة عن مَن يتمنّى موته. هل كان شخصًا يعمل معه؟ بالتأكيد، بدا طاقم ماري سي بأكمله قادرًا على القتل، لكن المظاهر مُخادعة بطريقةٍ مزعجة. اعتادت أمي على قراءة قصص من الكتب التي أحضرَتها من الجدّة. في البداية ترفّعتُ عنها، مُعتقدةً أن لا شيء جيد يمكن أن يأتي من مثل تلك الأغلفة البالية. لقد كنتُ مخطئةً ومتعجرفة. كانت الكلمات المكتوبة بين تلك الصفحات المجعّدة سحرية؛ كأميرة أسطوريّة مختبئة بين مُعدمِين. علّمَتني أمّي أنّ من السخافة الحكم على شيء من مظهره الخارجي، وهو درس حاولتُ تذكّرهُ كثيرًا.

جلبَت ذكرى التفافي في حُجر أمّي موجةً جديدة من الحزن. ما مقدار الموت والدمار الذي يجب أن تمرّ به الفتاة في حياتها؟ عندما فُتحَت الباب وأغلِقت، حبستُ دموعي، غاضبةً من نفسي لأنني لم أكُن أكثر قوّة. قعدَ ناثنيل على الكرسي ذي الظهر العالي أمامي، وانحنى لينظر في عينيّ. توقّعتُ منه توبيخًا على مغامرتي تلك، لكونها متهوّرة مثلي؛ لكنّه بدلًا عن ذلك، ابتسم.

حدّق في وجهي لثوانٍ طويلة، وهو حائر بين ما هو لائق اجتماعيًا وبين ما يضمن له الاطمئنان عليّ. قام بسحب مشطه المفضل، ومرّره خلال شعره، ثم أعاده ثانيةً إلى جيب سترته، قبل جوابه الأخير.

«ممتاز. سأتّصل به في طريقي للخروج. لا تُغلقي أيّة أبواب.» أخذ نفسًا عميقًا ونظر إلى القاعة. «رجاءً ابقوا في غرفة الطعام والصالون، وتأكدوا من الجلوس متباعدين. آخر شيء نحتاجه هو الشائعات. سيعود أبونا إلى المنزل في أقلّ من أسبوعين، وسوف يذبحنا كلانا إذا تلطّخَت سمعتُك. خاصّةً إنه...»

أغلق ناثنيل فمه واستدار. لم يكن ليُفلت مني بأسراره بهذه السهولة. هجمتُ عليه وأمسكت كمّه، لأجذبهُ نحوي.

«خاصّةً إنهُ ماذا؟ ما الذي لا تُخبرني به ناثنيل؟ هل عاد إلى لندن؟ هل ما زال مريضًا؟»

بدا أخي كما لو أنه يفضّل التحدّث مع المفتّش مرّةً أخرى، وصعدَ في جوفي شعورٌ رهيب. هززتُ ذراعه، وتعابير وجهي تتوسّل، حتى تنهّد. لم يستغرق الأمر وقتًا طويلاً لكي يستسلم لأخته الوحيدة، وشعرتُ ببعض السوء لاستغلالي هذا الضُعف.

«لقد استقبلَ والدكِ مُتّصلين في كلٍّ من المدينة والريف،» قالت العمّة أميليا بعد أن ظهرَت فجأةً من العدم. بدَت كنُسخةٍ أنثويّة من والدي وعمّي، طويلة، شقراء وجميلة. لن يتخيّل المرء أنها كانت في أوائل الأربعينيات من العمر. لقد جسّدَت العمّة أميليا جوهر ما تسعى إليه المرأة في جميع

الأوقات. كلّ شيء، من شعرها المصفّف بدقّة، إلى أقدامها المُزيّنة بالحرير، كان نقيًّا ورقيقًا.

حتى التعبير الملتوي المُستنكِر على وجهها بدا ملكيًا. «رغم أنه بعد فضيحة الليلة، والشائعات التي ستليها بالتأكيد، لستُ متأكّدةً من أنه سيُحقّق نجاحًا كبيرًا. لو لم أعرفكِ أكثر، لافترضتُ أنّكِ كنتِ تحاولين تدمير كل آفاقكِ المستقبليّة.»

حدّقت من خالتي إلى أخي. «لقد قلتَ أنه لم يغادر باث على الإطلاق.»

«هنالك شابٌّ يكتبُ إلى أبي منذ أسابيع. من بين ما علمتُ، أنّ لعائلته ارتباطٌ وثيق بالسياسة.» قام ناثنيل بتعديل بدلته. «اندماج عائلاتنا سيكون منطقيًّا. عاد أبونا إلى لندن للقائه، لكن ليومٍ واحد فقط.»

شعرتُ أنّ الأرض قد انشقّت في تثاؤب عملاق لتبتلعني بالكامل. لم أستطع التوقّف عن التفكير في لقاء أبي سرًّا بأزواج مُحتملين لي، في الوقت الذي كان من المفترض أن يتعافى فيه.

قلتُ: «لكنني لم أخرج إلى المجتمع بعد! لديّ عام كامل قبل أن أهتمّ بشؤون الحفلات والمناسبات. كيف يفترض أن أتعامل مع هذا بالإضافة إلى العمل مع العمّ وجرائم القتل الجارية في وايتشابل؟ لا أستطيع تصوّر كوني مرتبطة بأيّ شخص.»

ربّما باستثناء صبيّ واحد بروحٍ ماكرة. خطرَت ببالي فكرة. كانت عائلة توماس مرتبطة بالسياسة، على حدّ علمي، ونحن نتواصل منذ أسابيع. هل يمكن أن تكون مغازلاته حقيقية؟

رسمَت العمّة أميليا علامة الصليب على صدرها. «ستكون معجزة إن ظلّوا مهتمّين بهذا الاندماج الآن. لديكِ بعض الإصلاحات الجادّة للقيام بها. قمتُ بتنظيم جلسة شاي في مساء الغد. ستُقدّم لكِ خدمةً وافرة، للتفاعل مع فتيات في مثل سنّك ممّن يهتممنَ بأشياء لائقة. لا مزيد من الألعاب الطفولية أو مناقشات جرائم القتل، وبالتأكيد لا «عمل» مع عمّك وعلمه الخرافيّ. إذا علمَ والدك بهذا فسوف ينتكس. هل كلامي واضح؟»

حدّقتُ في أخي طلبًا للمساعدة، لكنه كان مشغولاً. «لكن...»

تفقّدَ ناثنيل ساعة الرواق، ثم نظر إليّ نظرةَ عطف. «حاولي ألّا تفكّري في ذلك الآن. أنا واثق من أن كل شيء سيكون على ما يرام. يجب عليّ الذهاب حقًّا. كان من المفترض أن ألتقي بكبير المتدرّبين قبل نصف ساعة.»

دون انتظار ردّي، رفعَ أخي قبّعته إلى العمّة أميليا ولي، ثم سارَ بخفّة أسفل المدخل وخرج من الباب الأمامي، تاركًا لي لوحدي التعامل مع آثار القنبلة التي ألقاها عليّ للتوّ.

لماذا اهتم أبي فجأةً بتزويجي، ومَن كان الرجل الغامض الذي يكتب عنّي؟ إن لم يكن توماس، فمَن؟ زحف شعورٌ مزعج مثل ثعبان عبرَ أحشائي. لم يعجبني هذا التحوّل في الأحداث، وسأبذل قصارى جهدي لمنع أيّة علاقة. شددتُ قبضتي.

«لقد أصبحَت الزيجات المُرتّبة عتيقة الطراز،» صرّحتُ على أمل جذب غرور عمّتي. «سوف يثرثر الناس بالتأكيد حول هذا الموضوع.»

قالت العمّة أميليا وهي تُصفّق بيديها وتتجاهلني تمامًا: «الأهمّ فالمهمّ.

أوّلاً حان وقت التخلّص من هذه الملابس المقزّزة المليئة بالدماء. ثمّ سنتناول مسألة شعرك.»

عصرَت أنفها كما لو كانت تراقب جرذًا يُنقّب في القمامة، وأحنيتُ رأسي. كان شعري آخر ما يخطر في ذهني بعد العثور على رجل ميّت.

قالت: «بصراحة، أودري روز، أنتِ أكبر وأجمل بكثير من الركض في الأنحاء كالمُسترجلات. أحضري إبرتكِ وخيطها لأسفل بعد الاستحمام؛ نحن متأخّرون بالفعل في العمل على صندوق زواجك[1].»

(1)صندوق الزواج: صندوق خشبي كبير يضمّ مُستلزمات وثياب العروس المُقبِلة على الزواج، وهو تقليد قديم لا يزال متبّعًا في بعض المُجتمعات. (المُترجِم)

12

علاقات عائلية

مسكن آل وادزورث، ساحة بلغريف

13 سبتمبر 1888

بعد ما يقرب من ساعتين، وبعض عبارات الموافقة اللطيفة، أوت عمّتي أخيرًا إلى فراشها، مقتنعةً بأنها خيّطت شقّ عدم لياقتي، غرزةً غرزة. لم يزعجها أنني وجدتُ رجلاً مقتولاً، طالما أنني صنعتُ زهور بنفسج وثيابًا جميلة للتعويض عن كسري للمحرّمات الاجتماعية. كما إنها أصرّت على أن تضيف خادمتي الجديدة المزيد من «المسحوق والتلميع» إلى روتين ما بعد الاستحمام الخاص بي. عندما جادلتُها بأنّ ذلك غير ضروري، وأنّ بإمكاني القيام بعمل جيّد بمفردي، رسمَت علامة الصليب وأعادَت ملء نبيذها، ثم أمرَت الخادمة بالاهتمام بشؤون جمالي كلّ يوم.

قاومتُ الرغبة في مسح الكحل الزائد عن عينيّ، خاصةً عندما ظلّ توماس يرمقني بنظراتٍ متعجرفة. لقد استمتعتُ بوضع المكياج مثل أيّة فتاة أخرى في عمري، لكنني فعلتُ ذلك بيدٍ أخفّ.

«تقول الشرطة أن ترسًا قد استُخدم لشقّ عنقه.» تململ توماس في

مقعده في غرفة الضيوف. رفضتُ السماح له بالتدخين في المنزل، وكان أكثر ارتعاشًا من المعتاد أثناء اطلاعي على مجريات التحقيق. دفعَ إليّ بإحدى مفكّرات عمّي الطبّية، وبقيَت أصابعه قريبةً من أصابعي، قبل أن يعود لتقليب مُفكّرته الخاصّة.

«كيف بحقّ السماء يتسبّب شخصٌ بهذا القدر من الضرر بترسٍ بسيط؟» سألتُه، وأنا أتحرّك في كرسيّي بتوتّر. كان من الغريب وجود توماس في منزلي دون إشراف، على الرغم من أننا قضينا وقتًا في التجوّل في لندن وريدنغ لوحدنا، وكانت عمّتي وابنتها على بُعد بضعة طوابق فوقنا. اعتقدتُ أن الأمور ستصبح أقلّ حرجًا بمجرّد البدء في مناقشة جريمة القتل، لكنني أخطأت.

«تحويل شيء كهذا إلى سلاح ليس بالأمر الصعب.» رفع فنجان الشاي الخاص به، لكنه لم يشرب قبل وضعه مرة أخرى، ونظراته متعلّقة بي. «إنه مصنوع من المعدن وله نهاياتٌ حادّة. يمكن لأيّ مجنون أو ثمل أن يقتل شخصًا به. أنا، شخصيًا، قمتُ بشحذ بعضها.»

لم تكن لديّ الطاقة العقلية لسؤاله عن سبب خبرته أو حاجته إلى شحذ التروس. تركتُ ذلك يمرّ، وظللتُ أركّز على القضية، وأمرّر أصابعي على طول المُفكّرة. «في أوّل جريمتي قتل كانت هناك تروس. لا يمكن أن تكون هذه مُصادفة غير مرتبطة بتحقيقنا الخاص. ألا توافق؟»

«عزيزتي وادزورث. علاقتك معي تزداد فائدةً كلّ ساعة.» قال توماس، وهو يرفع حاجبيه بشكل موحٍ، ناظرًا إلى شعري المضفور. «ذكاؤكِ... جذّابٌ للغاية. دعينا نشرب بعض النبيذ ثم نرقص. لقد قمتِ بالفعل بارتداء ما يلزم من أجلي ـ فَلنستغلّ الفرصة.»

مدّ يده إليّ، ورفع كفه، بابتسامة شرّيرة على وجهه.

«توماس، من فضلك.» دفعتُ يدهُ بعيدًا، واحمررتُ خجلاً. الرقص مع توماس دون مُرافق سيكون فاضحًا، ومغريًا للغاية، بالإضافة إلى إنه لن يحلّ هذا اللغز بشكل أسرع. «العمّة أميليا ستموت على الفور إذا دخلَت علينا في مثل هذا المشهد... غير اللائق.»

«هممم. نهايتها المفاجئة سوف تعفيكِ من المزيد من دروس التطريز، أليس كذلك؟ ربما ينبغي علينا تخطّي الرقص والاحتضان بشغف بدلاً منه.»

وبّختُه: «توماس!» قلتُ لنفسي إن اكتشفنا مَن هو القاتل مبكّراً، سأتخلّص من توماس كريسويل وطرقه الملتوية. كنّا سنقبّل بعضنا في الأزقّة الخلفيّة قبل أن أشعر بنفسي، عندها ستُصبح سمعتي حقًا في الحضيض. لم يُعجبني وقع خيبة الأمل التي واتتني مع فكرة عدم قضاء الكثير من الوقت معه.

«حسنًا إذن.» انحنى توماس إلى الوراء متنهّدًا. «أعتقد أن شخصًا ما كان يتجسّس علينا في حوض السفن. لا بد أنّهم سمعونا نتحدث عن السيد دنلوب. إنهُ الاستنتاج المنطقيّ الوحيد. إذا تمكنّا من التعرّف عليه، فأنا واثق من أننا سنجد قاتلنا.»

قلتُ بلا قدرة على منع نفسي: «وإذا كان لديّ تاج سأكون ملكة. بصراحة، إنها عبارةٌ سخيفة يا توماس. إذا، إذا، إذا... نحن بحاجة إلى شيء أقوى من ‹إذا› بسيطة، إذا كنّا سنوقف القاتل الشرس.»

لم تغِب المفارقة في عبارتي الأخيرة عن توماس. تسلّلَت ابتسامة بطيئة

عبر فمه وهو يميل إلى الأمام، ووجوهنا قريبة بشكل خطير. «إذا اشتريتُ تاجًا، فهل ستركضين حول قصر باكنغهام في ثوبكِ الداخليّ فقط، لتطلبي من الحرّاس السماح لكِ بالمرور؟»

«كُن جادًا» حذّرتُه، لكن ليس قبل أن أضحك على سخافة الصورة. «هل يُمكنك تصوّر مثل هذا الأمر؟ سأُلقى في البرج وسيرمون المفتاح في نهر التايمز للاحتياط. بئس المصير حقًا.»

«لا تخافي! سأجد طرقًا لإخراجك من سجنك، أيّتها السيّدة الجميلة.»

هززتُ رأسي. «رائع. سينتهي بك الأمر في الزنزانة المجاورة، وأنتَ تلعنُنا معًا.»

ضحكَ توماس بحرارة للحظات، وشرد بصره إلى شفتيّ ليثبت هناك. ابتلعتُ ريقي، وتذكّرتُ فجأة أنّنا كنّا لوحدنا، ولم يمكنني إيجاد سبب وجيه يوجب عدم تقبيله. كنتُ بالفعل مشكلةً في عيون المجتمع. لمَ لا احتضن دوري وأخوض القليل من المغامرة خلال ذلك. ستطلب ابنة العمّ ليزا معرفة كلّ التفاصيل... قد يكون القليل من القال والقيل ممتعًا. تقدّمَ لتقصر المسافة بيننا ببطء، بعد ملاحظته لردّ فعلي. تسارعَت نبضات قلبي، بينما بدت على وجهه جسارةٌ لطيفة. فكّرت: نعم، هذا جيّد. لم أستطع التفكير في قبلة أولى أكثر مثاليّة.

قامَ ضجيج قعقعة من مطبخ الطابق السفليّ بكسر التعويذة. فجأة جلسَ مستقيمًا على كرسيّه، يقلّب دفتر ملاحظاته المفتوح باهتمام شديد؛ وانخفضَت درجة حرارة الغرفة عشرين درجة على الأقل. دُهِشتُ لسرعة

تغيّره، وفكّرتُ بإضرام حريقٍ في المكان، رغم أنه لن يُصلح سلوكه المتجمّد. عدّلتُ كتفي، وجمعتُ أفكاري. حسنًا إذن، يمكن أن أكون متقلّبةً مثل توماس، إن كان يريد علاقتنا بهذا الشكل. لا نحتاج للضّحك أو حتى لأن نكون أصدقاء. في الواقع، لم يكن عليّ أبدًا أن أتحمّس له في البداية. لم أصدّق كيف أوشكتُ على تقبيله، هذا الوحش البائس.

على الرغم من ذلك، لأكون صريحةً مع نفسي حقًا، فسأعترف أنه كان من الجيد امتلاك صحبة بذلك الشكل غير الطبيعي في عيون المجتمع. لم يسمح أبي للأصدقاء بالدخول إلى منزلنا عندما كنّا نكبر، بوجود احتمال عدوى الإنفلونزا والجدري، لذلك لم أملك صديقًا مقرّبًا من قبل، وفاتني هذا النوع من العلاقات. مع كل جهود أبي، لا يزال المرض يجد طريقًا إلى منزلنا.

لم يُدرك والدي صعوبة الأمر عندما كبرتُ بما يكفي لتلقّي دعواتٍ لتناول الشاي. الآن احتجتُ إلى عمّتي وابنتها ليقُمنَ بتكوين صداقاتٍ لي. رغم ذلك لم أنزعج منه، لقد بذل قصارى جهده، حتى لو كان ذلك مدمّرًا.

«سآخذ هذا.» انتزعتُ دفترًا آخر من جانب توماس من الطاولة. يبدو أنه قد أخذ معظم دفاتر عمّي قبل مجيئه إلى هنا، وكان يُخفيها، إلى جانب مشاعره. لم يكلّف نفسه عناء رفع رأسه. ضبطتُ فكّي، وأعدتُ قراءة نفس الجمل القليلة، مجبرةً عقلي على إيجاد صلة بين الضحايا. اثنتان من بائعات الهوى، والآنسة سميث، وسائق عربة تحوّلَ إلى بحّار. أدركتُ أن معظمهم كان على صلة بأبي. الشخص الوحيد الذي لا يمكن ربطه به هو الآنسة آني تشابمان، التي قُتلت بأكثر الطرق وحشيّة.

أشار كل شيء إلى حقيقة أن الآنسة تشابمان لم تكن تعرف قاتلها، لكنّ

الآخرون ربّما عرفوه. ابتلعتُ ريقي بصعوبة، مع علمي بوجود شيء يتعيّن علينا القيام به على الفور.

«معذرةً.» وقفتُ جامعةً تنّورتي، مثل شهود صامتين، وخرجت من الباب دون انتظار وقوف توماس. إذا أراد أن يعاملني ببرود، فسأظهر له عدم الاحترام ذاته. لم أكن بحاجة إلى رجلٍ يدعمني. عليَّ شُكر والدي على ذلك؛ لأنّ غيابه في معظم أموري اليوميّة قد أعدّني جيّدًا، وبما يكفي، لأعتمد على نفسي.

مشيتُ بخفّة في الرواق، قبل أن أتوقّف مؤقتًا، لأستمع إلى أصواتٍ قادمة عبر فتحات التهوية المعدنيّة المزخرفة في الأرض. بمجرّد وصولي إلى مكتب والدي، توقّفتُ عند سماع صوت أحدهم يطرق الباب الأمامي. تسلّلتُ عائدةً إلى الممرّ ثمّ إلى غرفة الضيوف المُضاءة جيدًا، بينما كان الخادم يحيّي الزائر. آخر شيء احتجتُه هو أن يتمّ الإمساك بي وأنا أتفحّص أشياء أبي، لكنني تذكّرتُ شيئًا قالهُ ثورنلي جعل ذهني يدور بأسئلةٍ جديدة.

واصلَ توماس قراءة ملاحظاته، ولم أعِرهُ اهتمامًا، إذ جاهدتُ لسماع مَن كان يزورنا في تلك الساعة. اقتربَت خطى، وتظاهرتُ أنني منغمسة في القراءة. دخل الخادم الغرفة، في انتظار انتباهي له. نظرت إلى الأعلى بعيون بريئة. «نعم، كين؟»

«هنالك رجلٌ اسمه السيّد ألبرتس، حضرَ لرؤيتكِ، آنسة أودري روز. يقول أنه يعمل عند عمّك ومعهُ رسالةٌ عاجلة. إنّهُ يعتذر عن تأخّر الوقت. هل أصرفهُ؟»

هززتُ رأسي. «لن يرسل عمّي شخصًا إلا لأمرٍ مهمّ.» خاصةً إذا اعترضَ

أبي أيّة مراسلات يريد الحفاظ على خصوصيّتها. لا بدّ أنّ شيئًا ما قد حدث. ربما وجد رابطًا بين الجرائم ولم يستطع الانتظار حتى الصباح، أو ربّما اكتشفَ هويّة القاتل. تسابقَت التوقّعات في داخلي، ماحيةً كلّ شيء آخر من أفكاري. «أدخلهُ على الفور، من فضلِك.»

اختفى الرجل، وعادَ ثانيةً مع خادم عمّي. أمسكَ الرجل بقبّعة ديربي بالية، ودوّرَ حافّتَها مرارًا. بدا كما لو أنه قد واجه شيئًا فظيعًا. خفقَ قلبي بعنف في صدري. ربما كان يخشى مقابلة والدي ببساطة. من المؤكد أن عمّي قد باحَ بما فيه الكفاية على مدى السنوات القليلة الماضية عن أخيه القاسي، اللورد البائس إدموند وادزورث، الذي أخفى ظلامه وراء لقبه النبيل. أملتُ أن يكون هذا هو سبب قلقه.

«لديكَ رسالة من عمّي؟»

أومأ برأسه، وهو ينظر نحو توماس، بقلق متزايد. «نعم يا آنسة وادزورث. أخشى إنه ـ إنه شيء فظيع.»

عصر خادم العمّ قبّعته حتى اقتنعتُ أنها ستتمزّق إلى نصفين.

قلتُ: «تكلّم بحرّية، سيّد ألبرتس. ما الأخبار التي لديكَ عن عمّي؟»

ابتلع ريقه بصعوبة، وبدَت تفاحة آدم كعوّامة متحرّكة في حلقه. «لقد تمّ اعتقاله يا آنسة. أخذوه سكوتلانديارد في عربة بلاك ماريا[1]. قالوا إنه المسؤول عن جرائم وايتشابل... وإنه قد أصيبَ بالجنون.» توقّفَ مؤقتًا، محضّرًا نفسه لبقية الأخبار. «جاءَت شاهدةٌ تعرّفت عليه. قالت إنه هو

---

(1) بلاك ماريا: عربة سوداء تابعة للشرطة خاصّة لنقل المُعتقَلين. (المُترجِم)

الشخص الذي رأتهُ يتسلّل قرب مكان القتل. قال مُشرف الشرطة إنّهم يأخذون كل شخص مشبوه... بعد فظاعة... تقطيع... تلك السيّدات.»

انزلقت الملاحظات التي كتبها توماس من بين أصابعه، ورفرفت الصفحات على الأرض مثل رمادٍ بعد حريق. «ما نوع هذا الهراء؟»

هزّ ألبرتس رأسه، ألقى بصره على الأرض، وسرَت رعشة على طول جسده. «إنهم يفتّشون مختبرهُ الآن، بحثًا عن مزيد من الأدلة لإبقائه في السجن. يقولون إنها مسألة وقت فقط قبل إدانته وإعدامه. يقولون إنه... إنه ذو المئزر الجلديّ.»

«كين، من فضلِك أحضِر معطفي.» تحوّل انتباهي إلى توماس، الذي أُخِذَ على حين غرّة، فمهُ يتدلّى وعيناه ترمشان بعدم تصديق. احتجنا للذهاب إلى مختبر العمّ الآن، قبل أن يدمّروا حياته وكلّ أبحاثه. «ألبرتس، شكرًا لك على إبلاغنا بهذا...»

«على الأدب اللعنة يا وادزورث!» صاح توماس، متحرّكًا بسرعة عبر الغرفة إلى الصالة. «دعونا نُسرع ما دامَ هناك مختبر يمكن إنقاذه. أنت» ـ أشار إلى الخادم الثاني الواقف في الصالة ـ «جهّز عربةً سريعة كما لو أن روحكَ تعتمد على سرعتها.»

انتزعَ معطفي من كين، وعرض وضعهُ على كتفيّ، لكنني أخرجتُه من قبضته. عندما لم يتحرّك الخادم الثاني، أومأتُ إليه. «أرجو القيام بما طالب به السيد كريسويل بفظاظة.»

شخرَ توماس بعد أن اندفعَ الخادم للقيام بما طلبتُه. «نعم، بالتأكيد. أنا

الشرّير. يتم اعتقال عمّك، ومن المرجّح أن تُدمّر اكتشافاته العلمية من قبل البرابرة، ومع ذلك فأنا الفظّ. هذا منطقيّ تمامًا.»

«أنتَ فظّ بشكل يُثير الغضب. كونكَ وقحًا وصياحكَ على الناس لن يُنجز المهمّة بشكل أسرع.» وضعتُ معطفي وربطتُ الأزرار بأصابع بارعة. «لو طلبتَ منهم إحضار العربة بلطف لمَا كنّا ننتظر لغاية الآن.»

«أيّة حكمٍ أخرى يجب أن أضعها في الاعتبار، يا حمامتي؟» سأل ببرود.

«نعم، في الواقع، لن يقتلك أن تكون لطيفًا مع الناس. مَن يعرف؟» قلت مُلقيةً بيديّ في الهواء. «ربّما تجد أخيرًا شخصًا يمكنه تحمّلك. وعلى أيّة حال، يا لانحراف اهتمامك الأول بالمختبر وليس بحياة عمّي. أولويّاتك في حالة فوضى ميؤوس منها.»

قال وهو يتّجه نحو الباب الأمامي: «ربما لا أريد أيّ أصدقاء. ربما أنا راضٍ عن التحدّث بطريقتي ولا أهتم إلا في رأيكِ بي. اهتمامي الأول ليس مختبر عمّك، بل ما دفعهم إلى اعتقاله.» فرك توماس جبهته. «حتى الآن اعتقلوا أربعة رجال آخرين يمكنني التفكير فيهم، لجرم الإسراف في الشرب وإشهار سكّين. ما يقلقني هو ما إذا كانوا قد نقلوه إلى سجن أو إلى مصحّة.»

«كلاهما سيّء.»

قال توماس: «هذا صحيح، لكن من غير المُرجّح أن يتمّ إعطاؤه جرعةً من ‹المُهدّئات› في السجن.»

في اللحظات التالية، وقفَت العربة الأنيقة أمام منزلي، وبدا حصانها

الأسود خطيرًا. زفرَ الوحش، مُرسلاً نفحات من البخار في المساء الضبابيّ أصلاً. صعدتُ بنفسي إلى العربة، دون انتظار مساعدة من توماس أو السائق. كنّا بحاجة للإسراع. لم نعرف مقدار الضرر الذي تتسبّب به الشرطة لعمل العمّ الثمين. وإذا كان ما قاله توماس صحيحًا فيما يتعلق بالمصحّة... فلن أستطيع حتّى إنهاء الفكرة.

قفز توماس إلى مكانه الصغير، وانصبّ انتباههُ على الطريق أمامنا، وعضلات فكّه متوتّرة. لم أستطع معرفة ما إذا كان قلقًا بشأن عمي، أو منزعجًا لأنني أهنتُه. ربّما قليلاً من الأثنين. انطلق سوط السائق، وطِرنا في الشوارع بسرعة رائعة. كنا نجتاز عربات أكبر جرّتها الخيول، نتحرّك بخفة مثل النمر عبر غابة شوارع لندن المتمدّنة. بعد دقائق، توقّفنا عند منزل العمّ في هايغيت.

قفزتُ من الكابينة، وتنّورتي تضيف حجمًا ووزنًا إلى خطواتي الثقيلة بالفعل. كان رجال الشرطة ينقلون صناديق من الأوراق إلى خارج منزل العمّ. ركضتُ إلى شاب بدا أنه المسؤول.

«ما معنى هذا؟» سألت، على أمل أن يُجبرهم الخجل على التوقّف، ولو لفترة وجيزة. «ألا تحترمون الرجل الذي ساعد في القبض على المجرمين معظم حياته؟ ما الذي تريدونه من عمّي؟»

كان للضابط الحسّ الجيّد ليحمرّ خجلاً، لكنه رفع صدره البارز أكثر عندما قام توماس بصعود الدرجات، بخطواته المتبجّحة البغيضة. أعادَ الشرطيّ انتباهه إليّ، وفي عينيه الفاتحتَين، الزرقاوين بلون المُحيط، لمحة ندم. مع ذلك، لم تسقط دموعٌ مالحة منهما.

قال: «أنا آسف حقًا يا آنسة وادزورث. لو كان هذا قراري بمفردي، فسأصرف الجميع إلى حال سبيلهم. صدّقيني عندما أقول إنه ليس لدي شيء ضد عمّك.»

ابتسم بخجل، وهو شيء غريب على شخصية رجل لديه ثقة وبُنية لاعب أولمبيّ.

«في الواقع، لطالما أعجِبتُ بنوع العمل الذي قام به. مع ذلك، جاءت الأوامر من أعلى، ولا يمكنني تجاهلها، حتى لو أردتُ ذلك.»

كان من الصعب تخيّل شخص يتحدّث هكذا وقد اختار حياة رجل شرطة بسيط. ضيّقتُ عينيّ، ولاحظتُ الزينة الزائدة على زيّه الرسمي؛ لقد كان ضابطًا رفيع المستوى وليس شرطيًا بسيطًا، ومن النادر شغلهُ مثل هذا المنصب المحترم في سنٍّ مبكّرة. نقلتُ نظري مرّةً أخرى إلى وجهه. جعلَتهُ العظام الدقيقة والزوايا الحادّة لخدّيه وذقنه المربّعة وسيمًا للغاية. كان بالتأكيد من عائلة غنيّة، ومن ناحية الوجه، بدا كنسخةٍ أصغر سنًّا وأكثر وسامةً من الأمير ألبرت فيكتور، لكن بلا شوارب.

«ماذا قلتَ عن اسمِك؟» سألتُه.

دوّرَ توماس عينيه. «لم يفعل، وادزورث. وأنتِ تعرفين ذلك. استمرّي في المغازلة حتى نتمكّن من تحقيق هدفنا الفعليّ من القدوم إلى هنا.»

حدّقتُ في توماس، لكن الشابّ لم يكترث له. «أعتذر عن وقاحتي يا آنسة. أنا كبير الضبّاط المُشرف ويليام بلاكبيرن، المسؤول عن الأربعمئة وثمانين ضابطًا هنا في هايغيت.»

بدا اسمه مألوفًا بشكل غامض، لكنني لم أستطع تحديد أين سمعتُه. ربما قرأتُه في بعض الصحف بخصوص جرائم القتل السابقة. قاطع توماس أفكاري المشوّشة. «يبدو أنكَ وظّفتَ كلّ واحدٍ منهم لوطء هذا المنزل،» تمتم، وهو يُبعد أحد الضبّاط جانبًا، قبل أن يتقدّم لتقييم الوضع بنفسه.

أردتُ أن أخنقهُ لوقاحته البالغة. قد يكون بلاكبيرن قادرًا على منحنا إجابات لم نكن لنعلم بها. على الرغم من ذكائه الفائق، كان توماس جامدًا في التعامل مع الناس. إن تعيّنَ عليّ عقد صداقة مع الشيطان لأجل مساعدة العمّ، فليكن ذلك.

وجدتُ نفسي أعتذر: «إنه ذو كبرياء عالٍ بعض الشيء، من فضلِك اغفر سلوكه غير المهذّب. يُمكن أن يكون...» سكتٌّ. لم يكن توماس كريسويل جذّابًا بنظر أيّ شخص غيري، من حينٍ إلى آخر، ولم يكن مهذّبًا حتى في أيّامه الجيّدة. كانت أمّي لتطلب مني السكوت عندما لا أجد كلمة لطيفة، وهذا بالضبط ما فعلتُه.

ابتسمَ لي المُشرف بلاكبيرن بخجل وقدّم لي ذراعه. تردّدتُ للحظة قبل أن أشبك ذراعي بها. العَبي بلطف، أودري روز، ذكّرتُ نفسي. «سأرافقكِ إلى الداخل، وسأبذل قصارى جهدي لشرح سبب اعتقال عمك.» توقّفَ ونظر حوله، قبل أن يميل نحوي، لأشمّ رائحةً مألوفة من بشرته. «أخشى أنّ الأمر لا يبدو جيّدًا بالنسبة له يا آنسة.»

13

مُخطّطات وبراغي دامية

مختبر د. جوناثان وادزورث، هايغيت

13 سبتمبر 1888

كان الدخول إلى مختبر قبو العمّ مع ضيوف غير مدعوّين يبحثون فيه مثل جامعي القمامة كابوسًا فريدًا، نزعَ الأربطة بين عظامي.

كل كتب عمّي، مذكّراته، ويوميّاته غابَت بشكلٍ مؤلم. شعرتُ أن أحد أضلاعي قد قُطِع، ممّا جعلني ألهث لالتقاط أنفاسي، مع فقداني لجزء منّي. بعد أن تركتُ ذراع بلاكبيرن، استدرتُ في مكاني ببطء، وعيناي لا تعقلُ ما ترى. إن كان هذا حلمًا، فقد تمنّيتُ أن أصحو من فظاعته قريبًا. مع ذلك، راودَني شعورٌ رهيب بأنّ هذه مجرّد بداية لسلسلةٍ من الكوابيس المروّعة.

كانت جرار العيّنات هي الأشياء الوحيدة التي بقيت على حالها، وراقبَت العيون الباهتة المحفوظة تلك الفوضى بحُكمٍ صامت. آه، كم تمنّيت أن أغدو مثل هؤلاء الموتى، الذين لا يشعرون بشيء الآن. أيّ شيء سيكون أفضل من الواقع الذي وقفتُ وسطه. لقد تمّ تدمير ملاذي طوال هذه الأشهر في غضون ساعاتٍ قليلة، على أيدي رجالٍ لا يكترثون قيد أنملة بهذا العمل.

«... بالإضافة إلى تاريخه في تشريح الجثث، ومعرفته في الطبّ وقفا ضده.» قال المُشرف بلاكبيرن، لكنني لم أستطع التركيز على كلماته. الحمد لله أن عمّي لم يكن هنا؛ وإلا انكسر قلبه إلى نصفين.

شاهدتُ بعجز ضابطًا يُصارع مجلّدًا مذهّبًا ضخمًا، كان العم يمسحه قبل أيّام قلائل على الرفّ، ويضعه في صندوق كما لو كان حيوانًا مسعورًا، جاهزًا للانقضاض عليه. وددتُ لو أنّ ذلك ممكن الحدوث. أخرجَ بعدها صندوقًا صغيرًا احتفظَ به عمّي في مكتبه، فانزلقَ غطاؤه لتتناثر المسامير والبراغي على الأرض، ممّا أدّى إلى توقّف التحقيق. انحنى الضابط لاسترداد الأشياء، وأبدى نظرة صدمةٍ واشمئزاز عندما قام، وحملها إلى مسؤوله ليراها.

كانت البراغي مكسوّة بلون قرمزيّ صدئ، لا يمكن أن يكون إلا شيئًا واحدًا. تجمّد دمي في عروقي عندما قابلَت عيناي نظرة توماس المُندهشة عبر الغرفة. «أنا بحاجة للتحدّث مع عمي. أحتاج... يمكنني أن أشرح... أنا فقط...»

وضعَ أحدهم كرسيًا بجواري وارتميتُ عليه فورًا؛ كان الأمر كما لو أن الأوكسجين قد تمّ تفريغه من المختبر، بجهاز جديد يعمل بالبخار رأيتُ إعلاناته عبر لندن. بماذا كان العمّ يفكر، عندما سرق الأدلّة؟ تلك البراغي من مشاهد جرائم القتل وتعود إلى سكوتلانديارد. لقد وضعَ العمّ نفسه عن غير قصد في مكان المُشتبه به الرئيسي، ولم تكن لديّ أدنى فكرة عن كيفيّة مساعدته، أو حتى إلامَ ألجأ للحصول على المساعدة.

يفضّل أبي رؤية أخيه مشنوقًا على مساعدته بأيّ شكل من الأشكال، على الرغم من علاقاته القويّة. أمّا ناثنيل، ومع رغبته في المساعدة ولو من أجلي

فقط، فعلى الأرجح لن يفعل شيئًا يُغضب أبي أو يتسبّب في فضيحة أكبر، ستقع على اسم عائلة وادزورث. لا سيّما خبرٌ بهذا الحجم، من المؤكد أنه سيتصدّر الصحف بمجرد أن يشمّ الصحفيّون رائحته.

مما لا شكّ فيه أن العمّة أميليا كانت تُقيم حفلاتٍ فخمة وتحضر الكنيسة يوميًّا، على أمل صرف انتباه الناس عن ارتباطها بأخيها المكروه. ثمّ هُناك جدّتي لأمّي. لم تكن لها روابط مع جانب أبي في الأسرة، لذلك لن تشعر بضرورة للاشتراك في الفضيحة. ليس بدافع الخبث، لكن من منطلق كرهٍ شديد لرجال وادزورث بشكل عام. ألقت جدّتي علنًا اللوم على أبي في مرض أمّي، وجعلَت من الواضح أنّهُ «إذا وقف وادزورث، ينظر إلى حشدٍ من الناس، وهو يستعدّ للشنق جزاءً لجرائمه، سأكون في الأمام والوسط، أقومُ بالتفرّج والتهليل.» قبل أن توزّع بعض الحلوى الهنديّة المنزليّة على جميع الحاضرين. في كلّ مرّة تَراسلنا فيها، كانت تبحث عن أعذار لتوضيب حقائبي ودفع رسوم المرور لزيارتها في نيويورك؛ سيكون هذا مثاليًّا. من المستحيل أن أغادر لندن الآن.

قال بلاكبيرن لضابط: «انهب المختبر، إن كان ذلك ضروريًّا. فقط قُم بذلك بعناية.»

أخرجَني ذلك من خيالي، وحدّقتُ في كبير الضبّاط، قبل أن أدرك أنّ توماس يصارع من أجل إحدى المفكّرات بالخصوص: مفكّرته.

«لا بدّ أنكَ مجنون! لن أسلّم ممتلكاتي.»

ركع المُشرف بلاكبيرن أمامي، ولم يعد مظهرهُ لطيفًا. حدّقتُ في خصلات

شعره الباهتة. على عكس قَصّة شعر أخي الدقيقة، كان شعره متوحّشًا غير قابل للترويض، وهو يتجعّد حول صدغه مثل الثعابين، مُناسبًا لكونه وحشًا ذا دم بارد.

«أعرف أن هذه الكثير من الأمور التي يجب استيعابها في نفس الوقت، آنسة وادزورث، لكنني أخشى أن يكون هنالك المزيد.» أشارَ إلى الضابط الذي صارعَ توماس بأن يترك المفكّرة الوحيدة التي أحضرَها توماس معه، إذ لم تكن جزءً من المكان. «لدينا شهودٌ تقدّموا بشهادات، تضع شخصًا مطابقًا لأوصاف عمّك في مسرح آخر جريمتَي قتل.»

عادَ انتباهي بالكامل إلى الواقع، ورمقتُ بلاكبيرن كما لو إنه هو المجنون.

«حقًا؟ كم عدد الرجال المطابقين لأوصاف عمّي في لندن؟ يُمكنني إحصاء ما لا يقلّ عن عشرة الآن، أحدهم حفيد الملكة، الأمير ألبرت فيكتور إدوارد. ماذا؟ هل ستقول أنّ دوق كلارنس وأفونديل متورّط في جرائم القتل هذه؟ أنا متأكّدة من أنّ الملكة ستحبّ ذلك. في الواقع...» حدّقتُ في وجهه «تبدو كما لو كنتَ الأخ الأصغر للدوق. قد تكون أنتَ متورّطًا؟»

استاء المُشرف بلاكبيرن من انتقادي غير اللائق، الذي شملهُ هو والرجل الثاني لولاية العرش. أخذتُ نفسًا عميقًا محاولةً الهدوء. لن أنفع أيّ شخص إذا اعتقلوني بتهمة خيانة التاج الملكيّ. ثبّتُّ صوتي. «بالتأكيد هذا ليس سبب اعتقالك له. تبدو شابًا ذكيًا جدًا، لا يعتقل شخصًا ما على أساس إشاعات، يا كبير الضبّاط.»

هزّ بلاكبيرن رأسه. «أعتذر عن نقل الأخبار غير السارّة يا آنسة. أنا آسفٌ

حقًا.» تحرّك على قدميه، محاولاً الحفاظ على توازنه، بينما لا يزال جاثمًا على الأرض أمامي.

«لقد وجدنا أيضًا بعض المخطّطات والرسوم المُزعجة إلى حدٍّ ما، لهذه الآليّات التي توصف بأنها...» توقّف مؤقّتًا، وتحولّت أطراف أذنيه إلى اللون الوردي الخفيف. أشرتُ له بالمتابعة. «سامحيني، لم أرغب في تجاوز حدودي. لكن يبدو أنها أجهزة تعذيب. تتلاءم بعض أفكارها مع الأجزاء الميكانيكية التي وجدوها سكوتلانديارد في مشاهد القتل. يعتقدون أنّ لا شخص سيقدر على بناء مثل هذه الفظائع، إلا لو كانت لديه معرفةٌ دقيقة بالجريمة. كما قلتُ سابقًا، يمتلك عمّك هذه المعرفة. الآن لدينا رسوماتٌ لأجهزةٍ مُماثلة وُجدَت في مختبره.»

أومأ برأسه نحو الضابط الذي اكتشف للتو البراغي المخفيّة. «ثم هناك مسألة تلك الأجزاء. أنتِ فتاةٌ ذكيّة. أنا متأكد من أن بإمكانكِ استنتاج ماهيّة تلك المادة الداكنة دون أن أقولها. أريد حقًا تصديق أن عمّك بريء ـ لكن هناك كلّ هذه الأشياء التي تقول عكس ذلك. لا يُمكنني تجاهل ما أراهُ أمامي، حتى لو أردتُ ذلك. يريد الناس أن ينتهي هذا.»

«سمعتُ أن هناك ما لا يقلّ عن أربعة رجال رهن الاحتجاز بسبب نفس الجرائم» قلتُ على أمل إثارة الشكوك حول قضيّتهم. «اثنان منهم في المصحّات. هذا بالتأكيد في صالح عمّي. لا يمكن أن يكونوا كلّهم مُذنبين.»

«نحنُ لا نستطيع المجازفة ببساطة. أؤكد لكِ أنه سيتمّ الاعتناء بعمّك في مستشفى بيثليم الملكيّ، آنسة وادزورث.»

«ماذا؟» لم أصدّق أن هذا كان يحدُث. جمعتُ أفكاري الغاضبة وحجزتُها في قفص، بغيةَ ترويضها. لقد احتجتُ للحفاظ على الصفاء الذهنيّ، لكن الأمر صعبٌ، مع تَوقي لهزّ هؤلاء الرجال حتى يُفيقوا من أوهامهم قصيرة المدى. كان مستشفى بيثلم الملكي، المعروف للجميع باسم بيدلام، مروّعًا. لا يمكن لعمّي أن يبقى هناك.

«يجب أن تصدّقني» همستُ، والدموع الغاضبة تحرق عينيّ. «أعرف كيف يبدو الأمر، لكنّني أؤكد لك أن عمّي رجل بريء. إنه عبقريّ، ولا ينبغي معاقبته لإيجاده الطريقة الصحيحة للبحث. إنّهُ يعيش ويتنفّس الحالة التي يكون متعلّقًا فيها. أنا واثقة من أن لديه الكثير من الأسباب الوجيهة لامتلاك هذه الأشياء. ربّما قام بعمل تلك الرسومات بعد حضوره مشهد الجريمة. تحتاج ببساطة إلى سؤاله. هذه هي الطريقة التي يعمل بها... يجب أن تعلم ذلك.»

أعطاني بلاكبيرن نظرة شفقة. لن أجد أيّ عونٍ هنا. كان يؤدي الواجب الذي أدّى اليمين لعمله، ولن يُطلق سراح عمّي بناءً على إنكاره للتورّط فقط. سيحتاج إلى دليل، حتى لو جاءهُ ملفوفًا في كفنٍ آخر. أغلقتُ فمي ووقفت. إذا بقيتُ لفترةٍ أطول، سأخاطر بأن يتمّ نقلي إلى بيدلام شخصيًّا. قد يكون عمّي بريئًا، لكنني سأكون مذنبةً بضرب هؤلاء المتوحّشين، باستعمال مظلّتي الخاصة إن لزم الأمر. أشرتُ إلى توماس، الذي حدّق في الشرطة بشكلٍ جماعيّ، ثم انطلقتُ خارجةً من الغرفة مثل عاصفة تندفع في الشوارع، لتنظّف حبيبات التراب بأمطارٍ غزيرة. ليذهبوا جميعهم إلى الجحيم.

14

السيّدات اللائقات لا يناقشنَ الجثث

مسكن آل وادزورث، ساحة بلغريف

14 سبتمبر 1888

كان الوقوف عند مدخل غرفة الطعام في بيتنا أشبه بالتحديق في شيء مألوف، لكنّه غريب بشكل لا يمكن إنكاره. شعرتُ بالدوار من كثرة التحضيرات الموضوعة في المكان. تمّ ترتيب نباتات مُشذَّبة صغيرة على الطاولة، جنبًا إلى جنب مع عدّة باقات عالية من أزهار الدفيئة الغريبة. انتظرَت أكواب البورسلين ذات اللونين الوردي والأبيض سائلها الدافئ، بينما كانت الأطباق المُطابقة لها جاهزة.

قالت ليزا وهي تدخل الغرفة: «تبدين كما لو كنتِ تتوقّعين رؤية شفرة مقصلة، يا ابنة الخال. ليس الأمر كما لو أنّ الذئاب ربّتك. لم تفُتكِ سوى بضعة أشهر من القيل والقال، وسوف تلحقين بنا بأسرع وقت. إذا كنتِ تستطيعين التعامل مع الدم والأشياء المروّعة الأخرى، فلن يُمثّل بعض الدانتيل والشاي شيئًا لك.»

حوّلتُ انتباهي بعيدًا عن الطاولة، إلى ابنة عمّتي. بدت مثل أمّي

للحظة وجيزة، فاستقرّت أعصابي وابتسمت. إذا كانت العمّة أميليا تجسيدًا لما يجب أن تطمح إليه جميع السيّدات الشابّات، فَليزا تلميذتها اللامعة، باستثناء أن ليزا لديها طريقة رائعة في الاستهزاء بالتقاليد، عندما يُناسب ذلك مفاهيمها الرومانسية. لقد كبرنا ونحنُ نلتقي مرّتين فقط في العام، لكن ذلك لم يمنعها من القول بأننا أفضل أصدقاء. كانت تكبرني بثلاثة أشهر، الأمر الذي جعلها، في رأيها، أكثر حكمة في جميع الأمور، خصوصًا فيما يتعلّق بالقلب.

كان شعرها ـ الذي تراوح لونه بين الكراميل والشوكولاتة ـ ملتويًا بتصميم معقّد حول قمّة رأسها. أحبّ أن أعمل شعري بطريقةٍ مُماثلة. أمّا فستانها المصنوع من الحرير المائي، فَكان من أروع ألوان اللافندر التي رأيتُها على الإطلاق. لاحظتُ خياطته الرائعة، وخطرَت في بالي لمحةٌ من آخر جثّةٍ خيّطتُها. بلا فخر، غرزتي كانت بنفس الجودة، أو أفضل قليلاً.

«أليس هذا رائعًا؟»

«يمكنك قول ذلك» أجبتُها، قبل أن أوقف نفسي.

التفتَت إليّ ليزا مبتسمة. «يمكنك لعب لعبة القيل والقال بشكل جيّد اليوم، ثم الانطلاق في أعمال التحقيق السرّي الليلة. ستكون كالروايات!» صفّقَت بيديها. «كم هذا مثير! ربما أرافقكِ في بعض مغامراتك. هل هناك أولادٌ وسيمون للمغازلة؟ لا شيء أفضل من القليل من الخطر، الممزوج ببعض الرومانسيّة.»

تحوّلت أفكاري إلى وجه توماس، وضحكَت ليزا ثانيةً، بصوتٍ شابه رنين الأجراس في قصّةٍ خيالية. احمرّ وجهي، وأنا أكافح لاستعادة رباطة جأشي.

«ليس صحيحًا.»

«لا تنكري، ابنة الخال! هذا هو الجزء الأفضل! آه، لديّ فكرة. تعالي.» سحبَتني ليزا إلى أسفل الردهة، وصعدنا الدرج، إلى الغرفة التي أعددناها لإقامتها. قبل أن تُغلق الباب، قامَت بتفقّد الممرّ، بحثًا عن والدتها. لكن العمّة أميليا كانت تتجوّل بالقرب من المطبخ، وتقود الطاقم مثل عقيدٍ في حالة حرب.

شعرَت ليزا بالرضا لكوننا وحيدتين، وقادَتني إلى منضدة التزيين الخاصة بها، قبل أن تُخرج مجموعة أدوات تجميل أكثر تعقيدًا بكثير من أدوات التشريح الخاصّة بي. «إذن، ما اسمه؟»

قامت بتمرير فرشاة عبر شعري، وسحب ولفّ الخصلات السوداء بسهولة وخبرة. اصطكّت أسناني، ولم أرغب في إظهار مدى انزعاجي من التمشيط القاسي أو من موضوع الكلام. بالتأكيد إن كان بإمكاني مُجالسة عمّي في مختبره، فيمكنني تحمّل هذا. وبّختُ نفسي على الفور. عمّي محجوزٌ في مصحّة بينما كنتُ أقوم بتصفيف شعري. يجب عليّ الحفاظ على منظور الأمور.

«اسم مَن؟» سألت، مُبعدةً ذهني عن الأشياء غير السارّة. لسببٍ ما، كان توماس سرًّا أودّ الاحتفاظ به.

«كفّي عن الخجل. الفتى الوسيم الذي سرق قلبك، هذا هو!»

تراجعَت ليزا، مُعجبةً بعملها، قبل أن تُمسك الكحل. حاولتُ ألا أتراجع. لقد خططتُ عينيّ بالفعل، ولم أرغب في أن أبدو شيئًا لم أكُن عليه. كنتُ قد رفضتُ بالفعل أحمر الشفاه الثقيل الذي حاولَت خادمتي وضعه لي.

قالت ليزا: «أخبريني بكلّ شيء عنه. مظهره، لون عينيه. هل يريد أن يهرب معك إلى جنّةٍ رائعة الجمال... كم من الأطفال ستُنجبان. أتمنى أن يعزف على البيانو. يجب أن يُتقن الرجال الجيّدون مهارات عديدة. آه! أخبريني إنه ذكي للغاية ويكتب لك شعرًا رومانسيًا. أراهن أنه ينظم قصائد شكسبيريّة على ضوء القمر، والنجوم تتراقص في عينيه، أليس كذلك؟»

نظرتُ إلى أسفل، بحثًا عن طريقة للخروج من المحادثة، لكن ابنة عمّتي أمسكَت بذقني، وأجبرتني على النظر إلى أعلى وهي تُكحّل عينيّ. رفعَت حاجبًا بانتظار ردّي. كان العناد سمةً ورثَتها من جانب وادزورث من العائلة. تنهّدت. ألم أتطلّع إلى مشاركة هذا النوع من الأمور معها قبل أيام قليلة؟

قلت: «عيناه بنّية ذهبية حينَ يفتنهُ شيءٌ ما. إنه ملكيّ المظهر ووسيم، لكنه مهتمّ بالمعادلات وحلّ الجرائم أكثر من اهتمامه بي أو بالشعر. يتصرّف بدفء شيطاني في لحظة، ثم بجمود في اللحظة التالية. لذلك لن يكون هناك أطفال أو جنّةٌ جميلة في مستقبلنا. في معظم الأوقات لا أستطيع حتّى تحمّل وجوده. غطرستهُ... لا أعرف، مُزعجة.»

«هذه سخافة. عادةً ما تُخفي الغطرسة شيئًا ما تحتها، ومن واجبك اكتشافها.» قامَت ليزا بضغط شفتيّ بأصابعها، ثم هزّت رأسها. «إنه حقًا أمرٌ مأساويّ.» أعطَتني منديل. «الآن اضغطي.»

قمتُ بمحاكاة حركتها في تجفيف شفتيّ بالمنديل، مع الحرص على عدم تلطيخ اللون الذي وضعَته. عندما انتهيتُ من إرضائها، أومأت برأسِها، ثم أشارَت إلى مرآة طاولة الزينة. «ما المأساويّ؟»

رفعَت حاجبَيها. «أنتِ مغرمةٌ به، وهو بالتأكيد واقعٌ في غرامِك، وكلاكما بليد.»

قلتُ وأنا في مواجهة المرآة: «صدقّيني، إنه هو الأحمق.»

«حسنًا، يجب أن نُظهر لولدِك الأحمق هذه الفتاة، إذن. أنا متأكد من أنّكِ ستصبحينَ معادلةً يستمتع في حلها للغاية.» نقرَت على أنفي. «استخدمي ما تملكين مثل السيوف، يا ابنة خالي. لم يخترع رجلٌ مشدًّا لعقولنا. دعيهم يعتقدون أنهم يحكمون العالم، لكن مَن يجلس على العرش ملكة. لا تنسَي ذلك أبدًا. لا يوجد سبب يمنعك من ارتداء فستان بسيط في العمل، ثم ارتداء أجمل فستان والرقص طوال الليل... لكن فقط إذا كان ذلك يحلو لكِ أنتِ.»

حدّقتُ في ليزا لبضع لحظات، ورأيتُها في شكلٍ جديد تمامًا. أومأت نحو المرآة مرةً أخرى، كأنّها علمَت بطريقة ما أنني لم أرَ نفسي حقًّا من قبل. أشرقَ انعكاسي عليّ، كما لو أن السماوات نفسها كانت تُنيرني. اصطفّت خصلات شعري الداكنة على رأسي، وبدت عيناي أكثر غموضًا مع الحدود الغامقة، وشفتاي قرمزيّة لامعة كالدّم الطازج. كنتُ جميلةً وخطيرة في آنٍ واحد... وردةٌ بأشواكها، بالضبط مَن أردتُ أن أكون.

«آه.» استدرتُ من جانب إلى آخر، مُعجبةً بمظهري الكامل. «إنه جميل ليزا. يجب أن تعلّميني كيف أقوم بذلك.»

فكّرتُ في أمّي وثياب الساري التي أحضرَتها معها من موطن جدّتي. شعرتُ بكوني مُذهلة الآن كما في ذلك الوقت، ودفّأتني الذكرى. اعتادت

أمّي أن تُلبسنا الملابس وتوظّف طباخًا لإعداد أشهى المأكولات الفاخرة المتبّلة لنا كلّ شهر، على أمل الحفاظ على تقاليد الهند حيّةً فينا. شارك أبي بسعادة في عشاءاتنا العالمية، حيث كان يأكل الرايتا والمعجّنات المقليّة بيديه. كنا نسحب ناثنيل إلى ولائمنا، لكنه عارضَ دائمًا تناول الطعام دون أدواتٍ فضيّة. كان يقول: «لا أستطيع تحمّل هذه الفوضى» ثم يغادر في بدلته الصغيرة. كم اشتقتُ إلى تلك الأيام البسيطة. نظرَت ليزا على ملابسي، ثم فتّشَت على الفور في صندوقها، راميةً الفساتين والكورسيهات فوق رأسها، حتى استقرّت على أحدها.

«ما المشكلة في ثوبي؟» سألتُ، لامسةً تطريز الوردة على التنّورة. «لقد صُنعَ هذا للتوّ.» وهو جميلٌ جدًا.

قالت ليزا: «ليس هناك خطأ فيه، يا سخيفة. لكنّني أحبّ أن أراكِ في ثوب الشاي الخاصّ بي. هذا هو.»

تم إلقاء ثوب من الدانتيل الكريميّ بتنّورة وردية فاتحة اللون على رأسي وربطه في ظهري قبل أن أعرف حتى ما كان يحدث. قامت ليزا بمسح يديها بعد الانتهاء، مسرورةً بجهودها. «ها أنتِ، رائعة. تمنّيتُ دومًا أن يكون شعري داكنًا مثل شعرك، إنه يجعل اخضرار عينيكِ زمرّديًا.»

وقفتُ هناك، أحدّق في صورتي، التي بدت كتناقض صارخ لواقع العالم وما يجري فيه. كنتُ هنا، ألعب لعبة ارتداء الملابس، بينما عمّي في المصحّة، والقاتل يذبح النساء البريئات. ثبّتَتني ليزا قبل أن أرتمي على المقعد.

«أعلم،» أومأت بحكمة، مُسيئةً تفسير أفكاري «إنه ثوب رائع. يجب

عليك الاحتفاظ به. تعالي، حان الوقت لتحيّة ضيوفنا. سمعتُ أن فيكتوريا وشقيقتها ريجينا قادمتان. يعمل والدهم شيئًا ما في البرلمان، وسمعتُ أكثر الشائعات إثارةً للاهتمام...»

شعرتُ كأنني أراقب الأحداث عبر عيون شخص آخر، وهي تنكشف أمامي. جلسَت العمة أميليا على رأس الطاولة، كملكةٍ تترأس جلسة تناول الشاي الملكيّ. جلست ليزا على يميني، بينما النبيلة فيكتوريا إدواردز على يساري، وأنفها المدوّر متّجه نحو الأعلى بشكلٍ ثابت.

اختلفَت جلسات الشاي الملكيّ عن الشاي الراقي بأنها تبدأ بكأس من الشمبانيا، ولا تشمل العشاء. هذا ما تذكّرتُه. تمّ وضع السندويشات والموالح والكعك والحلويات على الطاولة، أغلى وأشهى من جميع أنواع الجبن والأطعمة الفاخرة المستوردة، المفضّلة لدى ناثنيل، مُجتمعةً.

أثّرَ اعتقال عمّي على أعصابي، وجعلني كثيرة النسيان. لقد مرّت أشهر قليلة منذ آخر مرة حضرتُ فيها مثل هذا الشاي الرسمي، وعلى الرغم من أنني لم أهتمّ به، إلا أنني لم أكن عادةً بهذا التشتّت. حرّكتُ الشاي ثم وضعتُ ملعقتي خلف الكوب، كما كان مُناسبًا.

التفتَت فيكتوريا إليّ، بابتسامة خفيفة ثابتة: «أنا آسفة جدًا لسماع خبر عمّك، أودري روز. لا بدّ أنّهُ من الصعب للغاية وجود مجرم قاسٍ كهذا في العائلة.»

كنت قد تناولتُ للتوّ قطعةً من ساندويتش الخيار، وبالكاد ابتلعتُه لدهشتي. هبَّت ليزا لتُنقذني بلسانها السريع.

«يا له من عار. إن كان بإمكانهم اتّهام شخص ما بعبقريّة وشهرة خالي، فَمن المؤكد أن بوسعهم اتهام أيّ شخص. ربّما...» ـ انحنَت إلى الأمام، وصوتها ينخفض إلى حدّ الهمس ـ «سوف يضعونَ أعينهم على أعضاء البرلمان بعد ذلك. من شأنه أن يصنع قصةً مُثيرة، أليس كذلك؟»

حتى تلك النقطة الأخيرة، كانت العمّة أميليا تبتسم وتومئ برأسها، فخورة باستجابة ابنتها المناسبة. عندما ابتسمَت ليزا إليّ، تحوّلَ وجه عمّتي إلى الأحمر الغاضب. عدّلَت ظهرها، ثم مسحَت فمها بمنديل دانتيل من صنع أيدينا.

«الآن، يا فتيات» ـ نظرت بيننا ـ «دعونا لا نسمح لخيالنا بالابتعاد عنّا. لا ينبغي لنا الثرثرة أو التكهّن في مثل هذه الأمور. هذا ليس مهذّبًا.»

أصرّت ليزا قائلة: «لكن هذا صحيح يا ماما،» تجمّعَت نحوها النظرات الفضوليّة من حول الطاولة. «بعض أفراد العائلة المالكة موضع شكّ. الجميع يتحدّث عن هذا في لندن.»

بدَت العمّة أميليا وكأنّها ابتلعَت بيضةً كاملة. بعد لحظة، ألقَت رأسها للخلف وضحكَت، بصوتٍ أكثر قوّة من ابتسامتها الرقيقة. «أرأيتِ؟ هذا بالضبط سبب كون الحديث عن مثل هذه الأشياء مضيعة للوقت والجهد. لن يكون أيّ ملكيّ حقًا موضع شك. الآن، مَن يرغب في المزيد من الشاي؟»

واجهَتني فيكتوريا، التي استاءَت من موضوع المحادثة، مرّةً أخرى. «تبدينَ جميلةً إلى حدٍّ ما هذا المساء، أودري روز. لأكون صادقةً تمامًا، لم أكن متأكّدة ممّا تمّت دعوتنا إليه، بالنظر إلى الشائعات التي تدور حول ارتباطك بهذا المُساعد الغريب لعمّك. ما اسمه، السيّد كريسويل؟»

أومأت فتاةٌ أخرى، اعتقدتُ أن اسمها هازل. «نعم، بالتأكيد. لقد سمعتُ عنه من أخي. يقول أن شعوره مُشابه لشعور المكائن.» ابتسمَت بخبث. «على الرغم من أنني سمعتُ أنه ذو مظهر جيّد للغاية، وأنّ عائلته نبيلة. لا يمكن أن يكون ذلك سيّئًا.»

«لقد أخبرَني السيد ويليام برادلي أنّ لديه شقّته الخاصّة في شارع بيكاديللي،» أضافَت ريجينا، وهي تبدو سعيدة للاشتراك في المحادثة. «بصراحة، أي نوع من الآباء يسمحون لابنهم بالعيش بمفرده قبل بلوغ سنّ الرشد؟ أنا لا أهتمّ بمدى ثرائهم، هذا ليس صحيحًا.» ضغطَت بيدها على صدرها. «لن أتفاجأ لاكتشاف أنه قد قتلَ هؤلاء... النسوة... وقام بإخفاء أجسادهنّ. ربما كانت ليزا على حقّ. ربما الدكتور وادزورث بريء والسيّد كريسويل هو المجنون حقًا. أراهن أنّ لديه عددٌ من النساء سيّئات السمعة، يأتينَ ويذهبنَ إلى هناك. قد يكون وريثًا لثروة جيّدة، لكن مَن يتزوج مثل هذا الرجل الغريب؟ ربما يقوم حتى بقتل زوجته.»

قلتُ، قبل أن أستطيع إيقاف نفسي: «كوني جادّة. اهتمامهُ بالعلوم بالكاد يجعله قاتلاً أو عديم المشاعر. في الواقع، لا يوجد خطأ على الإطلاق في توماس. أجدهُ لطيفًا تمامًا.»

«انتبهي لكلامِك، أودري روز!» هبّت العمّة أميليا. «تسمية الشاب باسمه المجرّد غير لائق. خاصّةً عندما لا تربطكِ به علاقة.»

إن أبدَت عمّتي استياءً من قبل، فهذا مستوى جديد تمامًا من المشاعر، كيفيّة تحوّلَ جلسة الشاي بسرعة إلى مناقشاتٍ مروّعة وغير مهذّبة. على الأقل أمسى الشاي أكثر إثارة مما تخيّلت. سرعان ما فقدَت الفتيات

الأخريات الاهتمام بتوماس كريسويل وجرائم القتل «المأساوية والمُقلقة» التي استهدفَت أهالي الأحياء الفقيرة من الطبقة السفلى. انتقل الحوار إلى مواضيع أكثر ملاءمةً لشاي المساء، مثل مَن ستتمّ دعوته إلى حفلة تنكريّة لبلوغ دوق سنّ الرشد في غضون ستة أشهر.

«عليكِ ببساطة أن تأتي!» كانت فيكتوريا تقول لي، وهي تمرّر ذراعها عبر يدي، كما لو كنا بالفعل من أقرب الأصدقاء ولم تنعت عمّي بالقاتل قبل قليل. «كلّ شخص مهمّ سيكون هناك. إن كنتِ تريدين أن يحضر الأشخاص المناسبون حفلتَك، فستحتاجين إلى بذل الجهد لحضور حفلتهم. سمعت أنه استأجر رجلاً روحانيًّا لأداء جلسة تحضير أرواح.»

مع انقضاء فترة ما بعد الظهر، تفرّجتُ عليهنّ، ملاحظةً الدور الذي كنّ يلعبنَهُ جميعًا. شككتُ في أنّ أيًا منهن اهتمّت حقًا بما تقول، وشعرتُ بالأسف الشديد تجاههنّ. كانت عقولهنّ تصرخ لأجل التحرّر، لكنهنّ رفضنَ فكّ القيود.

انحنَت هازل عبر الطاولة، لافتةً انتباهي. «ثوبكِ في غاية الروعة! هل ستتضايقين بشدّة إذا طلبتُ صنع واحدٍ مثله؟» عندما لم أردّ على الفور، استدركَت: «بألوان مختلفة، بطبيعة الحال. فقط التصميم رائع جدًّا!»

قالت ريجينا وهي تلوّث كعكة باللبن الرائب والقشدة: «إذا لم يسقط ويليام برادلي على ركبتيه، طالبًا يدكِ من الوهلة الأولى، فهو أحمق وعليكِ تركه في الحال.»

تنهّدَت هازل بطريقة دراميّة. «لكنه أحمق بلقبٍ نبيل. هل تعتقدين حقًا أنه سيتقدّم بمجرّد رؤيتي في ثوبٍ مُشابه؟»

«وكيف سيُقاوم؟» سخرتُ، كاتمةً الضحك على تعبيرها الجادّ. «من المؤكد أن الأولاد يحبّون طلب يد الفتيات اللواتي يرتدين الثياب الفاخرة فقط. لماذا يهتمّون بالعقل عندما يُمكن اختيار الجمال بدلاً منه؟ هُم كائناتٌ حمقاء.»

قامَت هازل بعقد حاجبَيها. «لماذا تختار الفتاة أيّ شيء على الجمال؟ على الزوجة طاعة زوجها في جميع الأمور. ليقوموا هم بالتفكير.» أومأت ريجينا وهازل برأسيهما على ذلك الكلام الرهيب، قبل أن تردف هازل: «على أيّة حال، أنتِ حقًّا لطيفة، أودري روز. هل ستحضرين السيرك عندما يصل إلى المدينة؟»

ربما كنتُ مخطئةً في حكمي السابق. يبدو أن الأمر يتطلّب وقتًا لبعض الفتيات لتحرير أنفسهنّ من قيود المجتمع. عضضتُ شفتيّ، وأنا أفكّر في ردّ لا يُسيء إليهنّ أكثر. تخلّت فيكتوريا عن حديثها مع عمتي وابنتها وصفّقَت بيديها. «نعم، بالتأكيد! عليك الانضمام إلينا. سنقوم بتنسيق ملابسنا وكلّ شيء. لن يعرف الناس أين ينظرون أوّلاً، إلى فنّاني الأداء أم إلينا!»

أومأت عمتي بتشجيع عبر الطاولة، بتعبيرٍ حمل تهديدًا أخطر ممّا يحلم به حتى ذو المئزر الجلديّ. ابتسمتُ بقلق. «هذا يبدو جميلاً.»

15

أعظم عرض على وجه الأرض

مسكن آل وادزورث، ساحة بلغريف

25 سبتمبر 1888

«لستِ جادّة.» قال ناثنيل وهو يهزّ رأسه لرؤيته بدلةً أخرى من أطقمي شبه السوداء. ألقيتُ نظرة خاطفة على الطبقات السوداء التي اعترضَتها خطوط فحميّة وحريريّة فضيّة، ثم رفعتُ كتفيّ. «لمَ لا؟ الفستان جيّد.»

تم سحب مشدّي بإحكام فوق قميصي الحريريّ، وامتدّت قفّازاتي من الجلد الناعم المرن مع أزرار مغطّاة من الجانبين، بينما أزعجَتني بطانة تنّورتي كثيرًا. انطلاقًا من مدى شعوري بعدم الارتياح، وثقتُ من كوني مذهلةً هذا المساء، إن كان بإمكان المرء رؤية ما وراء الهالات السوداء اللاتي رفضنَ التخلّي عن عينيّ، أو الطريقة التي أبرزَت بها ألوان الليل مدى شحوبي.

لن تتّفق الأخوات إدواردز على اختيار اللون الخاص بي، لكنّني لم أهتمّ كثيرًا. لقد حضرتُ ثلاث جلسات أخرى من شاي العمّة أميليا الملكيّ، وعلى

الرغم من أنها لم تكن سيئة بالقدر الذي توقّعتُه، إلا أنها تركَت وقتًا أقلّ للتجسّس.

قلتُ: «على أيّة حال، لقد مرّ حوالي أسبوعين منذ اعتقال العمّ،» ولم أجد أنا ولا توماس معلومةً لتبرئته. «سأرتدي لون الحداد حتى يتمّ إطلاق سراحه، ولا يهمّني إذا كان عصريًّا أم لا.»

تنهّدَ ناثنيل. «أعتقد أن هذا يفي بالغرض لسموّها الملكيّ. إذا رفضَت مدينة لندن أن تتّشح بغير اللون الرماديّ الكئيب طوال الوقت، فيجوز لكِ القيام بالمثل.»

لحسن الحظ، نزلَت العمّة أميليا وليزا على الدرج، متألّقتَين بدرجات الزمرّد والفيروز، نفس لوحة الألوان الدقيقة التي اتّخذَتها فيكتوريا في أثناء تناول الشاي الأخير. انحنى ناثنيل لهما. «مساء الخير، عمّتي وابنة عمّتي. كلاكما رائعتان.»

ردّت العمّة أميليا متظاهرة بالتواضع: «أنتَ لطيفٌ جدًا، يا ابن أخي. شكرًا جزيلاً.»

جاءت ليزا وقبّلَت خدّي، ثم هزّت رأسها قليلاً. قالت: «تبدو عيناك مذهلة هذا المساء،» لفّت ذراعها خلال يدي، مُتجاهلةً تمامًا البرود الذي كنتُ فيه. «أنا مسرورة جدًا لأنّكِ اعتدتِ على الكحل. سيقع توماس كريسويل بالتأكيد في الحبّ. هل علّقَ على ذلك؟»

فكّرتُ في اجتماعاتِنا. تظاهرَ توماس بغطرسةٍ أكثر مؤخّرًا، وهو يُعلّق على المجهود الذي بذلتُه «من أجله». لكنّني أمسكتُ به لاحقًا وهو يتمعّن بي،

كما لو إنه قد أخفقَ في الاستنتاج لأوّل مرّة. لم يكن متأكدًا إن فعلتُ ذلك حقًا لاجتذاب عواطفه أم لأغراضٍ خاصّة، واعتقدتُ أنّ ذلك دفعهُ إلى الجنون.

قبل أن أجيب، لوّحت العمة أميليا بالسؤال بعيدًا، مثل بعوضةٍ مزعجة. «ماذا يهمّ؟ هذا الصبي لن يرقى إلى شيء في المجتمع. قد يكون اسم عائلته جيدًا، لكنّه دمّر فرصه المستقبليّة. لدى أودري روز خاطبون أكثر إنجازًا. تعالي، ليزا.» ألقت شالها حول كتفَيها وتوجّهَت إلى الممرّ. «نراكما في السيرك.»

«أراكم هناك.» أمسك أخي برسالة في يده، مُجعّدًا حوافّها قبل أن يعدّلها على ساقه. مدّ يده إلى مشطه لكنّه تراجع. حمدتُ الله. كنتُ متأكدة من أنه إذا لمسَ شعرةً أخرى من شعره فسوف تهرب، وهي تصرخ احتجاجًا. ابتسمتُ لتلك الصورة الخياليّة قبل أن أمسك نفسي.

«هل أنتِ واثقة من أنّكِ لا تريدين تغيير الملابس؟» قال مهزومًا. «اعتقدتُ أنك متحمّسة للسيرك. كل ما تحدّثتِ عنه خلال الأشهر الماضية كان عن فضولكِ وحيوانات العروض... وماذا عن الفيل جمبو؟ لقد عاد المسكين أخيرًا إلى موطنه وأنتِ تستقبلينه مرتديةً لون الموت؟ أيّ نوع من الترحيب البائس هذا بالنسبة لفيلٍ سافر نصف العالم؟ تبدو العمّة أميليا وليزا مثل الأحجار الكريمة، بينما تقومين بأفضل تقليد للفحم. هذا ببساطة ليس صحيحًا.»

كان يسير في الردهة، ويداه ترتعش على جانبيه. «وجدتهُا! ماذا لو ألبسناكِ زيّ الحصان ذاك؟ ماذا كان اسمه؟ مزاد الشيطان أم اسمٌ آخر جذّاب بنفس القدر؟»

أردتُ أن ابتسم لكني لم أستطع حمل نفسي على القيام بذلك بشكل مُقنع. قبل أشهر كنتُ أهتم بأمور مثل عرض الحلقات الثلاث والفيلة الأكبر من كل شيء. كنتُ أضحك حتى بشأن البطاقة البريدية التي وجدناها مع الفنان الغريب الذي ارتدى رأس حصان.

قلتُ: «هناك جرائم قتل لم تُحلّ، وعمّي محتجز تحت الشُّبهة. ليس الآن وقت الطيش.»

«نعم، نعم. يرافقهُ عدد كبير من الشخصيات الأخرى المشكوك فيها. وفقًا للصحف، فإن سكوتلانديارد تلقي بأيّ مشتبه به في زنزانة، حتى تثبت براءته بشكل لا يقبل الشك أو يأتي شخصٌ مخيف أكثر منه. سيعمل عمّك على تسوية هذا الأمر، وستكونين قد أهدرتِ الوقت في الحزن على لا شيء.»

«لا أفكّر في إثبات براءته كمضيعة للوقت.» لم أعرف لماذا رفضَت الشرطة إخلاء سبيل عمّي من المصحّة. كان ناثنيل محقًا: لم يكن العمّ المتهمّ الوحيد بارتكاب الجرائم، بكل تأكيد. «مصادر الصحف غير دقيقة على الإطلاق. لا أصدّق أنك تقرأ أيًّا منها.»

لم أقرأ قطّ مثل ذلك الهراء المُثير المنشور في زوايا الجرائد. لم يشبع الصحفيّون أبدًا من ذي المئزر الجلديّ. قاموا بتمجيد الشرير وخلق نجمٍ من رجل مجنون. كان الشوط الذي قطعوه لبيع المطبوعات مقزّزًا مثل الجرائم نفسها.

«رغم إنها قد تكون فظيعة، إلا أن الصحف تقدّم بعض التسلية، يا أختي.»

قلتُ: «بصراحة، الموضوع برمّتهِ يؤلم معدتي. لماذا نقلوا قاتل النساء إلى أخبار الصفحة الأولى؟ أشعر بالأسف على عوائلهنّ الفقيرة.»

كان ذلك الخوض كافيًا في الغريب والرائع بالنسبة لي. لا أحتاج إلى إضاعة المزيد من الوقت في الإلهاءات. مع ذلك، خلال الأثنَي عشر يومًا الماضية، أخذ ناثنيل على عاتقه انتشالي من أعماق اليأس. جاء حلّه لمشاكلي على شكل تذكرتَين لحضور «أعظم عرض على وجه الأرض». وقعَت احتجاجاتي على آذانٍ صمّاء، لذلك رضخت.

كان قد أحضرَ كميّةً كبيرة من الأقمشة في الأسبوع الماضي، على أمل أنّ فستانًا جديدًا ملوّنًا سيطرُد كل السحب المُظلمة بعيدًا، لو كان من المُمكن حلّ مشاكل الحياة فقط بارتداء فستان مُزركش مع زوج أحذية. ليذهب العالم من حولنا إلى الجحيم، طالما كنّا في أبهى صورنا.

قال ناثنيل وهو يتفقّد ساعة الجدّ: «لنذهب في طريقنا إذن.» تبعتُه إلى عربتنا السريعة، سامحةً للسائق بمساعدتي في الركوب، وأنا أشعر بالارتياح لأننا أخذنا أسرع وسيلة نقل نملكها. جلستُ في بركةٍ من الحرير الثمين، أعيد ترتيب تنّورتي لأفسح المجال لأخي في العربة الصغيرة، وعقلي يتمايل بزوايا مختلفة لدراسة القضيّة. جلس ناثنيل بجانبي، كطفلٍ اختفَت دميته المفضلة. كنتُ أختًا بائسة أنانيّة، منغمسة في ذهني، متجاهلةً للأشخاص الحاضرين دومًا في حياتي.

ضغطتُ على يده قائلةً: «أتعلم، أنا متحمّسة للغاية بشأن السيرك، رغم كلّ شيء.»

ابتسم ناثنيل، وشعرتُ بأنني قد نلتُ نوعًا من العفو في محكمة الأعمال الصالحة، حتى لو كذبتُ في ذلك.

كان الأولمبيا[1] أحد أجمل المباني في المملكة، ونافس حتى القصر الملكيّ في الروعة والضخامة.

«انظري. هذا هو.» قال ناثنيل مشيرًا نحو المبنى.

بينما وقفَت عربتنا قرب البناء الحجريّ والحديديّ الهائل، شاهدتُ قطارًا يمرّ، وهو ينفث السحب البيضاء في الجوّ في فترات غير منتظمة. كان البخار مصدرًا رائعًا للطاقة؛ يتوفّر بكثرة ويُستخدَم في العديد من التطبيقات المتنوعة. فكّرتُ مرّةً أخرى في رسومات أبي الفريدة للألعاب القديمة وبدع الحرب. يمكن أن تُعرَض في جميع أنحاء لندن، ربّما حتى مع عرض حيوانات الليلة هنا، ليستمتع بها مئات الأشخاص. هذا، بالطبع، لو لم يكن قد توقّف عن صنعها.

مرّت آخر عربة قطار أمامنا لنمشي ثانيةً، متّجهين إلى المدخل الأمامي للأولمبيا. اصطفّ الناس على شكل أربعة أشخاص للدخول، وهم على وشك القتال لإلقاء أول نظرةٍ على «أعظم عرض على الأرض».

قال ناثنيل: «أصدقاؤكِ هناك.» رأيتُ فيكتوريا وقطيعها من الببغاوات ذات اللون الزمرّدي وهنّ ينظرنَ إلى الحشد، لكنهنّ لحسن الحظّ اختفينَ في المبنى قبل رؤيتي.

---

(1) الأولمبيا: مركز ضخم في لندن لإحياء العروض الترفيهية والمُناسبات وعقد المؤتمرات الكبيرة. (المُترجِم)

قُلت: «للأسف فقدناهنّ.» كنت آمل تجنّبهن قدر الإمكان هذا المساء. لقد أحببتُهنّ نوعًا ما لكنني أردت الاستمتاع بالوقت مع أخي. أمسكتُ بيد سائقنا، لأقفز من العربة، غارسةً كعبيّ في الحصى وأنا أشقّ طريقي إلى خط الواقفين.

سألت: «هل تشمّ ذلك؟ يُذكّرني بمنزل الجدّة.»

انسابَ البخور العذب الحارّ بين الناس، متدفّقًا عبر المدخل المقوّس، مالئًا هواء الليل العليل بِثراءٍ دافئ. انضمّ قلبي إلى الفوضى رغمًا عنّي، مُحلّقًا بين ضلوعي كما لو كان إحدى اللاعبات الجميلات على الأرجوحة الطائرة. أمسكتُ بيد أخي، مُذعنةً للاندهاش كالطفلة، وجررتُه عبر أبواب كبيرة، إلى أعظم غرفة في العالم. فور دخولي، درتُ ببطء في مكاني، وانصبّ تركيزي على قبّة السقف.

«ناثنيل، إنه أجمل شيء رأيتُه في حياتي!»

كان السقف بالكامل مصنوعًا من الزجاج والحديد. بدا كلّ نجم في السماء كأنّه يُشاهد الجمهور المرصّع بالجواهر - وهم يستعرضون ابتساماتهم الماسيّة المُبهرة.

«حقًا، ينبغي أن تقضي وقتًا أطول بين الأحياء، يا أختي.» ضحك ناثنيل من دهشتي، لكنّني لم أستطع رفع انتباهي عن سماء الليل الفاتنة.

«ربما سأفعل.» استقرّت يدي على قلبي باسترخاء، وأنا أحدّق في قضبان حديديّة نحيفة تتقوّس فوقنا. لم أعرف كيف كان ذلك ممكنًا. «كيف تسند قطع رفيعة من الأغصان الحديديّة كل هذا الزجاج والمعدن؟»

كان جميلاً للغاية، أشبه بالنظر إلى أعلى عبر غابة من المعدن. قال ناثنيل مبتسمًا: «لا بدّ أن هذه إحدى عجائب الهندسة في العالم.» بطريقةٍ ما، تمكّنَ من اصطحابي بعيدًا في الزحمة. تدلّت أشرطة من الحرير الأسود والألوان الزاهية بالتناوب من عوارض خشبية، تبدو أرستقراطية وهي تتموّج نحو الحشود، داعيةً إيّانا للدخول والاستمتاع بالعجائب الغريبة. تمّت خياطة أجراس صغيرة وخرز متلألئة في نهايات القماش بخيط ذهبي ليُثقله، عازفًا لحنًا شجيًّا كلّما عبرهُ شخص مُحرّكًا نسيم الهواء.

«آه!» هتفت. ذكّرتني الألواح الفاخرة بساري جدّتي الزردوزيّ، لكن على نطاق أكبر بكثير. «هل تتذكّر عادة الجدّة بأن تُلبسني الساري الأكثر تفاصيلاً من الرأس إلى أخمص القدمين؟ كانت تروي أفضل القصص، وتقول أن جدّي أصبحَ السفير البريطاني في الهند لأسبوعين فقط قبل أن يطلب منها الزواج.»

أحبّت نفسي الفتيّة لبس الحرير المطرّز بالذهب والكريستال مربوطًا حول خصري وملفوفًا على ذراعي، كما لو كنتُ أميرةً ترتدي أفضل ثوب لها. استمعتُ لها باهتمام بينما كانت تشرح بالتفصيل كيف وقع جدّي في حبّها بسبب روحها المُفعمة بالحيوية. بالنظر إلى نار الشباب في روحها الآن، فقد استطعتُ تخيّل ما كانت عليه في سنوات شبابها الحقيقيّ.

أجاب ناثنيل: «أخبرَتني الجدّة أنها رفضتهُ عشرين مرّة لمجرّد التسلية. قالت إنه تلوّى مثل كوبرا في سلّة، وهكذا عرفَت أنه كان في حالة حبّ.»

«سأضع ذلك في الاعتبار للقادم من مستقبلي.» دفّأتني تلك الذكريات وأنا أتفرّج على بقيّة المنظر. وقفَت مناضد مفردة على طول محيط الغرفة الكهفيّة، ما منحَ الناظر وهمَ الوجود في سوق خارجي أو بازار صاخب في

الهند. باع الناس كل شيء، من الحرير المستورد والكشمير إلى المجوهرات والشاي المعطّر، وطعامًا أكثر مما كان لدى الملكة في حفل اليوبيل الذهبي الخاص بها. حتى الحلي الصغيرة للسيرك كانت متاحة للأخذ إلى المنزل، إذا رغب المرء في ذلك. وجدتُ صعوبة في مقاومة لاعبي الأكروبات الآليّين والنمور الميكانيكية، وأنا أدور حول إحدى الطاولات.

«أوه ناثنيل، أنظر! يجب أن نشتري بعضها.» جذبَ الخبز والبهتورا مع كاري الحمّص انتباهي على الفور. بلّل اللعاب فمي مترقّبًا إحدى وجباتي المُفضّلة. لم أستطع مقاومة سحرها، وسرعان ما كنتُ أغمس الخبز المسطّح في كاري الحمّص الكريميّ وأمضغه قرب الباعة، مثل طفل سعيد في يوم عطلة. لاحظتُ أيضًا وجود كاري الدجاج وكنتُ بالتأكيد سأتناول بعضًا منه قبل مغادرتنا.

قال ناثنيل وهو يدفع للبائع: «سأختار نوعًا أقلّ... فوضويّةً من هذا.»

«كما ترغب.» هززتُ كتفي عند شرائه علبة حلويات. بعد الانتهاء من وجباتنا الخفيفة، تسلّلنا عبر أبواب حريريّة وتفرّجنا على العرض. نسيتُ لبعض الوقت الدماء والبراغي، وحتى المصحّات، مع وجع القلب وكلّ الأهوال التي تحدث في العالم ـ وقد أذهلني قطيع خيول من حوالي مئة حصانٍ عربيّ، تتقافز في أفخم الحُلل التي رأيتُها حتّى الآن. كانت سلاسل الذهب، المضفورة خلال أعرافِها اللامعة، تلتقط الضوء وتعكسه مرّةً أخرى بألوان الطيف عبر وجوهها الجميلة، في حين تلوى الريش المصبوغ بألوان الأخضر والأصفر والأزرق في الهواء فوق رؤوسها بمقدار قدم. أدركَت الخيول روعتها جيّدًا، ورفعت أنوفها عاليًا، متوقّعةً انبهار الجميع بمرورها.

الهند. باع الناس كل شيء، من الحرير المستورد والكشمير إلى المجوهرات والشاي المعطّر، وطعامًا أكثر مما كان لدى الملكة في حفل اليوبيل الذهبي الخاص بها. حتى الحلي الصغيرة للسيرك كانت متاحة للأخذ إلى المنزل، إذا رغب المرء في ذلك. وجدتُ صعوبة في مقاومة لاعبي الأكروبات الآليّين والنمور الميكانيكية، وأنا أدور حول إحدى الطاولات.

«أوه ناثنيل، أنظر! يجب أن نشتري بعضها.» جذبَ الخبز والبهتورا مع كاري الحمّص انتباهي على الفور. بلّل اللعاب فمي مترقّبًا إحدى وجباتي المُفضّلة. لم أستطع مقاومة سحرها، وسرعان ما كنتُ أغمس الخبز المسطّح في كاري الحمّص الكريميّ وأمضغه قرب الباعة، مثل طفل سعيد في يوم عطلة. لاحظتُ أيضًا وجود كاري الدجاج وكنتُ بالتأكيد سأتناول بعضًا منه قبل مغادرتنا.

قال ناثنيل وهو يدفع للبائع: «سأختار نوعًا أقلّ... فوضويّةً من هذا.»

«كما ترغب.» هززتُ كتفي عند شرائه علبة حلويات. بعد الانتهاء من وجباتنا الخفيفة، تسلّلنا عبر أبواب حريريّة وتفرّجنا على العرض. نسيتُ لبعض الوقت الدماء والبراغي، وحتى المصحّات، مع وجع القلب وكلّ الأهوال التي تحدث في العالم ـ وقد أذهلني قطيع خيول من حوالي مئة حصانٍ عربيّ، تتقافز في أفخم الحُلل التي رأيتُها حتّى الآن. كانت سلاسل الذهب، المضفورة خلال أعرافِها اللامعة، تلتقط الضوء وتعكسه مرّةً أخرى بألوان الطيف عبر وجوهها الجميلة، في حين تلوى الريش المصبوغ بألوان الأخضر والأصفر والأزرق في الهواء فوق رؤوسها بمقدار قدم. أدركَت الخيول روعتها جيّدًا، ورفعت أنوفها عاليًا، متوقّعةً انبهار الجميع بمرورها.

هززتُ رأسي. «لو كنتُ أعرف أن مجموعةً من الخيول ستلبس أفضل مني، فربما ارتديتُ على الأقل ثوبًا مرصّعًا ببعض الأحجار الكريمة.» ضحك ناثنيل على الفور، وأخرجتُ لساني. «على الأقل وضعتُ مكياجي ورششتُ نفسي بهذا العطر الجديد.»

«في المرة القادمة ربما تستمعين إلى أخيكِ الأكبر والأكثر حكمة. تعالي.» شدّني ناثنيل بلطف وقادَنا إلى آلة صنع فوشار مُذهّبة، كأنها قد خُصّصت للملكة نفسها. غمرَنا الشعور بالإكرام، وقد حصل كلانا على كيسٍ كبير منها، ثم أدخلَتنا إلى مقاعدنا امرأةٌ صامتة تضع ثعبانًا أصفر ملفوفًا حول عنقها مثل اكسسوار حيّ، بينما التفّت النقوش التقليدية حول كفّيها ومعصمَيها وقدميها. مررنا بكشك حيث تمّ الرسم على أيادي النساء بتصاميم ساحرة.

«آه.» أشرتُ إلى ناثنيل. «يجب أن أنقش على راحتيّ قبل أن نغادر.»

أخرجَ الثعبان لسانه، متذوّقًا الهواء، ونحن نقترب منه، ثمّ هسهس. كاد ناثنيل أن يتعثّر فوق الرجل الجالس بجانب الممرّ، وهو يحاول مراوغة الزاحف، في حين مرّرتُ أصابعي على رأسه الكبير الجلديّ ـ خانقةً قهقهتي بينما جحظت عينا أخي وهو يسحب يدي بعيدًا.

«هل أنتِ مجنونة؟» همسَ بقسوة. «لقد حاول ذلك الوحش التهامي، والآن أنتِ تجعلين منه حيوانًا أليفًا. ألا يمكن أن تكوني طبيعية وتحبّين القطط؟» هزّ رأسه. «إذا نجحنا في الخروج من هنا على قيد الحياة، فسوف أشتري لكِ أكبر عدد تريدينه من القطط الصغيرة. حتى أنني سأشتري مزرعة في الريف حيث يُمكنكِ إيواء المئات منها.»

«لا تكن شديد الرقّة، ناثنيل.» طعنتُ ذراعه بشكل تمثيلي. «الخوف من حيوان تتجوّل فيه امرأةٌ مثل الوشاح لا يجعلكَ جميلاً، أليس كذلك؟»

قامَ بتحويل انتباهه إلى العرض الجديد الذي بدأ على المسرح، ولمحتُ ابتسامةً قوّسَت شفتَيه. لقد لبّى العرض كل ما وعدَ به وأكثر. كانت هناك عروض مائية، والمزيد من استعراض الخيول، وعروض حدثت في أعالي السماء. تأرجحَت النساء في ملابس مصنوعة بالكامل من الخرز الكريستالي من أرجوحة إلى أخرى - مُمسكاتٍ بأذرع شركائهنّ الممدودة، قبل تركها والهبوط في السماء، بلا خوف، بإشراق وحرّية. نظرتُ إلى أخي ولاحظتُ أنه كان يراقبني بالفعل.

«من الجيّد أن أراكِ أخيرًا تبتسمين يا أختي الصغيرة.» لمعَت عيناه. «لقد خشيتُ ألّا أرى ابتسامتكِ ثانيةً.»

شبكتُ أصابعي بأصابعه. لقد كرهتُ رؤيته مستاءً في ليلة يجب أن تكون مخاوفنا فيها بعيدةً للغاية. فتحتُ فمي لتهدئته، ثم أغلقتُه بينما أغمقَ ظلُّ المنظر أمامي. وقف أمامنا شخصٌ غير مُرحّب به، انحنى قليلاً عند الخصر، قبل أن يستقرّ نظرهُ عليّ.

«مرحبًا مرّةً أخرى، ناثنيل.» مدّ بلاكبيرن يده إلى أخي. «لقد التقينا خلال حادثة والدك المؤسفة... كما كان من دواعي سروري البالغ أن ألتقي بشقيقتكَ قبل أسبوعين.»

قدّمَ لي كبير الشرطة بلاكبيرن ابتسامةً مهذّبة، ثم أعاد انتباهه إلى ناثنيل، الذي جلس ساكنًا. «أخشى أنني يجب أن أتحدّث معها لبضع لحظات في عمل شرطة رسميّ.»

16

موعدٌ للموت

سيرك بارنوم وبيلي، الأولمبيا، لندن

25 سبتمبر 1888

تمعّنَ ناثنيل في الرجل بنوع من التدقيق الذي جعلني أشعر بالارتياح لأنني لم أكن في الطرف المتلقّي لتلك النظرات. من الواضح أن ناثنيل قد كرهَ ذلك التطفّل في ليلةٍ من المفترض أن تكون مرحةً لنا، خاصّةً من سكوتلانديارد، ولم يخجل من التعبير عن تلك المشاعر، حتى لو كان الشابّ الواقف أمامنا قد ساعد أبانا.

«أعتذر، لكنّ الأمر عاجل.» ابتلع كبير الشرطة بلاكبيرن ريقه، شاعرًا بالقوّة الكاملة لغضب وادزورث تحت سيطرة الأدب، لكنه لم يحرف نظره. رجلٌ شجاع، أو أحمق. لم أحسم رأيي به تمامًا. ربما كانت الشجاعة مُرتبطة بالتهوّر بشكل وثيق عندما يتعلّق الأمر به. ضيّقتُ عينيّ، الآن عرفتُ لماذا بدا اسمه مألوفًا جدًا. «كم مرّة بالضبط أنقذتَ أبي من أوكار الأفيون، لتعيدهُ إلينا دون أيّ علاج مناسب، أيّها المشرف؟»

«أودري روز،» همس ناثنيل، وقام أخيرًا بردّ مُصافحة اليد القويّة، ربما

بشكل أقوى قليلاً من اللازم، حيث قام بلاكبيرن بفرك يديه بعدها. قال المشرف: «كل شيء على ما يرام.»

«أختي الحبيبة مُفعمة بالحيوية بعض الشيء. أنا متأكد أنّ لقاءك الأخير بها سيظل ذكرى عالقة في ذهنك لسنواتٍ قادمة.» تضمّنت نبرة ناثنيل تحدّيًا، لكنّ عينيه لم تحملا أي نوعٍ من الفكاهة. «أعتذر، لكن هل كنتَ تطلبها بشأن جرائم القتل الفظيعة في وايتشابل؟» رمقني بنظرة قلقة. «مهما كان قلبها قويًا، فأنا لا أوافق على إزعاجها بهذه الفوضى مرارًا وتكرارًا.»

«أخشى أنني لا أستطيع قول الكثير، لأن القضية لا تزال قيد التحقيق. لكن، نعم. للأمر علاقة بكل ذلك.» ضغط بلاكبيرن على شفتيه في خطّ ثابت. كان لديه وجهٌ جميل لمثل هذا الإنسان البائس. «أنا ـ أنا آسف جدًا لأنني كنتُ الشخص الذي اعتقل عمّك. أنا في الواقع أقدّرهُ بالغ التقدير.»

قام ناثنيل بتعديل ربطة عنقه لكنه لم يقل كلمة أخرى. خشيتُ أن يمدّ يده ليصفع الضابط بإحدى قفّازاته المُلقاة في حال ظهور أيّة علامة على انزعاجي.

«هل لي بكلمة مع أختكَ الآن؟» رفع بلاكبيرن يديه عندما فكّرتُ في الاحتجاج. «سأحتاج لدقيقة فقط. على عكس ما قد تعتقدان، أنا لا أرغب في تخريب هذه الأمسية.»

لم أستطع منع الضحكة من الانفجار في حلقي. «أوه، نعم. لأنك تهتمّ كثيرًا بعدم تحطيم حياة الناس دون سبب وجيه. كم سخيفٌ أن أنسى ذلك. اعتقال رجل بريء وتدمير سمعته أمر مملّ، الآن بعد أن ذكرتَ ذلك، لمَ

لا تُفسد أمسية ابنة أخيه أيضًا؟» ابتسمتُ بلطف. «بعدها يُمكنكَ إضافة تحطيم الأبرياء من الرجال والنساء الشابّات إلى أعمالكَ النامية. ربّما...» نقرتُ بإصبعي على شفتي في تأمّل زائف «ربّما يجب عليك تجربة ضرب طفل أيضًا. هل أساعدكَ في اختيار أحدهم؟»

بانَت مسحة ألم على وجهه، وكدتُ أتأسّف لما قُلت. ثم تذكّرتُ كونه مسؤولاً عن احتجاز عمي في مصحّة يُشار إليها بمودّة باسم بيدلام - ومنعَ عنه الزوّار - وتلاشى أيّ أثر لاعتذار على لساني. رفعتُ ذقني، وأمرتُ نفسي أن أبقى جامدة. من زاوية عيني، شاهدتُ ناثنيل يتلاعب بأكمامه. كان استياؤه في تفاقم، وهذا شيءٌ اهتممتُ به. لا ينبغي أن يُفسد هذا الدخيل أمسيته. نظر إليّ، وسألني سؤالاً صامتًا عبر نظراته، فأومأتُ برأسي. يجب أن ننتهي من هذا.

«من بعدكِ يا أختي.» وقف ناثنيل، مشيرًا لي بأن أقوم بالمثل. بعد أن جمعتُ تنّورتي في قبضتيّ، مشيتُ في الممرّ، دون انتظار لمعرفة ما إذا كان بلاكبيرن يتبعني. بمجرّد وصولنا إلى الغرفة الرئيسية، أخذ بلاكبيرن مِرفقي، وأرشدني أنا وناثنيل إلى منطقة أصغر، مقسّمة بمناظر جدارية مرسومة بشكل مُتقن، تُمثّل مكان الحيوانات. فور انتهاء مسيرنا عبر الحشود، حرّرتُ نفسي من قبضته، ثم قاطعتُ ذراعيّ على صدري. «أنا قادرة على المشي من غرفة إلى أخرى بمفردي، حضرة المُشرف.»

ارتفعَت حواجبه قليلاً. لم أهتم إن كنتُ تافهة، لم أهتمّ بفكرته عنّي، وبالتأكيد لم أهتمّ بمقاومته الابتسام في تلك اللحظة بالذات. عبستُ ثانيةً، متمنّيةً باسم جميع القدّيسين أن يُغرقه الشعور بكونه مُزعجًا

للغاية. سعلَ في قبضته، ثم نظر إلى الغرابة المُحيطة بنا، ولم ينجح إلا في استفزازي أكثر.

«هل تخطّط للوصول قريبًا إلى غرض مُقاطعتك الوقحة؟ أم إنه من المفترض أن أطرف بعينيّ حتى الإغماء أمام آسر عمي ومُعين والدي؟ إذا كان الأمر كذلك، أخشى أنّك ستنتظر حتى تتحوّل عظامك إلى غبار.» ابتسمت. «أو، على الأقل، حتى تموت ويتمّ تكليفي بتشريح جسدك للتحقّق من وجود قلب.»

«أودري روز، من فضلِك،» همس ناثنيل، وقد بدا مرعوبًا. «لا تُزيدي من غضب الشخص المسؤول عن اعتقال عمّنا وحفظ سرّ أبينا.»

«كلّ شيء على ما يرام.» أومأ بلاكبيرن نحو ناثنيل. «لديها كلّ الحق في أن تغضب.» نظر بلاكبيرن حوله، وتأكّد من أنّنا الثلاثة بمفردنا، ثم أخذ نفسًا عميقًا. هزّ شعورٌ غير مُريح أطراف عقلي.

«لا تفعل.» هززتُ رأسي، متوسّلةً بأن يحتفظ بكل الكلمات السامّة التي كان على وشك قولها لنفسه. «لا أريد أن أسمع أيّ شيء جئتَ لتقوله. لدي ما يكفي للقلق بشأنه أصلاً.»

«أودري روز.» مدّ أخي يدهُ إليّ. «لا يجب...»

«لا أحتاج إلى معرفة شيء آخر.» قطعت احتجاجه. «ليس الليلة.»

الأمر طفوليّ؛ كنتُ أعرف أن بلاكبيرن لم يسافر كل تلك المسافة ليُغادر دون إيصال الرسالة. مع ذلك، أملتُ في أن يوفّر عليّ المزيد من الحزن. امتلأت عيناه بالتعاطف، الذي كان أسوأ بكثير من أسفه.

قال: «اعتقدتُ أنه من الواجب تحذيركِ يا آنسة وادزورث. لم تحدث جرائم قتل أخرى منذ أن أودعَ عمّك في المصحّ. بعض الناس حريصون على إدانته. إنهم يريدون إنهاء كلّ هذه الفوضى.»

راقبَ ردّة فعلي عن كثب، لكنني كنتُ مخدّرة، وعاجزة عن الاستجابة. بدا الأمر كما لو أنني قد تركتُ جسدي وشاهدتُ المحادثة تجري من بعيد. حدّقَ بلاكبيرن في قدميه. «من المفترض مبدئيًا شنقه في الثلاثين من سبتمبر.»

«بعد خمس ليالٍ من الآن!» هتف ناثنيل، لينتزعني من خيالي المُضبَّب. «كيف يمكن إجراء محاكمة وتنفيذ حكمها بهذه السرعة؟»

قلتُ، وأنا أنظر في وجه أخي طلبًا للمساعدة: «هذا يبدو غير قانوني.»

«لأنه بالفعل ليس كذلك.» أخذ بلاكبيرن نفسًا عميقًا آخر. «أخوك محقّ. ستكون هناك محاكمة لكنها لن تكون عادلة. سيجدون عمّك مُذنبًا ويشنقونه قبل أن يجفّ الحبر على أمر إعدامه. الشعب ينشدُ القصاص، وأصدر أعضاء البرلمان تصريحات... عمّك هو الهدف المثالي.» قام بلاكبيرن بِعدّ كل جريمةٍ من جرائم العمّ: «كانت بحوزته تروسٌ مُلطّخة بالدماء وجدناها بالقرب من الجُثث. شوهدَ شخصٌ ما بنفس أوصافه مع الضحيّة الأخيرة. ليست لديه حجّة غياب لأيّ من الجرائم. الأسوء من ذلك كله، إنه يمتلك المهارة اللازمة لاستخراج الأعضاء.»

«بحقّ الله، هل هذا كل شيء؟» لوّحتُ بيدي في الهواء. «أنا شخصيًا أملكُ نفس المهارات. ربّما أنا القاتلة.»

كنتُ أسير في الغرفة المقطوعة، قبضاتي تتقلّص إلى جانبيّ. شعرتُ كأنني حيوانٌ بريّ، مُجبرٌ على الرقص من أجل تسلية الناس، وكرهتُ ذلك. ربّما سأطلق سراح كل قردٍ وحصانٍ وحمار وحشيّ في هذا السيرك قبل مغادرتي هذا المساء، مع الفيل جمبو أيضًا. لا شيء يجب أن يُعاني كلّ هذا على يد شخصٍ آخر. حوّلتُ انتباهي ثانيةً إلى بلاكبيرن. «ألا يُمكنك إيقاف هذا الجنون؟ لا يجوز شنق الأبرياء، هذا ظلمٌ فادح. لا يُعقل أن تكون هذه هي النهاية.»

دفع يديه في جيوبه، متجنّبًا عينيّ كما لو كان سيصاب بعدوى سيّئة بمجرّد النظر إليّ. ربما ذلك صحيح، فالكراهية قد أغرقَت كياني بالكامل بمُخلّفاتِها اللّزجة. قلتُ لناثنيل: «لقد أغلقوا للتوّ التحقيق بشأن خادمتنا السابقة. يجب أن تكون هناك طريقة ما لإلغاء هذا... رجس نظامنا الحاكم. يجب عليهم إنهاء تحقيق الآنسة آني تشابمان على الأقل، ألا يوفّر ذلك مزيدًا من الوقت؟»

عضّ ناثنيل شفته، وبدا غير واثق. «ما زلتُ أتعلّم تعقيدات القانون. سوف أستشير مدرّبي.» حدّقتُ فيه، راغبةً بأن يجعل كلّ شيء أفضل. رفع أخي يديه. «سأتصل به الآن، وأرى ما إذا كان بإمكاني حلّ كل هذا. حاولي ألّا تقلقي يا أختي. أقسم أنني سأبذل ما بوسعي لإنقاذ عمي. هل تثقين بي؟»

أومأتُ بالإيجاب. كان ذلك كل ما أمكنني فعله، لكنه أرضى أخي بما فيه الكفاية. حوّل انتباهه إلى المشرف وقال بصوتٍ بارد. «هل سترافق أختي إلى المنزل؟ أفترضُ أنّكَ ستمنحها رفقة شرطة لائقة، خاصّةً بعد رمي هذه الأنباء في أحضاننا.»

كان من غير المُجدي إخبار ناثنيل أنه يمكنني استئجار عربة خاصة بي أو البحث عن العمّة أميليا وليزا والرجوع معهم، لذلك أبقيتُ فمي مغلقًا أثناء قيامه بالترتيبات مع المشرف.

عندما رحل أخي، قام بلاكبيرن بإمالة رأسه، وهي حركة أظهرَت جانبًا حسابيًا جديدًا منه لم ألاحظه من قبل لكنّني علمتُ بوجوده. «هل قلتِ أنّ الآنسة ماري آن نيكولز كانت خادمتكم السابقة، آنسة وادزورث؟»

غلبَت عليه الإثارة. لم أثق به أو بمزاجه الجديد، وسرعان ما ضغطتُ شفتيّ. آخر شيء أردتُه هو إعطاء سكوتلانديارد سببًا آخر لتوجيه أصابع الاتهام إلى عائلتي. دون رادع، اقتربَ مني أكثر، مالئًا الفراغ بقوامه الضخم، وأجبرَني على مواجهة نظراته المتسائلة. ابتلعتُ بعض الخوف إلى داخلي. كان هناك شيء خطيرٌ بشأنه، رغم أن ذلك قد يكون ببساطة لأنه أمسك حياة عمّي بين يديه.

«أنتِ تدركين أنني قد أكون الشخص الوحيد في لندن عدا عائلتك الذي يهتمّ بحياة عمّك وموته. ألن تساعديني في حلّ هذه القضية؟» سأل بلاكبيرن. «آنسة وادزورث... أنا أعتمد عليكم في المساعدة على تحرير عمّك والقبض على القاتل.»

مرّر يده من خلال شعره الفاتح، مبعثرًا خصلاته الجامحة أصلاً. كنتُ أرغب في مساعدة العمّ أكثر من أيّ شيء آخر؛ لكنني أردتُ فعل ذلك بمفردي، دون مشاركة الشخص الذي اعتقلهُ في البداية. على الرغم من رضاي عنه لاحترامه ذكائي وهواياتي التحقيقيّة بما يكفي لإشراكي في الموضوع. لم أنطق بكلمة، فقام بإمساك مرفقي، وأدارَني نحوه. «إن كنتِ لا تريدين مساعدتي، فلنذهب لشخصٍ تريدين مساعدته.»

قلتُ من بين أسناني المُطبَقة: «إن لم تتركني في هذه اللحظة، سأضطر إلى استخدام تكتيك قتال خاصّ علّمني إيّاه أخي على فحولتكَ هذه.»

في صراعي ضد قبضته، أدركتُ بعد فوات الأوان أنه قد خفّف قبضته وكان يبتسم. نفختُ وسحبتُ ذراعي منه تمامًا. لم يكن القصد من وراء تهديداته التسلية. تخيّلتُ أنه لن يكون مبتسمًا لو طبّقتُ عليه أسلوبي الدفاعي، وتمنّيتُ لو فعلتُ ذلك حقًّا. «إلى أين تعتقد أنني سأتبعك؟»

«إلى بيدلام، آنسة وادزورث.»

17

قلب الوحش

مستشفى بيثليم الملكي، لندن

25 سبتمبر 1888

كانت شائعات أنّ بيدلام مسكونة من قبل وحوش صحيحة. على الأقل، بدوا حقيقيّين لي بما يكفي خلال حركتنا السريعة في الممرّات الحجريّة الباردة. تمسّكتُ بتنّورتي الحريريّة، وأبقيتُها قريبة من جسدي قدر الإمكان بينما كنتُ أسير بجوار زنازين المجرمين والمجانين.

امتدّت الأذرع مثل أغصان الأشجار، بحثًا عن أشياء تتعلّق بها، أو ربّما عن مَخرجٍ من هذا الجحيم الرّطب. لم يُمسك بي بلاكبيرن أو يُقدّم ذراعه، واثقًا من أنني أستطيع الاعتماد على نفسي في هذا المكان الكارثيّ.

تعالَت صرخات النفوس المعذّبة في كل مكان حولنا، لكننا تابعنا المشي. كانت الرائحة الكريهة للأجساد القذرة وأواني الغرف، التي هي بحاجةٍ ماسّة إلى التفريغ، كافية لقلب معدتي رأسًا على عقب. كلّما ابتعدنا داخل المصحّ، أصبح الهواء أكثر تلوّثًا، حتى خفتُ من إضافة مرض آخر على الأمراض المُحيطة بنا.

«من هنا،» قادنا بلاكبيرن إلى ممرٍّ كئيب آخر. كان عقلي يدور بأفكار خارج سيطرتي، أكثرها إرعابًا هي كيفيّة شرح مكاني لعمّتي إذا عاد ناثنيل إلى المنزل قبلي. قال بلاكبيرن من فوق كتفه: «إنها أبعد قليلاً،» طرقَت خطواتُه الأرض كجرسٍ عملاق يدقّ الساعة في ليلةٍ ساكنة. «المجرمون محفوظون في قلب الوحش.»

«يا للجمال.» سرَت قشعريراتٌ شيطانيّة على طول ذراعيّ وظهري. لم أحبّ التفكير في هذا المكان على أنه كائن حيّ يتنفّس، ويحتوي على أي شيء يشبه القلب. عادةً ما تحمل القلوب العطف، وقد فقدَ هذا المكان تلك الخاصّية منذ فترةٍ طويلة. الدقّات الوحيدة التي استمرّت هناك هي عويل الملعونين. لم أعرف كيف يُمكن لبلاكبيرن أن يتردّد على مكان كهذا دون أن تتلوّث روحه.

كان السجناء ينتحبون على أنفسهم، يتحدّثون بلغاتٍ مُختَلقة ويصرخون مثل الحيوانات الحبيسة. لم أستوعب كيفية عيش عمي مع هذه الفوضى، لكنّه رجلٌ ذو عقل قويّ. إن كان من الممكن رمي شخص في بيدلام ثم الخروج منها أكثر ثباتًا، فهو العمّ جوناثان. ربما وجد طريقةً لدراسة نماذج مختلفة من العفن الذي ينمو في بقع على طول الجدران والأرضيّة الرطبة.

جعلَتني الفكرة أبتسم في وجه الخوف. هذا بالضبط ما قد يفعله العمّ في هذه الحالة. يُحوّل الأمر إلى تجربة عملاقة لتمضية الوقت، دون إدراك أنه قد وُضِع في الداخل خلاف إرادته. ربّما سأضطر إلى إقناعه بالمغادرة عندما يحين الوقت لذلك. سيقول: «مُعتقل؟ هل أنتِ واثقة؟ ربما أقضي

يومًا آخر في مراجعة نتائجي أولاً.» ثم سأخبرهُ لماذا تلك الفكرة سيّئة، فيُصاب بنوبة غضب. لا شيء آخر يهمّه بمجرّد خوضه غمار تجربة.

كنا نسير بالسرعة المُمكنة، ومع ذلك تمكّنتُ من رؤية رجالٍ مُحطّمين يسيرون في أقفاصهم، وبدوا وحشيّين مثل الفهود. هؤلاء الرجال اختلفوا عن المجانين. كان هناك مقدارٌ مُعيّن من التفكير في نظراتِهم الثابتة. لم أرغب في تخيُّل ما يمكن أن يفعلوه بي إذا خرجوا، فأسرعتُ خطاي حتى صرتُ على وشك التعثّر في أعقاب بلاكبيرن.

ركّزتُ على أشياء أخرى شغلَت ذهني. كنتُ ممتنةً لأن ناثنيل قد غادر للتحدّث مع المحامين قبل قدومي إلى هنا. أملتُ أن يكون قد وجد بالفعل طريقةً لتحرير عمّنا. لا بد من أنه سيبذل قصارى جهده في أدقّ تفاصيل القانون، ولن يستسلم أبدًا حتّى النجاح.

أخيرًا، توقّفنا أمام زنزانة فيها عددٌ قليل من القضبان الصدئة النابتة على حجر صلب في أعلاها، ما يكفي لتمرير صواني الطعام والماء، كما افترضت. قام بلاكبيرن بإخراج حلقة المفاتيح من حزامه ـ والتي تمّ تسليمها له من أحد الحرّاس عند دخولنا ـ وأشار لي بالابتعاد قليلاً. لقد كان أحمقًا إذا اعتقد أنني سأذهب لأيّ مكانٍ آخر عند فتح الباب، إذ لم أقوَ على الانتظار لرؤية عمّي. أومأ المشرف بلاكبيرن برأسه كما لو أنه توقّع ردّي بالفعل. «حضّري نفسكِ، إذن.»

مع صريرٍ واحتكاكٍ، قد يوقظ بعضًا ممّن يُفضّل تركُهم نيامًا، فُتحَت باب الزنزانة كأنّها تومئ لنا بالترحيب. تراجعَ بلاكبيرن، وسمح لي بعبور العتبة أوّلاً. يا لهُ من رجل نبيل. انبعثَت ضوضاء مروّعة من داخل الظلال، جعلَت

شعر ذراعيَّ ينتصب. قمتُ بقمع ذُعري، وسرتُ إلى مخبأ أحد العلماء، لتستقبلني الضحكات المؤلمة للمجنون الجديد، فَتجمّدتُ ممّا رأيتُه.

«ماذا بحقّ...» بالكاد تعرّفتُ على المخلوق الذي كان عمّي. رابضًا في زاوية زنزانته الحجريّة الصغيرة، كان يتأرجح للأمام والخلف بينما تدفّقَ الضحك الرهيب من شفاهه المتشقّقة. جلس بجانبه إبريقٌ مقلوب، ظهرَ أنّ ماءهُ قد جفّ منذ فترة طويلة.

«ماذا جرى له؟» تمسّكتُ بأقرب القضبان، مُثبّتةً نفسي كي لا أقع من الصدمة. كيف انهارَ بهذه السرعة؟ لا يُمكن أن يفقد هذا القدر من عقله في غضون أسابيع قليلة. كان هناك خطأ كبير، ولم يقُل بلاكبيرن شيئًا.

عندما لم يقهقه العمّ، كان يُتمتم بشيء مُنخفض جدًا بالنسبة لي لسماعه. تلطّخَ رداؤه الخفيف باللونين البنّي والأصفر، بدا أنّ الطعام القليل الذي أعطيَ له قد انتهى الأمر بأغلبهِ على ملابسه.

صرختُ: «كيف يَقدر أيّ شخص على أن يُعامل بشرًا بهذه الطريقة؟ هذا أمرٌ يفوق فهمي. هذا... هذا أسوءُ من السوء بكثير، سيّد بلاكبيرن.»

لا بدّ أنّ الشيطان بنفسه يتسيّد هذه النفوس الضالّة. لم أعرف ما الذي يمكن أن يكون أتعس من الجحيم، أو من هذا المكان، لكنّني تمنّيتُ ألف ميتةٍ رهيبة لرعاة هذه الوحشية. هؤلاء بشرٌ ويجب أن يُعامَلوا على هذا الأساس.

أمسكتُ ببطانيّةٍ رثّة من الأرض وهززتُها، سامحةً لذرات الغبار بالدوران في الضوء الباهت القادم من قضبان الباب. كانت الزنزانة في القلب المفترض

لهذا المكان، ومع ذلك شعرتُ هناك بقشعريرة لم توجد في الممرّ الرطب. دنوتُ من عمّي ببطء، غير راغبة في إخافته، لكنّني أحسستُ بفضولٍ شديد لمعرفة ما كان يهمسُ به بشكل متكرّر.

كلّما اقتربت، كلّما ثقلَت الرائحة العالقة بجزيئات الهواء. بدَت رائحته كأنّه لم يستحمّ في الأسبوعين الماضيين وقد استخدم الأرضيّة لقضاء حاجته. حاربتُ نوبة غثيان تصاعدَت في باطني. بانَ شاربه الأشقر طويلًا غير مشذّب، يلتقي بشعر وجهه النامي في تشابكات شعثاء. كان هناك شيء غريب في عينيه، بغضّ النظر عن لمعان الجنون المشتّت. لقد بدا مرعوبًا.

بعد أن لففتُ البطانية حول كتفيه، جثيتُ على ركبتي وأنا أتفقّده عن قُرب. حينها لاحظتُ جيّدًا الوعاء المقلوب وكثافة السائل المنسكب منه. تحوّل دمي إلى جليد، مثل نهر التايمز في الشتاء، وتجمّدَت أنهار وروافد عروقي في موجاتٍ مقزّزة. كنتُ سأقتل مَن فعل هذا. سأذبح الوحش البائس بدمويّة، حتى يبدو قاتل وايتشابل كقطّةٍ صغيرة بريئة تلعب بِكرةٍ من الأمعاء بمجرد أن أنتهي منه.

«لقد تمّ تخديره.» حدّقتُ في بلاكبيرن كما لو كانت له يدٌ في ذلك. وبما إنه مَن اعتقله، فذلك ممكن. عبر الغرفة ببطء وجلس القرفصاء بجانبي، متجنّبًا نظرتي الاتهامية. كان من الوارد أن يحصل المجنون هناك على عقاقير لتهدئة عقله، لكن عمّي ليس مجنونًا ولا يحتاج إلى مثل هذا الدواء.

قلتُ: «الله وحده يعلم ما يمكن أن يفعله هذا المسحوق. ألم يُمكنكَ

على الأقل حمايته في أثناء وجوده هنا؟ ما هو صالحك، أم أنّكَ لا تتفوّق سوى في كونكَ فظيعًا؟»

احمرّ بلاكبيرن. «في مكان مثل هذا، غالبًا ما تكون المُسكرات هي الطريقة الوحيدة للحفاظ على السلام...» تلاشى صوته وأنا أحدّق فيه. «إنه شيءٌ لا يُغتَفر آنسة وادزورث. أؤكّد لكِ أن الأمر لم يتمّ بقصد الإيذاء. يتمّ إعطاء معظم النزلاء هنا... أمصالاً تجريبيّة.»

«رائع. لقد تحسّنَ شعوري كثيرًا.» سحبتُ شريطًا من شعري، ثم مزّقتُ قطعة قماش من أسفل تنورتي لأجرفَ بعضًا من المادة اللزجة فيها قبل ربطها بالشريط. سأعيدها إلى مختبر العمّ وأفحصها بحثًا عن سموم أو موادّ قاتلة. لم أثق في أيّ شخص لإخباري بالحقيقة. قد يكون مُهدّئًا غير ضارّ «لمعظم النزلاء»، وقد يكون شيئًا أسوأ. مَن يسمح بإعطاء شيء مثل هذا لرجلٍ سليم هو شخصٌ سيّء ومنحرف وغير جدير بالثقة، وبلاكبيرن يقع ضمن هذه الفئة.

جلستُ على كعبيَّ مرّةً أخرى، ونظرتُ إلى وجه عمّي. «عمّ جوناثان، أنا أودري روز. هل تسمعني؟»

بدا مستيقظًا، لكن ربّما كان ينام وعيناه مفتوحتان. لم ينتبه لي أو لأيّ شخص آخر في الغرفة، فقط للصور التي كانت تدور في ذهنه. لوّحتُ بيدي أمام وجهه لكنه لم يرمش حتى. تحرّكَت شفتاه، وصار بإمكاني فهم ما كرّره منذ أن دخلنا زنزانته لأوّل مرة. كان يقول اسمه الكامل، جوناثان ناثنيل وادزورث، كما لو كان الجواب على كلّ أسرار الكون. لا شيء مفيد إذن. هززتُه بلطف، مُتجاهلةً أمواج خيبة الأمل التي تلاطمَت حولي.

«من فضلِك يا عمّي. أرجوك أنظر إليّ. قُل شيئًا... أيّ شيء.»

توقّفتُ مؤقتًا، في انتظار علامة تدلّ على سماعه لي، لكنه هتفَ فقط باسمه وضحك، وأخذَ يتأرجح بشدّة لدرجةٍ مؤذية. ناشدَته عيناي أن ينظر إليّ ويردّ، لكن شيئًا لم يُغيّر النشوة التي كان فيها. انفجرَت دموع إحباطي. كيف يجرؤون على فعل هذا بعمّي. عمّي الشجاع العبقريّ. قبضتُ على كتفيه، وهززتُه بشدّة، دون اكتراث بمدى السوء الذي بدوتُ عليه بنظر بلاكبيرن. كنتُ مخلوقًا رهيبًا، أنانيّةً، خائفة ولم أهتمّ بمَن يعرف ذلك.

لقد احتجتُ لعمّي، احتجتُه لمساعدتي في تبرئتِه، حتى نتمكّن من إيقاف قاتلٍ مجنون لم تنتهِ حملتهُ بعد.

«استيقظ! يجب أن تُناضل للخروج من هذا.» اندلع بكاءٌ في حلقي وهززتُه حتى اصطكّت أسناني. لم أتحمّل فقدانه أيضًا. ليس بعد فقدان أمّي بسبب الموت، وأبي بسبب الحزن واللودانوم. كنتُ بحاجةٍ إلى شخصٍ للبقاء معي. «لا أستطيع فعل هذا بدونك! أرجوك.»

مدّ بلاكبيرن يده، ليسحب يدي برفق. «تعالي. سأحضر طبيبًا يعتني به. ليس هناك ما يمكننا القيام به من أجله الليلة. فور خروج الدواء من جسده، سيتمكّن من التحدّث إلينا.»

«آه؟» مسحتُ وجهي بظاهر كفّي. «وكيف يُمكننا التأكّد من أن طبيبك هذا ليس هو مَن قام بهذه... الوحشيّة أصلاً؟»

«أعتذر يا آنسة وادزورث. أنا متأكّد من إنه كان مجرّد إجراء روتيني. لكن اعلمي هذا ـ سأحرص على أن يُدرك الجميع وجود عقوبة صارمة إذا تمّ حقنُ عمّك مرّةً أخرى.»

كانت لهجتُه والظلام الذي طغى على ملامحه كافيَين لجعلي أصدّقه. شعرتُ بالرضا قدر استطاعتي، وسمحتُ لبلاكبيرن بإخراجي من الزنزانة، لكن ليس قبل أن أقبّل رأس عمّي وأودّعه. همستُ بعد أن جفّت دموعي: «قسمًا بدمي، سأصحّح هذا أو أموت وأنا أحاول.»

فور عودتنا إلى العربة، أعطى بلاكبيرن للسائق عنواني في ميدان بلغريف. كنتُ قد نلتُ كفايتي من الرجال الذين يخبرونني إلى أين أذهب، فَقمتُ بضرب جانب العربة بيدي، لأذهلهُما كليهما. لم أهتمّ بما يريده ناثنيل، أو ما ستقوله العمّة أميليا، أو ما سيفكّر فيه بلاكبيرن.

قلتُ: «في الواقع، يُمكنكَ إيصالي إلى شارع بيكاديللي. هُناك مَن أريد التحدّث معه بشكلٍ عاجل.»

18

سكة حديد نيكروبوليس

شقة توماس كريسويل، شارع بيكاديللي

25 سبتمبر 1888

وقفتُ على بُعد نصف شارع، مختبئةً، بينما فتح توماس باب شقّته قبل أن ينظر حولهُ، وبدا متيقّظًا كأنها التاسعة صباحًا، بدلاً من العاشرة ليلاً. تساءلتُ إذا ظهرَ غير مُرتّب أو مُرتبكًا في يومٍ ما. ربما كان يلصق شعره بشكل دائم على جانب رأسه لتقليل متاعب تمشيطه. يجب على أخي أن يتعلّم ذلك.

راقبتُ بصمت، مستجمعةً الشجاعة لأتقدّم إليه، لكنّ قوّةً فطريّة همسَت لي لأبقى مختبئة. توقّعتُه أن يأتي إليّ سيرًا، لكنه لم يلاحظ وقوفي الجزئي في الظلّ على بعد عدّة ياردات منه. لقد كذبتُ وأخبرتُ بلاكبيرن أن توماس عاش على بُعد بنايتين سكنيّتَين، بينما قطعتُ طريقي ببطء نحو العنوان الصحيح. لم أكن واثقة ممّا أفعلهُ هنا في وقت متأخّرٍ جدًا من الليل. جمعتُ أفكاري، وظهرَت بينها مخاوف سخيفة. ماذا لو كنّ فتيات الشاي على خطأ، واتّضحَ إنه يعيش في الواقع مع عائلته؟ سيُصيبهم الفزع لوجودي الطائش في هذه الساعة.

ليس الأمر كما لو أنه قد قدّمَ لي عنوانه. لقد وجدتُه في أحد دفاتر عمّي، وفكّرتُ ببساطة في العودة إلى المنزل. الآن صرتُ متردّدة لأنه كان يتصرّف... بشكل مُريب. حبستُ أنفاسي، لا بدّ أنّ توماس قد لمحَني بطريقة ما أو استنتج وصولي، لكنّ انتباههُ لم يصل إلى موضعي أبدًا. قلبَ ياقة معطفه لأعلى، ثم سارَ في الشارع المُضاء بالغاز بخطواتٍ هادئة عن قصد.

«إلى أين تذهب؟» همست.

حلّق الضباب في نفثاتٍ بخاريّة، حاجبًا كل شيء فوق الأرض، وسرعان ما فقدتُه. انزلقَت أصابع الخوف الباردة أسفل عمودي الفقريّ مُسبّبةً قشعريرة. على الرغم من أنّ الحيّ كان عصريًّا خلال النهار، إلا أنني لم أرغب أن أعلق فيه لوحدي مع إغلاق الجميع نوافذهم للّيل. أمسكتُ بتنّورتي، واندفعتُ وراء توماس، ملتزمةً بالوجود في الظلال بين نور المصابيح.

بعد دقيقة التقيتُ به قرب نهاية الشارع. لقد توقّف ونظر في اتجاه ثم في الاتجاه الآخر. اصطدم قلبي بأضلاعي، ودعوتُ ألّا يستدير نحوي. عدتُ بسرعة إلى الضباب، ليُغلّفني جدارهُ الجليديّ. مالَ رأس توماس لكنه تابعَ السير في الطريق التالي، مستأنفًا خطاهُ الصامتة والسريعة. خلال زفيري، أحصيتُ ثلاثة أنفاس ثم تبعتُه، وأنا أكثر حذراً.

قطعنا شوارع مهجورة، والتقينا بعربة تجرّها خيول عائدة من المتنزه. فاحَت في أعقابها رائحة الفضلات، وحاربتُ الرغبة في العطس، لئلّا أكشف عن نفسي. لم يتوقف توماس مرة أخرى، بل حملَتهُ ساقاهُ الطويلتان بخطوات واسعة باتجاه طريق وستمنستر بريدج ونهر التايمز. ميّزتُ من بعيد القوس الحجريّ لمحطّة سكّة حديد لندن نيكروبوليس.

تمّ بناء المحطة قبل ثلاثين عامًا لتسهيل نقل الموتى من لندن إلى ساري، موقع مقبرة بروكوود. جعلَ انتشار الأمراض ـ مثل الحمّى القرمزية وغيرها من الأمراض المُعدية ـ من الضروري وجود مقابر إضافية، وساعدَ البُعد عن المدينة في إبعاد التلوّث عن الأحياء.

سرَت قشعريرةٌ أخرى في جسدي مع اقترابنا من الماء. لم أنسَ أنّ النهر أحد الأماكن التي افترضَ توماس ارتكاب قاتلنا أفعاله الشنيعة فيها. إذن لماذا قصدَ هذا المكان بالذات في وقتٍ متأخّرٍ من الليل؟ قبل أن أفكّر في الأمر كثيرًا، ظهرَ شخصٌ ثانٍ من طريق دخول عميق، حيث تنقل العربات الجثث إلى المقبرة من تحت النهر. لم أهتمّ للجثث بقدر خشيتي من الأحياء الكامنين في مثل هذا المكان. كان لديّ شكٌّ رهيب بأنّ ذلك ليس اجتماعًا سريًا لفرسان وايتشابل. تسلّلتُ إلى زقاق مجاور للمبنى، ورفعتُ رقبتي، على أمل الحصول على رؤيةٍ أفضل لتوماس وشريكه المجهول.

كان حوارُهم صامتًا، لذا لم أستطع معرفة شيء عن التفاصيل. مع ذلك، لم يتطلّب الأمر الكثير لفهم جوهره. ببساطة، لا يتسكّع المرء خارج المكان الذي تُنقل عبره جثث مئات الموتى بالسكك الحديدية إلى مقبرة بروكوود دون هدف. خاصّةً إن كان المرء يدرس أعضاء جسم الإنسان ويحتاج إلى موادّ اختبار أكثر ممّا كان متوفّرًا. كما لو إنه سمعَ تحذيري الداخلي، استدارَ توماس فجأة باتجاهي وكدتُ أنزل على الأرض.

أغمضتُ عينيّ وتخيّلتُ جدارًا ينبثق من حولي، ليعمي توماس عن وجودي إذا قام بولوج هذا الزقاق. أصغيتُ السمع بشدّة، لكنّ أذنيّ لم

تلتقط أصوات مطاردة. في النهاية، زحفتُ عائدةً إلى الزاوية. لقد واجهَ توماس الاتجاه المُعاكس الآن، مُنغمسًا في المُحادثة.

كانت للمقبرة هالةٌ مشؤومة تُحيط بها، حتى مع بوّابتها الحديدية المزخرفة والأعمال الحجريّة المحفورة التي تبذل قصارى جهدها لِبثّ السكينة إلى المُعزّين وهم يُودّعون أمواتهم.

مرّت دقائق، ثم اختفى الشخصان أسفل طريق الدخول. تحرّكتُ في مكاني، وعلقتُ بين الرغبة في الركض وراءهم وبين معرفتي بعدم وجود مكان للاختباء إذا تمّ رصدي في ذلك الممرّ الجوفي. إذا انتظرتُ في مكاني، فقد أقف هنا حتى الفجر. لم يكن هناك دليل على أنّ توماس سيستقلّ سكة الحديد للسفر إلى المقبرة، أو إن كان متّجهًا فقط إلى إحدى غرف تهيئة الأموات أو الجنائز. لقد زرتُ المبنى مرّتين. مرةً عندما استرددتُ جثّةً لعمّي هذا الصيف، ومرّةً عندما توفّيت أمّي.

لا أتذكّر مشاهدتها، لكنّني أذكر تفاصيل الغرفة التي استراحَت فيها قبل ركوب القطار الأخير إلى المقبرة. لم أستطع حمل نفسي على الذهاب مع أبي وناثنيل إلى قبرها في ذلك الصباح الرهيب. بناءً على أوامر أبيّ، اصطحبَني السيّد ثورنلي إلى المنزل، وطواني بأمان تحت ذراعيه، ليحميني من واقع العالم القاسي.

حدّقتُ في الظلام، وتمنّيتُ أن يظهر توماس ليصرفني عن ذكرياتي. تنهّدتُ. «حسنًا. سأذهب إليك إذن.» تهشّمَت ورقة شجر خلفي، فَتصاعدَ نبضي كما لو أنّ ألفَ إبرة جنائزية وخزَتني في نفس الوقت. درتُ على عقبيّ، مستعدةً للركض طول الطريق إلى المنزل،

قبل أن أتعثّر قبالة المبنى، ويدي تغطّي قلبي. «يا الله! لقد أخفتَني أكثر من الشيطان.»

انحنى توماس على الحائط بجانبي، مقتربًا إلى حدّ جاوزَ اللياقة بكثير. لم أجرؤ على التحرك، وبالكاد تذكّرتُ أن أتنفّس ووجهه على بُعد بوصات قليلة. نقر بأصابعه على الحجر، وشفتاه تتمايلان دون أن يرفع عينيه عنّي. «حسنًا، لقد أرعبتِني يا وادزورث. يبدو أنّنا مُتعادلان.»

تلاشَت مني بعض الصدمة، لكنّ لساني وعضلاتي ظلّوا عاجزين عن الحركة. كانت الطريقة التي تسلّل بها خلال الليل مثل اللصّ مُقلقة. رغبتُ في الصراخ عليه، وعن مدى خطأ الزحف نحو شخصٍ ما بتلك الطريقة، لكنني لم أقُم سوى بالتحديق فيه مع التنفّس بصعوبة. كان هناك أمرٌ مثير في أن تأسرني عيناهُ في الظلام. كسرَ الصمت المشحون صرير عربة ثقيلة الحمل، وشاهدَها وهي تمرّ في الزقاق. ما أن ابتعدَ وقع حوافر الحصان على الحجارة المرصوفة، حتّى عادَ انتباهه إليّ.

«كنت آمل أن تنفّذي تهديداتكِ بمطاردتي.» انجرفَت نظراتُه على قوامي. «ربما كان لتسريحة شعرك تأثيرٌ إيجابي على عقلك، كجمالٍ ووظيفة.»

ضيّقتُ عينيّ، مؤجّلةً حقيقة أنه نعتَني بالجمال لمزيد من التمحيص. «كيف عرفتَ أنّني هنا؟»

رفعَت ابتسامةٌ مُخادعة زوايا فمه. «أخبريني يا وادزورث، لماذا تلوّيتِ في مقعدكِ عندما كنّا في صالون بيتِك، رغم أن عمّتك كانت في الطابق العلوي؟» اقترب أكثر، مُسيّرًا اصبعهُ بتردّد أسفل خدّي. «ومع ذلك، تتبعينني في جوف الليل، مع عدم احتمال تدخّل أحد، في حال حاولتُ سرقة قبلة؟»

ركّزَ على شفتيّ، وذعرتُ من أنّ أنفاسي ستقطع مُثبّتات مشدّي. من بعض النواحي بدا خائفًا مثلي، وعادَ لينتبه على ردّ فعلي. لقد أرادَ تقبيلي بالتأكيد، كنتُ واثقةً من هذا، ولم أستطع إنكار رغبة قلبي الخائن في ذلك أيضًا.

«ألم يُحذّركِ أهلكِ من الخروج ليلاً لوحدِك؟» سأل. «تقبع في الظلام أشياءٌ خطيرة.»

الآن خفق قلبي لسببٍ جديد تمامًا. انحنت يده على وجهي برفق قبل أن أستعيد حواسّي وأقوم بإبعادها. لو أراد تقبيلي، فَعليه أن يأتي بشيء أكثر رومانسية من زقاق خارج محطة جنائز. «ما الذي تفعلهُ هنا؟»

بجهدٍ كبير، رفعَ بصره عنّي وتراجع. «أوفّر جثةً لمختبري الشخصيّ. ما الذي كنتُ أفعله مثلاً ـ البحث عن فتاة لطيفة لأرافقها في النيكروبوليس؟»

رمشتُ. «حقًّا؟ أتسرق جثّة وتعترف بذلك صراحةً؟»

«مَن قال إنني أسرق؟» نظرَ إليّ توماس كما لو كنتُ مجنونة. «هذه الجثة لم يطالب بها أحد. لديّ إذن بدراسة الجثث التي لا يُطالب بها أحد وإعادتها.»

عقدتُ ذراعيّ. «لماذا تتسلّل في الليل؟»

حرّك توماس ذقنه تجاه ضوضاء العربة المبتعدة. «أنا هنا عند انتهاء نوبة أوليفر.» ضحكَ على تعبيري المُرتبك. «بصراحة، خيالكِ رائع يا وادزورث. بعد ذلك سوف تتّهمينني بارتكاب جرائم القتل.»

لاحظتُ أنّ نظراته تقع على شفتيّ، فَقلبتُهما ردًّا. «لم أسمع بمثل هذا الترتيب من قبل.»

قال: «في حين إنه من المثير للاهتمام أن أكون محصورًا في زقاقٍ مُظلم مهجور معكِ، نتجادل حول حقائق، لكنّني يجب أن أستغلّ وقتي بشكل أفضل.» توقّف مؤقتًا، وهو يتابع تعابير وجهي المتألّمة. «اسمحي لي بتعديل هذه الجملة. لكنّنا يجب أن نستغلّ وقتنا بشكل أفضل. مع ذلك، يمكنك البقاء إن كنتِ تفضّلين ذلك. أنا شخصيًّا أستمتع بالتسكّع في الأماكن المظلمة برفقتكِ بما فيه الكفاية.» لم يسَعني إلا الابتسام. كان شيطانيًّا. «إذن، هل ستأتين الآن؟ هذا جميلٌ وجديد.»

فركَ يديه، وهو بالكاد قادر على احتواء فرحته السوداء. لو كنتُ فتاةً جيّدة، لعدتُ إلى المنزل وتظاهرتُ بأنني لا أملك فكرةً عمّا كان توماس على وشك فعله. كنتُ لأصعد إلى سريري ثمّ أحضر الإفطار مع عمّتي وابنتها، لنناقش السيرك ونخطّط لجلسة شاي أخرى في أثناء خياطة المناديل لأزواجنا المستقبليّين. لكنّني لم أكن مثلهما، ولم أكن شريرة، بل فضوليّةً ببساطة. لقد رغبتُ في دراسة الجسد بقدر ما فعل توماس، حتى لو تسبّبَت أعمال تشريح الإنسان والعودة إلى منزل برفقة صبي في موتي البائس بين المجتمع.

بعد نصف ساعة كنّا خارج شقّته، ندفع للرجل الذي أوصلَ الجثّة. حدّق في وجهي قبل أن يضع المال في جيبه، بعينين أشبه بثقبين أسودين، خاليتين من المشاعر الإنسانية. تطلّبَ الأمر تركيزي الكامل، لكنني تمكّنت من كبت خوفي. أشار إليّ توماس بالدخول ثم أغلق الباب. لم أعرف ماذا توقّعت، لكنّ البهو البسيط والسلّم المؤدي إلى الطابق العلوي فاجآني.

قلتُ: «مُريح.» تم وضع طاولة صغيرة عليها صينيّة بسكويت، تفوح منها

رائحة كما لو كانت قد خُبزَت وقُدّمَت قبل أقل من ساعة. أومأ توماس نحو الطعام. «اخدمي نفسِك. تُصبح السيدة هارفي لا تُطاق عندما يمرّ بعض الزمن على مكافأتها.»

لم أكن جائعة، لكنني لم أرغب في الإساءة إلى صانعة البسكويت الغامضة، التي لا يعلم أين يخفيها توماس إلا الله. وصلنا إلى باب شقّته وتردّد توماس قليلاً قبل أن يفتحها. في الداخل، كانت الأوراق والمجلات مبعثرة في أكوام عشوائية يبلغ ارتفاعها ثلاثة أقدام. اصطفّت الحيوانات المحنّطة على رفوف حول الغرفة، وقبعَت الأدوات العلمية في حالةٍ من الفوضى. علقَت رائحة قويّة للكيمياويّات المختبريّة في الهواء، بينما وقفَت في الزاوية البعيدة طاولةٌ متحركّة تحمل جثّةً جديدة.

عجزتُ عن الكلام للحظات. ليس بسبب الجثة، بل الغرفة نفسها. كانت كيفيّة إيجاد توماس لأغراضه في هذه الفوضى لغزًا آخر يجب حلّه. لقد اعتدتُ على توقّع ما لا يخطر على البال عندما يتعلّق الأمر به، لكنّ هذا أصابني ببعض الصدمة. كان شخصهُ أنيقًا ونظيفًا، وهذا... ليس كذلك على الإطلاق.

«أين والداك؟» سألتُ، وأنا ألاحظ صورةً لفتاةٍ جميلة ذات شعر داكن على الرفّ، لينقبض قلبي. هل وُعدَ توماس لشخصٍ آخر؟ كانت عائلته نبيلة، وليست الخطوبة المبكّرة خارجة عن مألوف هذه العوائل. لم تهمّني هذه الفكرة. أشرتُ نحو الصورة قائلةً: «إنها لطيفة.»

أدارَ ظهره لي ومشى نحوها. «إنّها لطيفةٌ جدًّا،» قال وهو يحمل الصورة. «ساحرةٌ حقًا. تلك العيون، والملامح المتناسقة تمامًا، ومن عائلةٍ عظيمة أيضًا.» تنهّدَ بسعادة. «أنا أحبّها من كلّ قلبي.»

كان واقعًا في الغرام. يا لروعة ذلك بالنسبة له. تمنّيتُ لهما حياةً يملؤها البؤس مع أطفالٍ سيّئين. ابتلعتُ انزعاجي ورسمتُ ابتسامة. «أتمنّى أن تكونا سعداء للغاية معًا.»

التفت توماس بسرعة. «عذرًا؟ أنتِ...» تفحّصَ وجهي واللامبالاة القسريّة على ملامحي، وواتتهُ الجرأة على الضحك. «إنها جميلة لأنها أختي، أودري روز. أنا أشير إلى الجينات المتفوّقة المشتركة بيننا. قلبي يعودُ لكِ فقط.»

رمشت. «هل لديكَ أخت؟»

«أفترضُ أنّكِ لم تأتي إلى هنا لطرح أسئلة حول حياتي الشخصية، أو إخباري عن السيرك الذي حضرتِه مع أخيك هذا المساء.» نظر باتجاهي، وابتسامته تتّسع. «ومن سوء حظّي البالغ أنّكِ لم تأتي في موعدٍ غراميٍّ سريّ أيضًا.»

«كيف عرفتَ بشأن...»

أمالَ رأسه، ناظرًا إلى بقيّة ملابسي. «ربما تودّين إخباري بما علمتِه في المصحّة، رغم ذلك...»

هاجمتُه بالكلام: «كيف عرفتَ أنني ذهبتُ إلى مصحّة؟»

«لم تأتِ نشارة الخشب العالقة في ثنايا تنّورتِك من الوقت الذي قضيتِه في الأولمبيا، ولا توجد أماكن كثيرة في لندن يمكن لفتاة أن تلمس فيها المادّة المذكورة. لم أستطع تخيّل قضاؤكِ وقتًا في محلّ نجارة، أو حانة واطئة التكلفة، أو مشرحة في هذا الوقت المتأخر، فأين يتركنا ذلك؟» سأل دون أن ينتظر إجابة، وقام بتعليم كلّ مكان على أصابعه.

«المعامل، المختبرات والمصحّات. لتقليل الاحتمالات أكثر، لمحتُ بقع صدأ على راحتَي يديكِ. من المرجّح أنّكِ واجهتِ قُضبانًا قديمة. ثم هناك مسألة تنورتك الممزّقة، والحزمة الصغيرة التي وضعتِها بعيدًا.» رفعَ حاجبيه. «لا بأس في أن تنبهري. أعلمُ أنني سأنبهر كذلك.»

«آه، تابع ذلك رجاءً.»

قال: «على أيّة حال، لم يتطلّب الأمر الكثير لاستنتاج أنّك ذهبتِ إلى المصحّة ثمّ حضرتِ هنا لمناقشة النتائج التي توصّلتِ إليها. استنتاجٌ آخر، واضح إلى حدّ ما، أنّكِ قُمتِ بزيارة عمّك.»

قلت: «أنتَ تتباهى،» فركتُ كفّي أسفل تنّورتي، وذكرى لمس القضبان تمرّ في عقلي. لم أدرك حتّى أن يدي تلطّخَت من هذا الاتصال القصير. احتاجَ الأمر كلّ ما عندي من طاقة لمنع نفسي من الاستهزاء بالنظرة المتعجرفة على وجهه. صفّقتُ ببطء. «أحسنتَ اللعب، توماس. لقد اكتشفت ما هو واضح. عظيم. الآن، نحتاج إلى معرفة ما قد تمّ تخدير العمّ به. إن كان مُهدّئ المصحّة التقليدي، أم شيئًا أكثر شرًّا.»

«ماذا تقصدين؟» سأل. «كيف كان يتصرّف؟»

أطلعتُ توماس على أحداث المساء في أثناء إخراجي لصُرّتي المؤقّتة وفحص محتواها. «لقد بدا ضائعًا في نشوةٍ غير واعية.»

شاهدَني توماس وأنا أصبّ من المادّة على ورق عبّاد الشمس. «القطّارة في الدرج العلوي، أسفل كومة من الأوراق على اليسار.» اتّبعتُ تعليماته ووجدتُها بسهولة. وضعتُ قطرة من السائل على الورقة وشاهدتُها تتحوّل إلى اللون الأزرق الغامق. «هذه بالتأكيد مادّة أفيونيّة من نوعٍ ما.»

قال وهو يمشي أمام المكتب: «إنهم على الأرجح يعطونهُ له بشكلٍ شبه نقيّ. إن كانوا يريدون حقًا محاكمتهُ بهذه السرعة، فسوف يريدونه أن يبدو مجنونًا قدر الإمكان. تُسبّب معظم أنواع الإكسير الهلوسة، ما يفسّر حالته. لسوء الحظ، هذا كلّه وارد. يمكن أن يكون حتى إجراءً تقليديًّا قبل المُحاكمات.»

توقّف لفترةٍ كافية للنظر إليّ. «هل أنتِ متأكدة من إمكانية الوثوق في بلاكبيرن؟ ماذا تعرفين عنه؟»

لقد عرفتُ الضابطِ من خلال عدد قليل من المواجهات غير السارّة، ولم أكن متأكّدة بشأن أيّ شيء. «أعتقد أنه يشعر بالذنب لوضع العمّ في هذه الفوضى، وأعتقد أنه يحاول تعويض اعتقاله له بإشراكي في القضية.»

«الشعور بالذنب لا يبني أساسًا متينًا من الثقة. في الواقع، هذا يقلّل من ثقتي به.» ضيّق عينيه وهُما تتبعاني. «لماذا أبدى مثل هذا الاهتمام بأسرتِك؟ لو لم تكوني مفتونةً به، فستكونين أكثر شكًّا في دوافعه. يمكن إخفاء الكثير خلف ابتسامة الرجل.»

«لستُ مفتونةً بأيّ شخص.»

قال بهدوء: «لقد اتّفقنا على ألا نكذب على بعضنا البعض،» استدارَ مبتعدًا قبل أن أتمكن من قراءة تعبير وجهه. «أحدهم يحرص على أن يُشنَق عمّك على هذه الجرائم، أودري روز. لنفترض الأسوأ بشأن بلاكبيرن. يجب أن يظلّ الجميع مشتبهًا بهم حتى يثبت العكس.»

«هل يجب أن أكون حذرةً منكَ أيضًا، سيّد كريسويل؟»

وقف توماس أمامي، وقد اختفَت كلّ آثار الفكاهة من محيّاه. «نعم. يجب أن تبقَي في حالة تأهّب في جميع الأوقات. حتى مع الأقربينَ إليكِ.»

وكنتُ أظنّ نفسي مهووسة بالقلق. سارَ توماس إلى الخزانة، ليسحب منها زوجًا من المآزر البيضاء. دفعتُ معدّات الكيمياء جانبًا، وأنا أفكّر في أشياء بائسة. «إن حدثَت جريمة قتل أخرى من الآن حتى يوم الثلاثين، فسوف يتعيّن عليهم إطلاق سراحه. أليس كذلك؟» التقطتُ خيطًا من صدر ثوبي، غير راغبة برفع عينيّ. «أعني، بالتأكيد لن يحاكموه على هذه الجرائم إذا وقعَت جريمةٌ أخرى خلال وجوده في المصحّ.»

انصبّ انتباه توماس عليّ. «هل تقترحين علينا ارتكاب جريمة قتل يا وادزورث؟ هل تخطّطين للقيام بعملية الطعن، أم يجب عليّ أنا فعل هذا الجزء؟»

«لا تكُن سخيفًا. أعني فقط أن هناك دائمًا احتمال ظهور جثة أخرى. لا أستطيع تصديق أن قاتلنا سوف يكفّ ببساطة ويتلاشى بهدوء في الليل. لقد قلتَ ذلك بنفسك.»

فكّر توماس لبضع لحظات. «أفترض ذلك. لكن إذا كنّا نراهن على هذه النظرية، فمن الممكن أيضًا أن أخترع سفينة بخارية تسافر عبر السماء قبل نهاية الأسبوع.»

«هل تحاول بناء باخرةٍ طائرة؟»

ردّ بابتسامةٍ شيطانية: «قطعاً كلا.» أمسك بمشرط من طاولة الفحص وناوله لي مع مئزر. «لكنّكِ قلتِها بنفسك، كلّ شيء ممكن.» أشارَ برأسه نحو

الجسد المُلقى. «هيّا لنبدأ مع هذا. يجب أن نُعيد الجثّة بحلول الفجر، وأودّ انتزاع المرارة أوّلاً.»

دون تردّد، قمتُ بفتح الجلد بواسطة شفرتي، لأحصل على صافرة تقدير من توماس.

19

عزيزي المدير

وكالة الأنباء المركزية، لندن

27 سبتمبر 1888

استقبلَنا صوتُ نقر مئات الأصابع على الآلات الطابعة أنا وتوماس، بينما كنا نتبع المُشرف بلاكبيرن إلى وكالة الأنباء المزدحمة. وفقًا لأخي، كانت معظم قصصهم تدّعي وجود «أكاذيب مُثيرة واتّهامات بالافتراء في الانتظار»، ولم أختلف معها.

وجدَني بلاكبيرن محبوسة في مختبر عمّي، وأنا أفكّر في تفاصيل جرائم القتل والأدلّة المستخدمة ضد عمّي، وأصرّ على أن أشهد الرعب الأخير بأمّ عينيّ. لم يكن المُشرف راغبًا في رفقة توماس، لكنني أقنعتُه بأنّ خبرته مطلوبة للغاية. من المحتمل أن يلحظ توماس أيّة تفاصيل يتمّ التغاضي عنها، وهذا بالضبط ما يحتاجه العمّ. استسلمَ بلاكبيرن في النهاية.

لقد ساعدَتني ليزا في اختلاق الأعذار لمغادرة المنزل، وأخبرَت والدتها أننا بحاجة ماسّة إلى حملات تسوّق. شعرَت العمّة أميليا بسعادة غامرة لأنني أقوم «بأشياء مناسبة للفتاة»، وأرسلتنا وهي تدندن لنفسها. كنت أشكّ

في استعداد ابنة عمّتي للمساعدة، لأنها خصّصَت الوقت للتسلّل بعيدًا إلى المتنزه بصحبة آخر اهتماماتها العاطفيّة. بغضّ النظر عن دوافعها، فقد أسعدني وجودها، وسوف أفتقدها حين تعود إلى مسكنها الريفيّ.

التوى القلق في أطرافي. لم يكن بلاكبيرن رجلاً كثير الكلام، لذا لم يبُح لي بالكثير في العربة. كلّ ما أعرفه هو أن شيئًا ما ظهرَ وقد يُثير الشكوك حول ذنب العمّ أو يضع الخناق حول رقبته إلى الأبد. ربّما لا يثق توماس في بلاكبيرن، لكنني كنتُ يائسةً بما يكفي لقبول أيّة مساعدة ممكنة، حتى لو عنى ذلك اتّباع الشخص الذي اعتقلَ عمّي في الأصل إلى أعماق الجحيم.

مررنا بعدّة مكاتب عليها مُراسلون، يكتبون ويتحدّثون بحماس عن أخبار اليوم. أمكنَني الشعور بطنين محسوس مثل الكهرباء التي تمرّ عبر لمبات إديسون. في نهاية الغرفة الصغيرة انتصبَ مكتبٌ مع رجل بدين ضخم، يجلس خلف منضدةٍ أضخم. لبسَ نظارةً على وجهه وقلقًا على مُحيّاه.

كان النقش على الباب يقول إنه مدير التحرير. حامَ حوله شيءٌ قاتِم وتغلغلَ في كلّ حركاته وأفعاله، ليكشف عن رؤيته للكثير من ظُلمات الحياة. انصبّ اهتمامه على كلّ واحدٍ منّا، وبدا أنهُ يخمّن دوافعنا أو شخصيّاتنا، قبل أن يستقرّ على المُشرف بلاكبيرن. أشعل سيجارةً بأصابعه الممتلئة، ثم أشارَ لنا بأن ندخل ونجلس، بحركاتٍ سريعة ومتوتّرة.

شاهدتُ الجمرات الصغيرة تتلاشى من اللون البرتقالي إلى الرماد الرماديّ في أعقاب دخولنا، واستقرّت سحابةٌ كثيفة من الدخان فوق رؤوسنا، كأنّها لا تريد تفويت ما نحنُ على وشك معرفته. لم أتمكن من إيجاد الإرادة للانزعاج من الأبخرة السامّة، كنتُ متوتّرة للغاية بشأن الأخبار التي قد تبرّئ

العم أو تدينُه. مع ذلك، بدا توماس جاهزًا للقفز فوق المكتب وامتصاص آخر بقايا التبغ إلى داخل رئتيه.

بيدٍ مهزوزة، أشار المحرّر نحو طقم الشاي الموجود على بوفيه بالقرب من الحائط. «إذا رغب أيٌّ منكم في الترطيب قبل أن نبدأ، فأرجو أن تخدموا أنفسكم.»

نظرَ بلاكبيرن إليّ، فرفعتُ حاجبيّ، وهززتُ رأسي قليلاً. لم أرغب في البقاء لفترة أطول من اللازم. كان المكان مزعجًا وزادَني المحرّر توتّرًا. قال: «كلا، شكرًا لك سيّد دويل. إن كنتَ لا تمانع، أودّ رؤية الرسالة التي تحدّثتَ عنها سابقًا.»

حذّر السيّد دويل، وهو يحدّق في وجهي على وجه الخصوص: «ما أنتَ على وشك رؤيته غير سارّ نوعًا ما. خاصّةً لسيّدةٍ شابّة.»

ابتسمتُ متّكئةً على المكتب، واستخدمتُ أعذب نبرة استطعتُ نطقها: «في أوقاتِ فراغي، أقوم بشقّ جثث الموتى. اثنتان منهم كانتا ضحايا لذي المئزر الجلديّ. الرائحة التي غمرَت الغرفة من شأنها إسقاط رجل على ركبتيه، وقد ساعدتُ عمي في تشريح الجثة بينما كنتُ أقف على الدم المُتجلّط.» عدّلتُ جلستي في الكرسيّ، وصرّ الجلد بعدم موافقة. «أيًّا كان ما لديكَ لتُظهره لنا فَلن يكون خارج مدى تحمُّلي، أؤكّد لك.»

ابيضّ السيّد دويل، ثم أومأ باقتضاب، وهو يخلط الأوراق أمامه. كان من الصعب معرفة ما إذا كان منزعجًا من أنشطتي غير اللائقة بالسيّدات أو من النبرة الأنثويّة التي أوصلتُ بها الرسالة. في الحالتين، شعرتُ بأنني قد انتصرتُ بعد قلب طاولة الإزعاج عليه.

شخرَ توماس، ثم رفع يديه في لفتة اعتذار عندما حدّق به السيّد دويل. بدا بلاكبيرن صبيانيًّا مثل توماس، ولم يُخفِ متعته بطريقةٍ أفضل. تمعّنتُ في هذه النسخة من بلاكبيرن. كان توماس على حقّ، هنالك شيء ساحر بشأن ملامحه، ويُمكنه بنظرةٍ خجولة أن يكتسب كامل ثقتك. تنحنح السيّد دويل. «حسنٌ جدًّا إذن.» فتحَ الدرج العلوي من مكتبه، وأخرجَ الرسالة، ثم دفعَها إلى حيث جلسنا، على كراسي ذات ظهر مستقيم. بدا حريصًا على التخلّص منا بالفعل، وفكّرتُ بإبلاغه أن الشعور متبادلٌ للغاية.

«جاء هذا في بريد هذا الصباح.»

انتزعَها توماس قبل أن نتمكّن أنا أو بلاكبيرن من ذلك، وقرأها بصوتٍ عالٍ:

«عزيزي المدير، أسمعُ باستمرار أنّ الشرطة قد ألقَت القبض عليّ لكنّهم لن يوقِفوني بعد.»

فتح توماس فمه، بلا شكّ استعدادًا لقول شيء من أقواله المعتادة، لذا استخدمتُ الإلهاء ضده، وانتزعتُ الرسالة من براثنه لأقرأها لنفسي.

كانت قواعد اللغة فظيعة. قرأتُ النص المهتزّ المتعرّج بسرعة، وجلدي يزحف فوق عظامي مع كلّ جملة يقع عليها نظري. كان الحبر أحمر بلون الدم، لزرع الخوف في القارئ، كما لو أن معاني الرسالة ليست مخيفةً بما يكفي. فكّرتُ أنّها ربما كانت فعلاً مكتوبةً بالدم. لن يفاجئني شيء عندما يتعلّق الأمر بهذا الرجل المجنون.

«عزيزي المدير،

أسمعُ باستمرار أنّ الشرطة قد ألقَت القبض عليّ لكنهم لن يوقفوني بعد. لقد ضحكتُ عندما بدوا أذكياء جدًا وهم يتحدّثون عن اتّباع الطريق الصحيح. جعلتني تلك النكتة عن المئزر الجلديّ أغـ ضب بشدّة. أنا أصطاد العاهرات ولن أكفّ عن تقطيعهنّ حتى يتمّ القبض عليّ. كان آخر عمل عظيمًا. لم أمنح السيّدة وقتًا لتصرخ. كيف يُمكنهم إمساكي الآن. أنا أحبّ عملي وأريد أن أبدأ من جديد. ستسمع عني قريبًا بألعابي الصغيرة المسلّية. لقد حفظتُ بعض المواد الحمراء في زجاجة بيرة الزنجبيل من آخر أعمالي للكتابة به، لكنها صارَت سميكة مثل الغراء ولم أستطع استخدامها. آمل أن الحبر الأحمر يفـي بالغرض. ها. ها. في وظيفتي التالية سأقوم بقص آذان السيّدة وإرسالها إلى ضبـاط الشرطة فقط للمرح. احتفظ بهذه الرسالة حتى أقوم بمزيد من العمل، ثم اعلن عنها مباشرة. سكّينتي جميلة للغاية وحادّة، وأريد العمل فورًا إذا سنحَت لي الفرصة. حظًا سعيدًا. تفضّل بقبول فائق الاحترام

جاك السفّاح

اسمح لي بإعطاء الاسم التجاري

ملاحظة: لم يكن جيّدًا كفاية إرسال هذا قبل أن أزيل كل الحبر الأحمر من يدي، اللعنة لم يحالفني الحظ حتى الآن. يقولون إنني طبيب الآن. ها ها

عند وضع الخطاب، دارَت أفكاري في دوّامة من الأمل والرهبة. بينما لم يكن هناك ما يضمن أن هذا لوحده يمكن أن ينقذ عمّي، فمن المؤكد إنه قد يساعد. تناوب توماس وبلاكبيرن على قراءة الرسالة، ثم جلسا على

الكراسي. لم يقل أحد شيئًا لبرهة، حتى تحدّث توماس: «أيّة نكتة عن المئزر الجلدي؟ لا أذكر قول الشرطة أيّ شيء مضحك عن ذلك. ما لم يكن يعلم شيئًا لا نعرفه.»

حدّق كل من المحرّر دويل وتوماس في بلاكبيرن، بانتظار ردّه، لكن بلاكبيرن تنهّد ومرّر يده على وجهه المُنهك. وسيمًا أم لا، لم يبدُ أنه قد نام جيدًا منذ آخر مرة رأيته فيها. «ليست عندي أدنى فكرة عمّا يشير إليه كاتب هذه الرسالة. ربما يقصد العناوين الرئيسية التي تطلق عليه اسم ذي المئزر الجلديّ.»

تنحنحتُ ونظرتُ إلى السيّد دويل. «كاتب هذه الرسالة طلبَ عدم إظهارها لبضعة أيام. لماذا اتّصلتَ بالمشرف بلاكبيرن؟»

حوّل السيّد دويل نظرته المُرهَقة إليّ. «حتى لو ثبتَ أن هذه الرسالة كاذبة، مُرسَلة من مواطن مختلّ عقليًا، فلا يمكنني الاحتفاظ بها بضميري الحيّ.» ابتلع جرعةً من الشاي، ثم أخرج قارورة ليأخذ جرعةً أكبر. «أنا أؤجل نشرها، لكن إذا كان سينفّذ تهديداته، فأنا أرغب في إخلاء عقلي من الذنب.»

فجأةً غمرَني شعورٌ مُريب. كان هناك شيءٌ غريب يحدث، بصرف النظر عن اتصال المحرّر الذي بدا نادمًا عليه. شيءٌ في غير محلّه لم أتمكّن من كشفه. بعدها انتبهتُ إلى أن توماس كريسويل كان هادئًا بشكل غير عاديّ. عادةً ما يكون هذا هو الوقت الذي يجادل فيه أو يقول الكثير. قام بتقريب الرسالة من وجهه وشمّها. لم تكن لدي فكرة عن كيفيّة استنتاجه لأيّ شيء من الرائحة، لكنني عرفتُه أكثر من أن أزعم استحالة ذلك. لم تنطبق عليه تلك الكلمة بأيّ شكل.

«أفترض أن هذا قد تمّ تسليمه في ظرف،» قال دون أن يتكلّف عناء رفع عينيه عن الرسالة. «أحتاج إلى رؤية ذلك على الفور.»

ألقى السيّد دويل نظرة نحو بلاكبيرن، منتظرًا منه أن يهبّ ليقول أن ذلك ليس ضروريًا، لكن بلاكبيرن أومأ بيده بنفاد صبر. «لقد سمعتَ الشاب، دويل. سلّمهُ أيّ دليلٍ يطلبه.»

مع عبوس عميق استقر على وجهه، فعلَ المحرر ما طُلبَ منه. لم يبدُ من نوع الرجال الذين يقدّرون تلبية احتياجات الصغار. بالنظر إلى أن بلاكبيرن نفسه ليس أكبر بكثير من أخي، كنتُ واثقة من أن السيّد دويل تساءل في نفسه عن سبب إشراكه الشرطة في الموضوع أصلاً.

فحصَ توماس كل زاوية من الظرف مرّتين، قبل أن يسلّمه لي، وكانت تعابيره مرسومة بعناية. «هل يبدو أيٌّ من هذا مألوفًا لكِ يا وادزورث؟»

أخذتُ المغلّف منه وقرأته بصمت. لم يكن هناك عنوان مُرسِل، الشيء الوحيد المكتوب عليه هو «الرئيس. مكتب الأخبار المركزية. مدينة لندن» بنفس الحبر الأحمر الذي تمّت كتابة الرسالة فيه. اعتقادهُ سخيف بأنه قد يكون شيئًا رأيتُه من قبل. ثمّ صفعَتني فكرةٌ مُباغِتة على وجهي. هل اعتقدَ أنني كتبتُه على أمل مساعدة عمّي؟ هل هذا ظنّهُ بي؟ فتاةٌ مدلّلة أجوب شوارع لندن وأفعل ما يحلو لي دون اعتبار لأحد؟ هل ظهرتُ كابنة لورد في إساءة استخدام امتيازاتي؟ دفعتُه نحوه. «كلا، كريسويل. لم أرَ هذا من قبل في حياتي.»

رغمَ استخدامي للقبهِ المُجرّد، لم يرمش له جفنٌ حتى. نظرَ لي للحظةٍ أخرى، ثم أومأ برأسه. «صحيح. إنه خطئي إذن، أودري روز.»

«خطأ؟» نظر بلاكبيرن إلينا، وتشكّلَ تجعّد، في جبينه. «إذا صدّقنا الشائعات، فمنذُ متى يرتكب ربيب الدكتور جوناثان وادزورث الأخطاء؟»

أجاب توماس ببرود: «يبدو أن هناك مرّة أولى لكل شيء، أيها المُشرف،» انجرف انتباهه أخيرًا بعيدًا عني. «رغم ذلك، كشخص لديه بعض الخبرة في ارتكاب الأخطاء، أنا متأكّد من إنه في وسعكَ التعاطف. قُل لي، كيف يبدو الأمر ـ »

وضعتُ يدي على ذراعه وأجبرتُ نفسي على القهقهة بلا توقّف، لتتّجه نحوي نظراتٌ غريبة من كل ذكر في الغرفة. عدا توماس، الذي ركّز انتباهه على يدي المُلامسة له.

توماس اللعين. هل يجب عليّ دومًا إنقاذهُ من نفسه؟ كان بلاكبيرن مصدر إزعاج وغير جدير بالثقة، لكنه أثبت فائدته لمرّةٍ واحدة على الأقل. لم أكن في مزاجٍ يسمح لتوماس بمُعاداته اليوم، خاصةً عندما كانت حياة عمّي على المحكّ. رفعتُ يدي. «أنا أعتذر. توماس لديه حسّ دعابة شرّير. أليس كذلك، سيّد كريسويل؟»

حدّق توماس لوهلة، ثم أطلقَ نفَسًا طويلاً مزعجًا. «أعترف أن هذا قولٌ عادل. على الرغم من سوء استنتاجه كالمعتاد، آنسة وادزورث. للأسف، لقد فاقتكِ موهبة عمّكِ تمامًا. على الأقل لديكِ ابتسامةٌ جذّابة. ليسَت بالشيء الكثير، لكنّها ستعوّض بالتأكيد عن نقص قدراتكِ الذهنيّة. حسنًا،» نقلَ تركيزه إلى بلاكبيرن. «على الأقل بالنسبة إلى شخصٍ بليد بنفس المقدار.»

صررتُ أسناني. «ربّما يكون هذا صحيحًا، لكنّنا حقًّا يجب أن ننصرف. لدينا تلك التجربة التي نحتاج إلى التحقّق منها في المختبر. أتذكر؟»

«في الواقع، لقد أخطأتِ ثانيةً، يا عزيزتي.»

غضبتُ لدرجة أنني وددتُ أن أصرخ في وجهه ببعض أسوأ البذاءات التي سمعتُها في الأرصفة. لقد دمّرَ عُذرنا للخروج، ولم أكن بكلّ تأكيد عزيزته. عندما اعتقدتُ بضياع الأمل، تفقّدَ توماس ساعته. «كان يجب أن نغادر بالضبط منذ ثلاث دقائق وثلاث وعشرين ثانية. إذا لم نُسرع الآن، سيتمّ تحطيم تجربتنا. من الأفضل أن ننادي على عربة.» التفتَ إلى المُحرّر والمُشرف. «كان الأمر ممتعًا مثل أحد أيّام الصيام الكبير، أيّها السادة.»

بحلول الوقت الذي اكتشفوا فيه أن انصرافه كان في الواقع إهانة، كنّا نندفع عبر غرفة التحرير الصاخبة ونخرج إلى شوارع ما بعد الظهر الباردة. لم نكفّ عن السّير لبضعة شوارع، والصمت رفيقنا الوحيد. أخيرًا، بمجرّد أن قطعنا مسافةً كافية لكي لا يرانا بلاكبيرن، توقّفنا.

«ما معنى ذلك السؤال؟» سألتُ بغضب يتنامى في داخلي. لم أصدّق إنه ظنّني بذلك السوء. أين ذلك من إخبار الحقيقة لبعضنا البعض مهما حصل.

قال: «لم أكن ألمّح أن لكِ أيّة علاقة بكتابة الرسالة يا وادزورث. يجب حقًا أن تكبحي مشاعركِ اللعينة. ستعترض دومًا طريق تحقيقاتنا.»

لم أرغب في خوض هذه المحادثة ثانيةً. قد يكون هو قادرًا على التصرّف كآلة خلال تحقيقاتنا المروّعة، لكن الجليد والحجر لم يكونا المادة المكوّنة لِدمي وعظامي. «إذن إلامَ كنتَ تُلمّح، بالضبط؟»

«شخصٌ ما وضعَ عطر هاسونهانا قبل ليلتين كان على مقربة من تلك الرسالة.»

أغمضتُ عينيّ. «لا يُمكنك أن تكون جادًّا يا توماس. هذا هو اكتشافك العظيم؟ أتعتقد أنه يمكنك التعرّف على قاتلنا من خلال رائحة العطر؟ كيف يُمكنكَ التأكّد من أن ذلك العطر ليس لشخصٍ يعمل في البريد العامّ؟» رميتُ يديّ في الهواء. «ربما كان حامل الرسائل وضعها بجانب رسالة أخرى كتبها عاشقٌ سريّ لمحبوبته، وقام برشّ المظروف بعطر حبيبته المفضّل. هل فكّرتَ للحظةٍ في ذلك، أيّها العارف بكلّ شيء؟»

«كنتِ تضعين نفس العطر منذ ليلتين،» أجاب بهدوء وهو يحدّق في الأرض، وقد اختفَت كل علامات الغطرسة. «في الليلة التي زُرتِ فيها المصحّ وتبعتِني إلى النكروبوليس. لقد شممتُ رائحتكِ في الزقاق، وقصدتُ العديد من المتاجر في محاولةٍ للعثور على نفس العطر بالضبط...» نظرَ إلى يديه. «أردتُ شراءه لك.»

لو مدّ يدهُ وصفعَني، لما صُدِمتُ لتلك الدرجة. هذا ما اعتقدهُ صديقي الحقيقيّ الوحيد في العالم؛ كنتُ وحشًا ينتظر إطلاق سراحه. ربّما كان على حق. لم أشعر بأدنى رغبة في البكاء أو التوسّل إليه ليصدّقني. حتى إنني لم أشعر بالرضا لاعترافه برغبته في شراء هديّة لي. شعرتُ برغبةٍ في سفك الدم، دمه هو على وجه الخصوص.

«إذن أنتَ تفترض أنّ لي علاقة بهذا!» قطعتُ صرختي لأبتعد قبل أن أعود نحوه، وهو لا يزال يتحاشى عينيّ. «كيف تجرؤ؟ كيف تجرؤ على التفكير في مثل هذه الأشياء البغيضة عنّي. إنّه العطر الأكثر شعبيّة في لندن! لمعلوماتك العظيمة، كانت كلٌّ من عمّتي وابنتها تضعان نفس العطر. هل تعتقد أنّ أحداهما قد كتبَت الرسالة؟»

«هل ستحاول عمّتكِ حماية الدكتور وادزورث؟ أو ربّما سمعة عائلتك؟»
أخذَ نفسًا عميقًا. «إنها مُتديّنة للغاية، أليس كذلك؟»

«لا أستطيع...» هززتُ رأسي. «هذا سخيف!»

لقد انتهيتُ منه. إن كان يعتقد أنني أنا أو عمتي أو ابنتها قد أرسلنا تلك الرسالة، فَليكن. خطرَت لي فكرةٌ مُلتوية جعلتني أبتسم. لقد أسدى لي جاك السفّاح معروفًا. رسالته، مهما كان دافعها، تمنح بصيص أملٍ للعمّ. على الأقل، لديه فرصة قتال الآن.

«أتعلم؟ كنتَ برفقتي في تلك الليلة أيضًا يا توماس. ربّما انتشر عطري السحريّ على كل متعلّقاتك. لن أتفاجأ إن كتبتَ تلك الرسالة الدمويّة بنفسِك.»

درتُ على كعبيّ، بوثبٍ نابض في خطواتي، وناديتُ على عربة، تاركةً توماس وحيدًا مع اتّهاماته و تحديقه المذهول، بسعادةٍ جاهلةٍ للرّعب الآتي في الليالي القادمة.

20

حدث مزدوج

ساحة ميتري، لندن

30 سبتمبر 1888

اندفعَ جمعٌ من الرجال والنساء الغاضبين على حاجز مكوّن من أجساد الشرطة، وقد دفعَ مشاعرهم الخوف وحوّلَها إلى غضبٍ شديد. شددتُ شالي أكثر، وغطّيتُ وجهي من برد الصباح الباكر ومن الناس الواقفين بالقرب مني. رغبتُ في التخفّي، إذ كان لدى عائلتي من المشاكل ما يكفي أصلاً.

لقد عادَ أبي أخيرًا إلى المنزل في الليلة الماضية، بعد ما يقرب من شهر بعيدًا عن اللودانوم الثمين، ولم أرغب في أن يُخبره أحد بأنني قد تسلّلتُ خارج المنزل وهرعتُ إلى هنا بأسرع ما يمكن.

تمنّيتُ تجنُّب اختبار جنون ارتيابه، على الأقل حتى يتمّ إطلاق سراح عمّي. ناهيكَ عن إنّني لم أنوِ أن يُسرع في تزويجي إذا ثبتَت له صعوبة التعامل معي. ربّما اختار لي بالفعل شابًّا لطيفًا ومناسبًا يعيش بعيدًا عن شوارع مدينة لندن. كرهتُ فكرة أن أكون مُحاصرةً في قفص مُذهّب في الريف، لكنني لم أستطع لوم والدي على محاولاته لحمايتي، برغم ضلالتها.

رفعتُ انتباهي إلى المباني المُحيطة: وحوش عالية من الطابوق البارد. شاهدتُ الحروف الضخمة التي تشكّل اسم مبنى كيرلي آند تونج، وهي تراقب بصمت الفوضى التي تحدث في الأسفل. ليت بإمكان تلك الحروف التحدّث عن الأسرار التي شهدتها الليلة الماضية. حاولتُ استيعاب كلّ التفاصيل قدر استطاعتي، بنفس الطريقة التي كان توماس أو العمّ سيقومان بها لو وقفا هنا. لم أتكلّم مع توماس منذ يومين، ولا تزال لدغة اتهامه في طليعة ذهني.

كانت ساحة ميتري المكان المثالي لجريمة قتل. شكّلَت المباني فناءً ضخمًا، وأبعدَت أعين المتطفّلين من الطرقات الرئيسية. حسب الشائعات التي اجتاحَت الجمهور، كانت مكانًا أفضل لجريمة قتل مُزدوجة. لقد عادَ جاك السفّاح بقوّة بعد حوالي شهر من الأمان. لم يُوجّه تهديداتٍ زائفة في رسالة «عزيزي المدير». لقد وعدَ جاك بعنفٍ غير مسبوق، وهذا بالضبط ما فعله.

صرخ بعض الرجال بالقرب من مقدمة الجمع طلبًا للثأر، ممّا أشعل غضب الناس من حولهم. صاحَت امرأةٌ بجانبي، «هذا ليس صحيحًا! نحن بحاجة إلى إمساكه وقتله! الشنق للمجنون!»

أعدتُ انتباهي إلى الحاجز الحيّ. من بين أطرافهم، بالكاد لمحتُ جسدًا مغطّى بكفنٍ أبيض مُصفرّ، يتجمّع الدم حوله مثل بحيرة حمراء بالقرب من الرأس، بينما تمّ اكتشاف جثة أخرى على مسافة قصيرة من الأولى. لقد كان أسوأ شيء يُمكن أن أفكّر فيه، لكن الآن لم تعُد هناك طريقة ممكنة لإعدام العمّ من قبل سكوتلانديارد، ليس بعد أن تمّ عرض جثّتَين أخرَيين بذلك الشكل، أمام أنظار لندن برمّتها.

تنامى ظلام في داخلي وجب استئصاله. تلك هي المرّة الثانية في ذلك الأسبوع التي أكون فيها ممتنّةً إلى حدٍّ ما للسفّاح، وأزعجَتني مشاعري. كيف أجرؤ على الفرح لبؤس شخص آخر، هذا لم يجعلني أفضل من القاتل نفسه. مع ذلك، كنتُ آمل أن تنقذ هذه الجريمة حياةً واحدة على الأقل، حتى لو جعلني هذا الأمل سيّئة.

شعرتُ بضغطة قوية على كتفي فاستدرت، وتنّورتي تلتفّ حول جسدي. هزّ المُشرف بلاكبيرن رأسه، وشعره الفاتح يخطف ضوء الشمس. «كنتُ سأستفسر عن الطقس، لكنني متأكد من أنك تريدين التحدّث عن أشياء أخرى، آنسة وادزورث.» حدّق نحو الجثة، وحجب عينيه بيده. «يبدو أن فتانا قد قدّمَ لنا ضحيّتين أخرَيين.»

تابعتُ نظراته، وأومأت. لم يكن هناك الكثير لأضيفه إلى ذلك، لذا بقيتُ صامتة. شاهدتُ واستمعتُ إلى الأشخاص الأقرب إلينا وهم يتكهّنون الأمور عن ذي المئزر الجلديّ الشرّير، قاتل السيّدات. على الرغم من إنني لن أشير إلى جاك على إنه «فتانا».

دبّ شعور بعدم الارتياح ببطء في جسدي، لا علاقة له بالنساء المقتولات أو الجمهور الخائف. شعرتُ أنّ بلاكبيرن يفحصني بعناية، لكنني أبقيتُ انتباهي في مكان آخر. شيء ما في أسلوبه جعلني أشعر كما لو كنتُ قيد التحقيق بسبب جريمة لا أتذكّر ارتكابها.

أردفَ بلاكبيرن: «أنا أعلم إنه لا نفع من أن أطلبَ منكِ التحدّث معي لاحقًا، لذا أدعوكِ الآن لتفقّد المشهد. من الواضح أن عمّك لا يمكن أن يحضر، وليس هناك شخصٌ آخر أثق به في تقديم تقييم مُناسب. ما لم تشعري، بالطبع، إنّكِ لن تستطيعي تحمّل الأمر.»

لم أستوعب دعوته تمامًا، ونظرتُ إليه. كنتُ مجرّد متدرّبة تحت إمرة عمّي، لكن بلاكبيرن بدا متلهّفًا لمعرفة رأيي في المسألة، وكنتُ مستعدّة لتنحية الشكوك بشأنه جانبًا لأحصل على فرصة لفحص الجثث. بلعتُ ريقي وتلفتُّ حولي، لم يُعِرنا أحدٌ أيّ انتباه. «بالطبع سأفحصهُما.»

ركّز بلاكبيرن عليّ، وارتعشت شفتاه بشيء من عدم اليقين. «مع ذلك قد ترغبين في تهيئة نفسك. إن رؤية جثة على طاولة تشريح ورؤية جثة مُلقاة في بركة دامية داخل زُقاق أمران مختلفان بعض الشيء.»

إن كان يحاول تخويفي، فَلم ينجح. لم يعلم إنني قد صادفتُ بالفعل جثةً في زقاق وعشتُ لأروي قصّتها الرهيبة. تلهّفتُ كثيرًا لإلقاء نظرة فاحصة على المشهد، لفهم عقل الرجل الذي ذبح هؤلاء النساء بوحشيّة. تخيّلتُ أنه سيكون أحد أكثر الأشياء المروّعة التي أراها على الإطلاق، لكنني لن أدع الخوف يأسرني. ابتهج الظلام بداخلي لفرصة رؤية الجثث عن قرب، في الحالة التي قصد القاتل اكتشافها. ربّما أجد دليلاً مفيدًا.

عندما رفعتُ ذقني، وسمحتُ للتحدي بغسل ملامحي، ضحكَ بلاكبيرن. «أنتِ تُشبهينني كثيرًا.» ابتسم بسعادة لردّة فعلي. «ابقي قريبة ولا تتحدّثي. قد أكون حريصًا على معرفة رأيك، لكن ليس كل الرجال كذلك في هذا الشأن. من الأفضل أن تدعيني أنا أتحدّث.»

«حسنٌ جدًا.» تلك حقيقةٌ مُرّة. أنا فتاةٌ شابّة نشأت في عالم يديرهُ رجالٌ كبار، وكنتُ أختار معاركي بحكمة. دون النطق بكلمة أخرى، شققنا طريقنا إلى مقدّمة الحشد ووقفنا أمام صفّ الشرطة. ابتعدَت النساء ببطء عن بلاكبيرن، وأعينهنّ تنظر إليه بتقدير في أثناء مروره. أوقفَ حركتَنا رجلٌ

تنامى ظلام في داخلي وجب استئصاله. تلك هي المرّة الثانية في ذلك الأسبوع التي أكون فيها ممتنّةً إلى حدٍّ ما للسفّاح، وأزعجَتني مشاعري. كيف أجرؤ على الفرح لبؤس شخص آخر، هذا لم يجعلني أفضل من القاتل نفسه. مع ذلك، كنتُ آمل أن تنقذ هذه الجريمة حياةً واحدة على الأقل، حتى لو جعلني هذا الأمل سيّئة.

شعرتُ بضغطة قوية على كتفي فاستدرت، وتنّورتي تلتفّ حول جسدي. هزّ المُشرف بلاكبيرن رأسه، وشعره الفاتح يخطف ضوء الشمس. «كنتُ سأستفسر عن الطقس، لكنني متأكد من أنك تريدين التحدّث عن أشياء أخرى، آنسة وادزورث.» حدّق نحو الجثة، وحجب عينيه بيده. «يبدو أن فتانا قد قدّمَ لنا ضحيّتين أخرَيين.»

تابعتُ نظراته، وأومأت. لم يكن هناك الكثير لأضيفه إلى ذلك، لذا بقيتُ صامتة. شاهدتُ واستمعتُ إلى الأشخاص الأقرب إلينا وهم يتكهّنون الأمور عن ذي المئزر الجلديّ الشرّير، قاتل السيّدات. على الرغم من إنني لن أشير إلى جاك على إنه «فتانا».

دبّ شعور بعدم الارتياح ببطء في جسدي، لا علاقة له بالنساء المقتولات أو الجمهور الخائف. شعرتُ أنّ بلاكبيرن يفحصني بعناية، لكنني أبقيتُ انتباهي في مكان آخر. شيء ما في أسلوبه جعلني أشعر كما لو كنتُ قيد التحقيق بسبب جريمة لا أتذكّر ارتكابها.

أردفَ بلاكبيرن: «أنا أعلم إنه لا نفع من أن أطلب منكِ التحدّث معي لاحقًا، لذا أدعوكِ الآن لتفقّد المشهد. من الواضح أن عمّك لا يمكن أن يحضر، وليس هناك شخصٌ آخر أثق به في تقديم تقييم مُناسب. ما لم تشعري، بالطبع، إنّكِ لن تستطيعي تحمّل الأمر.»

لم أستوعب دعوته تمامًا، ونظرتُ إليه. كنتُ مجرّد متدرّبة تحت إمرة عمّي، لكن بلاكبيرن بدا متلهّفًا لمعرفة رأيي في المسألة، وكنتُ مستعدّة لتنحية الشكوك بشأنه جانبًا لأحصل على فرصة لفحص الجثث. بلعتُ ريقي وتلفتُّ حولي، لم يُعِرنا أحدٌ أيّ انتباه. «بالطبع سأفحصهُما.»

ركّز بلاكبيرن عليّ، وارتعشت شفتاه بشيء من عدم اليقين. «مع ذلك قد ترغبين في تهيئة نفسك. إن رؤية جثة على طاولة تشريح ورؤية جثة مُلقاة في بركة دامية داخل زُقاق أمران مختلفان بعض الشيء.»

إن كان يحاول تخويفي، فَلم ينجح. لم يعلم إنني قد صادفتُ بالفعل جثةً في زقاق وعشتُ لأروي قصّتها الرهيبة. تلهّفتُ كثيرًا لإلقاء نظرة فاحصة على المشهد، لفهم عقل الرجل الذي ذبح هؤلاء النساء بوحشيّة. تخيّلتُ أنه سيكون أحد أكثر الأشياء المروّعة التي أراها على الإطلاق، لكنني لن أدع الخوف يأسرني. ابتهج الظلام بداخلي لفرصة رؤية الجثث عن قرب، في الحالة التي قصد القاتل اكتشافها. ربّما أجد دليلاً مفيدًا.

عندما رفعتُ ذقني، وسمحتُ للتحدي بغسل ملامحي، ضحكَ بلاكبيرن. «أنتِ تُشبهينني كثيرًا.» ابتسم بسعادة لردّة فعلي. «ابقي قريبة ولا تتحدّثي. قد أكون حريصًا على معرفة رأيك، لكن ليس كل الرجال كذلك في هذا الشأن. من الأفضل أن تدعيني أنا أتحدّث.»

«حسنٌ جدًا.» تلك حقيقةٌ مُرّة. أنا فتاةٌ شابّة نشأت في عالم يديرهُ رجالٌ كبار، وكنتُ أختار معاركي بحكمة. دون النطق بكلمة أخرى، شققنا طريقنا إلى مقدّمة الحشد ووقفنا أمام صفّ الشرطة. ابتعدَت النساء ببطء عن بلاكبيرن، وأعينهنّ تنظر إليه بتقدير في أثناء مروره. أوقفَ حركتَنا رجلٌ

قويّ البنية، بلحيةٍ سنجابيّة اللون وحاجبين كثيفين. «لا أحد يمرّ. إنها أوامر المفوّض.»

وقفَ بلاكبيرن باستقامة، وأومأ برأسه كما لو أنه سمع هذا من قبل، ثم قال ببساطة: «أنا على دراية جيّدة بهذا الأمر، لأنني أنا مَن أمرَ المفوّض بإصداره. شكرًا لك على تنفيذه بأمانة...» انحنى ليقرأ بطاقة اسم الرجل «الضابط أوبريان. لقد أحضرتُ مُساعِدةً خاصّة، بارعة في الطبّ الشرعي. أودّ معرفة أفكارها قبل تحريك الجثث.»

نظرَ إليّ الشرطيّ باشمئزاز. دفنتُ يديّ في تنّورتي، مُمسكةً بها حتى كدتُ أمزّقها. آه، كم كرهتُ البقاء صامتةً في هذه المواقف الفظيعة. أودّ تذكير كلّ رجل لديه مثل هذه الآراء السيّئة عن المرأة أنّ أمّهاتهم المحبوبات هنّ في الواقع نساء أيضًا. لم أرَ رجلاً يجري، يلدُ البشر ثم يذهب لصنع العشاء والعناية بالمنزل. لقد انطوى أغلبهم على ركبهم حين هاجمَهم أهونُ خطب. كانت هناك قوّة تحت طبقات فستاني وبشرتي المعطّرة جيّدًا أكثر من نصف رجال لندن مُجتمعين. أجبرتُ عقلي على الاستمرار في التركيز على مهمّتنا، حتى لا تظهر مشاعري بوضوح على وجهي.

بعد وقفةٍ طويلة غير مُريحة، تنحنحَ بلاكبيرن. حوّلَ الشرطي انتباهه ثانيةً إلى رئيسه، وقد زحف احمرارٌ إلى وجهه. «صحيح. آسف يا سيّدي. إنه... لم يتمّ إخبارنا أنّكَ قادم، و...»

«... ومن الرائع أن أبلّغكم مباشرةً بخططي الجديدة،» قاطعهُ بلاكبيرن باستياء واضح بسبب التأخير. تساءلتُ بشكل عابر عمّا إذا كان هذا شيئًا يواجههُ كثيرًا، نظرًا لصُغر سنّه. قال: «ما لم تكن ترغب في أن أستدعيكَ

لاحقًا، أقترحُ عليكَ السماح لنا بالمرور فورًا. بدأتُ أنزعج نوعًا ما، أيّها الضابط. كلّ لحظة ثمينة تضيع هنا هي لحظةٌ أخرى تفقدُ فيها خبيرتي بعض الدقّة.»

عندها تنحّى الرجل جانبًا. اختفَت كل الأفكار عن استفزازيّته عندما رأيتُ قدمًا شاحبة تخرج من تحت أقرب كفن. أتمنى لو شعرتُ بالاشمئزاز من المشهد، لكنّني بدلاً من ذلك، وجدتُ نفسي مفتونةً للغاية، أتوق إلى رفع الملاءة وإلقاء نظرة فاحصة. أشار بلاكبيرن إلى الرجال الواقفين للحراسة حول الجسد فقاموا بتفريق أنفسهم على الفور. انحنى بلاكبيرن. «خُذي وقتَك. سأحرص على ألّا يُزعجكِ أحد.»

أومأتُ برأسي، ثم ركعتُ بجانب الجسد، مُتجنّبة بحذر تجمّع الدم بالقرب من الكتفين، وسحبتُ الملاءة برفق إلى الخلف. كتمتُ صيحتي، وأغمضتُ عينيّ داعيةً ألّا أقوم بإسقاط الغطاء مثل طفل صغير ضعيف القلب. ربما لم أكن مُستعدّةً لهذا بالقدر الذي تصوّرتُه. أبقيتُ عينيّ مغلقتَين، وتنفّستُ عبر فمي حتى خفّ الدوار. لن ينفعني فقداني الوعي أمام معظم قوّة الشرطة في لندن، خاصّةً بعد استهانتهم بي أصلاً بسبب جنسي. جمعتُ فطنتي، وأجبرتُ نفسي على فحص الجسد.

كانت المرأة ضئيلة، ربّما بطول خمس أقدام. تضرّرَ وجهها بشدّة، وشوّهَت الدماء والجروح فمها وأنفها. كانت مُستلقية على ظهرها، رُكبتها اليمنى مثنيّة ومُوجّهة للخارج، بينما ساقها اليسرى ممدودة باستقامة. لم يختلف وضعها كثيرًا عن وضع الآنسة آني تشابمان. رأيتُ وشمًا أزرق صغير الحجم على ساعدها.

بانَت براغي وتروس ـ ملطّخة بالدماء ـ خلسةً من تحت جسدها. لم أملك فكرة عن سبب احتياج جاك لمثل هذه الأشياء. واصلتُ الفحص، مُركّزةً على ما يُمكنني معرفته. لقد تمّ قطعُ جذعِها بالكامل إلى أسفل الوسط بدقّة جراحيّة، وألقيَت أمعاؤها على كتفيها. حتى أن جزءً من الأمعاء بدا مقطوعًا وملفوفًا بين ذراعها الأيسر وجسدها عن قصد. رسالةٌ من نوع ما.

ابتلعتُ مشاعري. كنتُ بحاجة إلى القيام هذا الفحص، بحاجة إلى فهم عقل هذا المجنون، وفهم ما دفعه إلى مثل هذا العنف لكي لا يتمكن من فعل ذلك مع امرأة أخرى ثانيةً. أخذتُ نفسًا عميقًا، وتركيزي يتأرجح فوق الجثة من جديد، رغم أن قلبي رفض الترويض.

تمّ قطع عنقها مثل الأخرَيات، لكن على عكسهنّ، كان هناك شقٌّ يمرّ على أذنها اليمنى. بدا أنه حاول الحصول على قطعة. تذكرتُ شيئًا فناديتُ على بلاكبيرن، وصوتي يعلو بحماس.

«الرسالة.» قلتُ والأفكار تتسارع مع نبضاتي وهو يقترب. «كاتب تلك الرسالة هو القاتل. لقد قال إنه سيقطع أذنها ـ انظر.» أشرتُ إلى التشوه الذي أصابها. «وفعلَ بالضبط ما وعدَ به: ‹في وظيفتي التالية سأقوم بقصّ آذان السيّدة وإرسالها إلى ضبّاط الشرطة فقط للمرح.›»

تركّز انتباه بلاكبيرن نحو الجسد، ثم ابتعد بسرعة. «حتى لو تمّ إثبات صحّة الرسالة، فلا سبيل لدينا لتعقّب مصدرها.»

جلستُ على كعبيّ وأنا أفكر في السيناريوهات. تذكّرتُ رئيس تحرير الجريدة وانبثقَت فكرة لوّحَت بذراعيها أمامي. «حسنًا، ماذا لو طلبتَ من

السيّد دويل نشر نسخة طبق الأصل من الرسالة؟ بالتأكيد أنّ شخصًا ما قد يتعرّف على خط اليد. أيضًا قال إنه سينشرها إذا ثبتَت صحّتها.»

نقر المُشرف بلاكبيرن بأصابعه على بنطلونه، محدّقًا في عينيّ بعمق حتى ظننته يحاول إرسال رسالةٍ سرّية. لم أكن متأكّدة من سبب تردّده. ذلك هو الحلّ الأمثل. بعد دقيقةٍ أومأ برأسه على مضض.

«إنها فكرة جيّدة يا آنسة وادزورث.» ابتسم بلاكبيرن، وظهرَت غمّازة في خده. أشار إلى الجسد، معيدًا تركيزي إلى الرعب مرّة أخرى. «ماذا عندكِ عن كلّ هذا، إذن؟»

«حسنًا.» حدّقتُ في بقع الدم، مع علمي بأنها تحكي قصّةً خاصّة بها، وفقدتُ نفسي تمامًا في العلم. يبدو أن الدم على الجانب الأيسر من الرقبة قد سُفكَ أوّلاً، حيث كان يتخثّر بشكل مختلف عن الدم على الجانب الأيمن من الجسم. لم يكن من الصعب استنتاج أنّ حلقها قد تمّ قطعهُ أوّلاً قبل بطنها. اقتربتُ أكثر، مشيرةً لبلاكبيرن إلى كلّ إصابة.

«لقد بدأ بحلقها، ثم ربّما جرحَ أو ضربَ فمها. أشك في أنه اهتمّ بما كانت ستقوله وأراد مُعاقبتها.» انتقلتُ إلى الإصابة التالية. «بمجرد اختناقها بالدم، مدَّ جسدها، ووضع ساقيها بشكل مستقيم قبل أن يمرّر نصله على بطنها. استخرجَ الأمعاء، ربّما لتسهيل الوصول إلى أعضائها. أترى؟ هذه الفجوة عميقةٌ جدًا. هكذا يبدو الجسد بعد إزالة عمّي للأعضاء في أثناء التشريح. لا أستطيع تحديد أيٍّ من الأعضاء مفقود دون وضع يدي هناك. لكنني أعتقد إنه من المحتمل أن يكون رحمها أو مبايضها، وربما حتى إحدى الكليتين أو المرارة أيضًا. ما رأيك؟»

نظرتُ لأعلى عندما لم يستجب بلاكبيرن، ورأيتُ علامات الغثيان منتشرة عبر ملامحه الوسيمة. ضغطتُ على شفتيّ. لا بد من أنّني بدوتُ وحشًا بالنسبة له. لو كانت العمّة أميليا هنا لَجرّتني إلى الكنيسة وتلت ألف صلاة. شاهدتُ حلقه يتحرك في محاولة للبلع. حاولَ الحفاظ على رباطة جأشه، لكنه فشل عندما وقفت ذبابة على تجويف بطنها المكشوف. دفعتُ الجانية بعيدًا، وشاهدتُها تهبط بالقرب من وجهها الملطّخ بالدماء. يجب إخراجها من مكان الحادث قبل أن يبدأ الذباب بوضع يرقاته. سعلَ بلاكبيرن، جاذبًا انتباهي إليه. وقفتُ بسرعة وقدّمتُ له منديلاً، لكنّه هزّ رأسه، مُمسكًا بقبضته في فمه.

«أنا بخير، شكرًا لك. من المحتمل أن شيئًا ممّا أكلتُه لم يتلاءم مع معدتي. لا داعٍ للقلق بشأن ذلك بالتأكيد...»

رغب جزءٌ صغير مني في الابتسام. كان رجلاً شابًّا قد شهد بالتأكيد نصيبه من الرعب الذي يلقاهُ مَن يعمل في مجاله، وها أنا معه، فتاةٌ صغيرة نحيلة، تعرض أن تكون مصدر قوّته.

قلتُ: «سأدوّن بعض الملاحظات، إن كنتَ لا تمانع، ثم أشاركها مع عمّي. سيُطلَق سراحه الآن، أليس كذلك؟»

انتقل بلاكبيرن من اليسار إلى اليمين، وشاهدني أخرج دفتر يوميّات صغير من جيب بداخل تنّورتي لأكتب ملاحظات بأدقّ خط. لم أرغب في أن أبدو متلهفةً أو متفائلةً بإفراط، لكنني احتجتُ إلى معرفة أنّ العمّ سيكون على ما يرام، سيكون آمنًا ويعمل بجانبي قريبًا. شعرتُ كما لو أنّ عامًا قد مرّ قبل سماعي ردّ بلاكبيرن أخيرًا.

«لا يُمكن أن يُحاكَم بعد هذا. بشكلٍ غير رسميّ، أراهن أنه سيخرج قبل انقضاء الليلة.» توقّف قليلاً. «ربما ترغبين في الانضمام إليّ لتناول بعض المرطّبات؟ بعد فحص الجسد الثاني، بالطبع.»

نظرتُ إليه بحدّة. هل كان يطلب حقًا رؤيتي في ظلّ هذه الظروف؟ كم هذا عجيب. لا بدّ أن أفكاري ظهرَت بوضوح على وجهي، لأنّه تخبّطَ للحصول على تفسير. «أعني، ربما يمكننا تناول بعض الشاي ومناقشة تفاصيل الضحايا. أنا متأكد...»

«أنا متأكدٌ من أن ذلك ليس ضروريًا، يا ويليام.» قال أحدهم بنبرةٍ مألوفة وغاضبة، وتجمّدَت كل عضلة في جسدي. حتى قلبي بطئت دقّاته قبل أن يتسارع. إنّه أبي.

كان اللورد إدموند وادزورث مشهدًا مخيفًا أكثر بألف مرة من الجسد الراقد عند قدميّ، وتعبيره أكثر تحذيرًا من وضع سكين على وداجي. «عندما وافقتُ على السماح لكَ بمرافقة ابنتي، لم أكن أعلم أنك تظنّ من الملائم توريطها في مثل هذه... الأمور القبيحة والذكورية. أحتاج إلى شخص يكبح إرادتها ويحميها، ولا يُغذّي فضولها الخطير.»

ضربتني الصدمة من زوايا متعدّدة، ومعها الكثير من الأسئلة. كيف وجدَني هنا؟ كيف عرف إنني قد غادرتُ المنزل؟ لكن الأكثر إلحاحًا خرجَ من فمي أوّلاً.

«ماذا تعني بذلك؟ سمحتَ له بمُرافقتي...» قبل أن أنتهي من تفكيري، واجهتُ بلاكبيرن، وارتباكي يفسح المجال للغضب الخالص. «أنتَ الشابّ

الذي طلبَ من أبي مُرافقتي، واجتمعتَ به في السرّ، وتآمرت؟» ثمّ خطرَت لي فكرةٌ أخرى، وكدتُ أضحك. «لهذا السبب تُريد مساعدة عمّي، ليس لأنّك تعتقد إنه بريء، لكن لأنكَ مُخادع!»

«أودري روز، من فضلِك،» قال رافعًا يده. «لم أقصد أبدًا...»

«هل أنا مُخطئة؟» سألتُه.

زمّ بلاكبيرن شفتيه، وألقى نظرة تساؤل على والدي. كان من الواضح أنه لن يردّ دون موافقة، ولن يحصل عليها الآن. قبضتُ يديّ. لم يكن هناك ما أكرههُ أكثر من اكتشاف تفويتي للقرائن طوال الوقت. ما هي الأسرار الأخرى التي أخفِيَت عني؟ سرعان ما تلاشى غضبي عندما أشار أبي بالصمت لبلاكبيرن، ثم أشار بإصبعه نحوي، وثناه في حركة معناها «تعالي هنا على الفور». إذا سمحَ لي بالخروج من المنزل ثانيةً، فستكون مُعجزةً سماويّة. كيف تجرّأ بلاكبيرن على إخفاء هذه الأسرار عنّي. رمقتُه بنظرةٍ غاضبة أخرى قبل أن أتحرّك بطاعة إلى جانب أبي.

ثم، عندما اعتقدتُ أنّ المفاجآت قد انتهت، ظهرَ أخي، متجاهلاً بتعمّد الجثّة التي كانت على بُعد أقدام قليلة من حذائه المصقول. لم ينظر في عينيّ وهو يشقّ طريقه إلى الجانب الآخر من أبينا. من الواضح أنه قد وشى بي إلى هذا المجنون المُفرط في الحماية، الخائن القذر. بالطبع لم يُطبّق حاجز الشرطة على أيٍّ من أفراد عائلتي. تساءلتُ كم وإلامَ دفعوا مقابل حقّ تجنّب القوانين وأوامر الشرطة.

«الآن إذن، دعينا نخرج من هذا المشهد السيّء ونذهب بكِ إلى المنزل

حيث ستكونين في أمان.» أخذَ أبي ذراعي، ورمقَني بنظرة أقل إرعابًا الآن، بعد أن صرتُ تحت سيطرته. «لدينا الكثير لمناقشته هذا المساء، أودري روز. لا يُمكنكِ التورّط في مثل هذه المخاطر. أكره فعل ذلك، لكن هذا لا يمكن أن يمرّ دون عقاب. لبعض الأفعال عواقب وخيمة.»

21

الحقيقة المُرّة

مسكن آل وادزورث، ساحة بلغريف

30 سبتمبر 1888

كانت رحلة العربة إلى المنزل مروّعة مثل فحص الجثّة المشوّهة في الحدث المزدوج.

أفضّل أن أقوم بمهمّة تنظيف الأمعاء على أن أجلس ببؤس في ذلك الصمت الخانق الذي خيّم علينا. بحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى منزلنا، كنت على استعداد للانفجار لمجرّد التخلّص من الغضب الذي يتسرّب عبر مسامات بشرتي. كنتُ غاضبةً من بلاكبيرن لاتّفاقهِ مع والدي وعدم امتلاك اللباقة لذكر ذلك، لكنّني غضبتُ من أخي أكثر من كل شيء. كيف يجرؤ على أن يخونني ويقود والدنا إلى حيث كُنت. كان عليه معرفة مدى جنون أبي لمعرفة ذلك، باعتقاده أن ابنته الوحيدة في خطر مباشر.

لقد امتلأت إيست إيند ليس فقط «بالأشخاص غير الملائمين» بل أيضًا بالأمراض، التي انتشرَت بسرعة بسبب ظروف المعيشة المُزرية. علاوةً على ذلك، كان من الحماقة جرّ أبينا إلى منطقة معروفة بأوكار الأفيون

فيها. شعرَ كلّ ذكر في حياتي أنه من الضروري ربطي بالسلاسل، واحتقرتُ ذلك، باستثناء توماس، كما أدركت، الذي استفزّني للتفكير والقيام بالأفعال بنفسي. قبل أن أتمكّن من الهرع إلى غرفتي، نادى عليّ أبي. «كلمةٌ من فضلِك، أودري روز.»

أغلقتُ عيني لفترة وجيزة قبل أن أستدير. لم أرغب في تلقّي التوبيخ أو الاستماع إلى مدى هشاشة الحياة وحماقة أن يضع المرء نفسه في مواقف رعناء، لكنني لم أجد طريقة لتفادي هذا. عندما كان لدى الأب ما يقوله، فالمرء يستمع، هذا هو الحال. ابتعدتُ عن السلالم والحرّية التي توفّرها، متّجهةً مباشرةً نحو وكر المُحاضرات.

كانت العمّة أميليا وليزا تتسوّقان لشراء الأقمشة التي سيأخذانها إلى الريف معهما. لقد أوشكَت زيارتهما على الانتهاء، وكانتا ستغادران في الصباح الباكر. شكرتُ عدم وجودهما هنا لتَشهدا توبيخي. ستقول العمّة أميليا أنّ الاسبوعين الماضيين لم يفعلا شيئًا لإنقاذ روحي أو سُمعتي. قد تقترِح أيضًا أن القليل من هواء الريف هو بالضبط ما أحتاجه. اتّكأ ناثنيل على الحائط في الممرّ، ما زال يتحاشى نظراتي، مثيرًا غضبي أكثر. يا له من جبانٍ محتال! أشارَ لي أبي بدخول غرفة الضيوف للجلوس، فَفعلت. جلستُ على كرسي بعيد عنه قدر الإمكان، في انتظار صدور حُكم إدانتي وعقوبتي بسرعة.

لكن أبي أخذَ وقته. طلبَ صينيّة شاي وبسكويت وقام بفرز البريد بالقرب من المدفأة. إذا كان يحاول تصعيد قلقي، فقد نجح. أخذَ قلبي يضرب بقوة على أضلاعي، متوسّلاً أن يتحرّر مع كل رسالةٍ جديدةٍ فتحَها. جاءَت الأصوات

الوحيدة في الغرفة من طقطقة النار وحفيف الورق. شككتُ حقًّا في إمكانية سماع دمي المُتدفّق، لكنّه كان سيمفونيّةً شرّيرة تعزف في أذنيّ وحدي. راقبتُ الطريقة الدقيقة التي أمسكَ بها فتّاحة الخطابات، والشفرة الحادة التي تخترق الأظرف، قبل أن يُحرّر الرسائل بتمزيقٍ وحشيّ، واحدةً تلو الأخرى. كلّما أخفتُه، كان يتحوّل إلى شخصٍ غريب، مُخيف وخائف في آنٍ واحد.

طويتُ يديّ في حُضني، منتظرةً بصبر قدر المستطاع حتى يهدّئ نفسه بما يكفي للتحدّث معي. كانت تنّورتي الغامقة هاويةً وددتُ الغرق فيها. ختمَ ظرفًا، ثم سلّمهُ إلى خادم قبل أن يعبر الغرفة أخيرًا.

«فهمتُ أنّكِ تسلّلتِ خارج المنزل لبعض الوقت قبل الآن، لدراسة الطب الجنائيّ مع عمّك، هل هذا صحيح؟»

دون أن يسأل، قام بصبّ كوب من الشاي، ثم قدّمهُ لي. هززتُ رأسي، متوتّرةً جدًا بحيث لم أحلم حتّى بالأكل أو الشرب وهو هادئٌ ومتماسكٌ هكذا. توقّف مؤقتًا، منتظرًا سماع عذر، لكنّني لم أستطع دفع نفسي للردّ. بمجرّد تقرير مصير الحيوان، فلا شيء يفكّ العُقد القرمزيّ الذي سَيلبسُه. لا يهمّ ما أقوله في دفاعي، فقد كان يعرف الحقيقة بوضوح. جلسَ واضعًا إحدى قدميه فوق ركبته.

«ماذا توقّعتِ منّي أن أفعل حين أكتشف؟ أكون مسرورًا؟ أكون داعمًا لكِ فيما قد يرمي بحياتكِ بعيدًا؟» بانَ بريقٌ من الغضب في ملامحهِ المنحوتة. شدّ فكّه، ثم زفرَ ببطء. «لا يُمكنني السماح لك بتشويه سُمعتكِ عبر الانغماس في الانحراف والفجور الذي تُشاركين فيه.

الأشخاص اللطفاء الملتزمون بِقيم المجتمع المُهذّب لا يجدون أنفسهم في مختبر عمّك. لو كانت والدتُك على قيد الحياة، لَحطّمَتها رؤيتُكِ متورّطة في مثل هذه الأمور.»

عبثتُ بالأزرار الصغيرة الموجودة على جانب قفّازاتي، مُحاربةً الدموع بكلّ قوّتي. كنتُ غاضبةً من كلام أبي، لكنّ الأهمّ إنّني كرهتُ احتمال كونه على صواب. ربما ستحتقر أمّي العمل الذي فعلتُه. منذ صغرها، تلقّت تعليماتٍ بالابتعاد عن الأشياء المروّعة بسبب ضُعف قلبها. من الممكن أن يدمّره عملي غير اللائق لو لم تتكفّل الحمّى بذلك أوّلاً. لكن ماذا عن إصرارها على أن أكون قويّة وجميلة؟ بالتأكيد، لا بدّ أن أبي مُخطئ.

انتقلَ ناثنيل من المدخل للوقوف داخل الغرفة. لم ألاحظ بقاءه قبلاً، لكنني عرفتُ من تعبيره المتجهّم إنه قد سمع كلّ كلمة. رغبتُ في رسم عبوسٍ ملائم على محيّاي، لكن لم تواتِني القوّة اللازمة. لقد آلمَني قلبي كثيرًا.

«من هذه اللحظة فصاعدًا ستعيشين وفقًا لقواعد المجتمع،» تابعَ أبي، راضيًا عن طاعتي. «ستبتسمين وتكونين ساحرةً مع كل خاطبٍ أراهُ مقبولاً لكِ. لن يكون هناك مزيدٌ من الحديث عن الطبّ أو عن عمّك المُنحلّ.» قامَ من كرسيّه ووقف أمامي بسرعةٍ كبيرة، ولم أستطع منع نفسي من الارتداد. «إذا اكتشفتُ عصيانكِ مرّةً أخرى، فسوف ألقي بكِ إلى الشوارع. لن أتسامح مع فضولك حول هذه القضيّة المُزعجة بعد الآن. هل كلامي واضحٌ تمامًا؟»

عقدتُ حاجبيّ، ولم أفهم ما حدث للتوّ. كان أبي غاضبًا من قبل، بما يكفي لحبسي داخل البيت لأسابيع متتالية، لكنه لم يهدّد مطلقًا برميي في

الشارع. لقد تعارضَ ذلك مع الغرض من إبقائي بقربه طوال حياتي. لماذا يربطني بالبيت ثم يطردني منه؟

رمشتُ دموعي وظلّ انتباهي مركّزًا على التصميم المدوّر على السجّادة، ثم أومأتُ برأسي ببطء. لم أثق في صوتي. رفضتُ أن يبان ضعفهُ علاوةً على مظهري الضعيف للغاية، وعرفتُ أنّ صوتي سينكسر تحت وطأة العاطفة. لا بدّ أن أبي كان مسرورًا، لأن ظلّه قد ارتفع من أمامي، ثم اختفى من الغرفة تماماً. استمعتُ لخطواته الثقيلة تتلاشى في الرواق، ولم أسمح لنفسي بالزفير إلّا حين أغلق باب مكتبه.

انزلقَت دمعةٌ على خدّي ومسحتُها بغضب. لقد تماسكتُ لفترة طويلة، ولن أنكسر أمام ناثنيل. لا. بدلاً من الاندفاع إلى جانبي كما توقعت، بقي ناثنيل مزروعًا في مكانه بالقرب من الباب، رافعًا رقبته إلى الممرّ. كان من الصعب معرفة ما إذا تطلّعَ إلى الهروب أو اقناع نفسه بالبقاء.

«بماذا وعدَك أبي مقابل الوشاية بي؟» تصلّب ظهره، لكنّه لم يستدِر. وقفتُ مقتربةً منه. «لا بدّ إنه شيء فوق العادة، شيء لا يمكنك رفضه. بدلة جديدة؟ حصان باهظ الثمن؟»

هزّ رأسه، ويداه ترتعش على جانبَيه. كان سيلجأ إلى راحة استعمال مشطه في أيّة لحظة، لتقليل التوتّر الذي لم يبدُ جميلاً عليه أبدًا. اقتربتُ أكثر، وقلتُ بنبرةٍ مُعادية، لكي يشعر بألمي.

«عقارٌ كبير، إذن؟»

لمعَ المشط الفضيّ في ضوء النار الخافت بينما مرّره أخي خلال شعره.

مشيتُ ذاهبةً عندما همس: «انتظري.» استوقفتني نبرته، وحذائي الحريريّ يمتدّ على عتبة الغرفة. لم يبدُ صوته أعلى من صوت فأر كنيسة داخل كاتدرائية عظمى. عدتُ إلى الغرفة وانتظرت. كنت سأسمح له بقول ما عنده، ثم سأذهب في طريقي. ارتميتُ على الكرسيّ، مُنهكةً من أحداث اليوم، بينما كان ناثنيل يتفقّد المدخل قبل إغلاق الباب.

سارَ بخطى سريعة جيئةً وذهابًا، كما هو طبع جميع رجال آل وادزورث. لقد غمرهُ الانفعال، أو العصبيّة، إذ من الصعب معرفة أيّ المشاعر تغلّبَت عليه. عبرَ ناثنيل الغرفة إلى البوفيه، ورفعَ إناءً بلّوريًا مع كأسٍ مُطابق، ليصبّ لنفسهِ كمّيةً جيّدة من مشروبٍ أصفر، ويشربه على عدّة دُفعات. لم يُشبه ذلك السلوك ناثنيل. انحنيتُ إلى الأمام. «ما الأمر؟»

هزّ أخي رأسه، الذي لا يزال في مواجهة الإناء، وأعاد ملء كأسه. «لا أعرف من أين أبدأ.»

الكره المُطلق في نبرته جعلني أشعر بقشعريرة. صار لديّ انطباع إننا لم نعُد نتحدّث عن إخباره لأبي بتسلّلي من المنزل هذا الصباح. تبدّدَ غضبي. هل كان هناك خطبٌ آخر بأبي؟ لم أستطع تحمّل اضطراب عاطفي جديد، فَلديَّ كفايتي من ذلك. قلتُ: «معظمهم يبدؤون من البداية،» على أمل إبعاد الخوف من صوتي وبثّ الاهتمام فيه. «أخبِرني ما الذي يُزعجك، رجاءً. دعني أساعد.»

حدّق ناثنيل في كأس الكريستال في يده. بدا أنه من الأسهل عليه التحدّث إليه بدلاً من مواجهة نظراتي القلقة.

«إذن سأتكلّم بسرعة، على أمل تقليل الألم.» أخذ رشفة من الشجاعة السائلة، ثمّ أخرى. «لم تكن أمّنا آخر شخص خضعَ لعمليّة جراحيّة من قِبل عمّنا الحبيب.»

كنتُ ممتنّةً لسكوته المؤقت، ليُتيح لي الوقت لاستيعاب ضخامة كلماته. توقّف كلّ شيء في الغرفة، بما في ذلك قلبي. كان هذا موضوعًا منعَنا كلٌّ من العمّ والأب من مناقشته.

«إنه... حاولَ إكمال عملية زرع عضو ناجحة منذ أن كان هو وأبي شابّين.» قرصَ أخي جسر أنفه. «أبي، مع وجود شياطينه الخاصّة، يتصرّف بهذه الطريقة لأنه يعلم أن العمّ يخفي عنك أسرارًا.»

»أسرار؟ أنا أعرف كل شيء عن تجارب عمّي السابقة،» قلتُ وأنا أجلس باستقامةٍ أكثر. «محاولته لإنقاذ حياة والدتي هي السبب في بدء دراستي عنده في المقام الأول.»

«إنقاذها، أليس كذلك؟» ألقى ناثنيل نظرة شفقة عليّ. «من أجل مصلحة لندن، كان ينبغي عليهم إبقاءهُ حبيسًا. لم يكفّ عن تجاربه، أودري روز. لقد تحسّن فقط في إخفائهم.»

«هذا ليس صحيحًا.» هززتُ رأسي. لم أعقل كيف يُمكن لأخي أن يظنّ هذا بالعمّ. «كنتُ سأعلم بأيّ تجارب.»

«أعدُكِ أنّ هذا صحيح. كنتُ آمل أن تقلّ رغبتك في التدريب معه، واعتقدتُ أنه من غير اللازم الكشف عن مثل هذه... الأمور الحسّاسة.» أمسكَ ناثنيل بيدي وضغط برفق حتى قابلتُ عينَيه. «كما إنني لا أرغب في أن أثقل عليك كثيرًا الآن، أختي. إذا كنتِ بحاجة إلى بعض الوقت...»

«أوه، أنا في أتمّ الاستعداد لمعرفة الحقيقة. الحقيقة كاملةً، مهما كانت فظيعة. أنِرني أكثر، وبسرعة.»

هزّ رأسه. «حسنٌ جدًّا إذن. الحقيقة الكاملة هي: أنّ... صديقك، توماس كريسويل...» جلس ناثنيل وأخذ رشفة أخرى من شرابه. لم أعرف ما إذا كان التوقّف في القصة لمصلحتي أم لصالحه. التوَت معدتي في انتظار الرعب التالي. «هل أنتِ متأكّدة من أنّك بخير؟ تبدين شاحبةً قليلاً.»

«من فضلك، أخبِرني بالباقي.»

«حسنًا، إذن،» أطلق نفسًا مرتعشًا. «لقد جاء والد توماس إلى عمّي بعد وفاة أمّنا. عانت زوجته من آلام شديدة في البطن في ذلك الوقت. لقد سمع شائعات عن بحث عمّي.» ابتلعَ ناثنيل ريقه. «توفّيت والدة توماس بعد فترة وجيزة من وفاة والدتنا، بسبب مشاكل في المرارة. حاول عمّي إنقاذ حياتها أيضًا.»

«رائع. إذن أنتَ تقول أن العمّ قتل والدة توماس؟»

مدّ ناثنيل يده نحوي وهزّ رأسه ببطء. «كلا، ليس بالضبط. أصبح توماس مهووسًا بالبحث عن علاج حقيقي منذ ذلك الحين، وهو كلّ ما يتحدّث عنه في اجتماعات فرسان وايتشابل. لقد ذكر كمًّا عظيمًا من التفاصيل بحيث يُمكنني عمليًّا إجراء البحث بنفسي.»

«لم يقُل لي شيئًا عن الموضوع مُطلقًا.»

غرسَت قشعريرةٌ أظافرها في ظهري، وسحبَتها بقوّة إلى أسفل. لم يكن هذا صحيحًا تمامًا. لقد أصرّ توماس على رفع المرارة من الجثّة التي حصل عليها

من المقبرة. ومضت في ذهني ذكرى مسرح الجريمة الأخيرة ـ كنتُ على يقين من أن المرارة قد انتُزعَت من إحدى الضحيّتين أيضًا. شعرتُ بغثيان شديد في معدتي. هل يمكن أن أكون عمياء أو مخطئةً لهذه الدرجة بشأن توماس؟

لا، لن أتهمهُ بارتكاب جرائم قتل ساديّة لمجرد كونه مختلفًا عن الآخرين في مجتمعنا المُنغلق. لقد تعمّدَ البرود والانفصال العاطفيّ خلال العمل، وكان ذلك رائعًا، وضروريًّا. أليس كذلك؟ دقّت نبضاتي في رأسي. ربما كنتُ أختلق له أعذارًا، أو ربّما قام بزرع الأعذار ببراعة في ذهني. هو بالتأكيد ماكرٌ بما يكفي لفعل شيء كهذا. لكن هل سيفعلها حقًّا؟

دارَت الكثير من المشاعر في داخلي. إذا عانى توماس من وجع القلب الذي يُصاحب مشاهدة وفاة أحد أفراد أسرته، فربما يفعل أي شيء ـ حتى القتل ـ لاكتشاف الإجابات التي سعى إليها. ثمّ ألَم أعاني من وجع قلب مماثل عندما ماتت أمي؟ افترضتُ أنه سببٌ كافٍ لجاك لكي يسرق الأعضاء. لكن هل كان توماس، الفتى الساحر المتغطرس الذي أعرفهُ خارج المختبر، قادرًا بالفعل على ارتكاب مثل هذه الفظائع باسم العلم؟ لم أعتقد أنه يُمكن أن يكون بهذا البرود وانعدام المشاعر. مع ذلك...

شعرتُ بدوار. زعمَت السيّدات في حفلة الشاي إنه غريبٌ بما يكفي ليكون القاتل المجنون، لكن ذلك مجرّد ثرثرة فارغة. شددتُ قبضتيّ على جوانبي. رفضتُ تصديق أن غرائزي مخطئة بشأنه، حتى لو كان هناك دليل قويّ على عكس ذلك، وهو بالضبط نفس الأمر الذي قادَ ضحايا السفّاح إلى حتفهنّ. دفنتُ رأسي في راحة يديّ.

آه، توماس. كيف يمكنني حلّ هذه الفوضى؟

22

جاك الماجن

مسكن آل وادزورث، ساحة بلغريف

1 أكتوبر 1888

انحنى ضوء الصباح الباكر من النوافذ الكاتدرائيّة في غرفة الطعام لدينا، لكنّني لم أستطع التحديق إلا في قطعتين من الأدلة المكتوبة بيد جاك السفّاح بينما كان إفطاري يبرد. يبدو أن أيّام كتم أفعاله الرهيبة قد ولّت. أرادَ جاك أن يعرف الجميع إنه مسؤول عن هذه الجرائم الفظيعة، مثل ممثّل أو ملك يحبّ الاستحواذ على انتباه مُعجبيه أو مواطنيه.

برغم تشوّشي بسبب ماضي توماس، إلا أنّ فكرة كونه السفاح غير صائبة. اليوم الذي لم يُظهر فيه توماس كريسويل تألّقه هو نفس اليوم الذي سأجد فيه الفرس وحيد القرن وأربّيه كحيوان أليف. أمّا جاك فقد ابتغى الإعجاب. من المؤكد أنّ توماس كان ليتراجع الآن. لكنه حافظَ على سرّية عمله مع العمّ في زرع الأعضاء كلّ هذه الأسابيع. لعنتُ رقّتي معه. كنتُ بحاجة إلى فَصل مشاعري، لكنّ الأمر أكثر صعوبة مما تخيّلت.

فركتُ صدغيّ وقرأتُ الصحيفة ثانيةً. لم أتفاجأ من عودة جانب الثعبان للسيّد دويل؛ كانت مسألة وقت فقط قبل أن تُثير جريدته هذا الأمر مقابل كلّ المال الذي استحقّه.

همسَت ليزا وهي تقطّع نقانق إفطارها: «بصراحة، أتمنّى ألّا نغادر مبكرًا جدًا. لم أشهد قطّ مثل هذا الإثارة في المدينة! تقوم فيكتوريا بإقامة حفل تنكّري، وتشجّع الأولاد على القدوم بصفة السفّاح. طويل، مظلم وغامض الهويّة تمامًا. الأمر مُثير إلى حدّ الفظاعة، ألا توافقين؟»

سرقتُ نظرةً خاطفة على عمّتي، التي راقبَتني بحاجبٍ مقوّس. كان هذا اختبارًا للأخلاق الحميدة، فابتسمتُ بنعومة. «إنه أمرٌ فظيع بالتأكيد.»

«صحيح. لا يهمّني ما يقوله الناس عن هؤلاء النساء، لا أحد يستحق أن يُذبَح هكذا. عليكِ ببساطة إيقافه، كائنًا من كان.» حدّقَت ليزا في الفراغ، ثم أعادَت نفسها إلى الوقت الحاضر. «سأفتقدُك يا ابنة خالي. تعالي لزيارتنا قريبًا.»

ابتسمتُ، وأدركتُ أنني لا أطيق الانتظار لرؤية ليزا مرّةً أخرى. كانت ابنة عمّتي ذكيّة، ذات أنوثة غير خجولة، ومرتاحة في اللعب بنسختها الخاصة من قواعد المجتمع. سأفتقد ملاحظاتها الذكيّة وحضورها البهيج. «سيكون ذلك رائعًا، سأفعل.»

تناولتُ رشفة من الإيرل غراي، وعاد تركيزي إلى الجريدة بينما تحدّثت عمّتي وابنتها عن شاي أمس الذي فاتني. إمّا أنّ بلاكبيرن قد أوفى بوعده بالتواصل مع المحرّر لنشر نسخة من خطاب «عزيزي المدير»، وإمّا أن

السيّد دويل قرّر القيام بذلك بنفسه. لم أعد أثق في بلاكبيرن بعد الآن، لذا كمنَ إيماني في نشر المحرّر للتفاصيل.

أعدتُ قراءة الرسالة، وتهتُ في الكتابة الهوَسيّة لنصّ القاتل. بالعودة إلى مسرح الجريمة، كان هناك عددٌ غريب من أوجه التشابه، لكنّ البطاقة البريدية المُصوّرة على نفس الصفحة شيءٌ جديد. نظرًا لأنها مؤرَّخة بتاريخ الليلة السابقة، فَمن الواضح أنّ القاتل لم يُرسلها إلا مؤخرًا.

هاجمَتني أفكار تعيسة في الليلة الماضية، بقائمةٍ متنامية من المُشتبه بهم. لم أعرف مَن المسؤول، لكن بعض الذكريات ظلّت تتسلّل إليّ. ربّما عرفَت الآنسة إيمّا إليزابيث سميث مهاجميها. هل يمكن أن يكونا عمّي وتوماس؟ في ملاحظات العمّ، قامت بإخبار المحقّقين أنّ أحد المُهاجمين كان مُراهقًا. كانت مخطوبةً إلى عمّي، قبل أن ينتهي بها الأمر بطريقةٍ ما باللجوء إلى الدّعارة.

إذا كان توماس متورّطًا، فذلك يفسّر كيف استمرّت جرائم القتل عندما أودعَ عمّي في المصحّ. هذا يعني أيضًا إنّني عملتُ عن غير قصد مع جاك السفّاح، وربّما وقعتُ تحت سحره بنفسي. التوَت معدتي. لا بدّ أنّ هناك شيءٌ آخر.

فكّرتُ في ثورنلي، مُستذكرةً اليوم الذي علمتُ فيه أنا وتوماس بعلاقة العمّ بالسيّدة إيمّا إليزابيث. بدَت صدمة توماس حقيقيّة إلى درجةٍ كبيرة. هل كلّ ذلك زيف؟ ربّما كان موهوبًا في التمثيل كموهبته في إيقاد مشاعره وإطفائها. فقط لو استطاع قلبي البائس أن ينفصل عنه تمامًا!

ثمّ هناك ما هو أسوأ. كان والدي على صلة بمعظم الضحايا. من الممكن أن الأفيون قد أفسد عقله بطريقةٍ ما، ليحوّل معاناته مع وفاة أمّي إلى شيء عنيف. لكن هل كان والدي حقًّا قادرًا على القتل؟ أردتُ إنكار ذلك، والصراخ في نفسي لتفكيري في مثل هذا الأمر الفظيع، لكن أبي اعتاد أن يصبح شخصًا آخر كلما كان خائفًا أو تحت تأثير منشّطه الثمين. لو كان أبي بريئًا بالفعل، فَلماذا غاصَ قلبي بعد تلك الفكرة؟

بعد ذلك أتت مسألة بلاكبيرن. هل عملَ مع أبي؟ كانت علاقتهم مخفيّة عن أخي وعنّي لفترة لا يعلمها إلا الله. ما الذي يحتفظون به لأنفسهم غير ذلك؟ لقد بدأت جرائم القتل مرّةً أخرى عندما عادَ أبي إلى المنزل... منعتُ عقلي من الولوج في ذلك الزقاق الكئيب. حوّلتُ انتباهي ثانيةً إلى نسخة البطاقة البريديّة في الصحيفة.

لم تكن الرسالة طويلة، بيد أنّها مُخيفة بقدر سابقتها. بدت قواعد النحو سيّئة بنفس المقدار، لكنّني شككتُ في أن ذلك مُصطَنع. كان النصّ الذي كتبهُ جاك دقيقًا جدًّا ونظيفًا، لا يُمكن أن يكتبه شخصٌ افتقر إلى التعليم. تلك محاولةٌ فاشلة لإخفاء مكانته في المجتمع. لكن أيّة مكانة؟ طبيب، لورد، مُشرف، أم تلميذٌ عبقريّ؟

لم أكن أمزح عزيزي المدير العجوز عندما أعطيتُك التلميح، ستسمع عن عمل جاك الماجن غدًا الحدث المزدوج هذه المرّة رقم واحد صرخَت ولم أ قضِ عليها مباشرةً. ها. ليس الوقت للحصول على آذان للشرطة. شكرًا على الاحتفاظ بالرسالة الأخيرة حتى عودتي إلى العمل مرّةً أخرى.

جاك السفّاح

تمّت كتابة البطاقة البريدية بنفس اليد التي كتبت الرسالة الأولى، بانحناءاتٍ مُماثلة بوضوح. لم يحمل الجزء الأمامي من المستند الكريه دليلاً أكبر من الذي سبَقه. كانت مُعنونة إلى:

مكتب الأخبار المركزي

مدينة لندن

«صباح الخير، أميليا وليزا. أعتقد أن عربتكما جاهزة.» دخل أبي إلى غرفة الطعام بجريدةٍ مطويّة تحت ذراعه، وبدا القلق على وجهه حين تحوّل انتباهه إليّ. «أتملئين رأسكِ بأشياء آمنة ولائقة؟ أم أنك تعصينَ رغباتي بسرعة، أودري روز؟»

رفعتُ وجهي وابتسمت ابتسامةً أقرب إلى السُخرية.

«لم أعلم أنّ متابعة الأخبار اليوميّة عملٌ غير لائق. ربّما يجب أن أقضي وقتي، وأموالك، على كورسيهات جديدة لأكتم إرادتي من شفتيّ.» قلتُ بلطف، «ارتداء شيء بذلك الضيق سيربط حبالي الصوتيّة جيّدًا. ألا تُوافق؟»

لمعَ تحذير في عيني أبي، لكنّه لن يجدني خائفة اليوم. سأحلّ قضية السفّاح هذه حتى لو عنى ذلك إيقاظ الوحش النائم في داخل أيّ كائن. الوحش نفسه يقبع في داخلي، يخدش ويعوي لنيل فرصة للتحرّر. لقد وعدتُه بكلّ شيء في الوقت المناسب، وقمتُ بطمأنتهِ حاليًّا.

«حسنًا إذن.» وقفَت العمّة أميليا مُشيرةً إلى ليزا بفعل الشيء نفسه. «لقد كانت زيارةً جميلة حقًّا. شكرًا لاستضافتنا في غيابك أخي العزيز.

يجب أن تأخذ بعض الوقت بعيدًا عن المدينة وتتنفّس هواء الريف ثانيةً قريبًا.» التفتَت إليّ، بشفتين مطويّتين في التفحّص. «سينفع ذلك أودري روز للغاية، الابتعاد عن هذا الجنون قليلاً.»

«ربما أنتِ مُحقّة.» فتح الأب ذراعيه لأخته ليعانقها بسرعة قبل أن تغادر الغرفة. ركضَت ليزا إلى حيث جلست، وانحنَت لتضمّني في عناقٍ غير مُريح. «يجب أن تكتبي لي. أريد سماع المزيد عن السيّد توماس كريسويل وكلّ ما يتعلّق بالسفّاح سيّء السمعة جاك. عِديني بذلك.»

«أعدُك.»

«رائع!» قبّلَت خدّي، ثم عانقَت والدي قبل أن تندفع في الممرّ. حزنتُ لرؤيتها تذهب. قطعَ أبي الغرفة وجلس على كرسيّه، متجاهلاً إيّاي بطريقةٍ وضّحَت استياءه من سلوكي. ناسبَني ذلك بشكلٍ جيّد.

بعد أن اعترفَ لي ناثنيل بأسرار عائلتنا، لم أطِق النظر إلى أبي. كانت أمّي تحتضر من الحمّى القرمزية، وعلمَ أبي بقلبها الضعيف أصلاً. لقد وجبَ عليه منع عمّي من إجراء عمليّة جراحيّة لها بوجود مثل ذلك الهجوم على جهازها المناعي. كان يعلم أن العمّ لم ينجح من قبل. رغمَ ذلك لم أتمكن من لومه على محاولاته اليائسة لإنقاذها. تساءلتُ لماذا انتظر طويلاً ليطلب من عمّي العون. كان لديّ سابقًا انطباعٌ خاطئ بأنّ عمّي قد أجرى لها العمليّة قبل أن تسوء حالتها. هربَت منّي تنهيدة. كان يجب على العمّ أن يتصرّف وفق معرفته الأفضل، لكن كيف يُمكنه ترك أخيه؟ خاصّةً عندما انهار اللورد وادزورث أخيرًا وطلب منه التدخّل؟ المأساة التي قادَتنا إلى هنا، إلى هذه القشرة المكسورة

للعائلة، كانت مُدمِّرة، وخشيتُ أن يبتلعني الحزن مثل أبي إذا فكّرتُ كثيرًا في الماضي.

تلقيتُ خبرًا بأنّ العم قد عاد إلى منزله في وقت متأخّر من مساء الأمس، لذلك قررتُ البقاء عنده لأرى ما يُمكنني اكتشافه هناك. فتحتُ جريدتي من جديد، غير مهتمّة بما سيقوله أبي.

«هل أنت حريصة لهذه الدرجة على أن ينتهي بكِ الأمر بائسةً متشرّدة في الشوارع؟»

تناولتُ رشفةً من الشاي، مُستمتعةً بطعم إيرل غراي على لساني. كان أبي يلعب لعبة خطيرة ولا فكرة لديه. «أنتَ تعرف شيئًا أو اثنين عن البائسين في الشوارع.»

أسقطَ يديه على المنضدة، ضاربًا أدوات طعامه برفض. كان وجهه شاحبًا لكنّه غاضب. «ستحترمينني في عُقر داري!»

وقفتُ كاشفةً عن طقم الركوب الأسود الخاص بي. سمحتُ بمرور ثلاثين ثانية كاملة، ليستوعب أبي مظهري الرجوليّ، والصدمة والإنكار يتدفّقان من خلال تعابير وجهه. شددتُ قفّازي الجلديّ بعُنف قدر استطاعتي، ثمّ حدّقتُ في وجهه.

«أولئك الذين يستحقّون الاحترام ينالونهُ مجّانًا. إذا كان على المرء طلب مثل هذا الشيء، فلن يحصل عليه حقًّا. أنا ابنتُك، ولستُ حصانكَ يا سيّدي.»

اقتربتُ منه أكثر، مُستمتعةً بالطريقة التي ابتعد بها أبي عنّي كما لو اكتشف الآن أنّ قطّته، رغم كونها ثمينة ولطيفة، لديها أيضًا مخالب جارحة.

«أفضّل أن أكون بائسةً واطئة في الشوارع على أن أعيش في منزل مليء بالأقفاص. لا تُحاضِرني عن اللياقة حين تكون صفةً تفتقرُ إليها بشدّة.»

دون انتظار ردّ، خرجتُ من الغرفة، التي لم يعكّر هدوءها سوى رنين صوتُ كعبيّ خلفي. لن تكون هناك تنانير أو بطاناتٍ لتُعيقني بعد الآن. لقد اكتفيتُ من قيودي.

كان مختبر العمّ حطامًا، مثل الرجل الذي أقامَ هناك. الأوراق مبعثرة، الطاولات والكراسي مقلوبة، الخدم ينظّفون بعصبيّة على أطرافهم الأربع، وانتباههم يتنقّل بين عملهم وخطبة العمّ التي لا تنتهي. لم أعلم إن كان مُنزعجًا بسبب العبث بعمله الثمين أو لأنه اقترب من الإدانة بسبب جرائمه، لكنني لن أغادر دون أن أعرف.

لم أرهُ قطّ في مثل هذه الحالة. لقد أعادت الشرطة كلّ شيء من غرف الأدلة عندما تمّ إطلاق سراحه من بيدلام، لكنها رمت الأغراض في المختبر كيفما اتفق. يبدو أنّ اهتمام بلاكبيرن بكسب ودّي قد زال.

«يا للأوغاد المعتوهين!» دوّى اصطدام آخر في الغرفة الصغيرة خارج المختبر الرئيسي. «سنواتٌ وسنوات من التوثيق، ذهبت! أفكّر في إضرام النار في سكوتلانديارد. ما نوع الحيوانات التي تعمل هناك؟»

دخلَ توماس الغرفة، وقام بتقييم سريع للفوضى، ثم عدّلَ كرسيًّا وطوى نفسه فيه، والانزعاج بادٍ على ملامحه. لقد تجاهلتُه بتعمّد، وأجابَ بالمثل. من الواضح إنه لا يزال مستاءً بسبب جدالنا، أو ربّما شعرَ أن شكّي حوله قد تجسّد وأشارَ نحوه بإصبع الاتّهام. لم يتذكّر عمّي الكثير عن الوقت الذي

قضاه في المصحّ. أثبتت الأدوية إنّها أقوى من أن يقاتلها عقله، أو هكذا زعم. لم يتذكّر تكراره لاسمه مرارًا، أو أيّ وحي ربما يكون قد ظهر من وسط ذلك الظلام.

«لا تجلس هناك هكذا!» زأر العمّ، ورمى بحفنةٍ من الورق في وجه توماس. «أصلح هذا! أصلح كلّ هذه الفوضى الدمويّة! لا أستطيع العمل هكذا!»

عجزتُ عن مشاهدة المزيد من الجنون، فاقتربتُ ببطء من عمّي رافعةً يديّ، كما لو كان كلبًا مسعورًا ومُحاصرًا. تخيّلتُ مدى تهيّج أعصابه بعد زوال تأثير المهدّئ من جسده. لم تكن نوباتُه العرضيّة قبلاً صاخبةً أو مضطربة هكذا.

«ربّما» ـ أشرتُ إلى أرجاء الغرفة ـ «يجب علينا الانتظار في الطابق العلوي بينما تهتمّ الخادمات بهذا.»

بدا العمّ جوناثان مُستعدًا للشجار، لكنّني لم أقبل بشيءٍ من ذلك. امتدّ افتقاري الجديد للتسامح إلى جميع ذكور عائلة وادزورث. حتى لو ثبتتَ براءته من جرائم قتل السفّاح، كان لدى العمّ أفعالٌ أخرى يجب حسابه عليها. أشرتُ إلى الباب، ولم أترك مجالاً للنقاش. ربّما كانت ملابسي الجديدة، أو الصرامة في تقلّص فكّي، لكنّ روح القتال تركَت العمّ سريعًا. تنهّدَ وارتخى كتفاه، من الهزيمة أو الارتياح، وهو يصعد الدرج.

استقرّينا في غرفة الضيوف، مع فناجين شاي وأنغام موسيقى مُمتعة جاءت من آلة تعمل بالبخار في الزاوية. جلس توماس قبالتي، بذراعين

متقاطعتين وفك مرتفع. تسارعَت نبضات قلبي عندما التقت عيناه بعينيّ، لتُرسل شراراتٍ عبر جسدي. كنت أتوق إلى الصراخ عليه، مطالبةً بمعرفة سبب إخفائه الأسرار عنّي، لكنّني أمسكتُ لساني. الآن ليس الوقت المناسب. كان ترتيب العمل التالي أكثر صعوبة، بوجود نهر من الأكاذيب والخدع الذي يجب عبوره في فترة قصيرة من الزمن.

نظرتُ نحو عمّي. كان يستشيط غضبًا ويرمي الأشياء منذ أن دخلتُ إلى هذه اللحظة. حتّى الآن كانت عيناه تلمعان قليلاً، وهو يرى سوءً لا يراهُ غيره. اشتعلَ غضبٌ جديد بهدوء تحت جلدي، كارهةً ما فعلهُ به بلاكبيرن. حاولتُ دفن يديّ في تنّورتي، ثم توقّفت، مُتذكّرةً عدم وجود تنّورة للاختباء فيها. «لقد عرفتُ ما حدث مع والدة توماس.»

تجمّدَ توماس، اتّسعَت عيناه وفنجان الشاي في منتصف الطريق إلى شفتيه. وجّهتُ انتباهي إلى العمّ. تبدّدَ الضباب المُحيط به على الفور، وحلّت محلّه صلابة لم أراها فيه من قبل. «ما الذي تقصدينه؟»

واجهتُ نظرته الغاضبة مباشرةً. «بعد وفاتها، بدأتَ أنتَ وتوماس العمل معًا، في إجراء... تجارب سرّية.»

انحنى توماس إلى الأمام، حتى كاد يسقط من مقعده، وانصبّ جلّ اهتمامه الحادّ على استجابة العمّ. لو استطعتُ فقط فهم أفعاله! ضحكَ العمّ بإنكار حينَ رأى الجدّية في وجهي.

«ماذا يهمّ إن فعلنا؟ لم نُجرِ عمليّةً جراحيّة منذُ ما يقرب من عام. لا شيء من هذا له صلةٌ بسفّاحنا. بعض الأشباح يجب أن تبقى مدفونةً في سلام، يا ابنة أخي.»

«وبعض الأشباح تعود لتُطاردنا يا عمّي. مثل الآنسة إيمّا إليزابيث سميث.»

كان تعبير العمّ جوناثان قاتمًا مثل تعبير أبي، وخشيتُ أن يطردني، لتطفّلي على ذكرياته. عندما جلس إلى الوراء، واضعًا ذراعيه بعناد على صدره وزامًّا شفتَيه، تحدّثَ توماس. «أرى أنّكَ يجب أن تُخبرها.»

بصقَ العمّ: «أنتَ لا ترى شيئًا، يا فتى. ستكون حكيمًا إن تصرّفتَ على هذا الأساس.»

مشيتُ عبر الغرفة وأغلقتُ الباب بقوّة، مُحوّلةً انتباههم إليّ. «لو لم يكن هذا ضروريًا لهذا التحقيق، كنتُ سأترككما وشأنكما. لكن بوجود مجنون طليق، يمزّق النساء، ويُحتمل أن يستخدم أعضائهنّ كما فعل البعض في هذه الغرفة في الماضي، فنحنُ لا نمتلك هذه الرفاهية.»

«من الناحية الفنّية، لم نحاول أبدًا استخدام الأعضاء لأيّ شيء،» قال توماس ثم هزّ كتفيه. «كانت والدتي مريضة للغاية لإجراء العملية. لقد اختبرنا نظريّاتٍ أبسط، لكن كما قال عمّك، لم نُجرِ عمليّة منذ عام، وتلك كانت مجرّد إعادة توصيل إصبع مقطوع، إن رغبتِ في معرفة التفاصيل.»

«وهل اعتقدتَ أنّ إخفاء هذا عنّي فكرةٌ جيّدة؟»

«لقد كنا مُنشغلين قليلاً بمطاردة قاتل، يا وادزورث.» قال توماس بشكل حازم. «أعتذر عن عدم مناقشة شيء أجدهُ... صعبًا. بصرف النظر عن الدكتور وادزورث والآن أنتِ، لم أتحدّث عن والدتي لأيّ شخص منذ وفاتها. خاصّةً وأنّ والدي قد وجدَ إنه من اللائق الزواج مرّةً ثانية قبل أن يبرد جسد أمّي، وأنّ زوجة أبي لا تُتعب نفسها مع أطفالٍ ليسوا أطفالها.»

«أنا... أنا آسفة، توماس.»

هزّ كتفيه ثانيةً ونظرَ بعيدًا، بينما جلستُ على أريكة مخمليّة، غير مُصدّقة لذلك. هذا هو سبب مهارة توماس في البرود العاطفي، ومنبع غطرسته. كانت ليزا على حق ـ لقد غطّى ألمهُ بالفعل. تسابق نبض قلبي. أرادَ جزءٌ مني أن يجذبهُ إلى عناقٍ يشفي جروحه، وأرادَ جزءٌ آخر كشف ما تبقّى من أسراره لتجميع كلّ قطع لغزه الشخصيّ في هذه اللحظة. لكن كانت هناك أسبقيّة لمسألة العمّ وعلاقته بالسيّدة إيمّا إليزابيث، فواجهتُ عمّي بجهدٍ كبير.

«أحتاج إلى معرفة ما حدث مع خطيبتك السابقة.» استطعتُ رؤية تروس ذهنه تدور وهو يحاول تجنّب إخباري بالقصة. «رجاءً، أخبرني بما حدث لإيمّا إليزابيث سميث.»

ألقى العمّ يديه في الهواء. «يبدو أنني أعرف أقلّ منكِ.»

«أمتِعني، إذن.»

«حسنًا. لقد جعلتني أختار بينها وبين العلم. عندما رفضتُ، قطعَت كل العلاقة بيننا، قائلةً إنها تُفضّل الإفلاس على أن تتغاضى عن مثل هذا العمل الشيطانيّ.»

وضع العمّ رأسه في يديه، من الواضح أنّ التفكير في حبّه السابق كان له تأثير سلبيّ على حالته الهشّة بالفعل. بدا أن مظهرهُ الصلب الذي ألفتهُ به قد غلّفَ عظامه بعد ذلك، مُعيدًا قوّته في اللحظة التالية. بعد كلّ شيء، هذا هو الرجل الذي علّم طلّابه كيفية فصل أنفسهم عن الجانب الإنساني للأمور الفظيعة والمضيّ قُدمًا للبحث عن الحقائق دون أن تعميهم المشاعر. جلس باستقامةٍ أكثر، ونطق الحقائق واحدةً تلو الأخرى.

«كان بإمكان إيمّا الاستمرار في حياتها، لكنها اختارَت عدم القيام بذلك. قالت إنها تُريدني أن أتألّم قدر الإمكان، معتقدةً أنّ ذلك سيُجبرني على التراجع.» هزّ رأسه. «آخر مرّة سمعتُ إنها استأجرَت غرفة في إيست إيند، رافضةً أخذ المال من عائلتها. بدأت الشائعات، بطريقتها المعهودة، بأنّها كانت تبيع نفسها لتدفع تكاليف السكن.»

نزعَ العمّ نظّاراته ومسحَ لطخاتٍ وهميّة منها. لم أستطع تخيّل كيف يجب أن تكون عواطفه. أسقط يديه في حجره. «لم تواتِني القوّة على التحقّق من صحة ذلك. أبعدتُها من ذهني، وانغمستُ في عملي، حيث عشتُ أيّامي بسعادة خلال السنوات القليلة الماضية.»

«ماذا حدثَ في الليلة التي رأيتَ فيها جسدها؟» سألتُ بهدوء. «هل ذكرَك ذلك بعمليّات القتل الأخيرة؟»

حرّكَ العمّ رأسه للخلف، وبدا مذهولاً، قبل أن يفتل شاربه. استغرقَ لحظةً، قلّبَ خلالها مُلاحظات عقله.

«أفترض أنها من الممكن أن تكون إحدى ضحايا السفّاح.» ضغط العمّ الحقيبة الجلديّة التي وضعَ نظّاراته فيها، حتّى تحوّلَت مفاصل يده إلى اللون الأبيض. عندما تحدّث، جاء الكلام من بين أسنانه القاسية. «يجب عليّ العودة إلى العمل.»

قوّس توماس حاجبه، ثمّ ركّز انتباهه عليّ. يبدو أنه لا تزال هناك أسرار لم تنكشف. لم أستطع معرفة إذا كان متورّطًا فيها أم لا، لكنّني صمّمتُ على معرفتها.

23

فنّ السّاحر

مقبرة ليتل إلفورد، لندن

8 أكتوبر 1888

حرسَ زوجٌ من التنانين الحجريّة عربتنا خلال سيرها على الأحجار المرصوفة بالحصى، عبر أكبر الممرّات المقوّسة الثلاث، المؤدّية إلى مقبرة ليتل إلفورد.

أحاطَ ضبابٌ كثيف بمجموعةٍ صغيرة من المُعزّين الواقفين حول قبر الآنسة كاثرين إدوز المحفور حديثًا، المرأة المقتولة التي فحصتُها خلال الحدث المزدوج، مانعًا عنهم قسوة النهار. كان الشتاء يعضّ أصابع قدم الخريف، مذكّرًا الموسم المعتدل بأنّهُ سيأتي قريبًا.

كدليلٍ على احترام المتوفّاة، ارتديتُ ثوبًا مناسبًا بدلاً من طقم الركوب والبنطلون الذي تبنّيتهُ مؤخّرًا كَلبسي المفضّل. كان ثوبي الأسود البسيط مشابهًا بشكل مُخيف لما ارتديتُه ليلة مقتل الآنسة آني تشابمان. أملتُ ألا يكون هذا فألاً لأمور أسوأ قادمة.

شعرتُ بعلاقةٍ غريبة لي بكاثرين، ربما لأنني جثيتُ على جسدها

وفحصتُ مكان العثور عليها. وصفَتها الصحف بأنها مرحة حين تكون في وعيها، وتغنّي لمن يستمع إليها. في الليلة التي قُتِلت فيها كانت في حالة سُكر، مستلقية في الشارع قبل أن تحتجزها الشرطة وتخلي سبيلها بعد الواحدة صباحًا بقليل. وجدَها السفّاح بعد ذلك بوقتٍ قصير، مُسكِتًا أغانيها إلى الأبد.

بقيَ العمّ في مختبره، وتحدّث مع مفتّشي التحقيق عن الضحيّة الثانية لتلك الليلة الدمويّة، بعد أن أرشدَنا أنا وتوماس للخروج في عربته وجَمع ما يُمكن جمعهُ من الحاضرين في جنازة الآنسة كاثرين. لقد اعتقد أنّ القتلة غالبًا ما يزورون مواقع جناياتهم أو يضطلعون في تحقيق القضايا، على الرغم من أنّ ذلك، مثل معظم قناعاته الأخرى، غير قابل للإثبات. لم يقضِ مفتّشو التحقيق كثيرًا من الوقت في إقناع عمّي بأنّ خبرته ضروريّة لحلّ القضيّة. يظهر أنّ الأنا الصغيرة التي تتحلّى بها بعض المناصب العُليا في سكوتلانديارد قد قطعَت شوطًا طويلاً لجَبر كبرياء عمّي المكسور.

لم أستطع الكفّ عن استراق النظر إلى توماس، متسائلةً عمّا إذا كان الوحش الذي أطاردهُ واقفًا بجانبي. على الرغم من أن قصّة وفاة والدته وزواج والده شبه الفوري قد أثارتني عاطفياً، فربّما هذا هو مبتغاه. في الوقت الحالي كنتُ أراقبهُ، لكنّني أتصرّف كما لو أن كلّ شيء بيننا على ما يُرام.

حملَ توماس مظلّةً فوق رؤوسنا، وركّز اهتمامه على كلّ مَن في التجمّع. لم يحضر الكثير من المُعزّين، وبصراحة، لم يبدُ أيٌّ منهم مُريبًا - باستثناء رجلٍ مُلتحٍ ألقى نحونا نظراتٍ من فوق كتفه. أرسلَ شيءٌ ما عنه تحذيراتٍ جرَت في عروقي.

غير متّزن ويتحدّث إلى الهواء، لكنّ شيئًا ما أثار غضبي بشأن معرفته لاسم والدتي. أومأ برأسه إلى شيء ما زلنا لا نستطيع رؤيته.

«آه نعم. ابنة مالينا وإدموند. والدتُك تقول لكِ على الرحب والسعة فيما يتعلّق بالعقد الموجود في الصورة. المدالية على شكل قلب، على ما أعتقد. نعم،» قال، مومئًا برأسه مرّةً أخرى. «نعم، صحيح. تلك التي أُعجِبتِ بها في مكتب والدك. إنّها تُستخدَم كإشارةٍ مرجعيّة من نوعٍ ما.»

توقّف، وهو يحدّق في العدم. أوشكَ قلبي على الخروج من جسدي. أمسكَ توماس بذراعي، وثبّتَني بينما كنتُ أتأرجح على قدميّ. كيف يمكن لهذا الرجل أن يعرف هذه الأشياء؟ ذكريات تسلّلي إلى مكتب أبي والنظر إلى صورة أمّي تخالف المنطق. كنتُ بالفعل مُعجبةً بتلك المدالية، وتساءلتُ أين خُبّأت...

لم يعلم أحد بذلك. بالكاد تذكّرتُها بنفسي. مشيتُ خطوةً مضطربة إلى الوراء، خائفةً لكن غير مستبعدة كون هذا أحد أعمال الخداع، حيث يتلاعبُ بعض المُخادعين بالحقيقة. قرأتُ تقارير في صحف عن بعض الدجّالين والمُحتالين عديمي الضمير، الذين يربحون من خلال منح الجمهور ما يريدون تصديقه. هناك نوع من ألعاب الدخان والمرايا التي يلعبونها، ولم أرغب في أيٍّ منها.

«كيف تعرف هذه الأشياء؟» سألتُه وقد استعدتُ رباطة جأشي. هدّأتُ قلبي المُتسارع، وسعيتُ إلى تطبيق المنطق على الموقف. هذا الرجل كاذبٌ بارع بالتأكيد؛ لقد أجرى شكلاً من أشكال البحث، ثم عرضَ تخميناتٍ مُستنيرة، نفس المبدأ الذي استخدمه توماس في استنتاج ما هو واضح.

المداليات ذات شكل القلب شائعة، كلّ امرأةٍ في لندن تمتلك واحدة. هذا تخمينٌ لا أكثر. حسب ما عرفتُه، كانت القلادة موضوعة في صندوق مجوهرات محفوظ بسرّية، ولم تُستخدَم كإشارة مرجعيّة باهظة الثمن.

لن أتفاجأ إذا عملَ في جريدةٍ حقيرة. ربما أرسله السيّد دويل للتجسّس علينا، في محاولةٍ يائسة لاكتشاف قصة أخرى. قال توماس، بصوتٍ سمعتهُ أنا فقط: «على رسلكِ، وادزورث. أخشى إذا اهتززتِ بقوّةٍ أكبر أن تطيري وتقتُلينا. على الرغم من أنني لا أخشى الموت، إلا إنّه قد يكون مُملّاً نوعًا ما بعد فترة. كلّ هذا الغناء السماويّ سيُصبح مزعجًا فيما بعد، ألا توافقين؟»

أخذتُ نفسًا بطيئًا وثابتًا. كان مُحقًّا. الانفعال لن يجعل الوضع أفضل. سمحتُ لنفسي بالهدوء، قبل أن أعيد نظري إلى هذا الكذّاب. رفعَ يديه، كما لو أنه لم يقصد أذى ـ باستثناء الأذى الذي حدثَ بالفعل.

«اسمحوا لي أن أبدأ من جديد، آنسة وادزورث. أنا ـ غالبًا ما أنسى كم أبدو غريبًا لغير العارفين.» مدّ يده، في انتظار أن تُقابل يدي. سمحتُ له على مضض بتقبيل مفاصل يدي ذات القفّاز قبل أن أعيدها إلى جانبي. «اسمي روبرت جيمس ليز. أنا وسيط، أتواصل مع أرواح الذين ماتوا. أنا أيضًا واعظٌ روحانيّ.»

«جيّد.» مسحَ توماس جبينه في حركة ارتياح. «اعتقدتُ أنك مجنون ببساطة. سيكون هذا أكثر متعة.»

كتمتُ ابتسامة بينما تأتأ الروحانيّ كلماته التالية.

«نعم، نعم، حسنًا، حسنًا. إذن، كما كنتُ أقول، أنا أتحدث مع الراحلين

الغالين، وكانت روح الآنسة إدوز تزورني كل ليلة تقريبًا هذا الأسبوع، بدءً من الليلة التي قُتِلت فيها. أخبرَتني أدلّتي الروحيّة أنني سأجد هنا مَن يُمكنه المساعدة في إيقاف عمل جاك السفّاح إلى الأبد، وبقيتُ أنجذب إليكِ يا آنسة. حينها جاءَت والدتُك.»

استمعتُ بأذنٍ متمرّسة في التشكيك. كان ذهني غارقًا في العلوم، وليس في البدع الدينية ومفاهيم التحدّث مع الأموات. زفر السيّد ليز، وأومأ برأسه إلى نفس القوّة غير المرئيّة مرّةً أخرى.

«كما اعتقدت. عرفتُ من مصدر موثوق أنّكِ لا تُصدّقين.» رفعَ يده عندما فتحتُ فمي لأجادل. «إنه شيء أتعامل معه كلّ يوم في حياتي. طريقي ليس سهلاً، لكنني لن أوقف رحلتي. إذا رغبتِ في مُرافقتي إلى صالة الاستقبال الخاصّة بي، فسوف أقوم بعمل استحضار مُناسب لك.»

جزءٌ مني أراد القبول، واستشعرَ تردّدي، فَواصل العرض.

«خذي ما تشائين من جلستنا، واتركي خلفكِ ما هو غير مُفيد. كلّ ما أطلبهُ هو بضع دقائق من وقتكِ، آنسة وادزورث، لا أكثر. أفضل ما في الأمر إنكِ ستخرُجين بمعلوماتٍ عن القاتل، أو على أقلّ تقدير، قصّة مُسلّية تشاركينها مع أصدقائك لاحقًا.»

كانت صفقته صعبة الرفض عندما طرحها بهذه الشكل.

«إذا كانت لديكَ معلومات عن جاك السفّاح،» سأل توماس وهو يحمل المظلّة بثبات، «لماذا لم تذهب مباشرة إلى سكوتلانديارد؟»

تمعّنتُ في توماس. بدا سؤاله غير زائف بالتأكيد، إلا إذا كان يُزيل

الشكّ عنه. ابتسم السيّد ليز بحزن وقال: «لقد رفضوا خدماتي في أكثر من مناسبة. الظنّ بأنّني مجنون أسهل من التفكير بجدّية فيما يتعلّق بأيّة أدلّةٍ أكتشفها.»

نقرتُ أصابعي على ذراعي مُفكّرةً في عرضه. الجزء الأول في كونكَ عالِمًا جيدًا أن يظلّ عقلكَ مفتوحًا لدراسة جميع المُتغيّرات، حتى تلك التي لا تفهمها بالضرورة. كم سيكون عقلي ضئيلاً لو رفضتُ احتمالاً دون التحقيق فيه، ببساطة لأنه لا يتناسب مع فكرةٍ مُسبَقة عندي. لن يتمّ إحراز أي تقدّم عندها. من الحماقة أن ترفضه سكوتلانديارد. هناك فرصةٌ كبيرة في كونه محتالاً، لكن حتّى أصغر نسبة في صالحه يجب أن تكفي للاستماع إليه على الأقل.

كنتُ أعلم أنّ الأمل في التكلّم مع أمّي قد غزا أفكاري وقلبي، مما يُفسد حُكمي، وحاربتُ نفسي داخليًا. ربما في يوم من الأيام سأبحث عن السيد ليز عندما أستعدّ لمواجهة تلك الفوضى العاطفية. أمّا الآن، مع وجود توماس، فقد احتجتُ إلى التركيز بشكلٍ واضح.

أخذتُ نفسًا عميقًا، وأنا أعلم أن هذا قد يكون مضيعةً كبيرة للوقت، لكن لم أهتمّ. إذا اضطررتُ إلى التلويح بأقدام الدجاج عند كلّ غرابٍ أراهُ خلال اكتمال القمر لإيقاف هذا القاتل والانتقام لجميع النساء اللائي تعرّضنَ للتعذيب، كنتُ سأفعل ذلك. بالإضافة إلى إنه، بطريقة أو بأخرى، قد يُزيل أيّ شكٍّ باقٍ لديّ حول توماس.

قلتُ: «حسنًا، إذن. أبهِرنا بفنون سحرك، سيّد ليز.»

الشكّ عنه. ابتسم السيّد ليز بحزن وقال: «لقد رفضوا خدماتي في أكثر من مناسبة. الظنّ بأنّني مجنون أسهل من التفكير بجدّية فيما يتعلّق بأيّة أدلّةٍ أكتشفها.»

نقرتُ أصابعي على ذراعي مُفكّرةً في عرضه. الجزء الأول في كونكَ عالِمًا جيدًا أن يظلّ عقلكَ مفتوحًا لدراسة جميع المُتغيّرات، حتى تلك التي لا تفهمها بالضرورة. كم سيكون عقلي ضئيلاً لو رفضتُ احتمالاً دون التحقيق فيه، ببساطة لأنه لا يتناسب مع فكرةٍ مُسبَقة عندي. لن يتمّ إحراز أي تقدّم عندها. من الحماقة أن ترفضه سكوتلانديارد. هناك فرصةٌ كبيرة في كونه محتالاً، لكن حتّى أصغر نسبة في صالحه يجب أن تكفي للاستماع إليه على الأقل.

كنتُ أعلم أنّ الأمل في التكلّم مع أمّي قد غزا أفكاري وقلبي، مما يُفسد حُكمي، وحاربتُ نفسي داخليًا. ربما في يوم من الأيام سأبحث عن السيد ليز عندما أستعدّ لمواجهة تلك الفوضى العاطفية. أمّا الآن، مع وجود توماس، فقد احتجتُ إلى التركيز بشكلٍ واضح.

أخذتُ نفسًا عميقًا، وأنا أعلم أن هذا قد يكون مضيعةً كبيرة للوقت، لكن لم أهتمّ. إذا اضطررتُ إلى التلويح بأقدام الدجاج عند كلّ غرابٍ أراهُ خلال اكتمال القمر لإيقاف هذا القاتل والانتقام لجميع النساء اللائي تعرّضنَ للتعذيب، كنتُ سأفعل ذلك. بالإضافة إلى إنه، بطريقة أو بأخرى، قد يُزيل أيّ شكٍّ باقٍ لديّ حول توماس.

قلتُ: «حسنًا، إذن. أبهِرنا بفنون سحرك، سيّد ليز.»

نظر توماس بنفاد صبر تجاهي، عبر المنضدة الصغيرة القديمة في صالون السيّد ليز، وساقه ترتدّ بسرعة حتى اهتزّت الطاولة الخفيفة مع كل حركة منها. كانت النظرة التي رددتُها إليها مليئة بالتهديد غير المُعلن. لقد تعلّمتُ شيئًا مفيدًا من العمّة أميليا في النهاية. ثبّتَ توماس ساقيه قبل أن يبدأ بضرب ذراعيه بإيقاعٍ متوتّر. بصراحة، تصرّفَ كما لو كنتُ أسحبه في الشوارع على فراشٍ من المسامير، خلال عاصفة شتويّة. علامة شابّ لديه أسرار أكثر، أم ضجر بسيط؟ إذا كان عمل السيّد ليز حقيقيًّا، فقد أحصل على إجابة قريبًا.

قمتُ بتفقّد مُحيطنا، وبذلتُ قصارى جهدي للاحتفاظ بمظهر عدم الاكتراث، لكنّ الأمر صعب. تسلّلَ الضوء الرماديّ من خلال الستائر المُتعفّنة، وأضاءَ كلّ ذرّةٍ من الغبار في الشقّة الصغيرة، مما تسبّب بحكّةٍ في أنفي. كانت الأدوات المُستخدمَة للتواصل مع الأرواح مُبعثرة في الزوايا وتخرُج من الخزانات، بينما غطّى الغبار معظم الأسطح. سيتطلّب تنظيف المنزل جهدًا كبيرًا. ربّما سيحصل السيّد ليز على المزيد من الزبائن إذا قامَ بترتيب أموره قليلاً.

مع ذلك، افترضتُ أنّ المرء لا يملك متّسعًا من الوقت للتنظيف وهو يُكلّم الموتى طول ساعات النهار والليل. لو صحَّت قدراته، فقد شبّهتُها بالاحتجاز في حفلة لأربع وعشرين ساعة في اليوم. كان التفكير في الاستماع إلى شخص ما يتحدّث لفترةٍ طويلة أمرًا مروّعًا للغاية. تعلّقَ انتباهي على أنبوب بشكل قرن، يستريح فوق خزانة متهالكة المظهر، وهو أحد الأغراض القليلة في الغرفة التي بدَت لامعة وجديدة.

قال السيد ليز، وهو يهزّ ذقنه تجاه ذلك الشيء الغريب: «هذا بوق الأرواح، يقوم بتضخيم همساتهم. في الحقيقة، لم يُحالفني الحظ معه، لكنّ صيتهُ ذاعَ هذه الأيّام، وفكّرت بتجربته. وهذا لوح الأرواح.»

ما سمّاه لوح الأرواح لم يكن سوى لوحتي طباشير مربوطتين ببعض بخيط قصير. افترضتُ أنّها أداةٌ أخرى يستخدمها الموتى للتواصل مع الأحياء. لم تقلّ رغبة الناس في الاستمتاع بالأدوات والحيل، على ما يبدو، عن رغبتهم في التحدّث مع أحبّائهم. كان الجوّ المسكون مُهيّئًا لبدء محادثات بين الأثرياء الذين لا يعرفون شيئًا عن الفقر.

سعل توماس مُخفيًا ضحكته، ولفتَ انتباهي إليه. أشارَ بمهارة إلى ساقي، وهي تضرب ضربات القلق الخاصّة بها على الطاولة، ثم سعلَ ثانيةً على نظرتي القاتمة. كنتُ سعيدةً لأنّ أحدنا على الأقلّ تسلّى بذلك القدر.

«حسنًا إذن.» جلس السيد ليز في الوسط. «سأطلب منكما وضع أيديكما على الطاولة، هكذا.»

مثّلَ ذلك من خلال وضع راحتيه الكبيرتين ووجههما لأسفل، وإبهاماه متلامسان من الطرف. «باعدا بين الأصابع، حتى يلمس الأصبع الصغير اصبع جارَك من كلا الجانبين. ممتاز، هذا ممتاز. الآن أغمضوا أعينكم وصفّوا عقولكم.»

من الجيّد أنّ الطاولة كانت صغيرةً جدًا، وإلا فلن نتمكّن من الوصول إلى أيدي بعضنا بشكل مريح. ظلّ خنصر توماس ينسحب بعيدًا عنّي، لذلك قمتُ بمدّ قدمي بهدوء تحت الطاولة وأعطيتُه ركلةً صغيرة. قبل أن يتمكّن

من الانتقام، أغلقَ السيّد ليز عينيه، وتنهّدَ بعمق. ركّزي، وبّختُ نفسي. إذا كنتُ سأقوم بهذه الجلسة، فسأفعلُها مئةً بالمئة.

«أطلبُ من الأرواح المُرشِدة أن تتقدّم لتُساعدني في هذه الرحلة الروحيّة عبر الحياة الأخرى. أيّ شخص على صلة بتوماس أو أودري روز يُمكنه تقديم نفسه الآن.»

نظرتُ من بين جفنيّ المفتوحين قليلاً. كان توماس يقوم بالمطلوب، جالسًا بعينين مغمّضتَين وظهرهُ مستقيم كعصا المشي. بدا السيّد ليز كما لو كان نائمًا وهو جالسٌ باستقامة. رفرفَت عيناه تحت جفنيه، وشواربه ولحيته ترتعش مع بعض النبضات الإيقاعية التي لم يسمعها غيره. حدّقتُ في الخطوط الصغيرة حول عينيه. لا يمكن أن يكون قد بلغ الأربعين من العمر، لكن مظهره دلّ على رؤيته لما رآه مَن هم في ضعف عمره. شعره رماديّ عند الأطراف، وينحسر مثل أمواج المُحيط بعيدًا عن شاطئ جبهته. استنشقَ بعُمق، وملامحهُ تتجمّد. «عرّفي عن نفسِك أيّتها الروح.»

ركّزتُ على توماس ثانيةً، لكنّه لم يبتسم أو يحرّك جفنًا، ولعبَ بأدب مع مضيّفنا وسيط الأشباح. من المؤكّد أنه لم يتصرّف بتوتّر الآن. لم أستطع منع نفسي من الإحساس بالأمل والخوف في آن واحد، من لقاءٍ آخر مع والدتي بهذه السرعة، في حال تصديقي لما قاله في المقبرة.

أومأ السيد ليز برأسه. «نرحّب بك يا آنسة إدوز.»

توقّف لبرهة، معطيًا لنفسه الوقت للتفكير في تلفيق أو «سماع» الروح، ووجهه ملتوٍ في التركيز. «نعم، نعم، سأخبرها الآن.»

جيّد. سوف ندخل في الموضوع مباشرة، إذن. يا للسخافة. تحرّكَ في كرسيّه، دون أن يقطع الاتصال بأيدينا. «تقول الآنسة إدوز أنّكِ كنتِ حاضرة يوم اكتشاف جثّتها. تقول أنه كان برفقتكِ رجلٌ ذو شعر فاتح.»

توقّفَ نفَسي، ومعه أملي بأن أسمع من والدتي، للحظات. هل يُمكن أن يكون هذا واقعًا؟ هل يُمكن أن تتحدّث الآنسة كاثرين إدوز من خلال هذا الرجل البدين غير المرتّب؟ كان كلّ هذا غريبًا جدًا، لكنني لم أصدّق بالضرورة ثانيةً واحدة منه. أيّ شخص وُجدَ في مسرح الجريمة ذلك الصباح قد رآني أسير مع المُشرف بلاكبيرن. لم أعرف البروتوكول المُناسب لهذا النوع من المواقف، فهمست: «هذا صحيح.»

نظرتُ إلى توماس، الذي لا يزال جالسًا بهدوء، وعيناه مغمّضتان. مع ذلك، فقد أصبح فمه الآن مضغوطًا في خطٍّ رفيع. حوّلتُ انتباهي إلى روحانيّنا. قال السيّد ليز بنبرة فهم: «أها.» لم أعرف ما إذا كان يُخاطبني أم يُخاطب الروح المفترضة الحائمة حوله، لذا انتظرتُ وشفتاي مغلقة. «الآنسة إدوز تخبرني بأن أنقل هذه الرسالة لمُساعدتك في التصديق. تقول أن هناك علامة مميّزة على جسدها، وستعرفين على الفور ما الذي تقصده.»

غمرَتني الرغبة في سحب يدي وترك وكر الأكاذيب هذا لبضع لحظات. لقد عرفتُ بالضبط ما قصدته. كان هناك وشم صغير على ساعدها الأيسر يحمل الأحرف الأولى TC. لم يكن هذا سرًّا، مرّةً أخرى، يمكن لأي شخص مارّ رؤية ذراعها. تنهّدت، بأملٍ خائب لحماقة هذا العمل. قبل أن أنطق بكلمة أو أقطع الاتصال مع توماس أو السيّد ليز، أردفَ على عجل:

«قالت أنّ جاك كان هناك في ذلك اليوم أيضًا، وإنهُ رآكِ.» أغلق فمه

وأومأ برأسه مرة أخرى، كمترجمٍ ينقل رسالة من متكلّم أجنبي. «لقد اقتربَ منكِ... وتحدّثَ معكِ. كُنتِ غاضبةً منه...»

تأرجحَ السيّد ليز في كرسيّه، وعيناه المغلقتان تتحرّكان ذهابًا وإيابًا، مثل الحمام المُرتبك أمام مصطبةٍ في متنزه. التفّ رعبٌ عميقٌ بارد حول أطرافي، وخنقَ عقلي. الشخصان الوحيدان اللّذان كنتُ غاضبةً منهم هما المُشرف بلاكبيرن وأبي. كان عمّي في المصحّ، ولم نتحدّث أنا وتوماس. إذا تجاذب هذا الرجل أطراف الحديث مع الموتى حقًّا، فذلك يبرّئهم من الشكوك المستمرّة. لكنّ أبي وبلاكبيرن...

لم أرغب في سماع المزيد، فسحبتُ يدي بعيدًا، لكن توماس مدّ يده، ووضع يدي بجانبه. أخبرتني نظرته المُشجّعة أننا سنُكمل هذا معًا، ما هدّأني في الوقت الحاليّ.

اهتزّ وسيطنا في مقعده، بحركاتٍ أسرع وأكثر حدّة. صرَّ الخشب بنغماتٍ مذعورة، دافعًا نبضي بإيقاع فوضويّ. وقف السيّد ليس فجأةً حتّى ارتطمَ الكرسي الذي جلس عليه بالأرض. استغرق الأمر عدّة ثوانٍ حتى يعيد توجيه نفسه، وعندما صفَت عيناه، حدّقَ بي كما لو أنني تحوّلتُ إلى الشيطان نفسه.

«سيّد ليز.» قال توماس، «هل ستُشاركنا بما يُزعجك، أم إنك تحتفظ بما قالته الأرواح لنفسك؟»

ارتجفَ السيّد ليز، وهزّ رأسه لإزالة كلّ ما سمعه ورآه. عندما تكلّم أخيرًا، كانت نبرته مشؤومة مثل كلماته.

«غادري لندن حالاً، آنسة وادزورث. لقد كنتُ مُخطئًا، لا يُمكنني مساعدتك. اذهبي!» أذهلنا صراخه، قبل أن يواجه توماس. «يجب أن تُحافظ عليها في أمان. لقد تمّ وضع علامة الموت عليها.»

ضيّقَ توماس عينيه. «إذا كانت هذه خدعة ـ »

«غادرا! غادرا الآن قبل فوات الأوان.» قادَنا السيّد ليز إلى الباب، ورمى لي بمعطفي كما لو كان يحترق. «جاك يشتهي دمكِ يا آنسة وادزورث. ليكن الله معك.»

24

من الجحيم

مكتبة د. جوناثان وادزورث، هايغيت

16 أكتوبر 1888

«أرى أنّكِ قد أقمتِ لنفسكِ حفلة شفَقة أخرى.» قال توماس، وهو يسير بخفّة في مكتبة العمّ المُظلمة. رفعتُ رأسي عن كتابي، ولاحظتُ أن ملابسه كانت أنيقة للغاية لأمسية تدريب على الجثث. تناسبَت سترته المُخيّطة بدقّة مع هيكله تمامًا. لمحَني وأنا أتفحّصهُ فابتسمَ ابتسامةً عريضة. «لم تُرسلي دعواتٍ بعد، وادزورث. هذه وقاحة، ألا تعتقدين ذلك؟»

تجاهلتُه هو وملاحظته، رغم علمي بأنّه كان يحاول تسليط الضوء على وضعنا. مرّت ثمانية أيّام منذ حديثنا مع السيّد ليز، ومرّ وقتٌ أطول منذ آخر مرة رأيتُ فيها والدي.

مع عدم قدرتي على اعتماد الشهادة الروحانيّة للسيّد ليز لوحدها، لكنّ توماس ابتعدَ أكثر عن رأس قائمة المُشتَبه بهم مع كلّ يوم. كان يُدقّق في المُلاحظات والتفاصيل، ليل نهار. الضغط الذي حاولَ إخفاءه ليس تمثيلاً. أرادَ توماس حلّ هذه القضية بإلحاح كما فعلت. خلال إحدى الأمسيات

المُقلقة بشكل خاصّ، شاركتُ مخاوفي بشأن والدي معه. فتحَ فمهُ ثم أغلقه، وكانت تلك نهاية الموضوع. لم يُرِحني ردّ فعله.

التزمَ أبي بكلمته، لم يسأل عنّي وظلّ غيرَ مُبالٍ بمكان وجودي. كان تصرّفهُ مختلفًا تمامًا عن قبل، بتركي بعيدًا عن بصره لأيّام مُتتالية، بيد إنّه صارَ غريبًا بالنسبة لي ولم أستطع التنبّؤ بحركته التالية. كرهتُ التفكير أو الإقرار بذلك، لكنّه لاءَم العديد من صفات جاك السفّاح. كان حاضرًا في كلّ جريمة، وغائبًا عندما اختفى جاك لتلك الأسابيع الثلاث والنصف في سبتمبر. مع رغبتي في معرفة رأيه، فقد كتمتُ هذه التكهّنات السوداء عن ناثنيل. لم يكن إقلاقه ضروريًا، حتى الحصول على دليلٍ قاطع على أنّ أبي بالفعل جاك.

قلّبتُ في كتابٍ طبّي، وقرأتُ عدّة مفاهيم جديدة تتعلّق بعلم النفس البشريّ والجرائم. لقد عانى أبي بالتأكيد من مشاكل حُزن، والعديد من الأسباب التي تجعله يرغب في نجاح زراعة الأعضاء. هذا من شأنه تفسير الأعضاء المفقودة، رغم أنني لم أستطع فهم كيف سيُساعد ذلك أمّي الآن. ثمّ تذكّرتُ منشّطه المفضّل، اللودانوم قد يُعلّل هذا الوهم جيّدًا.

«يجب ألّا تضيّعي طاقاتكِ الثمينة على مثل هذه القمامة، يا وادزورث.» قال توماس وهو يقرأ من فوق كتفي. «بالتأكيد أنتِ قادرة على ابتكار نظريّاتك الخاصّة. أنتِ عالِمة، أليس كذلك؟ أم تحتفظينَ بكلّ العمل الرائع لي للقيام به؟»

ابتسمَ توماس لدوران عينيّ، وهو ينفخ صدره واقفًا وإحدى قدميه تستريح بفخر على كرسيّ، كما لو كان يقف لالتقاط صورة. «لا ألومُك، فأنا

جذّابٌ نوعًا ما. بطل أحلامك الطويل القاتم، أنقضُّ لإنقاذكِ بذكائي العظيم. يجب أن تتعلّقي بيدي فورًا.»

«بل قُل الوحش ذا الثقة المُفرطة في النفس الذي يُلاحق كوابيسي.» أعطيتُه ابتسامةَ استفزاز وهو يدعك أنفه. لقد كان وسيمًا بدرجة كافية، لكنه لا يحتاج لمعرفة أنني ظننتُ ذلك. «ألا تجد عضوًا تقيسُ وزنه، أو أحدًا تُزعجه، أو ملاحظاتٍ تُخربشها من أجل العمّ جوناثان؟ أو ربّما مريضًا آخر للتجربة عليه.»

ابتسمَ توماس، وهو يطوي نفسه على أريكة المخمل المُجعّد أمامي مباشرةً. لقد استلقَت جثّةٌ جديدة، لا علاقة لها بجرائم وايتشابل هذه المرّة، على طاولة الجثث في الطابق السفلي، في انتظار الفحص. دلّت النظرة الأولى أنه قد فقد حياته بسبب الأجواء الإنجليزية القاسية، وليس بسبب قاتل مجنون. قام الشتاء بعرض بعض مُفاجآته، قبل تاريخ بدئه الرسميّ.

«تمّ استدعاء د. وادزورث، إلى مسائل أكثر إلحاحًا. نحنُ لوحدنا وأنا أشعر بالملل من إضاعتكِ للوقت. يُمكننا الاستفادة الكاملة من وقتنا معًا. لكن لا،» تنهّدَ بعمق. «لأنّكِ تقرئين القُمامة باهتمام.»

عدّلتُ وضعي في كرسيّ القراءة الكبير وقلبتُ إلى الصفحة التالية.

«دراسة الحالات النفسيّة للإنسان وكيف يمكن أن ترتبط بقضايا ذُهانية أعمق ليست إضاعة وقت. لِمَ لا تستفِد من دماغك الكبير وتقرأ بعض هذه الدراسات معي؟»

«لِمَ لا تخبريني بما يُزعجكِ حقًا؟ ما المُعضلة العاطفية التي تحتاج إلى

حلّ؟» ربّتَ على ساقيه. «اجلسي هنا وسأهزّكِ بلُطف حتى ننام، أنتِ أو أنا أو كلانا.»

رميتُ الكتاب على الأرض عند قدميه، ثم انكمشتُ على الفور. كنتُ على وشك إخبار توماس أنّني لا أعاني من أيّة مشاكل عاطفية، ثم أطلعه على نحوٍ مختلف. ذات يوم سأكبح جماح أفعالي اللعينة. تنهّدت. «لا أستطيع التوقّف عن التفكير في أنّ والدي هو الرجل الذي يطارد الليل.»

«وما المُعضلة الأخلاقيّة بالضبط؟» سأل توماس. «ما إذا كان يجب عليك تسليم الأب العزيز إلى السلطات أم لا؟»

«بالطبع هذه هي المُعضلة الأخلاقيّة!» صرختُ، غير مُصدّقة لمدى بروده عندما يتعلّق الأمر بالمفاهيم الإنسانية الأساسيّة. «كيف يُمكن للمرء أن ينقلب على دمه؟ كيف أرسله إلى حتفه؟ بالتأكيد أنتَ تُدرك أن هذا بالضبط ما سيحدث إذا أخبرتُ السلطات.»

سيشنقون أبي، وبالنظر إلى هويّته، فسوفَ يجعلون الأمر علنيًّا ووحشيًّا قدر الإمكان. لا يعني احتمال كون يديه ملطخة بالدم أنّني أريد دماءه على يديّ، بغضّ النظر عن مدى صواب ذلك.

«ناهيك عن أن ذلك سيقتل أخي.» أضفتُ بصوتٍ عالٍ، ثمّ غطّيتُ وجهي بيديّ. لم أقُل الشيء الأكثر وضوحًا: عدم تسليم والدي سيؤدّي إلى ذبح المزيد من النساء. لقد كنتُ في محنةٍ مروّعة، وكرهتُ أبي أكثر لأنه أقحمَني فيها. أصبح توماس هادئًا للغاية، وحدّق في يديه. وقفَت الأبديّة بقربي تنتظر، حتى أبعدَها عنّا بسؤاله: «ما الذي تأملين في اكتشافه بين صفحات نظريّات الرجال الآخرين؟»

«الخلاص. النقاء. العلاج للشيطان الذي أصابَ روح والدي.»

إذا كانت هناك طريقة ما للتعامل مع مشاكل عقله، فربّما يُمكن إنقاذه. استمعتُ إلى الصمت الممتدّ بيننا، ودقّات الساعة تردّد صدى دقّات قلبي. خفضتُ صوتي: «لو كان والدك، ألن تحاول فعل أيّ شيء لإنقاذه؟ لا سيّما بعد فقدانك لأحد الوالدين بالفعل؟ ربما لم يفُت الأوان على نجاته.»

ابتلع توماس ريقه بشدّة، ووجّه انتباهه إلى كتابي. «هل تستخدمين وسيلة كالدين لتخليصه من ذنوبه إذن؟ ترشّين عليه قليلاً من الماء المقدّس ثم تحرقين الشيطان لاستخراجه منه؟ اعتقدتُ أن هذا كان اختصاص عمّتك المتطرّفة.»

انحنيتُ لاسترداد الكتاب الطبّي، والعودة إلى القسم الأخير الذي قرأتُه. صرّ الكرسي الجلديّ بينما تغيّر ثقلي عليه.

«أنا عالِمة يا توماس. سيأتي خلاص أبي على شكل مقوّيات تعمل على فسيولوجيّته. هناك أبحاث رائعة عن تأثير المواد الكيميائية على المسارات العصبيّة للدماغ،» قلتُ مشيرةً إلى إحداها في الكتاب. «بالإضافة إلى إنني سأهدّده بسجنه في بيتنا. سأبقيه مقيّدًا بسلاسل، محبوسًا في مكتبه، إن لم يوافق على تقييم عقله.»

هزّ توماس رأسه ـ كلانا عرف إنّ هذه كذبة. سمعنا طرقةً ضعيفة على الباب قبل أن يردّ عليّ. كلانا حدّق في الخادم، الذي وقفَ نصفه في القاعة ونصفه داخل المكتبة، والاحمرار بادٍ على وجهه. أملتُ ألّا يكون قد وقفَ هناك طويلاً. إذا علمَ أيّ شخص باحتمال كون أبي جاك السفّاح

أو بحقيقة أننا اشتبهنا به ولم نُبلّغ عنه، فسوف نهوي جميعًا إلى عالمٍ جديد من المتاعب.

«طلبَ د. وادزورث قدومكِ في سكوتلانديارد على الفور، يا آنسة.» عندما تبادلنا أنا وتوماس النظرات، عدّلَ قوله: «طلبَكُما كليكُما.»

لم أهتمّ بالشكل الذي بدوتُ عليه للرجال الواقفين حول مكتب المُشرف بلاكبيرن، وأنا أغطّي فمي بظهر يدي المكسوّة بالدانتيل.

كانت الرائحة الشنيعة التي هاجمَت حواسّي بقدر سوء محتويات الطّرد، وربما أسوأ. يُمكنني التعامل مع أيّ شيء مُريع ودمويّ؛ ومع ذلك، فاللّحم المُتعفّن شيءٌ خشيتُ أنّني لن أعتاد عليه أبدًا، بصرف النظر عن عدد المرّات التي أجبِرتُ فيها على مواجهة الموادّ الكريهة.

«من المؤكّد أنّها نصفُ كِليةٍ بشريّة،» أكّد العمّ، رغم أن أحداً لم يسأل. «في حين إنه من المستحيل الجزم بذلك، يجب أن نُعطي بعض المصداقيّة للرسالة التي جاءَت معها. الآنسة إدوز افتقدَت إحدى كليتيها. هذه كليةٌ بشريّة. من حالة تحلّلها، يُمكن القول أنها انتُزعَت في نفس وقت مقتل الآنسة تقريبًا، ومن الجانب الأيسر، مثل ضحيّتنا. سأفحصُها أكثر في معملي، لكن مبدئيًّا هناك بعض... أوجه الشبَه.»

ابتلعتُ اشمئزازي؛ لقد استفحلَ جنون جاك. مرّرَ توماس إليَّ أحدث رسالة من القاتل وهو يُشيح بنظره عنّي. تساءلتُ عمّا إذا فكّرَ في إخبار الشرطة عن والدي، وإن كنتُ سأفعل الشيء ذاته لو كنتُ في مكانه. غرسَ الشعور بالذنب نفسه في أعماقي. هل سمحتُ للعاطفة باعتراض طريق العدالة؟ هذا يجعلني سيّئةً بقدر السفّاح.

باستثناء... ماذا لو اكتشفَت الشرطة بالفعل هويّته؟ سرقتُ نظرةً إلى المُشرف بلاكبيرن. لم أكن أعرف شيئًا عنه حقًّا، وبقيتُ حذرةً في حضوره. ربما رأى هذا العضو بالفعل ليلة إزالته من صاحبته. لقد كان جامدًا بالنظر لما قالهُ عمّي، الأمر الذي جعلني أتساءل عمّا إذا ارتكب أبي هذه الأعمال بنفسه، أم إنه جعلَ بلاكبيرن يقوم بأفعاله الشرّيرة. هل كانت ردّة فعله المُشمئزّة في الحدث المزدوج مجرّد تمثيل؟

هززتُ نفسي من الأفكار المُتصاعدة، وشعرتُ بالارتياح لأن لا أحد أعارَني انتباهًا. كانت الرسالة مكتوبة بالحبر الأحمر المُخيف مثل الرسالتَين الأخريين اللّتَين أرسلهُما جاك. كنتُ أرى خطّ يده المُدمَج في كوابيسي، وتفحّصتُه لعشرات المرّات، مُحاولةً العثور على نقاط تشابه بينه وبين خطّ يد والدي.

من الجحيم.

السيد لاسك.

سيدي

أبعث لك نصف الكلي أخذتُها من امرأة وحافظتُه لكَ الباقية قمتُ بِقَليه وأكلتُه كان لذيذًا جدًا. قد أرسِل لك السكّين الدامي التي قطعَها إذا انتضرتَ بعض الوقت

مُوقّعة

أمسِكني عندما تستطيع

شيّد لاسك

كان جورج لاسك صديقًا لأخي، والعضو الأبرز في مجموعة الحراسة التي كان ناثنيل عضوًا فيها، فرسان وايتشابل. إذا كان أبي بالفعل جاك السفّاح، فإنّ إرسال دليل إلى شخص قريب من عائلتنا أمرٌ مُعيب، أمّا ادّعاء تناول النصف الآخر من كليةٍ بشريّة فَيُشير إلى جنونٍ مُطلق. أكل لحوم البشر مستوى جديد من الضحالة لقاتل وايتشابل.

أعدتُ الرسالة إلى مكتب بلاكبيرن المُزدحم. لم يبدُ الخطّ شبيهًا بخطّ أبي، لكن هذا لا يعني أنه لم يبذل كل ما بوسعه لإخفائه. ربما كان للشرّ الكامن بداخله خطّه الخاص.

«أتساءل،» قلتُ بصوتٍ عال من دون قصد. أشارَ لي توماس بالتحدّث، لكنني لم أستعدّ تمامًا لذلك. كانت الأفكار والنظريات تتشكّل وتتجسّد في ذهني. ربّما إذا عرضتُ شيئًا، فَيُمكنني اختبار زَيف ردّة فعل بلاكبيرن. بعد بضع ثوان، قلتُ مرّةً أخرى: «يبدو غريبًا بعض الشيء، أليس كذلك؟»

قال توماس ببرود: «لا يا وادزورث، إرسال كِلية عبر البريد أمرٌ طبيعيّ. أنا شخصيًّا أفعلها ثلاث مرّات على الأقل في الأسبوع لأواكب الموضة. يجب عليك حقًّا تجربتها، ستُعجَب الفتيات بها في جلسة الشاي.»

عبستُ في وجهه. «ما أعنيه، على فرض إنهُ كان يقتل النساء ويحاول إجراء عمليّة زرع عضو، فلماذا يأكل كليتَها؟ ألن يكون هذا مضيعةً لعضو جديد؟»

اضمحلّ لون بلاكبيرن كما لو كان على وشك التقيّؤ. بدا ردّ فعله حقيقيًا بدرجةٍ كافية، لكنّه خدعَني من قبل. مرّر يده خلال شعره. «إنها بالكاد

الثانية ظهرًا وأقسم أنني أحتاج بالفعل إلى مشروب. هل هذا ما تعتقدهُ د. وادزورث؟ أنّ جاك يستخدم الأعضاء البشريّة لزرعها أو بيعها؟»

حدّق عمّي في الصندوق، وأومأ برأسه شارد الذهن. «لديّ شكٌّ قويّ.» نزعَ نظّارته، ومسحها على مقدّمة سترته قبل أن يُثبّتها من جديد على وجهه. «أخشى إنه ربما يكون قد أخذَ كليةً إضافية، لكنّه أدركَ عدم حاجته إليها، فَقرّر أن لا تذهب هدرًا.»

سرَت رجفةٌ عبر جسدي. إذا كان أبي جاك السفّاح، فأين احتفظَ بالأعضاء؟ لن يُمكنه تخزينها في جرار في صندوق الثلج الخاصّ بنا دون أن يلحظها الطهاة والخدم. هل هذا هو السبب الحقيقي لعدم طرد مارثا، طبّاختنا؟ هل كانت مُطّلعة على أسراره البشعة؟ فكرة النوم في المنزل الذي يُمكن أن يوجد فيه هذا النوع من الرّعب على بُعد عدّة غرف مني، فاقَت احتمالي بكثير.

مشى بلاكبيرن حول مكتبه، وجلس على الكرسي خلفه ليفرك عينيه. «ربما ليست إدارة أمن المدينة، كما أرادَ والدي، فكرةً سيّئة. يُمكنني تحمّل الكثير، لكنّ هذا أكثر من طاقتي. إلى أيّ مدى يُمكن أن تكون حياة السياسة والرفاهية فظيعة؟»

تجاهلَ توماس المُشرف وطلب رأي عمّي ثانيةً. ضيّقَ عينيه، وملامحه الحادّة تشحذ أفكاره. «هل تعني إنه انتهى من عمليّات القتل، إذن؟»

هزّ عمّي رأسه، وحاولَت أجزاء من جلدي الهرب من فوق جسدي. بانت تلك النظرة القاتمة في عينيه، التي تتحدّث عن أمورٍ أسوأ ستحصل. عندما

بدأ في لمس شاربه، لم أتفاجأ على الإطلاق بكلماته التالية: «أعتقد أن هناك شيئًا أخيرًا يحتاج إليه، وبعدهُ قد تتوقّف جرائم القتل.»

سارَ ضابط شرطة إلى بلاكبيرن وسلّمهُ ملفًا، هامسًا ببعض الكلمات في أذنه قبل أن يُغادر بسرعة مثلما أتى. لا يُمكن أن يكون ما قالهُ مهمًّا، لأنّ بلاكبيرن ألقى الورقة على مكتبه وعادَ ينظر إلى عمّي. «لستُ متأكّدًا من رغبتي في سماع المزيد، د. وادزورث، لكنني أخشى إنّني لا أملك رفاهية التجاهل. أنِرنا.»

لا أعرف كيف، لكنّني عرفتُ بالضبط، وبثقةٍ عجيبة، ما افتقدهُ جاك السفّاح. العضو الأكثر إثارةً في الزرع أو السرقة. كادَت الكلمات تعصرني في طريقها للخروج، لكنني قلتُها على أيّة حال. «قلب. سَيحتاج إلى قلب قبل أن يكفّ عن ذبح النساء.»

شعرتُ بتوماس يُحدّق في وجهي، ونظرته تحفُر في قناعاتي للبقاء صامتة، لكن لم أستطع النظر إليه، خوفًا من الاعتراف بكلّ شكوكي للشرطة في ذلك المكان واللحظة، واللّعنة على العواقب. خيط الأمل الوحيد الذي تمسّكتُ به أنّ العمّ لم يذكُر شيئًا عن أبي للشرطة أيضًا. لقد أخبرتُه بشكوكي الليلة الماضية في المختبر، وعلى الرغم من أنه لم يؤيّدني فيها، إلّا أن وجهه شحب. أخبرَني عمّي بألّا أقلق، لأننا سنكشف الحقيقة عمّا قريب، وإنّ أبي ببساطة مُتعَب وكل شيء تكاتفَ ضده بالصّدفة.

رؤية الحقيقة ليسَت سهلة أبدًا، خاصةً عندما نكتشف أنّ أقرب الأشخاص إلينا قد يكونون وحوشًا خفيّة على مرأى من الجميع. إذا تمكّنَ العم من التشبّث بخيطٍ واحد من الاعتقاد ببراءة أبي، مهما كان رفيعًا، فعندئذٍ يُمكنني ذلك أيضًا... حتّى الآن.

25

زهرة بنفسج من قبر أمّي

مسكن د. جوناثان وادزورث، هايغيت

8 نوفمبر 1888

سحبتُ الثوب الكُحليّ الرثّ من صندوقٍ في علّية العمّ. بدأت غرزهُ تنفصل عند اللحامات، وفاحَت منهُ رائحة العفن عندما هززتُه تحت ضوء القمر الباهت. لم يكن هناك أمل في جعله عصريًّا؛ لقد مرّ عليه الكثير من الوقت والاهمال منذ أن ارتدتهُ الآنسة إيمّا إليزابيث لأوّل مرّة.

لقد جمعَ عمّي كلّ متعلّقاتها تقريبًا من العائلة التي لم تعد ترغب في الارتباط بها، واعتنى بترك الأشياء كما كانت، متوقّفٌ عندها الزمن في اللحظة المناسبة، كما لو تمّ التقاط صورةٍ لها. باستثناء وجود غطاء كثيف من الغبار، وبعض مجاميع العثّ الجائع الذي حظيَ فيها بتغذيةٍ رائعة على مدار السنوات القليلة الماضية.

كان الثوب قديمًا بعض الشيء، خشنًا بعض الشيء وكبيرًا نوعًا ما. لو ارتديتُ هذا الفستان المروّع، فسوف أبدو كواحدة من سكّان إيست إيند، أتوسل للعمل لإشباع إدماني، ومن المؤكد أن العمّة أميليا ستموت على الفور. شككتُ حتى في قدرة ليزا على جعله جميلاً. كانَ مثاليًّا تمامًا.

انحنى توماس على إطار الباب، بذراعين متقاطعتين، وهو يراقبني بتلك الطريقة الصامتة والحسابيّة التي تدفعني إلى الجنون.

«لا أجد معنى فيما تفعلين، وادزورث. لماذا لا تواجهين والدكِ وتنتهين من الأمر؟ التسلّل بزيّ عاهرة هو أسوء فكرة توصّلتِ إليها على الإطلاق.» قال، وهو يرفع ذراعيه ليُصفّق ببطء. «لقد حقّقتِ شيئًا لا يُنسى، حتى لو كان سخيفًا.»

«لقد شطبتُكَ تقريبًا من قائمتي للمشبوهين.» هززتُ ثوبًا مُملاً آخر، ودغدغَ الغبار أنفي وأنا أعيده. لا بدّ أن الحرير الأخضر الغامق كان شيئًا رائعًا في يومه. «هذا إنجازٌ مهمّ.»

قال وهو يدوّر عينَيه: «آه، نعم. فكرةٌ أخرى من أفكارك الرائعة. كما لو إنني أخرق بما يكفي لأترك أدلّةً ورائي. أنا معكِ عمليًّا ليل نهار، ألا يُعفيني ذلك من كوني قاتلاً؟ أم يجب أن نتشارك السرير لإثبات براءتي؟ في الواقع... قد لا تكون هذه فكرة سيّئة.»

تجاهلتُه، وقمتُ بإخراج زوج من الأحذية ذات الدانتيل البنّي من نفس صندوق الجلد، وفحصتُه عن كثب. لقد بدا قريبًا من مقاسي، لذا أضفتُه إلى كومة تنكّري. بدأ توماس في ملاحقتي قبل حوالي ساعتين، يمشي ويُقدّم آراءه مثل تضحياتٍ لم أهتمّ بقبولها.

«لقد فعلنا الأشياء بطريقتكَ لثلاثة أسابيع كاملة،» ذكّرتُه. «لم نكسب سوى أكوامًا من الإحباط. هذا يكفي يا توماس.»

لقد جرّبنا الاختباء خارج منزلي في ساحة بلغريف، والتخييم في جميع

ساعات الليل، وجميع أوقات النهار، لكننا لم ننجح أبدًا في الإمساك بأبي قادمًا أو ذاهبًا. لقد وصلتُ إلى حدّ نقش عربته لتسهيل تحديد هويّتها، إذا رأيناها تتدحرج في الليل. بدا الأمر كما لو كان يعرف دائمًا إنه مُراقَب، يشعر به مثل ذئب يتمّ تعقّبهُ بواسطة شخصٍ مجنون بما يكفي لمُطاردته. الآن حان وقت اختبار نظريّتي أنا.

قلتُ مُمسكةً بالفستان الأخضر: «لمعلوماتكَ، لن أذهب كمومس. أنا أخفي نفسي ببساطة.»

لن يثنيني أيّ قدرٍ من النقاش عن المسار الذي اخترته. إذا لم أتمكّن من اللحاق بأبي متّجهًا إلى وايتشابل، فسوفَ أزرع نفسي هناك وأنتظر قدومه إليّ. الفكرة جيّدة. بطريقة أو بأخرى، صمّمتُ على معرفة ما إن كان أبي هو جاك السفّاح. تمتمَ توماس بشيء خافتٍ جدًا لدرجة أنني لم أسمعه، ثم سارَ إلى خزانة ملابس تقف بوقار في زاوية العلّية، ليفتح الأبواب ويفتّشها بعُنف.

«ماذا تفعل بحقّ الملكة؟» سألته، ولم يُكلّف نفسه عناء الإجابة. كانت الملابس تتطاير فوق كتفيه وهو يقذفها بعيدًا عن طريقه، باحثًا عن شيء يُناسب حاجته.

«إن لم تعدِلي عن قراركِ، فَيجب أن أتسلّل معك. من الواضح أنني أحتاج إلى معطف وبنطلون قديمَين.» قام بحركة مسح على ثيابه. «لن يعتقد أيّ شخص عاقل أنني مُقيم في إيست إيند في مظهري الرائع هذا. قد أرتدي حتّى باروكة شعر مُستعار.»

«لستُ بحاجة إلى مُرافقٍ مُتعجرف هذا المساء.» عبستُ على الرغم من أنه لم يراني. «أنا قادرة تمامًا على الاعتناء بنفسي.»

«نعم بالتأكيد. يا لسخافتي في تجاهل ذلك.» شخرَ توماس. «أتخيّل أنّ النساء اللائي فقدنَ أعضائهنّ اعتقدنَ أنفسهنّ أقوى من الذبح أيضًا. ربّما كُنّ يقُلنَ ‹إنه يوم الجمعة. سأذهب إلى الحانة، وأحصل على بعض الطعام، وأدفعُ ديوني، ثم أُقتَل على يد مجنون قبل حلول الليل. كم هذا لطيف.›»

«إنه أبي،» قلتُ من بين أسنان مُطبَقة. «هل تعتقد حقًّا إنه سيؤذيني؟ مهما كان، لا أظنّهُ يملك قلبًا بهذا الاسوداد والانحراف.»

توقّفَ توماس أخيرًا عن تقليب المعاطف التي أكلتها العثّة، ولفتَ انتباههُ إليّ، بتعبيرٍ مُتفكّر للحظة.

«هذا إذا كان جاك السفّاح هو والدُك. لم تجدي دليلاً قاطعًا بعد. أنتِ تبنين كلّ شجاعتكِ على افتراض إنّكِ، في الواقع، مُرتبطة بهذا الوحش. لا أعتقد إنّكِ ضعيفة، أودري روز، لكنّني أعلمُ أنّه قتلَ نساءً وحيدات. ماذا تعتقدين إنك ستفعلين بالضبط إذا اكتشفتِ أنّكِ مُخطئة وأنّ هناك سكّينًا يضغط على عنقكِ؟»

«سوف ـ »

تحرّكَ عبر الغرفة بسرعةٍ كبيرة، لدرجة أنني لم أجد الوقت الكافي لتمييز الشيء الذي لمسَ بشرة عنقي الحساسة. قبّلَ توماس خدّي، ثم تراجع ببطء، لتلتقي أعيننا. خفقَ قلبي بذعر عندما سقط انتباهه على شفتيّ ليبقى هناك. لم أستطع تحديد ما إن رغبتُ في تقبيله أو قتله. تراجعَ

أخيرًا، تاركًا الشمعة تتبعثر على الأرض، ثم التقط عصا مشي طبيعيّة وكأنّ شيئًا لم يحدُث.

«هذه مُثيرة للاهتمام،» تمتم مُعجبًا بالعصا.

قتلهُ، إذن. أنا بالتأكيد أردتُ قتله. أمسكتُ رقبتي بكلتا يديّ، وأنا أتنفّس بصعوبة. «هل فقدتَ عقلك؟ كان من الممكن أن تقتلني!»

«بواسطة شمعة؟» ارتفعَ حاجبه. «بصراحة، أشعر بالإطراء لإيمانكِ بقوّتي العظيمة. للأسف، أشكّ بشدّة في أنّ بإمكاني إلحاق ضرر كبير بمثل هذا السلاح.»

قلتُ: «أنتَ تعرف ما أعنيه. لو كانت سكّينًا لكنتُ ميّتة!»

«وهو بالضبط الهدف من تمريننا الصغير، وادزورث.»

لم تبدُ عليه أدنى علامة أسف لترويعي بشدّة. وضعَ ذراعيه فوق صدره، وهو يُحدّق بي، كبغلٍ عنيد.

قال: «تخيّلي نفسكِ وحيدةً في إيست إيند. التجمّد بهذا الشكل سيُكلّفك حياتك. يجب أن تكوني سريعةً في الفعل، وأن تفكّري دائمًا في سبيل الخروج من أيّ مأزق. كل هذا يعود إلى عواطفكِ اللعينة التي تُعيق تفكيرك. إذا فعلتُ ذلك مرّةً أخرى، فكيف يتغيّر ردّ فعلكِ؟»

«سأطعنُكَ بكعب جزمتي.»

استرخت أكتاف توماس. لم ألاحظ التوتّر فيهما حتى زال. «حسنًا. لقد استخدمتِ الآن دماغكِ الجذّاب يا وادزورث. اضربي قدم المُهاجم بكلّ

قوّتك. هناك الكثير من النهايات العصبيّة، وستكون وسيلة إلهاء جيّدة بما يكفي لكسب وقتٍ ثمين.»

سارَت نظراته عليّ بسرعة، في تقييم لملابسي أكثر من كونه مُغازلة، لكنّني شعرتُ بسخونة في وجنتيّ.

«الآن إذن، دعينا نُجهّزك لقضاء ليلةٍ اعتياديّة من الطواف في الشارع والضياع. آه، يُمكنكِ شكري على إعدادكِ في أيّ وقتٍ الآن.» قال وهو يكافح لإبعاد الابتسامة عن وجهه، «لن أمانع قُبلةً على الخدّ. كما تعلمين، كردٍّ للجميل وما إلى ذلك.»

حدّقتُ فيه بشدّة حتّى خشيتُ أن يعلق وجهي هكذا. «إذا حاولتَ شيئًا من هذا القبيل مرّةً ثانية، فسوفَ أطعنُكَ في قدمِك، توماس كريسويل.»

قال: «آه. هناك شيء ما عند قولكِ اسمي، يبدو كأنّه لعنةٌ مُباركة. إن كان بإمكانك اختراع إيماءة جيّدة باليدين لتتماشى معها، فسيكون ذلك أمرًا استثنائيًا.»

رميتُ الجزمة عبر الغرفة، لكنه تمكّنَ من الخروج وإغلاق الباب قبل أن تصله. قلّصتُ فكّي، وكرهتُه مع كلّ نبضةٍ في قلبي، رغم كونه مُحقًّا. لقد احتجتُ لاستعدادٍ عاطفي أفضل لموعدي مع جاك. مشيتُ إلى الباب، لألتقط الحذاء وأبدأ في ارتداء الملابس.

تدحرجَت الغيوم لتُغطّي آخر قطعة من القمر. كانت الليلة مثالية لاصطياد قاتل في شوارع وايتشابل. «لماذا بحقّ الله تمشي بِعَرج؟» همستُ بقسوة لرفيقي الأحمق، وألقيتُ نظرةً حذرة على الناس الذين حدّقوا عبر الشارع. «أنتَ تتسبّب بمشهدٍ مروّع ومن المفترض ألّا نجذب الأنظار.»

كان توماس قد تبنّى الساق العرجاء الغبيّة في نفس الوقت الذي وصلنا فيه إلى أطراف سبيتلفيلدز. كنّا نتجادل حول تمثيله في الشوارع القليلة الماضية، وحظينا باهتمام أكبر مما تحظى به الملكة وهي تستعرض أغلى أزيائها بين جمهور من المُعدَمين. لم يردع توماس النظرات والسخرية التي تلقيناها، بل بدا أنه مُستمتع بنفسه.

«أنتِ مستاءة لأنّكِ لم تفكّري في القيام بذلك أوّلاً. اذهبي الآن وتعثّري قليلاً. إن لم تتصرّفي كالسكارى فلن نجذب السفّاح أبدًا.» نظر إليّ من أسفل أنفه، وظهرَت ابتسامة عليه. «لا تتردّدي في التمسّك بي. ذراعيّ كلّها لك.»

التقطتُ حفنةً من تنورتي، وتجنّبتُ قمامةً ألقِيَت في المزاريب، شاكرةً السماوات لأنّ توماس لم يستطع رؤية احمرار وجنتيّ.

«لقد أضعتَ الهدف الرئيسي لهذا المساء. أنا لا أحاول جذب السفّاح، توماس، بل الاندماج ومُطاردته. أنظر إلى أين يذهب وأوقفه من ارتكاب جريمة قتل أخرى. سوف يُلقي نظرةً واحدة علينا ويركض في الاتجاه الآخر، لئلّا يلاحقه الصبي الأعرج بعصاه.»

«إنها عكّازة، وهي جميلةٌ للغاية. يجب أن يسعد السفّاح للاعتداء عليه بواسطة مثل هذا العمل الفنيّ التراثيّ.»

نظرتُ إلى عصا المشي. لم تكن مصقولة، وبعض خيوط العنكبوت عالقة في أخاديدها. تراثيّةٌ بالفعل.

في صمت، تسلّلنا عبر الأزقّة الخلفية والساحات المربّعة، بحثًا عن أيّة

ظلالٍ ضخمة، واستمعنا إلى أيّ صراخ مُريع. كان من الصعب رؤية شيء؛ سماء الليل سوداء تقريبًا كالحبر، والضوء الباهت من أعمدة الإنارة الغازية ابتلعته سحب الضباب الكثيف بسرعة. مررنا عبر أحد الأزقّة المُظلمة، وعبرنا شارعًا آخر، لنتوقّف أمام حانة مُتداعية مليئة بالموسيقى الصاخبة والضحك.

رمت النساء السكارى أنفسهنّ على الرجال الواقفين في الخارج، وأصواتهنّ أعلى وأشدّ خشونة من أصوات الجزّارين والبحارة وعمّال الحديد الذين حاولنَ إغراءهم. تساءلتُ بإيجاز عن حياتهنّ قبل الدعارة. عالمنا ظالمٌ وقاسٍ على النساء. إذا كنتِ أرملةً أو تبرّأ منكِ زوجكِ أو عائلتك، فهناك القليل من السُبل المتاحة لإطعام نفسكِ. يكاد لا يهمّ إن كنتِ من عائلة نبيلة أم لا. إن لم تستطيعي الاعتماد على أموال ومأوى شخص آخر، فسوف تعيشين بالطريقة الوحيدة المُمكنة.

قلتُ: «لنذهب.» استدرتُ بأسرع ما سمحَت لي جرأتي. كنتُ بحاجة إلى الابتعاد عن هؤلاء النسوة وحياتهنّ المأساوية قبل أن تُسيطر عليّ مشاعري. نظرَ توماس إلى النساء ثم إليّ. عرفتُ جيدًا إنه رأى عليّ أكثر مما وددت ولم أرغب في أن يظنّني هشّة. لدهشتي، قام ببساطة بتمرير ذراعي خلال طيّة ذراعه، بحركةِ تفهُّم صامتة. استقرّ قلبي. كان هذا فعلاً صغيرًا، لكنه ملأني بالثقة في توماس. لن يُظهر جاك السفّاح مثل هذا التعاطف.

قطَعنا عدّة شوارع أخرى، وخرجنا من الضباب قبل أن نختبئ في حُرمتِه من جديد. انتقلَت الأصوات إلينا، لكن لا شيء خارج عن المألوف. تحدّث الرجال والنساء عن عملهم اليوميّ. تخلّى توماس عن عرجه كلما واصلنا المسير، إذ لم يعُد لديه سبب للتظاهر مع عدم قدرة الناس على رؤيتنا.

كانت مصابيح الغاز تضيء، كأنّها من عالم آخر، كلّ بضع أقدام، ورفع صوتها حسيسها الشعر على طول رقبتي. مزاج الليل مشؤوم. لقد طاردَ الموت هذه الشوارع، وبقي بعيدًا عن الأنظار. لم أستطع التخلّص من شعور أنّني مُراقَبة، لكنني لم أسمع صوت مُطاردة وقبلتُ كوني ببساطة خائفة.

«كفى،» قلتُ مهزومةً. «لنذهب إلى المنزل.»

لقد تجاوزَ الوقت مُنتصف الليل وكنتُ مُنهَكة. آلمَتني أقدامي، وتسبّبَت خامة ثوبي الخشنة بحكّة في بشرتي، وسئمتُ تمامًا من المشي عبر القاذورات. كنتُ قد دستُ على شيءٍ طريّ نوعًا ما قبل بضعة شوارع، وصرتُ أفكّر في بتر قدمي. لحسن حظّي، لم يقُل توماس كلمةً واحدة بينما استدرنا واتجهنا نحو منزل العمّ. لم أكن لأقبل انتقاداته جيّدًا في الحالة البائسة التي كنتُ فيها.

غمرتني أفكار الفشل، ولم أسمع صوتًا حتى باغتَنا الهجوم. وقعُ الأحذية على الحصى، ثم صوت لكمة تُصيب هدفها، قبل أن أرى توماس على الأرض، وجهه للأسفل ويجثم على ظهره رجلٌ ضخم، وهو يلوي ذراعه للخلف.

«توماس!» ظهرَ شخصٌ آخر مُمسكًا بنصله على حنجرتي، ودفعَني إلى عُمق الزقاق. تعثّرتُ بتنّورتي، لكن الرجل سحبَني إلى الأمام، وأصابعه تحفر بألم في جلدي. رهنَ الخوف حواسّي، وأغلق عقلي، فعجزَ عن معالجة ما يجري. هل كان هذا جاك؟

«ماذا لديكَ هنا يا صبي؟ كنتُ أتابعكَ، حقًّا. هل تعتقد أنكَ ذكيّ، ترتدي ملابس القذارة؟» فاحت رائحة أسنان مُتعفّنة والكثير من الكحول

من فم الرجل الذي تحدّثَ إلى توماس. «يا للعار. يجب أن آخذ منك نفسَ ما أخذتَهُ منّي.»

قاومَ توماس من الأرض، وعيناه محمومتان وهما تلتقيان بعينيّ. دفع مهاجمه وجهه نحو الحجر، بينما كانت أطرافي مُتصلّبة وغير نافعة.

«أؤكّد لك أنّني لم آخذ منكَ يا سيّدي.» جفل توماس عندما دفع الرجل رأسه إلى أسفل. «مهما كانت مشكلتك معي، دع الفتاة تذهب. لم تفعل شيئًا.»

«ليس كما أرى.» بصقَ الرجل بجانب توماس. «هل تظنّ أن أخذهم من المقبرة أمرٌ لائق؟ الفقراء يستحقّون الاحترام أيضًا. ليبي» ـ اهتزّت يده، واخترقَ النصل بشرتي أكثر ـ «لم تستحقّ أن تُقطَع هكذا. لا حقّ لديك. أنا أعرف ماذا فعلت، أخبرَني أوليفر بنفسه.»

انبثق نحيبٌ من صدر الرجل، ونزلَ خيطٌ رفيع من الدم على رقبتي، ليدفّئ أفكاري المتجمّدة. إن لم أتصرّف الآن، فسنموت، أو نتشوه، ولم يكن ذلك على قائمتي هذا المساء. تذكّرتُ درس توماس في التعامل مع هجوم، فرفعتُ قدمي ودستُ بكلّ قوتي. سحق كعبي أحد عظام الخاطف، وكان كافياً لتشتيت الانتباه، تمامًا كما قال توماس.

«يا للجحيم!» ابتعدَ الرجل قافزًا على قدمه السليمة. هدأ مُهاجم توماس لفترة وجيزة لمُشاهدة صديقه، مما أتاح لتوماس الفرصة للانقلاب وتسديد ضربة سريعة إلى أحشائه. انطوى الرجل على نفسه، وشتمَ بشكل مؤثّر.

قفز توماس واقفًا على قدميه، وأمسك بيدي، ليهرع بنا في الشوارع

الملتوية كأنّ الشيطان نفسه يُطاردنا. دخلنا وخرجنا من الممرّات والأزقة، ركضنا بسرعة كبيرة حتّى اضطررتُ في النهاية إلى سحب توماس للتوقف. «عن... ماذا... كان... يتحدّث؟»

تمسّكَ توماس بي كما لو أنّني سأتحوّل إلى رماد لأتناثر على يديه إذا تركَني. نظرَ إلى رأس وأسفل الزقاق الذي اختبأنا فيه، وصدره يرتفع وينخفض بسرعة. كانت هناك نظرةٌ جامحة عنيفة في عينيه. لم أرهُ من قبل بهذا الاضطراب. لقد شعرتُ بالشيء نفسه في داخلي، لكنني أملتُ أنني أخفيتهُ بشكلٍ أفضل. أخذتُ نفسًا ثابتًا. كان توماس مُحطّمًا بالكامل. قمتُ بلمس وجهه بلطف، لألفت انتباهه إليّ. «توماس. ماذا ـ »

«اعتقدتُ أنني سأفقدُك.» مرّر يديه خلال شعره، وهو يخطو مبتعدًا قبل أن يعود. «رأيتُ دمًا ـ اعتقدتُ إنه قطعَ عنقَك. اعتقدتُ ـ »

غطّى وجهه بيديه، وجمع نفسه للحظات، ثم ركّز انتباهه عليّ، وهو يبلع ريقه بصعوبة. «لا بدّ أنّكِ تعلمين ماذا تعنينَ لي؟ بالتأكيد يجب أن تعرفي شعوري تجاهك، أودري روز. فكرة خسارتك...»

لستُ متأكّدة أيُّنا تحرّكَ أوّلاً، لكنّني فجأةً وجدتُ يديّ تحتضنان وجهه وشفاهنا تلتحم ببعض، واللعنة على اللياقة والمجتمع المهذّب معًا. لم يكن هناك جاك السفّاح أو هجوم منتصف الليل. لا أحد سوانا أنا وتوماس، مُرتعبينَ من فُقدان بعضنا البعض.

شبكتُ ذراعيّ حول عنقه، لأسحبهُ إليّ. قبل أن أرغب في إنهائها، تراجعَ توماس، بعد أن قبّلَني بلطف مرّةً أخيرة. أرجعَ خُصلة شعر طائشة خلف أذني، وضغط بجبهته على جبهتي. «أعتذر يا آنسة وادزورث.»

لمستُ شفتيّ. لقد قرأتُ عن المواقف الخطيرة التي تؤدّي إلى أعمال عفويّة رومانسية وظننتُها حماقة. الآن فهمتُ. إدراكُك أنّ أكثر شيء تُحبّه يُمكن أن يؤخذ منك دون سابق إنذار سيَجعلك تتمسّك به. «أعتقد إنني تصرّفتُ أوّلاً، توماس.»

تراجع إلى الوراء، مُجعّدًا جبينه، ثمّ ضحك. «آه، كلا. لستُ آسفًا على الإطلاق بشأن تقبيلك. أنا أتحدّث عن المُختلّ المريض الذي أمسكَ بسكّين على حلقك.»

«آه، ذلك.» لوّحتُ بيدي، مُتظاهرةً باللامبالاة. «إنه محظوظ لأنّكَ حظيتَ ببصيرة إعدادي هذا المساء.»

تلألأت عينا توماس بمزيج من المتعة والشك. «أنتِ رائعةٌ حقًا. تُحطّمين العظام وتصدّين المهاجمين في الأزقة المهجورة.»

قلتُ: «الأمر سيّءٌ للغاية. سُمعتكَ ستتدمّر تمامًا بمجرد أن يكتشف الناس أنني أنقذتُك.»

«دمّري كل ما يهمّني.» ضحك توماس على الفور. «يُمكنكِ إنقاذي من جديد إذا انتهى ذلك بقُبلة.»

«هل كنتَ تعلم؟» سألتُ بجدّية. «عن الجثث؟»

تقلّص فكّه، قبل أن يُمسك بيدي بحذر، مُشيرًا بمُتابعة التحرّك. «لم أعلم، لسوء الحظ. من الواضح أن الجثث ليست بلا مُطالِبين كما قال أوليفر. لا أقبل بالكذب أو إجراء بحث على فرد من أسرة شخص ما دون إذن. لا يوجد تقدّم في العلم يستحقّ التسبّب في الألم.»

أطلقتُ تنهيدة كنتُ أحبسها. كان ذلك كل ما احتجتُ لسماعه. لم يكن توماس بالتأكيد متورّطًا في جرائم السفّاح. كان مُهتمًّا بإنقاذ الأرواح لا بإنهائها.

«ماذا ستفعل بشأن أوليفر؟» سألتُه. «لا يمكنه الاستمرار في الكذب بشأن الجثث. أشكّ في أنّك الشخص الوحيد الذي فعلَ هذا معه.»

«آه، سأتحدّث إليه، صدّقيني.» سحبني توماس بقربه. «أكرهُ أن أعرّضكِ لخطرٍ لا داعي له.»

«نحن نُطارد جاك السفّاح. لقد قمتُ بوضعنا في الخطر بالفعل.»

هزّ توماس رأسه، لتحل المتعة محلّ التوتّر، لكنه لم يقُل المزيد. عزمنا على مُغادرة إيست إيند، فَمشينا بخطى مُتعَبة عبر شارع دورسيت، بانتباهٍ مُشتّت بعد الهجوم، حين كدتُ أن أصطدم بعربةٍ سريعةٍ واقفة. جمدتُ وحدّقتُ فيها بذهول. لقد أخذَ الليل منعطفًا كبيرًا نحو الأسوأ بشكلٍ غير معقول. شعرتُ كأنّ ثعبانًا التفّ حول جذعي، وراح يضغط على أحشائي.

بانَ خدشٌ على جانب العربة على شكل حرف M واضح، وهي صفةٌ كنتُ على درايةٍ جيّدة بها، لأنّني قد صنعتُها بنفسي الأسبوع الماضي، كعلامةٍ للقاتل.

هذه كانت عربة والدي.

26

ماري السوداء

ساحة ميلر، وايتشابل

9 نوفمبر 1888

أمسكتُ بمعطف توماس، وأومأت نحو العربة. أين السائق؟ سيكون من الغريب لو أخذَها أبي بنفسه، مما دفع عقلي إلى الضياع في آلاف الاتجاهات. هل من الممكن أن تكون كلّ اعتقاداتنا خاطئة؟ هل إنّ جون السائق مسؤول عن عمليات القتل؟ أو ربما اصطحبَ أبي بلاكبيرن إلى هنا. هززتُ رأسي. لا شيء من هذا معقول.

تساءلتُ بصوتٍ عال: «إن كنتُ سأرتكب جريمة قتل، فلماذا أوقف عربتي قرب مسرح الجريمة؟ هذا غير منطقيّ.»

«جاك السفّاح، أيًّا كان، لا يبدو أنه يُفكّر بشكلٍ منطقيّ، وادزورث. لقد ابتلع الرجل للتوّ عضوًا بشريًّا. ربما يشعر بأنهُ لا يُقهَر، ولهُ حقٌّ في ذلك؛ لنجاته بجرائمه حتى الآن.»

ألقيتُ نظرة خاطفة على الشارع: لم ينضمّ إلينا شيء عدا منازل السكن

والقمامة في مخبئنا المُظلم. لحسن الحظ، لم يعاود مهاجمونا الظهور وشككتُ في إنهم سيفعلون ذلك. كنتُ على يقين من إنني قد كسرتُ قدمه، وكنتُ لأشعر بالسوء لولا هجومهم الخبيث علينا.

تمّ إطفاء معظم الأضواء مع حلول الساعة المتأخّرة، باستثناء منزل السكن الواقع أمام عربة أبي مُباشرةً. تدفّقَت أصوات غمغمة وضوءٌ ساطع من نافذتين أمامنا. إحداهما كانت مكسورة، مما سمح للصوت بالانتقال إلى الليل. أشرتُ إلى شخصين، يمشيان ذهابًا وإيابًا. كان تمييز الملامح مستحيلًا، لكن عُرض بدَن أحدهما بدا لي بالتأكيد مماثلاً لأبي.

«تعال،» قلتُ وأنا أجرّ توماس إلى الزقاق المقابل للشارع. «هل يجب علينا إحضار الشرطة؟ أم منح الأمر مزيدًا من الوقت؟»

تمعّنَ توماس في تخطيط الزقاق والعربة، والبناء حيث كان الشخصان يتحدثان فقط، على ما يبدو. قامَ بمسح المنطقة من حولنا بطريقةٍ منهجيّة ودقيقة، قبل أن يهزّ رأسه. «كائنًا مَن كانا فهُما لا يتجادلان. أرى أن ننتظر ما سيحدث.»

شيءٌ ما بداخلي رغب في الاندفاع عبر الشارع، لطرق الباب والصراخ على أبي بسبب كلّ الأخطاء التي ارتكبها، وكلّ الأمور السيّئة التي ما زال يسعى لفعلها، والبكاء على الذنب الذي ألقى به الآن على عاتقي.

«ممتاز. سننتظر.» استندتُ على حجارة المبنى الباردة، أنتظر وأراقب. بدا أن الوقت يمشي ساعةً لكلّ ثانيةٍ تمرّ. كنتُ مُتجمّدةً ومُرهَقة من الهجوم الذي مررنا به بالفعل، وخائفةً من اللقاء المُحتمل مع أبي. لم أعرف

ما الذي جعلَني أرتجف أكثر. لقد أردتُ عُذرًا واضحًا لوجود أبي هنا، أردتُ بشدّة أن أكون مُخطئةً بشأنه.

بعد ما يقرب من خمس وأربعين دقيقة، فُتحَ الباب الأمامي، وكشف عن شخصين من المسكن ـ رجلٌ وامرأة. أرهقتُ عينيّ في التركيز، بحثًا عن دليلٍ قاطع على أنّ والدي يقف أمامنا بالفعل. بقي الثنائيّ على مسافةٍ مُحترمة، قبل أن يُصبح الرجل تحت نور المصباح.

نظرَ اللورد إدموند وادزورث إلى طرفي الشارع، وتوقّفَ انتباهه مؤقّتًا على الزقاق الذي كنّا فيه أنا وتوماس، ممّا جعلَ قلبي يُطلق نفيرًا. تحسّس توماس في الظلام، ليُمسك بيدي بإحكام بين يديه، ويُثبّت دفئها أعصابي. كنتُ أعلم أن أبي لا يستطيع رؤيتنا، لكنّني تراجعت. لم أكن ممتنّةً سابقًا بهذا المقدار لغطاء الضباب وهو يلفّنا في أحضانه الغائمة. تفحّصَ أبي المنطقة ثانيةً، ثمّ صعدَ إلى مقعد السائق في الكابينة، ضاربًا اللّجام ليسير بتثاقل باتجاه منزلنا.

«انتبه إلى العربة،» وجّهتُ توماس، وتركيزي يعود إلى المرأة التي تحدّثَ أبي إليها. وقفَت حينها في الضوء وهي تتحدّث إلى امرأةٍ أخرى، جاءت من المبنى المجاور. ذُهِلتُ عندما لاحظتُ صُغر سنّها. رغمَ أنني لم أتمكن من رؤيتها بوضوح، إلا أن عمرها لم يبدُ أكثر من منتصف العشرينيّات. تدلّى شعرها في خُصلٍ مُجعّدة طويلة بلون الزنجبيل، وكانت أطول من أغلب الرجال.

كرهتُ زيارة أبي لها. لا شيء جيّد يُمكن أن يأتي من علاقتهما، حتى لو لم يُخطّط لقتلها. كيف يمكن أن يملك والدي هذا الكمّ من الأسرار؟ بعد

أن أنهت حديثها مع المرأة الأخرى، مدّت يدها داخل نافذتها المكسورة، ثمّ فحصَت مقبض الباب. عقدتُ حاجبيّ. لم تكن فكرةً جيّدة إغلاق الباب بلا مفتاح في هذا الحيّ. تعثّرَت في حصى الشارع المرصوف، وربطَت وشاحًا أحمر حول نفسها، وأخذَت تُغنّي أغنيةً مألوفة، غمرَتني كلماتُها بينما كانت تتقاطر بصوتها المعسول.

لكن بينما الحياة تُسعِدني، سأحافظ علىهذه البنفسجة الصغيرة التي التقطتُها من قبر أمّي.

كانت الأغنية «زهرة بنفسج من قبر أمّي»، وتسبّبَت عذوبة صوتها الواضحة، وهي تسرد مثل ذلك الحدث المُريع، في قشعريرة زحفت تحت جلدي. شدّ توماس كمّي. «والدُكِ يدور حول تلك الزاوية. هل نتبعه؟»

ألقيتُ نظرةً خاطفة على الشابة، ثمّ نحو الاتجاه المعاكس، لأشاهد أبي وهو ينعطف إلى الشارع التالي. نفس الشعور بالموت الكامن في الجوار داعبَ إحساسي. لم أستطع التخلّص من الشعور بأنّ شيئًا فظيعًا سيحدُث. هززتُ نفسي من دهشتي، ثم أومأتُ برأسي. كنتُ فقط تحت تأثير الخوف من هجومنا السابق، لا أكثر. الشابّة التي تُغنّي أغنيتها الحزينة في أمان هذه الليلة، والوحش في طريقه إلى المنزل.

«نعم.» رفعتُ بصري. «التزم بالظلال وكُن سريعًا.»

«أصدرَت شرطة المدينة تقريرًا رسميًّا بالعثور على امرأةٍ مُقطَّعة إلى أشلاء في منزل بساحة ميلر، في الساعة العاشرة وأربعين دقيقة من صباح هذا اليوم،» قلتُ مُنهارةً على مقعدٍ في مُختبر العمّ، وأنا أطالع صحيفة أخبار المساء بإنكارٍ مُطلق.

راقبني توماس خلال البخار المتصاعد من كوب شايه، وقد جلست صحيفةٌ مطوية على حجره. لقد حاول تهدئتي سابقًا عبر إلقاء بعض الهراء حول كيفيّة فعلنا كلّ ما في وسعنا، لكنّني عارضتُه. الآن لم يقُل شيئًا، وقادني ذلك إلى الجنون.

«لا أفهم،» قلتُ للمرة الرابعة، بينما استمرّت نفس الصدمة في العودة، لتصفعني في أضلاعي. «لقد شاهدنا أبي يذهب مُباشرةً إلى المنزل. هل رآنا، ثم انتظر حتى نذهب قبل أن يقترف هذا الفعل الشنيع؟ كنّا حذرين للغاية. لا أستطيع فهم كيف تمكّن منّا.» مع ذلك، لا ردّ من رفيقي. صرختُ: «يا لَنفعكَ الكبير. أنتَ حقًّا خبيرٌ في حلّ الألغاز.»

لقد تحقّقتُ من الساعة ذات شكل القلب، وزادَ قلقي مع كلّ ثانية. تمّ استدعاء العمّ إلى مكان الحادث منذ حوالي أربع ساعات. لم يكن الوقت الطويل في فحص الجثّة علامةً جيّدة على الإطلاق. من خلال ما طبعَتهُ الصحيفة، كان بإمكاني تخيُّل الرعب الذي واجههُ عمّي. لقد وصلَتهُ تعليمات بالذهاب بمُفرده، وكنتُ على استعداد لاقتلاع شعري من فروة رأسي، شعرةً بعد شعرة.

عندما ذاع خبر الجريمة، صارَحنا أنا وتوماس عمّي بما رأيناه. لقد استبعدَ تورّط أبي بدفعةٍ من معصمه، طالبًا بمواصلة البحث عن أدلّة. لا يُمكن أن يكون اللورد إدموند وادزورث مُذنبًا. لم أقتنع ببراءته مثله، لكنّني فعلتُ ما قيلَ لي.

تمّ العثور على امرأة مُقطّعة إلى أشلاء. قرأتُ نفس السطر مرارًا وتكرارًا. ربّما أملتُ أن يكون ذلك خطئًا وفي المرّة الألف لقراءتي له قد يختفي

ببساطة مثل السحر. فقط لو سارَت الحياة بهذه الطريقة. «هذا مستحيل.» رميتُ الصحيفة جانبًا وشاهدتُ الساعة من جديد، وأنا على استعداد لتسريعها وإعادة عمّي إلى المنزل.

تملّكَني القلق بشأن مَن قُتل، مع مُحاربة الفضول في معرفة ما تبقى من المرأة. كيف تمّ تقطيعها؟ هل قصد الصحفيّ أنّ عنقها قد قُطِع، أم أنّ هناك قطعًا حقيقية من لحمها مفقودة؟ لا يجب أن أعرف تلك التفاصيل الرهيبة. لكنّني عجزتُ عن كبت تلك الأسئلة غير الملائمة، وهي تظهر كشتلات العُشب الجديدة في ذهني. بالنظر إلى العنوان الوارد في الصحيفة، كنتُ متأكّدة تمامًا من أنّنا أنا وتوماس قد تجسّسنا على الضحيّة المسكينة التي تحدّثت مع أبي قبل ساعاتٍ فقط من الجريمة. تزوّجَت الأسئلة بعضها البعض في رأسي وأنجبَت نظريّات.

«كلّ هذا الجهل يقودُني إلى الجنون.» الآن فهمتُ كيف شعرَ عمّي أثناء انتظار عودة توماس بأخبار، قبل عدّة أسابيع. إذا ابتُليَ بهذا الفضول نفسه فقد كانَ في محنةٍ مؤسفة. نزلتُ من المقعد ورحتُ أخطو حول المختبر. لقد قامَت الخادمات بعملٍ ممتاز في ترتيبه. لن يعرف المرء أبدًا أن سكوتلانديارد قد حطّموه خلال بحثهم المجنون في مُمتلكات العمّ. مشيتُ إلى جرار العيّنات، ناظرةً دون أن أرى حقًّا الأشياء التي احتوى عليها السائل السميك. لم أجد شيئًا يهدّئ ذهني.

«كيف تمكّن أبي من التخلّص منّا بهذه السهولة؟» سألتُ. «كنّا في غاية الحذر، ومشينا على مسافةٍ آمنة خلف عربته، مُنتقلينَ من زقاقٍ مُظلم إلى آخر حتى وصلَ إلى المنزل.»

بمجرد أن وصلنا إلى شارعنا، انتظرنا لحظاتٍ قليلة قبل أن نتبعه، ثمّ تمكنّا من رؤية أبي يتسلّل إلى المنزل قبل أن تخفت الأضواء. وللتأكّد من أنه بقي هناك فعلاً، وقفنا في حراسة حتى الساعة الثالثة صباحًا. لم تقع أيّة جريمة قتل أخرى في ذلك الوقت المتأخّر، لذا افترضنا بحماقة أنه من الآمن المغادرة. كم كنّا مُخطئين. القاعدة الأولى في تعقّب المجنون هي ألّا تعتقد أبدًا أنّ تحرّكاته مُتوَقّعة. لقد كان درسًا صعب التعلّم، وله عواقب وخيمة إلى درجة عظيمة. لم أشعر قطّ بفشلٍ كهذا في حياتي.

«هل تعتقد أن كلّ هذه الخطى ستُساعد في حلّ الوضع؟ أنت تُلهيني عن عملي يا وادزورث.»

رميتُ يديّ في الهواء، وأنا أعمل صوتًا مُقرفًا في مؤخرة حلقي قبل أن أعبر إلى الجانب الآخر من الغرفة. «هل يجب أن تكون مُزعجًا للغاية في جميع الأوقات؟ أنا لا أنتقدكَ عندما تسير في دوائر، لتستنتج أشياء غير منطقيّة.»

«عندما أخطو، يُثمر ذلك في الواقع عن شيءٍ ذكيّ. أنتِ فقط ترفسين الغبار ورائحة الفورمالين، وهذا يُفسد شايي.» لاحظَ تعبيري المُمتعض، فَخفّفَ نبرته. «لا يوجد شيء للقيام به حتى وصول د. وادزورث. يُمكنك أيضًا أكل شيء.»

رمقتهُ بنظرة اشمئزاز وواصلتُ الخطى. قام بقطع كعكة بالمربّى ورفعها إلى فمه. «لديّ شعور بأنّكِ لن تجوعي لاحقًا. خاصّةً إذا أحضروا أشلاءها إلى هنا لمزيدٍ من التحليل.»

استدرتُ ببطء، ولاحظتُ وقوفه المفاجئ قريبًا جدًا مني. لم يُكلّف

خطواتي. تبادلتُ أنا وتوماس نظرات قلقة لكننا لم نجرؤ على الكلام، بينما كان العمّ يُغمغم لنفسه.

«لا يُمكن أن يكون قد فعلها. هذا كثيرٌ جدًّا بالنسبة له. لم يتم سلخ جلد أيٍّ من الجثث الأخرى. والفخذان... لماذا يقطع اللحم من الفُخذين هكذا؟ بالتأكيد لا توجد حاجة لعمليّة زرع فخذ.»

كنتُ أحارب الغثيان المتنامي في داخلي. قلّبَ العمّ عبر صفحات دفتره، وتوقّف عند الصور التي رسمها لمسرح الجريمة. بعد دقيقة نزل فريق من أربعة رجال على الدرج، حاملين جثّةً في كفن. وضعوا الجثّة على الطاولة، ثمّ خرجوا بسرعة من نفس الطريق. بدوا جميعهم كأنّهم قد عادوا لتوّهم من عُطلةٍ في الجحيم. لم أرَ مثل هذا الخوف الخالص على وجه شخصٍ من قبل.

رفع العمّ، وهو لا يزال يُتمتم في نفسه، القماش بسرعة، كاشفًا عمّا تبقّى من الضحيّة دون تحذير. كان الأمر كما لو أن الوقت قد كفّ عن سعيه للسباق على مدار الساعة. لم أرغب في النظر، لكنّني لم أستطع منع نفسي من التحديق ببطء من فوق كتفه. لم أَلُم شخصًا سوى نفسي، وأنا أهرب من الغرفة باحثةً عن مغسلةٍ لأتقيّأ فيها.

عدتُ ببطء إلى المختبر، وركبتاي ترتعشان من المذبحة المُتوقَّعة التي سأواجهها. لم أشهد قطّ مثل هذه الهمجيّة المريضة على بدن بشر من قبل. بالكاد يُمكن تمييز الجسد كإنسان. لو مزّقها حيوانٌ ما، لكان التحديق فيها أسهل، وأقلّ قسوة عليها. لم أستطع استيعاب الأهوال التي تعرّضَت لها قبل وفاتها. باتَ الموت بلا شكّ صديقها المُنتظر.

كنتُ سعيدةً لأنني لم أرافق عمّي إلى مكان الحادث؛ فهذا كافٍ للتعامل معه. عند الوصول إلى نهاية الدرج الضيّق، ثبّتُّ نفسي قبل أن أدير المقبض وأدخل الكابوس الملتوي من جديد. لقد فعلتُ هذا من أجل جميع النساء اللواتي تعرّضنَ للمعاملة الوحشيّة، ذكّرتُ نفسي.

مرّرتُ انتباهي على الجثّة بسرعة قبل أن أوجّههُ نحو توماس، الذي بدا متأثّرًا أكثر من المعتاد، وهو يُخربش الملاحظات، غارقًا حتى أنفه في التجويف المكشوف، كما لو كان يتذوّق وليمة رأس السنة. لقد جفلَ من حينٍ لآخر، لكنّه يُجبر تعابيره على الحياد. عندما شعر بقدومي نظر إلى أعلى. «هل أنتِ بخير؟»

رفع العمّ بصرهُ عن الجسد، ولوّح بيده بنفاد صبر لأساعدهم. «بالطبع هي بخير. أسرعي، أودري روز. ليس لدينا فرصة للتأمّل في الحياة طوال اليوم. لسبب لعين، يُريد المُشرف بلاكبيرن استعادة الجثّة في غضون ساعتين. هناك الكثير لنفعله. الآن، ناوليني الملقط المُسنّن.»

لماذا كان المشرف في مثل هذه العجلة؟ ربطتُ مئزرًا حول خصري، وسرعان ما نثرتُ نشارة الخشب على الأرض، تحضيرًا للتشريح. شككتُ في أننا بحاجة إلى النشارة، حيث بدت الجثة جافّةً من الدم تمامًا، لكن تنفيذ العمل كالمُعتاد ساعدَ على تصفية حالتي العقليّة. أمسكتُ بصينيّة أدوات التشريح وسلّمتُ الملقط إلى عمّي. قمتُ بلفّ مشاعري معًا، ولم أسمح لخيط واحد منها بالاسترخاء. لقد حان الوقت للتصرّف كعالِمة.

شاهدتُ العمّ وهو يرفع طيّة الجلد من فوق فخذها، ولم أرَ سوى مخطّطًا تشريحيًّا يحتاج إلى دراسة. لقد فعلنا نفس الشيء لعيّنات الضفادع خلال الصيف، وهذا ليس مُختلفًا.

صرّحَ العم سريريًّا: «لقد تمّت إزالة الطبقات السطحيّة من الجلد واللِّفافة[1].» كتبَ توماس بسرعة كلّ كلمةٍ من كلماته على ورقة طبيّة، وقلمه يسكب الحبر بنهم ويعود طالبًا للمزيد. «تمّ استئصال الثديَّين وعُثِرَ عليهما في أوضاعٍ مختلفة، أحدهما تحت رأسها، والآخر تحت قدمها اليمنى.»

سلّمتُ لعمّي سكّين تشريح وطبق بتري، ثمّ أعدتُه وأغلقتُه بمجرّد وضع عيّنة بداخله. دفعَ نظّارته إلى أعلى أنفه، تاركًا مسحةً من الدم المُسودّ على طول النحاس. يتعيّن عليه مُعالجة ذلك لاحقًا. سيبدأ الناس في الخوف منه ثانيةً إذا تجوّلَ مُلطّخًا بالدماء.

«تمّت إزالة الأحشاء بالكامل، وتناثرَت أيضًا حول مسرح الجريمة. تمّ العثور على كليتَيها ورحمها تحت رأسها، بينما كان الكبد بالقرب من قدمَيها،» قال العمّ. «تم وضع جميع الأمعاء على الجانب الأيسر من الجسم. كانت قطع الجلد المفقودة ـ من فخذيها وبطنها ـ تجلس على طاولة صغيرة، ووُضعَت الآن في حقيبتين لمزيد من الفحص.»

توقّفَ العمّ مؤقتًا، مما أتاح لتوماس وقتًا كافيًا لتدوين كلّ شيء على الورق. عندما أشارَ له بالاستمرار، فعلَ العمّ ذلك، حيث تكلّمَ من الذاكرة، كما لو كان يقرأ من كتاب.

«أصيبَ وجهُها بقدر كبير من الجروح، وقد لوحظَت عدّة تمزّقات ـ في

(1) اللفافة: النسيج الضامّ الذي يقع أسفل الجلد وحول العضلات والأوعية الدموية. (المُترجِم)

مكان الحادث - باتّجاهاتٍ مختلفة، وتم قطع فمها حتى ذقنها،» قال العمّ. «يبدو أنّ حلقَها قد قُطع حتى العظم قبل إزالة أعضائها.»

قام العمّ برفع الجلد المسلوخ، وتفقّدَ التجويف الفارغ الذي احتوى سابقًا على قوّة حياة هذه المرأة. شدّ زوايا فمه، ومدّ يده إلى منديل، لينشّف جبينه، قبل أن يُعدّل وضع فكّه، ويُتابع اكتشافاته. «تمّت إزالة قلبها جراحيًّا، ولم يتمّ العثور عليه في مسرح الجريمة ولا في جسدها. أعتقد شخصيًّا إنه قد أزيلَ بسبب محاولة القاتل زرعه.»

سقط شيءٌ معدنيّ كبير على الأرض، وأشارَ لي العمّ لالتقاطه. أمسكتُ بملقط ورفعتُ العتاد الكبير إلى الطاولة. قال العمّ: «ضعيه هناك في الوقت الحاليّ.»

انقطعَ شيء بداخلي مثل غُصنٍ هشّ يستخدم لإيقاد نار. لقد استمرّ هذا لفترةٍ كافية، قتل النساء وأخذ الأعضاء. الآن يتمّ إدخال التروس في أجسادهنّ؟ أصبحَت كل جريمة جديدة أكثر فظاعةً من السابقة، كما لو أن جاك لم يستطع السيطرة على غضبه الحيوانيّ الذي استحوذ على روحه الشيطانيّة شيئًا فشيئًا. كيف ستبدو الضحيّة التالية إذا لم يتمّ إيقافه على الفور؟ رفضتُ معرفة ذلك.

بعد أن أنتهي من التشريح، سأذهب مُباشرةً إلى منبع الشرّ وأتحدّث مع الشيطان بنفسه. بعد مُشاهدته مع هذه المرأة الليلة الماضية، تلاشَت كلّ الشكوك في ذنبه. كان أبي يُطارد ضحيّته الأخيرة. إذا اضطررتُ إلى إحضار كل سكوتلانديارد معي فَسوفَ أفعل. الأمل في خلاصه ميّت، مثل المرأة التي ترقد على لوح الجثث.

«وادزورث؟» تغضّنَ جبين توماس، ودلَّت نبرته على أنها لم تكن المرّة الأولى التي نطقَ فيها اسمي متظاهرًا بأنّه لا داعي للقلق. دخلتُ في جوٍّ من الانزعاج وأجابَني بالمثل. «تبدينَ جاهزةً لركوب حصان وخوض معركةٍ ملحميّة. هل يُمكنكِ تمرير منشار العظام لعمّك قبل أن تهربي وتنقذي العالم؟»

حدّقتُ فيه، لكنّني أعطيتُ عمّي منشار العظام وشطفتُ الأدوات الأخرى بحامض الكاربوليك. لقد أوشكنا على الانتهاء. بما أنّ الجسد تعرّضَ لهجومٍ شديد، لم يكن هناك الكثير ليُخيّطه العمّ. خاصّةً وأنّ سكوتلاندايارد أرادوا طبيبًا آخر يفحص الجثّة قبل انقضاء المساء.

قلتُ: «هذا غريب بعض الشيء. أقصد طلب بلاكبيرن باسترجاع الجثّة بسرعة. هل يُمكن أن يكون هو القاتل، ويعمل بأوامر أبي؟»

تصلّبَ عمّي، ثم رفع كتفه. «إذا كنتِ مُحقّةً بشأن مكان والدك الليلة الماضية، فأفترض أنّ أيّ شيء مُحتمل. نحن بحاجة إلى الانفتاح على كلّ النظريات، وبحاجة إلى اختبار بلاكبيرن.»

أعاد العمّ وضع الجمجمة، ثم قام ليغسل يديه.

«هل أنتَ مهتمّ بمواجهة جاك السفّاح معي؟» سألت، ونظرتُ من فوق كتفي للتأكّد من أنّ العمّ لم يسمع. لم أرغب بأن يثنيني عن تسليم أبي. كان مستمرًّا في محاولات إثبات براءة أبي، لكنّني رأيتُ ما يكفي. نظرَ إليّ توماس بارتياب. «بالطبع أنا مهتمّ بمواجهة السفّاح. ما الذي سأفعلهُ غير ذلك هذه الأيام؟ إلى جانب إغوائك.»

«سأعودُ إلى المنزل بعد قليل. يجب أن يجلس أبي لتناول العشاء في غضون ساعة. أخطّط إلى ـ »

دفعَ العمّ كيسًا على صدر توماس. «خُذ هذا مباشرةً إلى المُشرف بلاكبيرن. من الأفضل أن نُسلّم على الفور أيّة أدوات لئلّا يُعيدوني إلى بيدلام. تأكد من ملاحظة ردّة فعله.» أمسكَ توماس بالكيس المُلطّخ بالدماء، وتعكّرَ جبينه عندما نظر إليّ بعدَ عمّي، فانزعجَ العمّ. «هيّا يا فتى. اجعل نفسكَ مُفيدًا وكُفّ عن التحديق في ابنة أخي هكذا.»

ضحكَ توماس بعصبيّة. ومع ذلك، لم يظهر العمّ كما لو كان في مزاج مرح، فَتلاشت ضحكة توماس في حلقه. أومأ برأسه إلى عمي، ثم انحنى نحوي.

«من فضلكِ لا تواجهيه بمفردك، وادزورث. تصرّفي كما لو أنّ كلّ شيء طبيعي.» استقامَ عندما أمالَ عمّي رأسه. «بلّغي تحيّاتي لوالدكِ، ربّما مع قُبلة على الجبين. أودّ أن أبقى في جانبه الجيّد، خاصّةً عندما أبلغهُ أنّني أعشق ابنته بجنون.»

مُغازلة وقحة. شاهدتُ توماس وهو يصعد الدرج، ثم جررتُ مئزري وألقيتُه في صندوق الغسيل المؤقت، مع الآخرين الذين انتظروا تطهيرهم الليليّ. أتصرّف بشكل طبيعيّ، كما لو كنتُ سأستمع إلى هذا الطلب السخيف! حزنَ جزءٌ منّي لأنّ توماس سيفتقد المواجهة، لكنه كان مشغولاً ببلاكبيرن. ودّعتُ عمّي وصعدتُ الدرج، تاركةً الباب يُغلق خلفي بإحكام، ثم توقّفت.

في الواقع، الأمر أفضل بهذه الطريقة. بدا مُناسبًا أن أكون أنا مَن يُواجه جاك السفّاح بمُفرده. سوف ينتهي عهد إرهاب أبي قبل بزوغ فجر يومٍ جديد. كنتُ واثقةً للغاية من ذلك.

27

لوحةٌ تستحقّ التفكير

مسكن آل وادزورث، ساحة بلغريف

9 نوفمبر 1888

وقفتُ بتردّد خارج باب غرفة الطعام الخاصّة بنا، نفس الغرفة التي تناولتُ فيها جميع وجباتي، ولم أعلم مطلقًا أنني كنتُ أشارك المائدة مع وحش.

كم مرّة قطع أبي لحم طعامه مُتخيّلاً إنه لحم بشريّ؟ كما غمرَني الغضب وأنا في طريقي إلى هنا، أخذَت حقيقةُ ما أوشكتُ على القيام به تُسيطر عليّ. التوَت أعصابي واهتزّت في جسدي، ممّا جعلني أقفز عند أيّ صوتٍ خافت. حتى دقّات قلبي سبّبَت لي قدرًا كبيرًا من القلق. لم تكن لديّ فكرة عمّا سيقوله الأب عن نفسه، أو ما سيفعل إذا أغضبتُه. الفكرة الوحيدة التي أراحَتني بعض الشيء هي وجود أخي معنا، ولن يسمح بوقوع ضررٍ عليّ.

تمنّيتُ لو كانت عندي نفس الثقة في أبي، لكنه تجاوز حدود العقل الآن. لن يُقنعه أيّ مقدار من الكلام بتسليم نفسه لمفتّشي التحقيق. ربّما وجبَ عليّ الذهاب مع توماس وإحضار شرطيّ. سمعتُ صوت احتكاك أداة

أكل بِطبق، وكان الصوت مكتومًا من هذا الجانب من الباب. لقد فات أوان اللجوء إلى مُساعدةٍ الآن.

وضعتُ يدي على مقبض الباب، سامحةً لنفسي ببعض الأنفاس لتقوية مشاعري. لن ينفعني الانهيار قبل مواجهته. إذا ظهرَ مدى خوفي فسوف يشعُر بذلك، ويندفع نحو وريدي الوداجيّ، بلا شك. رفعتُ يدي وأمسكتُ بها رقبتي بدلاً من الباب. من المحتمل جدًّا أن يقتلني، كما ادّعى السيّد روبرت جيمس ليز. رمشتُ عدّة مرّات، مُستعيدةً رباطة جأشي.

كم أنا حمقاء لأنّني لم أجلب سلاحًا خاصًّا بي! لماذا اعتقدتُ إنّهُ سيرحم ابنته؟

شكرتُ السماء لأنّ توماس لم يكن موجودًا، ليُشير إلى كمّ الأخطاء الفادحة في تصرّفي. ربما يجب أن أتسلّل عائدةً إلى القاعة ثم أهرب في الليل. كنتُ بدون مساعدة، وبدون أيّ شيء أدافع به عن نفسي. مرّت صورة لابتسامة أمّي العذبة أمام عينيّ. لقد دمّرَها أبي عن غير قصد. سواءٌ بسلاحٍ أم بدونه، فلن أسمح له بفعل الشيء نفسه معي.

فردتُ كتفيّ، وقوّيتُ نفسي للمعركة الوشيكة. لقد كانت الآن أو أبدًا، وقد قمتُ بالمُماطلة لفترةٍ كافية. أدرتُ المقبض وألقيتُ بالباب مفتوحًا، وأنا أتقدّم إلى الداخل مثل ملاكٍ أسود هبط للأرض لتحقيق العدالة، والغضب يشتعل خلف عينيّ بينما ضرب الباب الجدار خلفه.

«مرحبًا أبـ ـ» تعثّرَت الكلمات عندما أسقطَ الخادم طبقًا، لتتحطّم قطعُه الزرقاء والبيضاء على الطاولة الفارغة. وضعتُ قبضتيّ على جانبي خصري،

كما لو كان مسؤولاً عن كلّ مشاكل العالم، وغلبَ غضبي على شعوري بالذنب وهو يجفل من موقفي العدوانيّ. «أين أبي وأخي؟»

«لقد ذهبَا يا آنسة.» ابتلع ريقه بصعوبة. «قالا إنّهما لن يعودا على العشاء.»

من بين كلّ الحظّ البائس في الكون! دعكتُ جسر أنفي. بالطبع، في الليلة التي قرّرتُ فيها مواجهة الوحش، كان قد حزمَ أغراضه وذهب. ربما شعرَ بدنوّ حبل المشنقة منه. أدركتُ أنّ خادمنا لا يزال يُحدّق، فاغرَ الفم. ربما أخافَته أيضًا ثياب الموت خاصّتي. لم يرَني قبلاً في طقم الركوب والبنطلون الأسود، الذي رسم صورة مُجسَّدة للظلام، بالتعاون مع خصلات شعري الفاحم اللامع. «هل قالوا متى سيعودون؟»

هزّ رأسه. «كلّا، آنسة. لكنّني شعرتُ إنّهم سيغيبون معظم المساء. طلبَ اللورد وادزورث أن نترك الباب مفتوحًا وأن نُخفِت الأضواء عندما نتّجه إلى الفراش.»

كوّرتُ قبضتيّ بقوّة. إذا قامَ أبي بأيّ عمل لإيذاء ناثنيل، فسوف أقتلع أطرافه واحدًا بعد الآخر قبل أن تُتاح للملكة فرصة إصدار الأمر بذلك. خفّفتُ قبضتي قليلاً. لا داعي لإقلاق خادمنا أكثر مما هو عليه.

«سأكون في مكتب أبي في انتظار وصوله.» قلتُ بنبرةٍ باردة وغريبة حتّى على مسمعي. «لا أريد أن يزعجني أحد تحت أيّ ظرف من الظروف. في الواقع، سيكون من الأفضل لكم جميعًا إنهاء عملكم مبكّرًا. هل كلامي واضح؟»

«نعم... آنسة... سوف أنقل رغباتكِ إلى باقي الخدم.»

خرجتُ بسرعة من الغرفة ومشيتُ في القاعة. لم أرغب في أن يرى شخصٌ مدى ارتجافي. كرهتُ أن أكون فَظّة، لكن ذلك أفضل بكثير من أن يُلاقوا حتفهم بسببي. إذا مكثوا جميعًا في غرفهم، فسوفَ يبقون بأمان. جرّبتُ فتح باب مكتب أبي، فكان مفتوحًا.

هذه المرة لم أكن أتسلّل. أبي سيأتي مباشرةً إلى هنا كما يفعل كلّ مساء، لذلك دفعتُ الباب وأنرتُ بعض المصابيح حول المكان القاتم. قمتُ بفحص الغرفة المحظورة. بدت أقلّ ترويعًا الآن مما كانت عليه قبل أسابيع. لم يعُد مكتبهُ الوحش المُهيب الذي ظننتُه ذات مرّة. بدا الآن كمكتبٍ كبير وقديم، شهد الكثير من الأشياء الفظيعة.

حتّى رائحة خشب الصندل والسيجار المألوفة التي رافقَت أبي دومًا لم تجعل قلبي يدقّ كالطبل. لقد رحّبتُ بها. ليظهر شبحه لي الآن، إن تجرّأ. انجرفَ انتباهي إلى الأشياء التي توارثتها عائلتنا لأجيال، حتى هبطَ على مُجلّدٍ كبير مفتوح. تذكّرتُ الرسالة الخفيّة من والدتي، عبر الوسيط الروحاني، فذهبتُ إليه بفضول. هناك، بالضبط حيث قال إنها ستكون، رأيتُ المدالية من صورة أمّي.

ابتلعتُ ذهولي. تبيّن أنّ السيّد روبرت جيمس ليز ليس محتالاً. يا لمأساة عدم إصغاء سكوتلانديارد إليه. ربما كان بإمكانهم إيقاف أبي منذ وقت طويل. انحنيتُ عن قرب، وقرأتُ صفحات الكتاب التي تُرِكَت مفتوحة بعناية، مُحاولةً فهم أهميّة المقطع.

كان الكتاب «الفردوس المفقود» لجون ميلتون.

ألهى نفسَهُ الرعبُ والشكّ

ألهى أفكاره السيّئة، وحرّكَ من القاع

الجحيم الذي بداخله، لأنّ بداخلهِ جحيم

يحملُه ويُلازمُه، ليسَ من الجحيم

خطوةٌ واحدةٌ لا أكثر ثم مِن نفسهِ يُمكن أن يطير

بتغيير المكان: الآن يُوقظ الضمير اليأس

الذي نام، يُوقظ الذكرى المريرة

من ما كان، وما هو، وما يجب أن يكون

الأسوأ؛ من الأفعال الأسوأ تأتي معاناةٌ أسوء

انحرفت عيناي إلى الجزء الذي تحته خط ‹من الجحيم›، مُتذكّرةً عنوان الرسالة المُرسلة من السفّاح بوضوح تام. الطريقة التي تم تسطيرها بها بدت كطعنات، غاضبة ومُعذَّبة. اختفَت أيّ شكوك متبقّية لديّ حول أبي.

كان يُقارن أفعاله البشعة بأعمال الشيطان في الفردوس المفقود. يا له من خطاب مريض. عرفتُ أهميّة المقطع في الحال. كان الموضع حين شكّكَ الشيطان في تمرّده ـ اللحظة التي أدرك فيها أنّ الجحيم سيكون دائمًا معه، لأنه لم يستطع الهروب من جحيم عقله. لن يجد إبليس السلام أو الجنّة أبدًا، بغضّ النظر عن مدى قُربه الجسديّ منها، لأنّ الغفران سيكون دائمًا بعيد المنال. لا يُمكن أن يغيّر رأيه أبدًا، لذلك فإنّ جحيمهُ أبديّ. مع

معرفته بذلك، يقوم بتحويل الشرّ إلى خير، ويرتكب أفظع الأعمال باسم نسخته من «الخير».

حدّقتُ في المدالية ذات شكل القلب والتي عادَت لأمّي. هل كان هذا كلّه لأجلها إذن؟ قمتُ برفع الزجاجة برفق لحماية الكتاب والقلادة. لن أسمح لأبي أن يستخدمها كعُذر لارتكاب الشرّ بعد الآن. وضعتُها حول رقبتي، شاعرةً براحةٍ تامّة وهي تستقرّ فوق قلبي.

لم أقدر على الاقتراب من الكتاب، فمشيتُ إلى اللوحة الهائلة المُعلّقة على الحائط. لا زلتُ أكره الرجل ذا المظهر الساديّ بوقفة القاتل الفخور، والدبّ الذي ذبحهُ ساقطٌ عند قدميه. نظرتُ إلى العلامة النحاسيّة بالقرب من الأسفل. كانت مكسوّة بالتراب. مددتُ يدي، لأفركها بكمّي، عندما تراجعَت اللوحة فجأةً إلى الداخل. سحبتُ يدي للخلف، وكدتُ أن أقفز من جلدي.

«ماذا بحقّ الربّ...» بمجرّد أن توقّف قلبي عن ضرب ضلوعي، اقتربتُ خطوة. كانت الصورة تُخفي ممرًّا سرّيًا.

هبّ نسيمٌ ثلجيّ من السلالم المُظلمة، رافعًا خيوطًا من الشعر الضالّ حول وجهي مثل ثعابين رأس ميدوسا. لم أصدّق ما رأيتُه. هناك درجٌ حجريّ مُنحني للأسفل، ينتظر مَن يكتشفه. أو يصرُخ في وجهي للابتعاد. صعُبَ عليَّ فهم ما طلبهُ فمهُ الفاغر. وقفتُ، إحدى قدميّ على عتبة المجهول، والأخرى مغروسة في الأمان النسبيّ الذي أعرفهُ. اكتسحَ شعورٌ فظيع عظامي، ليُجبرها على الاصطكاك رعبًا. لا بدّ أنّ هذا هو المكان الذي تمّ فيه الاحتفاظ بجوائز جاك السفّاح.

تمكّنَ مني التردّد، مُربِكًا حُكمي. عدتُ إلى الوراء، وأغلقتُ اللوحة. يجب أن أهرع إلى بيت العمّ - وأجعله يتّصل بسكوتلانديارد وتوماس. ثم يُمكننا جميعًا النزول إلى الجحيم سويّةً. مع ذلك، لم أتحرّك للمغادرة. درستُ اللوحة عن قُرب، أزلتُ اللطخة عن العلامة، ثمّ شهقتُ.

طارَت يدي إلى فمي، وقد اتّخذَ الخوف شكلاً جسديًّا جديدًا بالكامل. كان اسمه جوناثان ناثنيل وادزورث الأوّل، الرجل الذي تمّ تسمية عمّي وأخي تيمّنًا باسمه. من الواضح أن أبي احتقر أخيه، فماذا يعني إنه علّقَ اسمه في مكتبه، ليُخفي وراءه ما اكتظّ بلا شك بالأشياء الرهيبة؟ هل كان حقدًا دفينًا على العمّ؟ إلقاء اللوم عليه لخُذلانه أمّي؟ إذا كان الطريق السريّ يقود إلى الجحيم، فهل كان ذنب العمّ هو إظهارهُ لأبي؟

بدا كأنّ أنينًا خافتًا جاء من خلف اللوحة. رمشتُ، وضغطتُ أذني على الحائط، لأسمع أفضل. لم يكن هناك سوى سكون الصمت والعديد من الأسرار المحفوظة. ربما أصابني الجنون. لا يُمكن للجدران أن تتحدّث.

أو ربما احتُجِزَت ضحيّةٌ أخرى عاجزة أينما قادَ ذلك الدرج. دقّ قلبي بعُنف، وزمجرَ دمي في عروقي. كنتُ بحاجةٍ للذهاب إلى هناك، بحاجةٍ لإنقاذ واحدة على الأقل من ضحايا أبي. نظرتُ إلى الساعة فوق الرفّ، لا يزال الوقت مُبكّرًا. لن يعود أبي وناثنيل قبل ساعاتٍ من الآن. أو ماذا لو... ماذا لو كان ناثنيل هناك في الداخل؟ ماذا لو حبسَهُ أبونا؟ لقد كنتُ حمقاء! لم أستطع توقّع أن يلعب أبي وفق أيّة قواعد. مجرّد قوله بأنه قد خرج مع ناثنيل لا يعني أنّ أخي غادرَ المنزل بالفعل. يُمكن أن يكون مقيّدًا وينزف حتى الموت في هذه اللحظة.

دون مزيدٍ من التردّد، دفعتُ اللوحة إلى الداخل، ثم وطأتُ الدرج. استقبلَني ضجيجٌ هامس من الأعماق التي بدت بلا نهاية. كان شخصٌ ما، أو شيءٌ ما، يقبع هناك بالتأكيد.

حاولتُ جمع تنّورتي، ناسيةً أنني لم ألبس فستانًا لعينًا، فكادت قدمي تزلّ وأنا أنظر إلى الأسفل بدهشة. وضعتُ إحدى يديّ على الجدار الحجريّ البارد، سامحةً له بأن يكون مُرشِدي في انجرافي البعيد وسط الظلام، وقدمايَ تمشيان بالسرعة المُمكنة على الأرض غير المألوفة.

كان من الحكمة حمل مصباح زيت أو شمعة، لكنّني لن أسهب في التفكير بنقص البصيرة الآن. مع كلّ خطوة إلى أسفل، أصبحَ السواد أخفّ بدلاً من التزايد. لا بدّ أن مصباحًا قد تُرِك مشتعلاً هناك، لأسبابٍ لا أجرؤ على معرفتها. ارتجفتُ، مُتخيّلةً ألفَ رعبٍ ورعب على وشك الترحيب بي. تسابقَ حذائي الحريريّ على الحجر، خفيفًا كالريشة وأنا أقفز من درجةٍ إلى أخرى، وشكرتُ الهدوء الذي وفّره. كنتُ قد نسيتُ جزمتي عند بيت العمّ في وقتٍ مبكّر، وبدا ذلك نعمةً الآن. سيمنحني المداس الحريري الوقت لتأمين موضعي دون الكشف عن نفسي.

عندما اقتربتُ من نهاية الدرج، وصلَني وهجٌ دافئ. فكرة وجود شيء جذّاب كهذا في مدخل حفرة الجحيم هذه جعلَت شعر جلدي ينتصب. بعدَ مُنعطفٍ أخير، وقبل ظهور الغرفة بالكامل، توقّفتُ مؤقّتًا وظهري مضغوط على الحائط، مُصغيةً السمع. لم توجد ضوضاء بشرية، لكنّ صوت وول ـ تشين صدرَ بهدوء، من حركة أجزاء يُديرها البخار، مُتزامنًا مع ضربات قلبي. لا بدّ أنها نفس الضوضاء التي سمعتُها.

وول ـ تشين. وول ـ تشين.

أغمضتُ عينيّ. مهما كان مصدر هذا الصوت فهو فظيع.

وول ـ تشين. وول ـ تشين.

انبعثَت رائحة المحاليل الطبّية واللحم المحترق إلى مخبئي، مما أدى إلى قلب معدتي المُضطربة أصلاً. لم أكن متلهّفة لإخماد نار فضولي الآن، لكن إذا تعرّضَ أخي لتعذيب، فيجب عليَّ تجاوز تلك الخطوة الأخيرة. تنفّستُ من فمي، مُحاولةً تجنّب الرائحة المقزّزة قدر الإمكان، ثم رفعتُ نفسي عن الحائط. تطلّبَ الأمر مُحاولتَين، لكنّني أخيرًا أمرتُ جسدي بالولوج إلى الغرفة.

نشرَ الخوف مرضه القبيح في جميع أنحاء جسدي، مثل الفئران الحاملة لوباء الموت الأسود. لقد امتدّ أمام ناظريّ مختبر، أكثر شرًّا من أيّ شيء حلمتُ بقراءته في الروايات. كما هو الحال في مختبر العمّ، كانت الرفوف تُبطّن الجدران، مليئة بصفوف من جرار العيّنات، بعمق اثنتين وثلاث جرّات للصفّ. لكن على عكس مختبر عمّي، لم يكن هناك ترتيبٌ مُعيّن لهذه العيّنات، وبدا الخشب نصف مُتعفّن.

ترنّحتُ إلى الوراء، فلمستُ شيئًا ناعمًا على الرفّ الأقرب إلى الحائط. توقّفَ العالم عن الدوران عندما استدرتُ لأرى اللحم البشريّ مشدودًا بإحكام على ذراعٍ ميكانيكيّ، والجلد مُخيّط بشكل فظّ، في غرزٍ كبيرة مُتعرّجة.

بدا أنّ أبي قد قطعَ ذراعًا عند المرفق، واستبدل بعض عظام الأصابع

والساعد بالمعدن قبل تغطيتها بجلد مسروق. كان هناك احمرارٌ حول ثقوب الإبرة. من الواضح أنّ عدوى قد انتشرَت في الطرف المعمول يدويًّا. شعرتُ أنّ مشدّي ضاقَ عشرة أضعاف، وتأرجحتُ على قدميّ فجأة، لاهثةً لالتقاط أنفاسي.

وول ـ تشين. وول ـ تشين.

لا يُمكن أن يكون هذا حقيقيًّا. أغمضتُ عينيّ، وصلّيتُ لأن أجد العالم قد أصلح نفسه حين أفتحهُما. لكنّ هذا حلمٌ أحمق. ابتلعتُ عصارة معدتي وهي تتصاعد بسرعة في حلقي، مستوعبةً قرف الشيء الذي اصطدمتُ به. التوَت خطوط سوداء من الإنتان حول تلك الفظاعة، اهتزّت الأصابع ذات الحافّات الرماديّة، جفّت قواعد الأظافر، واضمحلّت كاشفةً عن المعدن والعظام. مهما حاولَ أبي فعله، فقد فشل في هذا... الشيء.

وول ـ تشين. وول ـ تشين.

انبعثَ البخار من الجهاز الغريب، مما أجبرَ الأصابع الميتة على الانثناء في فتراتٍ منتظمة. صُدِمتُ لدرجة أنني لم أتمكّن حتّى من تغطية فمي. على الأقل لا يزال قلبي يعمل بكفاءة. شعرتُ بضرباته في كلّ جسدي، يضخُّ بسرعة حتّى خشيتُ أن يُسقِطني في اندفاعه المجنون للفرار. إذا خرج أبي أو حتى بلاكبيرن من إحدى هذه الزوايا المُظلمة، فسوف أموت على الفور.

تراجعتُ ببطء عن الذراع الميكانيكي المُغطّى باللّحم، وتركيزي يتحرّك بثبات في جميع أنحاء الغرفة، ويقفز من رعبٍ إلى آخر.

وول ـ تشين. وول ـ تشين.

كانت الحيوانات في جرار العيّنات في حالاتٍ مختلفة من التحلّل، ولحمها وأنسجتُها الرخوة تنفصل في جحيمها السائل. انتشرَت فظاعات على أسطح الطاولات في جميع أنحاء الغرفة. مُزِّقَت الطيور، ووُضِعَت في أفواه قطط نافقة، وعُرِضَت مشاهد قسوة طبيعيّة في تكريمٍ مريضٍ للقويّ. ذكّرَني بنسخةٍ أكثر قتامة من مختبر توماس الشخصيّ. اقتربتُ أكثر، عاجزةً عن منع نفسي من إلقاء نظرةٍ أفضل على الإبداعات المُروّعة.

على رفٍّ آخر رأيتُ زجاجةَ بيرة زنجبيل، مليئة بسائلٍ قرمزيّ غامق. التقطتُها، وقلبتُها في اتّجاهين. كانت جافّة ومتحوّلة إلى كتلة هُلاميّة. لقد أشارَ جاك إليها في إحدى رسائله، ولم يكن يكذب.

زفرتُ وخرجَت أنفاسي كسُحبٍ بيضاء صغيرة أمامي. كان الجو باردًا بشكلٍ لا يُطاق هنا. فركتُ يديّ على ذراعيّ، ماشيةً إلى آلة قرب وسط الغرفة تُصدِر صوت الوول ـ تشين الخفيف، وتوقّفت، بل كدتُ أتعثّر بقدمي وأنا أرى الشيء الأكثر شرًّا على الإطلاق.

جلسَ قلبٌ بشريّ تحت عُلبةٍ زجاجيّة، وصدرَت ضوضاء خفيفة من آلة ترسل فيه شحنةً كهربائية، مما تسبّبَ في استمرار الضخّ. ضغطتُ بيدي على فمي، مُرغمةً نفسي على التزام الهدوء وعدم التقيّؤ أو الصراخ. خرجَت الأنابيب المملوءة بالسائل من العضو وفوق الطاولة، باتجاه شيء لم يُمكنني تمييزه تمامًا دون الاقتراب. ألقيتُ نظرة على السائل الذي يتمّ دفعه عبر القلب بجهاز نقل الدم؛ كان أسود كالزيت ورائحته كالكبريت.

وول ـ تشين. وول ـ تشين.

وركضتُ إلى السلّم. عندما كنتُ أصعد الدرجات، اصطدمتُ بكتلة من اللحم. اللحم الدافئ. أمسكَ بي بقوّة فَصرختُ مرّةً أخرى، وعندما رفعتُ بصري تنفّستُ الصعداء.

«آه، الحمدُ لله،» لهثتُ، مُتمسّكةً بحياتي الغالية. «إنّهُ أنت.»

28

جاك السفّاح

مسكن آل وادزورث، ساحة بلغريف

9 نوفمبر 1888

«أسرِع،» حثثتُ أخي وأنا أسحبهُ نحو السلّم، بنوع من القوة الفائقة التي تُمنَح لمَن هم في خضمّ أهوالٍ مُميتة. «يجب أن نُغادر قبل عودة أبينا. آه، ناثنيل. لقد ارتكبَ أشياء فظيعة!»

استغرقَ الأمر عدّة لحظات لأدرك أنّ أخي لم يتحرّك. كان واقفًا، مُتجمّدًا في مكانه، وعيناه تشربان من محيطنا. أمسكتُ بالجزء الأمامي من معطفه الطويل، وهززتُه حتى هبطَت عيناهُ الواسعة عليّ. كان شعرهُ حُطامًا، بارزًا في كلّ اتجاه، وبدا كما لو أنه لم ينَم منذ أيّام. تدَلّت ظلالٌ داكنة تحت عينيه، ما منحهُ تعبيرًا غائرًا. لم يبدُ أفضل بكثير من جثّة أمّنا الميتة. أو مهما كان ذلك المخلوق في التابوت. ذلك الرّجس.

أصابَ جسدي ارتجافٌ آخر، وكادَ أن يُسقِطني على ركبتيّ. لم أستطع السماح لأخي برؤيتها. لن يعود إلى طبيعته مرّةً أخرى. استجمعتُ قواي، ووقفتُ باستقامة، مُريحةً ضغط أضلاعي.

«ناثنيل،» قلتُ بصرامة، مُمسكةً بيده. «يجب أن نخرج من هنا حالاً. سأشرح لكَ في الطريق إلى سكوتلانديارد. من فضلك، دعنا نُسرع. لا أرغب في مقابلة أبي هنا.»

أومأ أخي برأسه، وهو مصدومٌ جدًا لفعل شيء آخر. قدتُه نحو السلّم، ووصلَت أقدامنا إلى الدرجات الأولى المُباركة، عندما توقّفَ ثانيةً. استدرتُ بغضب، وعجزتُ عن توضيح أهميّة المُغادرة بهدوء. إذا اضطررتُ إلى ضربه لإفقاده الوعي وسحبه إلى أعلى الدرج، فَليكُن. «ناثنيل...»

أمسكَ معصمي بقبضةٍ حديديّة، وجرَّني بعيدًا عن الدرج، إلى عُمق وكر جاك السفّاح. قاومتُه، دون أن أفهم حاجته إلى تصعيب الأمر، عندما أرجعَ رأسه للخلف وضحك.

غمرَني الرّعب حتى عجزَ شعر جلدي عن التوقّف، وسرى في بدني، واعدًا بكابوسٍ جديد. ألقى بي على كرسي بالقرب من زاوية الغرفة، وهو لا يزال يضحك مع نفسه. رمشتُ. لم يكن أخي قد عاملني بهذه القسوة من قبل. لا بدّ أن أبي قد خدّره بطريقة ما. لا يوجد تفسيرٌ آخر. فركتُ أسفل ظهري، حيث بدأت كدمة بالتشكّل في موضع صدمتي للكرسي الذي ألقاني عليه. لم يبدُ عليه مُلاحظة ذلك، أو الاكتراث.

«ناثنيل،» قلتُ مُتظاهرةً بالهدوء قدر الإمكان، بينما كان يسير أمامي، وهو يصفع جانب رأسه كأنّهُ يُسكِت أصواتًا لا يسمعُها غيره. «بمجرّد أن نُغادر، سأقوم بتحضير مُنشّط لك. سوف يُعالج كلّ ما أصابك. مهما أعطاك أبي، فسوف نُعالجه. عمّنا يعرف بالضبط ما يجب فعله. عليك أن تثق بي، حسنًا؟ نحن نؤازر بعضنا البعض، دائمًا. أليس هذا صحيحًا؟»

توقّفَ ناثنيل عن الضحك، ونظراته تتركّز عليَّ بدقّة شديدة. أنزلَ يديه من جانب رأسه قبل أن يرفعه. في ذلك الوقت، بانَ مُفترسًا بكلّ معنى الكلمة.

«عزيزتي، أختي العزيزة. أخشى أنّكِ فهمتِ الأمر بشكلٍ خاطئ. هذه المرّة، أبي ليس المسؤول عمّا يُصيبني. هذا كلّهُ من عمل يديّ.»

«أنا لا أفهم... هل كنتَ تأخذ الإكسير بنفسك؟» ارتجفت. «هل... هل تعاطيتَ اللّودانوم أيضًا؟» كان أخي تحت ضغط شديد. لن أتفاجأ إذا لجأ إلى العقار الذي يُعالج كلّ شيء، والهلوسات واردة في حال تناول جرعاتٍ كبيرة منه. «لا بأس.» قلتُ له مادّةً يدي نحوه. «أستطيع مساعدتك. سنذهب كلانا إلى ثورنبراير حتّى تتحسّن.»

بسطَ ذراعيه إلى الجانبين، والتفّ بفخرٍ في مكانه. تصرّفَ كما لو كان هذا كلّه...

«لا.» هززتُ رأسي وقد غمرَني الإنكار. لا يُمكن. لن تكون الحياة بهذه القسوة. تجمّعَت الدموع في عينيّ قبل انهمارها على وجهي. هذا لا يُمكن أن يكون. ترنّحتُ إلى الأمام، مُمسِكةً ببطني وتأرجحتُ لأتقيّأ. خطا ناثنيل أمامي، شاهرًا سكّينًا خفيّة من كمّه. كان طولها حوالي ستّ أو سبع بوصات، نفس الحجم الذي توقّعهُ العم لسلاح جاك السفّاح. مرّرَ أصابعه بحنان على النصل الملطّخ بالدماء، ثم وضعها على الطاولة، مع الطائر المُحنّط مشقوق البطن.

تسرّبَت إلى أفكاري ذكريات أخي وهو يُنقذ الحيوانات، ويُطعِمها أكثر

من رغبَتها، وبكاؤه في كلّ مرّةٍ يموت فيها أحدها على الرغم من جهوده. الولد اللطيف الذي تعهّدَ بحمايتي من والدنا بعد أن دمّرهُ الحُزن. هذا لا يُمكن أن يكون الوحش الذي يُقطّع النساء. لن أسمح لهذا بالحدوث. هذا المختبر ليس مختبره، ولم تكن هذه تجاربه. لم يكن هو مَن فعلَ هذا بأمّنا.

«أخبِرني أنّ هذا كابوس، ناثنيل.»

ركعَ ناثنيل أمامي، ومسحَ دموعي بلُطف، بكيتُ أكثر. هززتُ رأسي ثانيةً. هذا كابوس. أنا نائمة وسأصحو في منزل عمّي لأكتشف أنّ هذا كان حلمًا رهيبًا. يا لي مِن أختٍ سيّئة! أحلم بمثل هذه الأشياء عن أخي الحبيب. ناثنيل الحقيقي لن يفعل هذا مطلقًا. كان يعلم أن فقدانه سيقتلني. لن يفعل شيئًا يؤذيني هكذا، ولن يؤذي أيّ أحدٍ أبدًا.

«ششش،» قال مُهدّئًا، وهو يُعدّل الشعر حول وجهي. «كلّ شيء على ما يرام الآن، أختي، كما وعدتُكِ. لقد ساعدتُ في تبرئة العمّ بهذه الرسائل. أليس كذلك؟ رغمَ ذلك، أقرّ بأنّه كان من المُمتع رؤية الفوضى التي سبّبها القليل من التبجُّح والحبر الأحمر. لم أستطع منع نفسي من إرسال المزيد.»

«أنتَ ماذا؟» شعرتُ بأعصابي تتفكّك. «هذا لا يُمكن أن يكون حقيقيًّا.»

شردَ ناثنيل في بعض الخيال، قبل أن يتجاهلهُ ويقول: «على أيّة حال، أظنّ إنني اكتشفتُ سبب مرضكِ أنتِ وأمّي، بينما لم نمرض أنا وأبي.»

جلسَ على كعبيه، ناظرًا حول الغرفة من جديد، وقد نُقِشت علامات الانبهار والدهشة على ملامحه المُشرِقة عادة.

«استغرقَ الأمر وقتًا للتوصّل إليه، وأتمنّى لو انتظرتِ قليلاً قبل المجيء إلى هنا، لكن لا يهمّ.» ابتسم وهو يُربّت على يدي. «أنتِ هنا الآن، وهذا مثاليّ. لقد عملتُ على اللمسة الأخيرة. كل ما تبقى هو القليل من الدم وبعض الكهرباء. كما في الكتاب. تتذكّرينهُ، أليس كذلك؟ كتابنا المُفضّل.»

انزلقَت دمعةٌ أخرى على خدّي. لم أكن أحلم، بل جالسةً في الجحيم. لقد تخيّلَ أخي نفسه د. فرانكنشتاين، ولن أسمح لأمّنا بأن تُصبح وحشه. «لا يُمكنك إعادة أمّي من الموت، ناثنيل. هذا ليس صحيحًا.»

دفعَ نفسه بعيدًا عني، ليسير في الوهج البرتقاليّ لمختبر شيطانه، ويهزّ رأسه. «ما الذي يجعلها خاطئة؟ كنتُ أظنّكِ ستُقدّرين وتفهمين الموضوع من بين كل الناس. هذا سبقٌ علميّ يا أختي العزيزة. سوف يتحدث الناس عن هذا العمل الفذّ على مرّ العصور. سيظلّ اسمنا مرتبطًا إلى الأبد بما لا يُمكن تصوّره. عمّنا أحمق قصير النظر، لا يتمنّى سوى إجراء عمليّة زرع عضو ناجحة. لديّ شيء أكبر بكثير في بالي.»

أومأ ناثنيل برأسه، كما لو كان ذلك كلّ ما يحتاجه من إقناع. نقرَ بأصابعه على راحة يده، كاشفًا عن جروح في أطرافها. لم أستطع تذكُّر آخر مرّة رأيتُه فيها بدون قفازات. الآن عرفتُ السبب.

«حتى الآن، لم يظنّ الناس إنه يُمكن القيام بذلك. فقط المؤلفون والمُتبصّرون في العلم مثل غالفاني تجرّأوا على تخيّل مثل هذه الأعجوبة. الآن لقد أنجزتُها! ألا ترين؟ هذا شيء يستحق الاحتفال. لن ينسى الناس أبدًا الاكتشاف العلمي الذي حقّقتُه.»

«ماذا عن النساء اللواتي قتلتَهنّ؟» سألتُ وأنا أفرك يديّ في حضني. «هل يجب الاحتفال بموتهنّ؟»

«العاهرات؟ نعم. أعتقد إنه يستحق الاحتفال مرّتين، بعد أن ذكرتِ ذلك.» وقف ويداه في قبضتين على جانبيه، وعيناه تزداد ظُلمة. «لم أقُم فقط بتخليص شوارعنا من الآفات التي غزَتها، لكنّني على وشك إعادة والدتنا الحبيبة من الموت.»

عادَ ليخطو أمامي مرّةً أخرى، وتنامَت العدائيّة في نبرته مع كلّ خطوةٍ يقوم بها. «لقد انتشلتُ التعيسات من بؤسهنّ، وتضحياتهنّ ستُعيد امرأةً طيّبة كريمة. من فضلِك، أبلغيني بأخطائي. بصراحة يا أختي، أنتِ تجعلين الأمر يبدو كما لو كنتُ وحشًا عاديًّا يفترس الضعفاء. كانت والدتُنا نفسها امرأةً تخشى الله. سوف تتفهّم.»

لم أجد كلماتٍ أقولها. النسوة اللواتي قتلهنّ مُهمّات. لم يكُنّ قمامةً تمّ رميها في الشوارع، بل بناتٍ وزوجات وأمّهات وأخوات، ومحبوباتٍ كما أحبَبنا أمّنا. كيف يجرؤ على إطلاق مثل هذا الحُكم. كان أخي غارقًا تمامًا في علمه الخيالي وتفكيره بالعدالة لدرجة أنه قد أضاعَ بالكامل معنى كونه إنسانًا. الأمر الذي أثارَ شيئًا في ذهني.

«ماذا عن التروس المتروكة داخل الجثث؟» سألت. «ما نوع الرسالة التي كُنتَ تُرسلها للشرطة؟»

«رسالة؟ لم تكن هناك رسالة مقصودة. لقد تركتُهم ببساطة حيث أسقطتُهم.» مرّرَ ناثنيل أصابعه على شعره، في مُحاولةٍ لتعديله لكنّهُ فعلَ

العكس. واصلَ الخطى، وزادَ غضبه لأنّني لم أقم بالإشادة بسلوكه الذي لا يُغتفر. «هل هذا كلّ ما يهمّكِ حقًا؟ التروس اللعينة داخل الفاسقات؟»

همستُ: «لم يستحققنَ الموت، ناثنيل.»

«هؤلاء النسوة لم يستحققنَ الحياة!» ارتدّ صوته في المساحة الصغيرة، ما جعلني أقفز. «ألا تفهمين؟ هؤلاء النساء مرض. إنهنّ يدمّرنَ الحيوات. عرضتُ عليهم فرصة الخلاص ـ الموت مقابل حياة!»

مشى نحو التابوت، ثم ألقى بغطائه للخلف، والدموع تملأ عينيه. «لقد دمّرَ المرض حياتها. المرض الذي انتشر على نطاق واسع، وساهمَ فيه سُعال العاهرات وإصابة الرجال الطيّبين. لذا، لا يا أختي، لن أشعر بذرّةٍ من الأسى لتطهير مدينتنا من عدد قليل منهم. لو كان الأمر بيدي، لأضرمتُ النيران في إيست إيند بالكامل لأنتهي منهنّ جميعًا. حاليًا، أخذتُ منهنّ فقط ما احتاجه لتجربتي.»

«كم هو فعلٌ نبيلٌ مِنك.»

«أعلم.» فاتت على أخي سُخرية جملتي، وابتسمَ كأنّني أخيرًا فهمتُ تفكيره. «بصراحة، لم أنوِ قتل الكثير، لكن الأعضاء فشلَت قبل أن أتمكّن من العمل عليها. واجهتُ صعوبة في إتقان وضع البراغي في الظلام، لذلك صرتُ أحمل حقيبةً طبّية مُثلّجة، وأدخلتُ البراغي والتروس هنا. راقبي.»

رفعَ حقيبة أمتعة كبيرة، وفتحها لتُصبح بشكل طاولة محمولة، قبل أن يضعها بجانب القلب المُغطّى بالزجاج في وسط الغرفة. تدلّت من حافات الحقيبة قيود لليدين والرجلين. مشى ناثنيل إلى ترس مُثبّت على الحائط،

وأدارهُ إلى أن حلّق جهاز طويل يشبه الإبرة فوق الطاولة. لا بدّ أنّ هذا هو مصدره الكهربائيّ. شعرتُ بالخوف يخضُّ دمي.

أمام رعبي الشّديد، انحنى، وسحبَ جثّة أمّي إلى الطاولة التي أقامَها، ثم دفع يديها وقدميها تحت الأحزمة الجلديّة. أغمضتُ عينيّ بينما كان رأسها الخالي من الحياة يتدلّى إلى الجانب، وشعرتُ بموجة من الغثيان تُغرقني. لقد ماتت لخمس سنوات، ولم أملك أدنى فكرة كيف كانت أكثر من مجرّد عظام.

«كانت لديّ البصيرة لإبقاء أمّي مُجمَّدة جزئيًّا في صندوق ثلجيّ خاصّ هنا.» حدّقَ ناثنيل في الجثّة المُتحلّلة قليلاً، ودفعَ شعرها برفق، مُجيبًا على السؤال الذي لم أسألهُ بصوتٍ عال. «للأسف لم أفكّر في الحفاظ عليها على الفور. كان من الصعب التسلّل إلى قبرها وإحضارها خلسةً إلى هنا دون علم أبي. ساعدَني في هذا وجود اللّودانوم.»

أسقطَ ناثنيل جرّةً زجاجية، ثمّ أطلق شتيمة، ليوقظني من إنكاري. لم أستطع التوفيق بين ناثنيل الذي عرفتُه طوال حياتي وبين هذه النسخة الوحشيّة أمامي. لم أقوَ حتى على التفكير في الآلام التي سيُقاسيها أبي إذا رأى والدتنا الآن.

لقد ماتت الأم لأعوامٍ كافية لكي تسقط خيوط شعرها الأسود الطويل على الأرض. التقطَ ناثنيل قطعًا كبيرة من الزجاج، وتخلّص من خصلات الشعر التي علقَت بها وهو يقذفها في سلّة المهملات. لم يتأثّر إطلاقًا بالمشهد المروّع أمامه، وهو يُنظّف الفوضى كما لو أنّ جثّة والدتنا لم تكن تتعفّن على طاولةٍ أمامه. لو لم أقُم بإفراغ محتويات معدتي في وقتٍ سابق، لَفعلتُها في هذه اللحظة.

«كيف اكتشفتَ هذه الغرفة؟» ضممتُ يديّ، رافضةً النظر إلى أمّي ثانيةً. كنتُ على وشك أن أفقد أعصابي، وقريبةً جدًا من فقدان عقلي برمّته. لن يتطلّب الأمر الكثير لإصابتي بالشلل الآن.

وول ـ تشين. وول ـ تشين.

لفتَ ناثنيل انتباهه إليّ. «هل تتذكّرين الممرّات السرّية في ثورنبراير؟»

تقلّبَت ذكرياتي عن اللعب في طرقٍ سرّية كلّ صيف. كان جوناثان ناثنيل وادزورث الأوّل غريب الأطوار بعض الشيء. لقد قامَ ببناء ممرّاتٍ سرّية في الكوخ الصيفيّ أكثر ممّا وُجدَت في قصر الملكة. أومأتُ، فقال وهو يهزّ كتفيه: «قبل بضعة سنين، وجدتُ خريطة لهذا المنزل في ثورنبراير. كان أبي يُسيء استعمال دواءهُ بالفعل، لذا أضفتُ مزيدًا من اللّودانوم على البراندي في الليل. لم يكن من الصعب ضمان بقاء أبي... هادئًا وغير مُدرك استخدامي لغُرفة مكتبه الثمينة. ما ضَير القليل من الأفيون الإضافيّ للمُدمن؟»

«أنتَ... قدّمتَ الأفيون لأبي، مع علمكَ بالعواقب؟» كنتُ أصرّ على أسناني، وأنا أشاهد أخي يمشي إلى طاولة القلب العامل بالبخار. تصاعدَت رغبتي في البكاء، لكنّني أسكتُّ نفسي. رفعَ ناثنيل مشرطًا من مجموعةٍ طبّية أسفل الطاولة، ثم وضعه بجانب العضو، وأخرج كيسًا آخر ليضع عدّة أقفال وبراغي في صفّ.

أخيرًا عادَت قطع اللغز الصغيرة إلى أماكنها. كان ناثنيل الوحيد عدا أبي الذي عرف كيف يصنع مثل هذه الألعاب المُعقّدة التي تعمل بالبخار.

لقد رافقَ والده ليلاً، عندما كان طفلاً، يُشاهد ويتعلّم من الأفضل. ثمّ هناك فترة تدريبه الطبّية القصيرة قبل أن ينتقل إلى دراسة القانون. كلتا الهوايتَين السابقتَين ساعدَتهُ في تكوين مهارتهِ ودقّة عمله.

بينما كنتُ أقاتل بين صورة أخٍ مُحبّ عرفتُه وبين الوحش الذي أمامي، أشعلَ موقدًا على الطاولة وقام بتسخين المعدن، ثمّ صهر البراغي والتروس معًا كما لو إنّ الأمر طبيعيّ.

انزلقَت ذكرى أخرى إلى مُقدّمة ذهني. كان أخي منزعجًا عندما اكتشف أنني تسلّلتُ إلى مكتب أبي. ظننتُه قلقًا عليّ، إذا علمَ والدنا بتطفُّلي على أغراضه. بينما في واقع الأمر، كان ناثنيل يخشى أن أكشف مختبرهُ السرّي.

حدّقَ ناثنيل في وجهي، بابتسامة وعيد، وهو يعمل بشراسة على أحدث اختراعاته. راقبتُه بصمت بينما كان يصنع قفصًا معدنيًا، غير قادرة على التفكير بشكلٍ سليم. عرفَ عقلي المنطقيّ إنه يجب عليَّ التفكير والتصرّف بسرعة، لكنّ جسدي مُتصلّبٌ ومُحطّم تمامًا. لم أستطِع التحرّك.

«سيدخل هذا في تجويف صدر أمّي، ليُحافظ على قلبها الجديد محميًّا.» أومأ برأسه عدّة مرّات لنفسه. «فكّري فيه على إنه نوع من أنواع القفص الصدريّ الاصطناعي.»

أخيرًا هزّ جسدي نفسه من الصدمة. غمسَت القشعريرة أطراف أصابعها في دلاءٍ من الثلج، ثم اندفعَت بشدّة على ظهري. كلّ شيء منطقيّ الآن. نظرة الخوف عندما جاء مفتش التحقيق معي عند الباب، بعد مقتل سائق أبي المفصول. نفس النظرة المُتجمّدة بالخوف عندما قاطعَنا المُشرف بلاكبيرن في السيرك. لقد برزَ ألفُ دليلٍ أمامي مُباشرةً، واخترتُ تجاهلها.

كان أخي من النوع اللطيف الحسّاس، وكنتُ أنا الوحش، الذي سعى لانتزاع المعرفة السرّية من لحوم الموتى. كيف لم أرَ فيه نفس الفضول؟ لقد امتلكنا نفس الدمّ.

حملَ الجهاز الغريب إلى القلب الذي يعمل بالبخار، ليقيس حجمهُ ثمّ يضحك على نفسه ويُتمتم بشكل مُضطرب. لم يعُد بإمكاني تجاهل أعمالهُ المريضة. بمجرّد أن بردَ المعدن، وضع ناثنيل القلب البخاريّ بعناية داخل القفص الصدريّ، ثم دمجَ المعدن بالمزيد من البراغي. قام بتدوير الترس على الحائط، وضبط الإبرة الكهربائية حتى لامسَت القفص المعدنيّ، ثم تراجعَ مُعجبًا بعمله. مشى إلى الطاولة، راضيًا عن جهازه القبيح الجديد، والتقطَ حُقنةً ليطرق على جانبها بإصبعه.

«يجب أن تتوقّف عن هذا الجنون، ناثنيل.»

«ما حدث قد حدث يا أختي. الآن...» التفتَ إليّ، ملوّحًا بالمحقنة كما لو كانت أثرًا مُقدّس. «أحتاج فقط إلى القليل من دمكِ للحقن في قلبها، ثم سنضغط المفتاح معًا. إذا كان من المُمكن جعل أرجل الضفادع الميّتة تتحرّك بواسطة التيار الكهربائي، فيُمكننا فعل الشيء ذاته على نطاقٍ أكبر. لدينا ميزة وجود المزيد من الأعضاء الحيّة، وهذا هو مكان خطأ غالفاني بكلّ ذكائه،» قال مُشيرًا إلى رأسه. «كان يجب أن يجمع الأنسجة الحيّة من جُثثه، ثمّ لن يحتاج إلّا إلى إضافة القليل من الفولطية. سيُساعد المعدن الموجود في التروس على نقل الطاقة. لهذا السبب أدمجُهم باللحم. إنه رائع، سَترين.»

تابعتُ نظرته وهو ينظر إلى الإبرة الكهربائية المُتدلّية من السقف وهي

تختفي في صدر أمّي. هذا يجب أن ينتهي الآن. لم أستطع تحمّل رؤيته يفعل شيئًا فظيعًا آخر بجسد أمّنا. سمحتُ لكلّ المشاعر التي كتمتُها بأن تتسرّب إلى صوتي.

«أرجوكَ يا أخي. إذا كنتَ تُحبّني، أوقِف هذه التجربة. أمّنا ماتَت، ولن تعود.»

ابتلعتُ ريقي بصعوبة والدموع تنهمر على وجهي. تراجعتُ بسبب الجزء الصغير من نفسي الذي يرغب في معرفة إمكانيّة ذلك؛ إن كان بإمكانه تحريك اللحم الميّت منذ زمن بعيد، واسترجاع أمّي التي اشتقتُ لها كثيرًا مرّةً أخرى. لكنّ الجزء البشريّ منّي لن يسمح بذلك أبدًا.

«لقد حقّقتَ الكثير. حقًّا،» قُلت. «ليس لديّ شكّ في إنك ستتفوّق على أيّ عالمٍ تختاره، لكنّ هذا ليس الطريق الصحيح.»

وول ـ تشين. وول ـ تشين.

هزّ ناثنيل رأسه، مُشيرًا إلى القلب العامل بالبخار. «نحن قريبون جدًا، أختي! نحن على بُعد دقائق من التحدّث مع أمّي! أليس هذا ما أردتِه؟»

تحوّلَ من حالة الغضب إلى مظهر طفلٍ مُتجهّم. احتاج فقط إلى أن يضرب الأرض بقدمه ويعقد ذراعيه ليكتمل المشهد. بدلاً من ذلك، وقفَ في سكونٍ مُطلق، وكان ذلك بطريقةٍ ما مخيفًا أكثر من مُشاهدته يدور مثل حيوانٍ مسعور.

«كلّ هذا لأجلِك!» صرخَ مُنفجرًا من سكونه، وخطا بضع خطواتٍ عملاقة نحوي. «كيف يُمكنكِ رفض هذه الهديّة؟»

«ماذا؟» وددتُ أن أسقط على ركبتيّ وألا أقوم من الأرض أبدًا. لقد قتلَ أخي كلّ هؤلاء النساء لأنه اعتقد إنني أنانيّة بما يكفي لأرى فقط جمال النتيجة النهائيّة. دارَت الغرفة عندما أدركتُ الخيارات الموضوعة أمامي الآن. إذا اتّصلتُ بالمُشرف بلاكبيرن، فسوف يقتل ناتنيل. لن تكون هناك مصحّة أو سجن، ولا مُحاكمة. لا أملَ في حياته. ماذا كنتُ سأفعل لأخي، أعزّ أصدقائي؟ لم أستطع منع نفسي من الصراخ، والاندفاع عبر الغرفة لضرب صدره.

«كيف أمكنكَ فعل هذا؟» صرختُ بينما هو واقفٌ هناك، مُتقبّلاً هستيريّتي بنفس السكون المُخيف. «كيف تُصدّق أنّ قتل النساء سيجعلُني سعيدة؟ ماذا سأفعل بعد موت أخي وأمّي؟ ألا تفهم؟ لقد مزّقتَنا! لقد قتلتَني، قُم بانتزاع قلبي أنا أيضًا!»

استبدلَ بصيص الفخر في عينيه إحساسٌ بطيء بالفهم. أيًّا كان الجنون الذي أصابه خلال الأشهر القليلة الماضية، بدا إنه قد أخلى سبيله من قبضته في النهاية. ترنّحَ إلى الوراء، وثبّتَ نفسه على الطاولة.

«أنا... لا أعرف ما الشرّ الذي تملّكَني. أنا... أنا آسف، أودري روز. لن يكون ذلك كافيًا أبدًا، لكنّني... آسفٌ حقًا.»

سمحَ لي بضرب صدره حتى تعبت. تباطأت الدموع بشكل طفيف، لكنّ آلام ما اقترفهُ حملٌ خشيتُ ألّا يخفّ أبدًا. أخي اللطيف، الساحر والحبيب كان جاك السفّاح. هدّدَت العواطف بأن تُغرقني في مكاني، لكنّني قاومتُ طوفانها. لا يُمكن أن يجتاحني الحزن الآن. لقد احتجتُ إلى الحصول على مساعدة لناتنيل، وإلى الخروج من الغرفة التي علقَت فيها والدتي في مكانٍ ما، بين الحياة والموت.

«لنذهب، ناثنيل. أرجوك،» قلتُ وأنا أحثّهُ باتجاه الدرج. «سنتناول بعض الشاي. حسنًا؟»

استغرقَ الأمر وقتًا للاستجابة، لكنّه بعد عدّة لحظات، أومأ برأسه. عندما ظننتُ إنه استعادَ عقله أخيرًا، استحوذ بشكلٍ مؤلم على ذراعي، مُلوّحًا بالحُقنة. «طويلٌ وشاقّ طريقُ الخروج من الجحيم إلى النور، أختي العزيزة. يجب أن نُكمل المسار الذي اخترناه. لقد فات الأوان للعودة الآن.»

29

الظلّ والدم

مسكن آل وادزورث، ساحة بلغريف

9 نوفمبر 1888

تشبّثتُ بأخي في وسط جحيمنا المُشترك، غير راغبة في الابتعاد وجعل هذا الكابوس حقيقة. جرَّني مرّةً أخرى عبر الغرفة، وألقى بي على كرسيّ خشبي بجوار والدتنا. «انظري إلى ما فعلتِ! الآن يجب أن أقيّدكِ من أجل سلامتك يا أختي.»

جلستُ هناك بلا حراك، غير قادرة على استيعاب ما قاله، الأمر الذي كلّفَني وقتًا ثمينًا. قبل أن أتمكّن من الردّ، سحبَ ذراعيّ خلف الكرسي وربطَ معصميّ بخفّة. بغضّ النظر عن مدى مقاومتي للحبل، لم أستطع الهروب من سجني الجديد. لقد شدّني ناثنيل بإحكام لدرجة أنّ أطراف أصابعي أخذَت تتحوّل بالفعل إلى برودة الجليد. جررتُ وسحبت، وتمكّنتُ فقط من كشط جلدي مع كلّ محاولةٍ مذعورة للتحرّر من وثاقي.

صرختُ، بدافع الصدمة أكثر من الأذى، وهو يدفع المحقنة في الجلد الرقيق لباطن ذراعي. «توقّف ناثنيل! هذا جنون! لا يُمكنكَ إحياء أمّنا!»

لم تمنعهُ توسّلاتي من غرس المكبس وسحب دمي. فشلَت محاولتهُ الأولى فَقامَ بغرس الإبرة ثانيةً، ليُجبرني على الصراخ. ضغطتُ على أسناني وتوقّفتُ عن الكفاح، لعلمي أنّ ذلك لن يجدي نفعًا. لقد ذهبَ بعيدًا جدًّا، واستولى العلم على إنسانيّته. بمجرّد أن ملأ الأنبوب الزجاجي بدمي، ابتسمَ بلطف ونظّفَ بشرتي بقطعة قطن بلّلها بالكحول.

«الآن، لم يكن ذلك سيّئًا للغاية، أليس كذلك؟ وخزة صغيرة لا أكثر. بصراحة يا أختي، تتصرّفين كما لو كُنتُ أعذّبُك. نصف النساء اللواتي حرّرتُهنّ من قيود خطاياهنّ لم يبكين هكذا. حافظي على بعض الكرامة، حسنًا؟»

«ماذا فعلت؟»

قفزَ ناثنيل وتحرّكتُ في كرسيّي، مُندهشينَ من صوت أبي عند حافّة الدرج. لم يصرخ، ما جعلَ الأمر أكثر رُعبًا. جفلتُ بسبب العادة، أكثر من خوفي الفعليّ من إمساكه بي وأنا أفعل شيئًا خطيرًا. من الغريب أنني كنتُ أقل خوفًا من ناثنيل، حتى عندما عرفتُ الفظائع التي قام بارتكابها، مُقارنةً بخوفي من أبي عندما يغضب. ربّما اعتدتُ ببساطة على القناع اليومي الذي ارتداه ناثنيل كابنٍ وشقيق صالح. بينما لم يُخفِ أبي شياطينه أبدًا، وأخافني ذلك أكثر.

«أنت... أنت...» شاهدتُ نظرات أبي تترك قيودي لتتعلّق في القلب الذي يعمل بالبخار، والعضلة في فكّه تتقلّص قليلاً مع انتقال انتباهه إلى العضو الذي يقبع فيه. مشى أبونا إلى الأداة الغريبة، ثم رفع أحد الأنابيب التي تضمّ المادة السوداء. تبعَ الأنبوب حول الطاولة، وتوقّفَ عندما اقترب من والدتنا. في تلك اللحظة رأيتُ جانبًا جديدًا تمامًا من والدي. كان أمامنا

رجلٌ بدا كأنّه يخوض معركةً منذ سنوات وأدرك للتو إنها على وشك الانتهاء. امتصّ نفَسًا عميقًا ووجّه انتباهه إليَّ ثانيةً، وبصرهُ ثابت على قيود ذراعيّ. «كيف أمكنكَ فعل هذا، يا بُنيّ؟»

لقد أزعجَني كوننا جميعًا في سكون. بدا أن ناثنيل عالق على الأرض، عاجز عن تحريك قدميه قيد أنملة، بينما استدار أبي ليُحدّق بهدوء في زوجته، برعبٍ وإنكار مُتزايدَين. قال أبي دون أن يستدير: «حرّر أختَك. الآن.»

«لكن أبي، أنا قريبٌ جدًا من إيقاظ أمّي...» أغمض ناثنيل عينيه في إثر النظرة التي وجّهَها أبي نحوه. «حسنٌ جدًّا إذن.»

أخيرًا، واجهَني أخي، بفكٍّ مشدود وعينَين مُتحدّيتَين. تابعتُ نظراته وهي تقع على معصميّ المُقيَّدَين ووجنتيّ المُبلّلتَين بالدموع. أومأ رأسه باقتضاب، لمرّةٍ واحدة. بدا أن الشحنة القويّة التي تُولّد الكهرباء في الغرفة تتصاعد. لبضع ثوانٍ متوتّرة نظرَ بين المحقنة و أمّنا، وصدره يرتفع وينخفض بسرعة بنفس الإيقاع المجنون للقلب الذي يعمل بالبخار.

«حسنٌ جدًّا.» قام برفع أصابعه عن المحقنة، ثم وضعَها على الطاولة. اندلعت نوبة نشيج من صدري فاستدارَ نحوي من جديد. قوّيتُ نفسي ضدّ خوفي وهو يقترب ببطء، ويتمتم.

صاح الأب: «أسرِع في ذلك.»

أخذ ناثنيل نفَسًا عميقًا، ثم أومأ برأسه مرّةً أخرى، كما لو كان يُطمئن نفسه بشأن أمرٍ ما قبل أن يرخي الحبال على معصميّ في النهاية. حدّقتُ

في أخي، لكنه ببساطة علّق رأسه. هبَّت أصواتٌ هامِسة في أذنيّ: «اركضي! اهربي!» لكنّني لم أستطع دفع قدميّ نحو الدرج.

رفعَ أبي خصلةً من شعر أمّي، وتعبيره خالٍ من كل المشاعر باستثناء شعور واحد: الاشمئزاز. «لم أزعُم أبدًا أنني نجحتُ في رعاية أيٍّ منكما. كآباء، نحن نفعل فقط ما نعتقد إنه الأفضل. حتى لو فشلنا فشلاً ذريعًا في واجبنا.»

تجمّعَت الدموع في زوايا عينيه وهو يواصل التحديق في وجه أمي المُندثر. بلعتُ ريقي، غير واثقة إلى أين أذهب من هنا. علاقاتي العائليّة لم تكن على الإطلاق كما بدَت. اقتربَ ناثنيل من والدنا وحدّق في الأم. كان هذا فوق احتمالي. اضطررتُ لمغادرة المكان.

يُفترَض أن تكون الوحوش مُخيفةً وقبيحة، لا أن تختبئ خلف ابتساماتٍ ودودة وشعرٍ مُعتَنى به جيّدًا. يجب أن لا تُحبَس الطيبة، مهما كانت مُلتوية، في قلبٍ مُتجمّد ومظهرٍ قلِق. لم يكن من المفترض أن يُخفي الحزن الشعور بالذنب. في أيّ عالم يُمكن أن تتعايش مثل هذه التناقضات الصارخة؟ كنتُ أتوق إلى الإحساس بمشرطٍ بين أناملي، ورائحة الفورمالين المُنعشة في الهواء. أردتُ جثّةً تحتاج إلى دراسة تشريحيّة لتنقية ذهني.

عادَ انتباهي إلى والدتي. ربّما يجب أن أركّز على مُعالجة الأحياء من الآن فصاعدًا. لقد رأيتُ من الموت ما يكفي لآلاف الأعمار. ربما لهذا السبب بالتحديد بدأ العمّ وتوماس بتجربة زراعة الأعضاء. توماس! بهزّةٍ مُفاجئة، أدركتُ كم أحببتُه واحتجتُ إلى أن أكون معه. لقد كان الحقيقة الوحيدة المُتبقّية التي فهمتُها في العالم.

«إلى أين تعتقدين أنّكِ هاربة؟» سأل أبي، بنبرة طلب حادّة. حتى الآن، في مواجهة هذا المختبر الشرّير وكلّ ما تمّ الكشف عنه، لا زال يريد حمايتي من العالم الخارجي. لقد أعماهُ غضبه الشديد عن رؤية أنّ هذا المكان هو بالضبط ما كان يمنعني عنه طوال حياتي. يعيش هنا مرضٌ أسوء بكثير من الجدري أو الكوليرا أو الحمّى القرمزيّة. العُنف الوحشيّ أمرٌ مُختلف تمامًا.

«سأصعد إلى الطابق العلوي، وأحبس ناثنيل هنا،» قلتُ مُلقيةً نظرةً أخيرة على أخي وهو يُداعب شعر أمّي. «ثم سأقوم بزيارة إلى سكوتلانديارد. لقد حان الوقت لكلٍّ منّا لأن يتحمّل مسؤوليّة حقيقته، مهما كانت مُلتوية ومُروّعة.»

«لا يُمكن أن تكوني جادّة،» قالها ناثنيل وهو يتطلّع إلى والدنا طلبًا للمُساعدة. انتقلتُ عبر الغرفة، وتمعّنتُ في أبي. بانَ مُنقسِمًا بين الرغبة في القيام بالشيء الصحيح وبين الرغبة في حماية ابنه. تلاشى التردّد من ملامحه.

قال بهدوء: «سيقومون بشنق أخيكِ. هل يُمكنكِ مُشاهدة ذلك حقًّا؟ ألم نُعاني بما فيه الكفاية كعائلة؟»

كان سهمًا اخترقَ قلبي مُباشرةً، لكنني لم أستطع دفن الحقيقة. إذا لم أذهب إلى الشرطة، فسوفَ أعيش ألفَ عُمرٍ في ندم. هؤلاء النساء لم يستحققنَ المُعاناة على الإطلاق. لا يُمكنني تجاهل ذلك.

«أمّي ستنتظر منّي فعل الشيء الصحيح، حتى لو كان صعبًا إلى درجةٍ وحشيّة.»

نظرتُ إلى والدي وشعرتُ بالتعاطف معه. ماذا تشعُر حين تعرف إنّكَ قد ربّيتَ الشيطان؟ ربّما نفس الشعور بمعرفة أنّكَ جلستَ إلى جانب وحش يومًا بعد يوم، دون أن تُلاحظ سواد روحه. حدّقَ أبي في وجهي للحظةٍ طويلة، ثم أومأ برأسه. ابتسمتُ له ابتسامةً باهتة قبل مواجهة أخي. على الرغم من إنه ارتكبَ فظاعات، إلا أنّ قلبي لم يقدر على كُرهه. ربّما كنّا جميعًا مجانين.

«وادزورث؟ أودري روز!» جاءَ صراخٌ مذعور من السُلّم، تبعَهُ وقع أقدام على الدرجات. بعدَ ثانية واحدة، اندفع توماس إلى الغرفة، وبدا مُضطربًا للمرّة الثانية في حياته. توقّفَ أمامي، وعيناه تجريان على وجهي وجسدي، وتتوقّفان على معصميّ. «هل أنتِ بخير؟»

حدّقتُ به بعجزٍ عن الإجابة، وعن إدراك إنه وقفَ معي هنا بالفعل. بدت لمحة ارتياح على وجهه، قبل أن ينظر صوبَ ناثنيل وهو يتحرّك مُبتعدًا داخل الغرفة.

«أقترحُ عليكَ المغادرة قبل أن تصل سكوتلانديارد من أجلك.» نقلَ نظرهُ بين وجه والدي المذهول وناثنيل، ونبرته حزينة مثل تعبيراتهم. «لم تظنّ حقًّا إنني سأظهر دون استعداد، أليس كذلك؟» ابتسمَ لي توماس بحُزن. «أنا آسفٌ جدًّا، أودري روز. هذه حالةٌ أكره أن أكون فيها على حقّ.»

«كيف...» بدأ ناثنيل بالسؤال.

«كيف اكتشفتُ إنّكَ جاك السفّاح سيّء الصيت؟» قاطعهُ توماس مُقتربًا منّي، وقد ازدادَ شبَهًا بنفسه. «الأمرُ بسيطٌ للغاية، بصراحة. شيءٌ ما أزعجَني

منذ الليلة التي قُمنا فيها أنا ووادزورث بمُطاردة والدكَ إلى المنزل، من شقّة الآنسة ماري جين كيلي.»

«ماذا؟» رمقَنا أبي بنظرة عدم تصديق.

«أعتذر يا سيّدي. على أيّة حال، لا توجد صدفٌ في الحياة، خاصّةً عندما يتعلّق الأمر بجريمة قتل. إذا لم تكُن سيادتكَ متورّطًا، فمَن؟»

«مَن حقًّا،» تمتمَ ناثنيل ببرود.

«لقد درستُ المُشرف بلاكبيرن هذا المساء، ووجدتُ أفعاله حقيقيّة. بالإضافة إلى إنه افتقدَ إلى أكبر دليلٍ صادفتُه. عندما راجعتُ التفاصيل في ذهني، خطرَت ببالي فكرة ـ ربّما أشركَ قاتلنا نفسه في تحقيقنا بطريقةٍ ما. لم يُشارك اللورد وادزورث وبلاكبيرن، على الرغم من وجود خيوطٍ قويّة تقودُ إليهما. لم أجد دافعًا واحدًا لأيّ منهما، ولم أعثر على دليلٍ مُحدّد يكشفُ تورّطهما.»

تحرّكَ توماس أمامي مُباشرةً، زارعًا نفسه بيني وبين أخي المُتعطّش للدماء، الذي بدا على وشك انتزاع أطراف توماس من بدنه.

«مع ذلك، كنتَ أنتَ فضوليًّا للغاية بشأن هذه القضيّة. كان إنشاء تلك المجموعة من الأهالي لمسةً لطيفة،» قال توماس بشيء من التقدير. «ثمّ كانت هناك مسألة علاقة هؤلاء النسوة بوالدك. سمحَ استبعادي للّورد وادزورث بإطلاق العنان لذهني. عمّك لديه هذه النظرية الرائعة حقًّا، عن القتلة المُحترفين الذين يقتلون مَن يعرفونهم. على الأقل في البداية.»

منذ الليلة التي قُمنا فيها أنا ووادزورث بمُطاردة والدكَ إلى المنزل، من شقّة الآنسة ماري جين كيلي.»

«ماذا؟» رمقَنا أبي بنظرة عدم تصديق.

«أعتذر يا سيّدي. على أيّة حال، لا توجد صدفٌ في الحياة، خاصّةً عندما يتعلّق الأمر بجريمة قتل. إذا لم تكُن سيادتكَ متورّطًا، فمَن؟»

«مَن حقًّا،» تمتمَ ناثنيل ببرود.

«لقد درستُ المُشرف بلاكبيرن هذا المساء، ووجدتُ أفعاله حقيقيّة. بالإضافة إلى إنه افتقدَ إلى أكبر دليلٍ صادفتُه. عندما راجعتُ التفاصيل في ذهني، خطرَت ببالي فكرة ـ ربّما أشركَ قاتلنا نفسه في تحقيقنا بطريقةٍ ما. لم يُشارك اللورد وادزورث وبلاكبيرن، على الرغم من وجود خيوطٍ قويّة تقودُ إليهما. لم أجد دافعًا واحدًا لأيّ منهما، ولم أعثر على دليلٍ مُحدّد يكشفُ تورّطهما.»

تحرّكَ توماس أمامي مُباشرةً، زارعًا نفسه بيني وبين أخي المُتعطّش للدماء، الذي بدا على وشك انتزاع أطراف توماس من بدنه.

«مع ذلك، كنتَ أنتَ فضوليًّا للغاية بشأن هذه القضيّة. كان إنشاء تلك المجموعة من الأهالي لمسةً لطيفة،» قال توماس بشيء من التقدير. «ثمّ كانت هناك مسألة علاقة هؤلاء النسوة بوالدك. سمحَ استبعادي للّورد وادزورث بإطلاق العنان لذهني. عمّك لديه هذه النظرية الرائعة حقًّا، عن القتلة المُحترفين الذين يقتلون مَن يعرفونهم. على الأقل في البداية.»

انتقلَ انتباه ناثنيل إلى النصل الذي تركه بالقرب من أمّي. أمسكتُ بذراع توماس، لكنه لم يكن قد انتهى من عرض مهاراته في الاستنتاج.

«بينما كنتُ في طريقي إلى سكوتلانديارد الليلة، تذكّرتُ رؤية قطراتٍ من الدم على الجلد المسلوخ لضحيّتنا الأخيرة. من الطريقة التي سقطَت بها القطرات، كان واضحًا أنها لم تأتِ من الآنسة كيلي. قادَني هذا إلى استنتاج أنّ قاتلنا مُصابٌ بجروح.»

«وكيف، بالضبط، قادَكَ ذلك إلى هنا؟» سأل ناثنيل، وهو يتحرّك نحو السكين على الطاولة.

لم يخَف توماس، رغم أنني كنت على وشك الصراخ أو القفز نحو السلاح بنفسي. «تذكّرتُ رؤية جروح في أطراف أصابعك قبل أسابيع قليلة. في ذلك الوقت لم يكن من المهم التعليق عليها. بينما كنتُ أمشي عقليًا خلال جريمتكَ الأخيرة، فهمتُ أخيرًا أين أخفيتَ سلاحك.»

استلّ سكّينًا بسرعة من داخل معطفه، ليُفاجئنا جميعًا بحمله للسلاح.

«لقد تمكّنتُ من تكرار نفس الجروح على نفسي. أترى؟»

شدّ ناثنيل قبضتَيه، مُحدّقًا في توماس كأنّه فأر يجب إبادته على الفور. «لا بدّ إنّكَ تشعر بذكاءٍ مُفرط.»

كان التعبير المُتعجرف، الذي يكسو عادةً وجه توماس، غائبًا عندما التقَت عيناه بوجهي. «الشيء الوحيد الذي أشعر به هو الأسف المُفرط لأنّك آذيتَ أختكَ بشدّة.» نظرَ توماس حول الغرفة، ثمّ تفقّدَ ساعة جيبه.

«لم أمزح بشأن سكوتلانديارد. لقد أخبرتُهم بحدوث جريمة في هذا المنزل. إمّا أن تبقى وتقبل مصيرك وإمّا أن تبدأ من جديد. كُن الأخ الذي آمنَت أودري روز بوجوده، والابن الذي يستحقّهُ والدك.»

نظر أبي إلى توماس بتقدير لامع في عينيه. كان توماس يعرض على أخي فرصةً في الحياة، فرصة للتكفير عن خطاياه، مع علمه بأنّ الشرطة ستبحث عنه. لم يكن ذلك صحيحًا، لكنّها فرصةٌ كنتُ على استعداد لاستغلالها من أجل عائلتي. أخذتُ نفسًا عميقًا مرتعشًا وواجهتُ أخي. «إمّا أن ينتهي عهدُ إرهابك، وإمّا أن تنتهي حياتك. أنتَ صاحب القرار.»

أطلقَ ناثنيل نوبةً عصبيّة من الضحك، قبل أن يُصبح تعبيره باردًا. «هذا تحذيرٌ لك، أيتها الأخت العزيزة. إذا هدّدتِني مرّةً أخرى، فسوف أدمّركما أنتِ وصديقكِ الأحمق قبل أن يحلم حتّى بإيجادي.»

«ناثنيل.» هزّ أبي رأسه. «لا تُهدّد أختك.»

آلمتني كلمات ناثنيل، لكن ليس بقدر النظرة الجليديّة التي رمقَني بها، الخالية من كلّ الدفء الذي جعلهُ أخي. مدَّ توماس يده، شاعرًا بألمي. كان يُقدّم لي قوّته وقبلتُ أخذها بكلّ سرور. لقد حان وقت إنهاء هذا الكابوس. التفتُّ لإلقاء نظرة أخيرة على أخي، على أمل أن أتذكّره تمامًا كما كان قبل أن أغادر. لكنّهُ لم يعُد يُراقبني بتلك العيون الباردة الميّتة.

لقد أمسكَ بالمحقنة وقلبَ المفتاح الكهربائي، عازمًا على إنهاء عمله الشنيع. ومضَ الضوء الأزرق والأبيض بِطَنين، مُخترقًا الهواء بقوّته، وهو يجري على طول الإبرة وفي نعش أمّي. شيءٌ ما لم يكن صحيحًا. هناك

خللٌ في عملية ناثنيل. كان من المفترض أن يحقن أمّي بالدم أولاً، ثم يقلب المفتاح. لكن لماذا؟ دارَ ذهني بينما امتلأ الجوّ بالطنين الكهربائي. رفعَ ناثنيل المحقنة المعدنيّة، وبزغَ إدراكٌ فظيع في ذهني متأخّرًا بمقدار ثانية واحدة بالضبط.

«لا!» صرختُ وامتصّ صوتي الضجيج. تمسّكَ بي توماس بسرعة وأنا أقاوم بين ذراعيه. كنتُ بحاجة إلى الركض نحو أخي لإنقاذ حياته البائسة. حدّقَ ناثنيل إليّ دون أن يراني، وصرختُ عليه من جديد. «لا! ناثنيل، لا يجب عليك فعل هذا! اتركني!»

كانت الضجّة هائلة، جعلَت أسناني تصطكّ والتنفّس شبه مستحيل. بدا أخي غير مُتأثّر. صرختُ مرّةً أخرى، دون جدوى.

«أوقِف هذا الجنون ناثنيل،» زأر الأب وسطَ الضجيج. «قلتُ...»

غرسَ أخي المحقنة في صدر أمّنا، واتّصلَ المعدنُ بالمعدن مُباشرةً دون عازل. ترنّحَ جسد أمّي إلى الأمام قبل أن يتهالك من جديد على الطاولة وهو يرتعش. رفعتُ بصري عنها، بيأسٍ لمساعدة أخي.

«ناثنيل!» صرختُ بينما كان يرتجف في مكانه، عاجزًا عن إسقاط الحقنة المعدنية وفصل نفسه عن التيّار الخبيث. تدفّقَت دماءٌ من أنفه وفمه في نفس الوقت الذي تصاعدَ فيه الدخان حول ياقته. صارعتُ وركلتُ مثلَ حيوانٍ برّي يرفضُ أن يُروّض.

«اتركني توماس! دعني أذهب.»

«لا يُمكنكِ مُساعدته،» قال توماس وذراعاه ملتحمتان حول جسدي

كالقفص. «إذا لمستِه الآن، فسوف تواجهين نفس مصيره. أنا آسف، أودري روز. آسفٌ جدًّا.»

انهرتُ بين ذراعي توماس، مع علمي بأنّهُ لن يسمح لي أبدًا بإلقاء نفسي إلى الموت. شعرتُ كأنّ سنواتٍ قد مرّت عندما أفلتَ ناثنيل فجأةً من القوّة، ليرتمي جسده على الحائط ثمّ يتكوّم بملابسه المُحترقة.

غلّفَ الصمت الغرفة مثل الثلج المُتساقط حديثًا. أصبح كلّ شيء هادئًا جدًّا وعاليًا جدًّا على حين غرّة. حتى الآلات توقّفَت عن الضخّ أخيرًا. اهتزّ جسد أمّي ثانيةً، ثمّ سقطَ دون حراك.

رمشتُ بعينيّ، واحتجتُ إلى التركيز على الأهوال فُرادى. تحوّلَ انتباهي إلى أخي. تعلّقَ رأس ناثنيل بزاويةٍ قاتلة، لكنّني لم أستطع قبول ذلك. لن أفعل. سوف يستيقظ. سيتألّم ويُعاني من كدمات، لكنّه سيعيش. كان أخي شابًّا وسيعيش ليُكفّر عن خطاياه. سيعتذر ويطلب المُساعدة لإصلاح كلّ ما جعله عنيفًا. سيستغرق الأمر وقتًا، لكن ناثنيل القديم سيعود إلينا. انتظرتُه كاتمةً أنفاسي. سوف يقوم، يجب عليه ذلك. ملأت رائحة الشعر المحروق الغرفة، وقمتُ بقمع غثياني المُتزايد.

شاهدتُ والدي ينهار ببطء على ركبتَيه، ويغطّي وجهه بيديه ليبكي. «ابني الغالي.»

لقد فاقَ هذا قدرتي على الاستيعاب. شعرتُ بنفسي أتأرجح، لكن كان عليّ التأكّد من شيء واحد قبل أن أفقد نفسي. ألقيتُ نظرةً على جسد أمّي، وارتحتُ لأنّها لم تتحرّك. ثمّ صدمَني حزنٌ فظيع: جنون ناثنيل برُمّته كان من أجل لا شيء.

«أرجوك. أرجوك انهض.» حدّقتُ في شعر أخي المُدمَّر. أردتُه أن يقف وأن يمدّ يده إلى ذلك المشط اللّعين. كان بحاجة إلى إصلاح شعره. لقد كره أن يراه أحد وشعرهُ هكذا. قمتُ بالعدّ بصمت إلى الثلاثين، وهي أطول فترةٍ يقضيها دون أن يُعالج شعرهُ الكارثيّ. بلغتُ الواحد والثلاثين، ولم يتحرّك بعد.

سقطتُ على الأرض، ألهثُ بإدراكٍ مُتزايد. لن يهتمّ ناثنيل بشعره مرّةً أخرى. لن يشرب قطّ زجاجةً أخرى من البراندي المستورد. لن يتنزه معي ثانيةً مع سلّة من فورتنام آند مايسون أو يُساعدني على الهروب من سجن أبي الجميل. لقد ارتكبَ أفعالاً مُروّعة، ثمّ تركَني لألملم أشلاء حياتنا المُحطّمة، لوحدي.

صرختُ حتّى تيبّسَت حنجرتي. حاولَ توماس تهدئتي، لكنّ كلّ ما فكّرتُ فيه إنّ جاك السفّاح قد مات. أخي قد مات. واصلتُ الصراخ حتى ضمّني الظلام في أحضانه الرّحبة.

30

الموت لأجل الحياة

مختبر د. جوناثان وادزورث، هايغيت

23 نوفمبر 1888

«استخدمي المنشار العظميّ الأكبر لقطع الجمجمة.»

ارتعدَت يدا عمّي، لكنه لم يلمس النصل. لقد علمَ إنني بحاجة إلى الإلهاء أكثر مما احتاج هو لإجراء تشريح هذه الجثّة. أخذتُ نفَسًا عميقًا وضغطتُ بكلّ قوّتي، مُحرّكةً الحافة المُسنّنة ذهابًا وإيابًا. هذه المرّة ارتديتُ قناع الوجه لتجنّب تنفس غبار العظام. شاهدتُ عمّي يقوم بهذا الإجراء لمرّاتٍ عديدة، وعلمتُ بوجود بعض الأشياء التي لم أرغب في التعرّض لها.

لقد مرَّ أسبوعان طويلان منذ أن دفنّا ناثنيل بجانب أمّي. كان أبي مُنعزلاً أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وبدأتُ أفقد نفسي ببطء بسبب الجنون. بدا المنزل فارغًا، مُتجهّمًا، كأنّه حزينٌ على خسارته. من العجيب قُدرة شخصٍ واحد على ملء مساحةٍ كبيرة، قبل أن يتركها فارغةً للغاية عند رحيله. لا شيء كما هو، ولن تعود الأشياء كما كانت مرّةً أخرى. لم أفقد أخي فحسب، بل كان

عليَّ خوض معاناة معرفتي للقاتل الذي تحوّلَ إليه في الأشهر الأخيرة من حياته. أخفى اللورد إدموند تورّط ناثنيل، ولم أسألهُ كيف. في يومٍ من الأيّام، سأسمح للجميع بمعرفة الحقيقة، لكنّ الألم لا يزال قاسيًا الآن.

انزلقَت دمعةٌ على خدّي، لكنني واصلتُ نشر الجمجمة، ولم أكلّف نفسي عناء مسحها. كانت بعض الأيام أفضل من غيرها. في الأيّام الجيّدة، بكيتُ فقط قبل النوم، أمّا في السيئة منها، فأجدُ نفسي أبكي بشكلٍ عشوائيّ طوال اليوم.

«حسنًا. الآن ارفعي الجزء العلوي من القحف لأعلى،» قال العمّ، مشيرًا نحو النصف العلويّ. ذكّرَني شكله بالجانب الصغير من البيضة. «قد تُظهِر بعض المقاومة في البداية، لكنّها سترضخ تحت الضغط المُناسب. أدخِلي المبضع وادفعيها.»

عملتُ وفق التعليمات، حتّى انسحب الجزء العلوي من الجمجمة، بصوت لا يختلف كثيرًا عن صوت جرّةٍ مختومة تمّ فتحُها. فاحَت رائحةٌ كريهة في الفضاء من حولنا، وبانَت حتّى عبر قناعي. سعلَ توماس، ولفتَ انتباهي إليه لفترةٍ وجيزة. في الحقيقة، لقد نسيتُ إنهُ هنا. كان يجلس بهدوء في زاوية المختبر، يكتب الملاحظات ويدرس مُفكّرات أخي. لم أستطع تحمُّل قراءتها حتى الآن، على الرغم مما سمعتُه عن كمّ العلم الواسع الذي تحتويه. قد ينتهي الأمر بخريف الرّعب الخاصّ بأخي بأن يُستعمَل للخير في يومٍ ما. كان توماس يأمل بقدرته على إجراء عمليّة زرع ناجحة لشخصٍ حيّ خلال حياته، ولم أشكّ في ذلك.

سلّمَني عمّي صينيّةً ووضعتُ الجزء العلوي من القحف عليها. «الآن،

سترغبين في إزالة هذه القطعة الصغيرة من الدماغ... هنا.» استخدم العمّ مشرطًا للإشارة إلى العيّنة. قطفتُ المشرط من يديه وقرّبتُه إلى المخّ عندما طُرقَت الباب. مدّت خادمةٌ رأسها قبل أن تقوم بإنزال عينَيها إلى الأرض. لا أستطيع لومها؛ فلا شيء جميل في التعفّن.

«اللورد وادزورث في الصالون. يودّ التحدّث مع الآنسة أودري روز، سيّدي.»

أصدرَ العم صوتًا غاضبًا وألقى بيديه في الهواء. «إذن أخبري اللورد وادزورث بأنه سيتعيّن عليه إمّا انتظارنا أو أن يُباركنا بوجوده في المختبر. هذا لا يُمكن أن ينتظر.»

تجرّأت الخادمة على إلقاء نظرة على منضدة الجثث حيث كنتُ أقف، بمئزري الدمويّ ويديّ المُلطّختَين بالموت. تمكّنتُ من رؤية حلقها يتحرّك وهي تبلع ريقها. «جيّدٌ جدًّا يا سيّدي. سأخبره.»

قبل أن ينطق العم بكلمةٍ أخرى، اختفت من فوق السلم. نظرَ إليّ توماس وقدّم ابتسامةً حذرة. إذا كان أبي هنا، فهذا يعني إنني في ورطة وسأعود إلى سجني المُذهّب، حتى لو ركلتُ وصرختُ خلال ذلك. تنهّدت. كان أبي مُلزمًا بملاحظة غيابي عاجلاً أم آجلاً، ولم أخفِ نشاطي عنه كثيرًا كما اعتدت في السابق.

«سأذهب إليه يا عمّي. يُمكن لتوماس إنهاء هذا الدرس من أجلي.»

فككتُ مئزري وسحبتُه فوق رأسي. لم تكن هناك حاجة لمنح أبي سببًا آخر للصراخ بشأن افتتاني غير المقبول بالطبّ الجنائيّ. ذهبتُ لوضع

الحياة. لم أخدع نفسي في التفكير بأنّني سأقتنع بالبقاء في المنزل والعناية به، لكنّني سأبحث عن طريقةٍ أخرى لإرضاء روحي. مدّ والدي يده نحوي فَجفلت. التمعَت عيناه. «هل كنتُ قاسيًا لدرجة أنّكِ تخافين مني؟» هززتُ رأسي. لم يكن ليضربني أبدًا، وشعرتُ بموجةٍ جديدة من الخزي لردّ فعلي. «لقد كنتُ أفكّر بعض الشيء.»

سحبَ مظروفًا من جيب معطفه واستنشق بعُمق. «بعد وفاة والدتك، بدا الأمر كما لو أنّ كلّ ظلٍّ قد مدَّ مخالبه، مُهدّدًا بسرقة كلّ ما أحبّ.»

حدّقَ أبي في الظرف بين يديه. «الخوف وحشٌ جائع. كلّما أطعمتِه، زادَ نموه. كانت نواياي المُضلّلة جيّدة، لكنني أخشى إنها لم تجرِ كما خطّطت.» نقرَ على قلبه. «ظننتُ إنه بإبقائكِ قريبةً مني، والحفاظ عليكِ آمنةً في المنزل، يُمكنني حمايتك من مثل هذه الوحوش.»

مرّت بضع لحظات، ورغبتُ في مدّ يدي وعناقه، وقول شيء ما، لكنّني لم أقدر. شيءٌ ما في هذه اللحظة كان هشًّا للغاية، فقاعةً من الصابون تطفو فوق ماء الاستحمام. وقفَ باستقامة أكثر والتقى نظره أخيرًا بنظري. «هل تعلمين أنني تحدّثتُ مع عمّكِ الأسبوع الماضي؟»

عقدتُ حاجبيّ. «أخشى إنه لم يذكر ذلك.»

جذبَت ابتسامةٌ عفويّة زوايا فمه. «لقد حان الوقت لأن يستمع لي الأحمق العنيد.» سلّمَني المُغلّف. «طلبتُ منه أن يُقدّم لكِ بكلامٍ طيّب. أنتِ ذكيّةٌ وجميلة، وفي الحياة إمكاناتٌ لا حصر لها لكِ. وهذا هو بالضبط سبب إرسالي لكِ بعيدًا.»

دارَ السلّم أمام عينيّ، وكدتُ أتأرجح إلى الوراء. كان هذا أسوأ بكثير مما تخيّلت. شدّ الذعر رئتيّ معًا.

«لا يُمكنكَ إبعادي!» بكيت. «أعدُكَ أنّني سأكون جيّدة. لا مزيد من الجثث أو التشريح أو تحقيقات الشرطة. أقسم بذلك!»

تقدّمَ أبي وفعل آخر شيء توقّعتُه أن يفعله. ضمّني بين ذراعيه وقبّلَ أعلى رأسي.

«طفلتي الحمقاء،» قال بلُطف. «أنا أرسِلكِ إلى مدرسة الطبّ الجنائيّ. إنها الأفضل في أوروبا. قمتُ بكلّ اتصالاتي ومع كلمة عمّك الطيبة سنضمن لكِ مكانًا في الفصل. ستُغادرين إلى رومانيا في غضون أسبوع.»

تراجعتُ بما يكفي للنظر في عيني أبي. شيءٌ ما خطفَ أنفاسي وعزّزَ روحي: الفخر. كان والدي فخورًا بي، ومنحني الحرّية التي تقتُ إليها. هذه المرة جاءَت الدموع لسبب مختلف تمامًا. «هل هذا حقيقيّ فعلاً؟ أم إنني أحلم؟»

لا بدّ إنني بدوتُ مثل سمكة مُنتزَعة من الماء، تبتلع الهواء بشغف. أغلقتُ فمي وحدّقتُ في أبي. موافقته على هذا كان حقًّا معجزة، وربّما وهم. تمعّنتُ فيه، مُحاولةً كشف ما إذا عاد لإساءة استخدام الدواء مرّةً أخرى. ضحكَ على تعبيري القلِق. «لقد أكدّ لنا توماس إنه سيعتني بكِ وأنتما بعيدان. إنه شابٌّ عالي المسؤولية، حسبما سمعت.»

ارتفعَت حواجبي. «توماس... هل هو ذاهبٌ أيضًا؟»

أومأ أبي. «كانت فكرته.»

«آه؟» لم أصدّق ذلك. لقد استحوذ توماس على ثقة والدي تمامًا كما قال. عانقتُ والدي، وما زلتُ غير مصدّقةٍ لحظّي. «كلّ هذا رائع، لكن... لماذا؟»

قرّبني أبي إليه. «لقد حاولتُ بطريقتي الخاصة حمايتك من قسوة وأمراض العالم. لكن ليس من المُفترض أن يعيش الشباب والشابّات في أقفاصٍ مُذهّبة. هناك دائمًا فرصة لدخول بعض العدوى. لكنّني أثقُ في أنّكِ ستُغيّرين هذا. ومن أجل القيام بذلك، يجب أن تُغامري بالخروج إلى العالم، فتاتي الحلوة. عِديني بشيء واحد، حسنًا؟»

«أيّ شيء يا أبي.»

«عزّزي ونَمّي دومًا فضولَكِ الذي لا يشبع.»

ابتسمت. كان هذا وعدًا أنوي الوفاء به من كلّ قلبي.

مُلاحظات المؤلّفة

التغييرات التاريخية والابداعية

استخدمَت الصحف مصطلح ذو المئزر الجلديّ فيما يتعلّق بجاك السفّاح في 4 سبتمبر، وليس في 31 أغسطس، وأشيرَ إلى المُشتبه به جون بيزر بالاسم في 7 سبتمبر. لقد قمتُ بتعديل هذه التواريخ لخدمة غرضي بشكل أفضل، وحذفتُ اسم بايزر تمامًا لتجنّب إرباك الحبكة بشخصيّاتٍ دخيلة.

في 10 سبتمبر، تمّ بالفعل تشكيل لجنة من الأهالي، سُمّيت لجنة حراسة وايتشابل. باستخدام هذه الفكرة، قمتُ بإشراك ناثنيل وتوماس، وأعطيتُهما سببًا قويًا للتجوّل في الشوارع في الليالي التي أعقبَت الجرائم كجزء من فرسان وايتشابل. مع ذلك فقد جعلتُهم يخرجون في 7 سبتمبر (وهو في الحياة الواقعية المساء السابق لاكتشاف جثّة آني تشابمان)، لذا فهو تعديل آخر للجدول الزمنيّ التاريخي فيما يتعلق بمجموعة الحراسة.

كما أنني لم أذكُر أنّ جون بيزر قد اعتُقل في 10 سبتمبر باسم «ذي المئزر الجلديّ». هناك الكثير من الرجال الذين تمّ اعتقالهم كمُشتبهٍ بهم، وخشيتُ ألّا يضيف هذا شيئًا إلى القصّة سوى إرباك القرّاء بالعديد من الأسماء والنهايات المغلقة. تمّ اعتقال الرجال التالية أسماؤهم في سبتمبر / أيلول فقط:

جون بيزر

إدوارد ماكينا

جاكوب إيسنشميد (اتّهمَ بأنه السفّاح وأودِعَ في المصحّ)

تشارلز لودفيغ (ألقِيَ القبض عليه بعد أن هدّد شخصين بسكّين)

لم أجد لدى ماري آن «بولي» نيكولز تاريخ في العمل لعوائل الطبقة العليا في لندن خلال بحثي عن خلفيّتها. أخذتُ حرّيتي في تخيّل شكل حياتها المُمكن قبل أن تترك زوجها، وتصبح عاهرة ومُدمنة على الكحول، لتنتقل من بيت عمل إلى آخر في أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر. أردتُ إظهار الجانب الإنساني لهؤلاء النساء، وليس فقط مشاهد الجريمة المروّعة التي كُنّ جزءً منها في نهاية حياتهنّ. لقد كُنّ زوجاتٍ وأمهاتٍ وأخواتٍ وبنات، ولسنَ فقط عاهرات منسيّات، لا يتذكّرهنّ إلا الموت.

كانت إيمّا إليزابيث سميث امرأةً أخرى تخيّلتُها كثيرًا. هناك نظريّاتٌ مُتضاربة حول ما إذا كانت في الواقع ضحيّة مبكّرة لجاك السفّاح، لكنني أردتُ حقًّا إدراجها في هذه الرواية لأنني فُتِنتُ بغموض حياتها قبل أن تصبح عاهرة. على الرغم من وجود شائعات حول قدومها من طبقة النُخبة، لا يوجد دليل ملموس على إنها نبيلة الأصل. ادّعى الأشخاص الذين عرفوها إنها تحدّثَت بشكل مختلف، مما يعني أن لديها فهمًا راسخًا للّغة الصحيحة، وهو أمر نادر بالنسبة للأشخاص الذين عاشوا في إيست إيند في ذلك الوقت. لم تقُل شيئًا تقريبًا عن أصلها ومِن أين أتت، مما جعلني أطرح السؤال المهمّ للغاية، ماذا لو؟ ماذا لو كانت حقًّا جزءًا من الطبقة الأرستقراطية؟ هناك

تقارير تفيد بأنها ربما تكون قد عرفت الجُناة الذين هاجموها، مما منحَني شرارة فكرة لخلق خلفيّة جديدة لها. كان اللغز المحيط بحياتها وموتها لوحةً فارغة يُمكنني استكشافها كثيرًا من خلال مخيّلتي.

تاريخ مقتل آني تشابمان وتفاصيل ثيابها أقرب ما يكون إلى الواقع وبقدر الإمكان. كانت تشرب الخمر بكثرة وتستخدم أموال الإيجار لشراء الكحول. رفضَ مسؤول السكن مكوثها حتى تتمكّن من الدفع، فخرجَت لكسب بعض المال. كان زوجها يدفع لها عشرة شلنات أسبوعيًّا، لكن ذلك انتهى عام 1886، عندما وافتهُ المنيّة، وليس عام 1888، عام وفاتها.

لم تُذكَر إليزابيث سترايد بالاسم في هذه الرواية، رغم إنها كانت واحدة من ضحايا الحدث المزدوج الشائن.

كانت كاثرين إدوز الضحية الثانية في الحدث المزدوج. احتفظتُ بتاريخ دفنها وأضفتُ الباقي حول لقاء روبرت جيمس ليز مع أودري روز وتوماس عند القبر. لقد عرض مساعدته على سكوتلانديارد في هذا الوقت، لذلك أعدتُ تخيّلهُ وهو يُقدّم مساعدته لأودري روز وتوماس بدلاً عن ذلك.

كانت ماري جين كيلي شخصًا حاولتُ الحفاظ عليه من الناحية التاريخية قدر استطاعتي. قمتُ بتضمين بعض من مُحادثة جاك وماري جين كيلي ووصف ما كانت ترتديه ليلة موتها في الرواية، على الرغم من أنني قمتُ بتعديل الأوقات وتسلسل الأحداث بعض الشيء. لقد سمعوها تُغنّي «بنفسجة من قبر أمّي» عندما كانت في شقّتها مع السفّاح، وليس خارجًا في الشارع، وكانت ترتدي شالاً أحمر، بحسب شاهد عيان.

لم يكن من الممكن الوصول إلى منزل شارع ميلر عن طريق العربة خلال هذا الوقت، لكن لغرض قصّتي، فقد صنعتُ ذلك، ما وفّرَ لأودري روز وتوماس مكان اختباء لائق لرحلة التجسّس في منتصف الليل.

تمّت طباعة الفاكسات لرسالة «عزيزي المدير» والبطاقة البريدية «جاك الماجن» في الواقع يوم 4 أكتوبر (في الإيفننغ ستاندرد)، وليس في 1 أكتوبر. كانت المطبوعات السابقة للرسائل نصّية فقط (في 1 و3 أكتوبر، في ديلي وستار نيوز)، وليست نسخًا مُصوّرة من الرسائل الفعليّة.

لم يحضر سيرك بارنوم آند بيلي إلى أولمبيا بلندن حتى نوفمبر 1889 (الخريف الذي أعقب هذه القصة)، لكن نظرًا لأن الملكة كانت من المُعجبين به، ومئات جولات السيرك الفيكتوري قد سافروا عبر أوروبا خلال هذه الفترة الزمنية، فقد قرّرتُ تضمينه. توفّي الفيل جامبو المسكين أيضًا في عام 1885، ولم يكن ليُسعد الجماهير.

كان العرّاف والروحانيّ روبرت جيمس ليز رجلاً حقيقيًا عرض مساعدته على الشرطة في عدّة مناسبات في جرائم جاك السفّاح. بينما كانت الروحانية لا تزال تحظى بشعبيّة كبيرة في جميع أنحاء الولايات المتحدة وأوروبا (حتى بعد ثبوت أن بعض الروحانيين والوسطاء محتالون)، لم تقبل سكوتلانديارد مساعدته. لم يتمّ تأكيد ذلك مطلقًا، لكن هناك شائعات بأنه تواصل أيضًا مع الأمير ألبرت للملكة فيكتوريا وأقام في القصر.

حاولتُ أيضًا الاحتفاظ بجميع المصطلحات والممارسات الطبية بأقرب ما يُمكن إلى تاريخ استخدامها الفعليّ. طُبِعت الكتب التي تستخدم مصطلح العلم الجنائيّ أو الطبّ الجنائي في القرن التاسع عشر. واستخدم الأطباء/

الفاحصون الطبّيون أشياء مثل درجة حرارة الجسم لتحديد وقت الوفاة، على الرغم من إدراكهم أن فقدان الدم ودرجات الحرارة الباردة يؤثّران على دقّة تقديراتهم. طور جوزيف ليستر فكرة تعقيم الأدوات أثناء العمليات الجراحية في ستّينيات القرن التاسع عشر باستخدام حمض الكاربوليك، وتم اكتشاف التعرّف على بصمات الأصابع في أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر. على الرغم من عدم امتلاكهم جميع الأدوات التي لدينا الآن، فقد قامت الشرطة في القرن التاسع عشر بالبحث في مسرح الجريمة وجمع الأدلّة بطريقةٍ مشابهة لما هو مُتّبَعٌ اليوم.

كما هو مذكور على موقع نيويورك ستيت تروبرز (تحت عنوان «نظام مختبر الجرائم: تاريخ علوم الطبّ الجنائي»)، تمّ تطبيق الممارسات التالية خلال القرن التاسع عشر:

شهد مجال الطب الجنائيّ في القرن التاسع عشر تقدمًا كبيرًا. منه:

- أول استخدام مُسجّل لتحليل الوثيقة المشكوك فيها.
- تطوير اختبارات وجود الدم في سياق الطب الجنائيّ.
- استخدام مقارنة الرصاصات للقبض على قاتل.
- أول استخدام لعلم السموم (الكشف عن الزرنيخ) في محاكمة أمام هيئة محلّفين.
- تطوير أول اختبار بلّوري للهيموغلوبين باستخدام بلورات الهيمين.
- تطوير اختبار افتراضيّ للدم.
- أول استخدام للتصوير الفوتوغرافي للتعرّف على المجرمين وتوثيق الأدلّة ومسرح الجريمة.

- أول استخدام مُسجّل لبصمات الأصابع لحلّ جريمة.
- تطوير أوّل مجهر بمنصّة مُقارنة.

تم تطبيق العلوم الجنائية بشكل واسع عام 1888، عندما سُمح للأطباء في لندن بفحص ضحايا جاك السفّاح بحثًا عن أنماط الجروح.

أيّة أخطاء تاريخية أخرى غير مذكورة كانت حُرّيات فنية اتّخذتُها لإثراء عالم «مُطاردة جاك السفّاح» وخدمة شخصياتي بشكل أفضل.

شكر وتقدير

بدون مساعدة أشرس وكيلة مُحاربة في العالم، باربرا بويل، لم تكن هذه التشكّرات موجودة. شكرًا لك على إطلاق العنان لغودزيلا باني من أجلي، باربرا. لقد فعلناها! إلى الفريق بأكمله في IGLA لكونهم أفضل وكالة. إلى هيذر شابيرو لإيصال كتابي إلى أيدي القراء في جميع أنحاء العالم.

شكراً جزيلاً لمُحرّرتي الذكية وزميلتي المتحمّسة للملابس الفيكتوريّة، جيني باك، لدقّة الخبراء في جعل قصة أودري روز تنبض بالحياة. كتابي أقوى بكثير بسببك. لا أستطيع أن أشكرك بما فيه الكفاية للاهتمام بنا أنا والفتاة المتشاجرة مع الجثث. أنا مُتحمّسة لخوض المغامرات الجديدة التي ستأخذنا إليها أودري روز مع توماس! إلى ساشا هينريكي للتعليقات التي تجعلني أبتسم دائمًا. (شنيعة ومثيرة!)

إلى جيمس باترسون على المُقدّمة الرائعة، ولجعلي أنا وروايتي نشعر كأنّنا في المنزل مع طباعتك. مطبوعات جيمس باترسون تعني لي العالم المطلق، ويُسعدني أن أكون جزءًا منها. إلى تريسي شو، التي تسبب غلافها الرائع في موجة من علامات التعجب وصور GIF الراقصة. إلى إيرين ماكغراث، من أجل خطّة الدّعاية الرائعة. نيد راست، سابرينا بينون، بيغي فرودينتال، كاتي تاكر، والفريق بأكمله في مطبوعات جيمي باترسون وليتل

براون آند كومباني. عملكم الشاقّ وتفانيكم هائلٌ حقًّا. لقد حظيتُ بأفضل تجربة نشر أولى بفضلكم جميعًا.

أمّي وأبي، أشكركم دائمًا على تشجيعي للوصول إلى النجوم (أو المشرط أو فرشاة الرسم أو القلم) ولم أفكر أبدًا في أن شيئًا ما بعيد المنال بسبب جنسي. أعرف أن كلمة «مستحيل» يُمكن تحويلها إلى «أنا مُمكن» بسببكما. كيلي، أنتِ أختي المفضّلة (ليس لأنّك أختي الوحيدة). شكرًا على تأنيقي بملابس دوغوود لين بوتيك في كلّ مناسبة ولأنك أفضل صديقةٍ لي. أنا فخورةٌ جدًا بإنجازاتك. أحبّكم جميعًا!

لقد أهديتُ هذا لجدّتي لكنّي بحاجة إلى إضافة هذا: عالمي كله مبني على الكتب وقد وضعَت هي الأساس. لا يسعني إلا الأمل بأنّها كانت ستعشق هذه القصة ـ والأنثى القوية التي حلّت لغز أحد أشهر القتلة في التاريخ ـ بقدر ما فعلت.

إلى البيلاسكوز، كثبرتستونز والليوز ـ أحبّكم! باولا، جيف، مايك، مات، دانيال، آنا، جولييت، كاتي وبن، شكرًا لكم على كل الضحك والطعام المشترك. أنا سعيدة بمعرفة كل واحد منكم. جاكي، أليسا، شانون، وبيت ـ أقرب صديقاتي دائمًا. لا يوجد مكان مثل البيت. لصغار الفراء توبي، والآنسة ليبي، وأوليفر من أجل أسمائهم.

إلى قطّتي بيلا، لإبقاء والدتها على المسار الصحيح باستمرار مع الكتابة ومنحني بطنها، وإلى غيج لكونها محبوبة.

القرّاء الأوائل: رينيه آدي، إيه جي هوارد، وليا راي ميلر، شكراً لا نهائي

على وقتكم وبصيرتكم. فريق بيتا المُميّز: كاثي وكيلي مانسكالكو وآشلي سوبنغر، كنتم الأفضل. شركاء النقد بريسي لاركينز وأليكس فيلاسانت ـ كلماتي وحياتي أكثر ثراء بسببكم. إلى تريسي شي، التي قامت، قبل أسبوعين من عيد الميلاد، بعصف ذهني خارق ـ على الرغم من إنها كانت في الموعد النهائي المُحدّد لها ـ وقدّمت ملاحظات وتعليقات رائعة. يسعدني أن أشارككم رحلة النشر هذه. إلى الغوتبسي، أفضل مجموعة كتابة. ذا سويت سكستينز، يا لها من رحلة! إلى ستيفاني غاربر لكونها رفيقة بي في BEA ـ سعداء جدًا لأننا نُشارك المرح في شيكاغو. فساتين وأحذية مُريحة إلى الأبد!

رينيه آدي وبيث ريفيز، مراجعاتكم جمّلَت حياتي. الكثير من الحبّ لكما!

القراء ومدونو الكتب وأمناء المكتبات وبائعو الكتب وأصدقاء وسائل التواصل الاجتماعي وآفا + فرسان وايتشابل أنا مدينة لكم بجبال من الامتنان على استجابتكم الرائعة! شكرًا على دعمكم لفتاة تحمل مشرطًا وتعشق الفساتين الفاخرة والعدالة للنساء. سأقطف النجوم من السماء من أجلكم.

على وقتكم وبصيرتكم. فريق بيتا المُميّز: كاثي وكيلي مانسكالكو وآشلي سوبنغر، كنتم الأفضل. شركاء النقد بريسي لاركينز وأليكس فيلاسانت ـ كلماتي وحياتي أكثر ثراء بسببكم. إلى تريسي شي، التي قامت، قبل أسبوعين من عيد الميلاد، بعصف ذهني خارق ـ على الرغم من إنها كانت في الموعد النهائي المُحدّد لها ـ وقدّمت ملاحظات وتعليقات رائعة. يسعدني أن أشارككم رحلة النشر هذه. إلى الغوتبسي، أفضل مجموعة كتابة. ذا سويت سكستينز، يا لها من رحلة! إلى ستيفاني غاربر لكونها رفيقة بي في BEA ـ سعداء جدًا لأننا نُشارك المرح في شيكاغو. فساتين وأحذية مُريحة إلى الأبد!

رينيه آدي وبيث ريفيز، مراجعاتكم جمّلَت حياتي. الكثير من الحبّ لكما!

القراء ومدونو الكتب وأمناء المكتبات وبائعو الكتب وأصدقاء وسائل التواصل الاجتماعي وآفا + فرسان وايتشابل أنا مدينة لكم بجبال من الامتنان على استجابتكم الرائعة! شكرًا على دعمكم لفتاة تحمل مشرطًا وتعشق الفساتين الفاخرة والعدالة للنساء. سأقطف النجوم من السماء من أجلكم.

في البداية، طاردَت جاك السفّاح.

هذه المرّة، الأمور على وشك أن تُصبح أكثر دمويّة.

بعد الكشف المروّع عن هويّة جاك السفّاح الحقيقية، غادرَت أودري روز وادزورث من منزلها في لندن الفكتوريّة للتسجيل باعتبارها الطالبة الوحيدة في أرقى مدرسة للطب الجنائي في أوروبا. لكنّ سلسلةً من الوفيّات المُقلقة تثير إشاعات عودة فلاد المُخوزِق المتعطّش للدماء، فتقوم أودري روز ورفيقها حادّ البديهة، توماس كريسويل، بكشف القرائن الخفيّة التي ستقودُهم إلى القاتل الشبيه بالظلّ، حيًّا أو ميتًا.

هل يُمكن أن يكون مُقلّدًا ـ أم أن الأمير الدمويّ دراكولا قد قام من قبره؟

تابع القراءة للحصول على لمحاتٍ من رواية

«اصطياد الأمير دراكولا» بقلم كيري مانسكالكو

أشباح الماضي

قطار الشرق السريع، مملكة رومانيا

1 ديسمبر 1888

شقّ قطارنا طريقه على طول المسارات المتجمّدة، نحو القمم البيضاء كالأنياب لجبال الكاربات. من موقعنا خارج العاصمة الرومانية، بدت القمم بلون كدماتٍ باهتة. نظرًا لتساقط الثلوج الكثيفة، من المحتمل أن تكون القمم باردة كاللحم الميت. فكرةٌ ساحرة لِصباحٍ عاصف.

ضربَت ركبةٌ جانب اللوح الخشبي المحفور في مقصورتي مرّةً أخرى. أغمضتُ عينيّ ودعوتُ أن ينام رفيقي في السفر. قد تؤدّي حركةٌ أخرى من أطرافه الطويلة إلى تفكّك رباطة جأشي. ضغطتُ رأسي على المقعد الفخم عالي الظهر، وأنا أركّز على المخمل الناعم بدلاً من وخز ساقه المُهاجمة بدبّوس القبّعة.

شاعرًا بانزعاجي المُتزايد، تحوّلَ السيّد توماس كريسويل إلى النقر بأصابعه على حافة النافذة في مقصورتنا. مقصورتي أنا، في الواقع. كان لدى توماس مكانه الخاص، لكنّه أصرّ على قضاء كل ساعة من اليوم برفقتي، لئلّا يركب قاتلٌ مُحترف إلى القطار ويُطلِق العنان لمذبحة. على الأقل هذه هي

القصّة السخيفة التي أخبرَ بها مُرافقتَنا السيّدة هارفي، وهي امرأةٌ ساحرة ذات شعر فضيّ، اعتنَت بتوماس أثناء إقامته في شقّته في بيكاديللي لندن، وكانت حاليًا في غفوتها الرابعة لهذا اليوم الجديد.

لقد مرضَ أبي في باريس، ووضع ثقته ومسؤوليتي في رعاية كلّ من السيّدة هارفي وتوماس. كشفَ ذلك كثيرًا عن مدى تقدير أبي لتوماس، وكيف يُمكن أن يكون صديقي بريئًا وساحرًا للغاية عند المزاج أو الوقت المناسب. أصبحَت يديّ فجأةً دافئة ورطبة داخل القفّازات.

تلاشى هذا الشعور عندما انزلق تركيزي من شعر توماس البُنّي الغامق وبدلته الملساء إلى صحيفته الرومانيّة المُهملة. كنت قد درستُ اللغة بما يكفي لأستوعب معظم ما قالته. نصّ العنوان الرئيسي: هل عادَ الأمير الخالد؟ تمّ العثور على جثّة مطعونة بوتد خشبيّ في القلب بالقرب من براشوف ـ المدينة ذاتها التي كنّا نُسافر إليها ـ مما دفع المؤمنين بالخرافات إلى التفكير بالمستحيل: فلاد دراكولا، أمير رومانيا الذي مات منذ قرون، على قيد الحياة، ويقوم بالصيد.

كان كلّ ذلك هراءً يهدف إلى إثارة الخوف وبيع الصحف. لا يوجد كائنٌ خالد. الرجال بلحمهم ودمهم هم الوحوش الحقيقية، ويمكن جرحهم بسهولةٍ كافية. في النهاية، حتى جاك السفّاح نزفَ كما يفعل أيّ رجل. على الرغم من أن الصحف لا تزال تدّعي إنه يجوب شوارع لندن الضبابيّة، وبعضها قال إنه ذهب إلى أمريكا. كما لو أنّ ذلك مُمكن.

ضربَتني صدمةٌ مألوفة في أحشائي، وسرقَت أنفاسي. الأمرُ دائمًا هكذا عندما أفكّر في قضيّة السفّاح والذكريات التي تثيرها بداخلي. عندما أحدّق

في المرآة، أرى نفس العيون الخضراء والشفاه القرمزية ـ وجذور أمي الهندية ونبل أبي الإنجليزي واضحان في عظام وجنتيّ. كل مظهري الخارجي دلّ على إنني لا أزال فتاةً نابضة بالحياة، تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا. مع ذلك، فقد تلقّيتُ ضربةً قاضية لروحي. تساءلتُ كيف يمكن أن أبدو كاملةً وهادئة من الخارج مع معاناتي من كلّ هذا الاضطراب في داخلي.

لقد شعرَ عمّي بالتحوّل الذي حدث في داخلي، ولاحظ الأخطاء غير المُبالية التي بدأت في ارتكابها في مختبر الطب الجنائي الخاص به خلال الأيام القليلة الماضية... لقد نسيتُ استخدام حمض الكاربوليك عند تنظيف شفراتنا، عيّناتٍ لم أجمعها، شقٌّ متعرّج صنعتُه في لحم مُثلّج، على عكس دقّتي المعتادة مع الأجساد على طاولة الفحص. لم يقُل شيئًا، لكنني علمتُ أنه أصيبَ بخيبة أمل. كان من المفترض أن يشتدّ قلبي في مواجهة الموت. ربّما لم أولد لدراسة الطب الجنائي بعد كلّ شيء.

تاب. تاب ـ تاب ـ تاب. تاب.

اصطكت أسناني بينما كان توماس ينقر مع صرير العجلات. نوم السيّدة هارفي عجيبٌ وسط الضوضاء. على الأقل نجح توماس في سحبي من بئر المشاعر العميقة ذاك. المشاعر الساكنة جدًا والمُظلمة جدًا. راكدة وفاسدة مثل مياه المستنقعات، مع مخلوقات حمراء العينين قابعة في القعر.

قريبًا سننزل جميعًا في بوخارست قبل أن نقطع بقيّة الطريق بالعربة إلى قلعة بران، موطن أكاديمية العلوم والطبّ الجنائي. كانت السيدة هارفي ستقضي ليلة أو ليلتين في براشوف قبل أن تعود إلى لندن، وتاقَ جزءٌ مني للعودة معها، رغم إنني لم أعترف بذلك بصوت عالٍ أمام توماس.

فوق قسمنا الخاص، تأرجحت ثريا فاخرة في إيقاع متناغم مع القطار، وتشابكت بلّوراتها معًا لتضيف طبقة جديدة من النغمات إلى نقرات توماس المُتقطّعة. دفعتُ لحنه المتواصل من أفكاري، وشاهدتُ العالم في الخارج يتضبّب بين نفثات البخار وفروع الأشجار المتحرّكة. كانت خالية من الأوراق، مُغطّاة باللون الأبيض اللامع، وتلألأت انعكاساتها على اللون الأزرق المصقول، القريب من خشب الأبنوس، لقطارنا الفاخر.

اقتربتُ أكثر، وأدركتُ أن الفروع لم تكن مغطاة بالثلج، بل بالجليد. لقد التقطَت أوّل ضوء في النهار والتمعت كالنيران في وهج الشمس البرتقالي المحمرّ. كانت هادئة لدرجة أنني كدتُ أن أنسى ـ ذئاب! قفزتُ بسرعة لدرجة أن توماس قفز معي في مقعده. شخرَت السيدة هارفي بصوتٍ عالٍ، أقرب إلى زمجرة. رمشتُ عينيّ واختفَت المخلوقات، لتستبدلها فروعٌ تتمايل مع سير القطار. ما اعتقدتُها أنيابًا متلألئة كانت مجرّد أغصان شتوية. زفرت. لقد سمعتُ صيحاتٍ وهميّة طوال الليل. الآن أرى أشياء غير موجودة خلال ساعات النهار أيضًا.

«سأقوم بمطّ أطرافي.»

رفع توماس حاجبيه الداكنين وانحنى إلى الأمام، وقبل أن يتمكن من عرض مُرافقَتي، هرعتُ إلى الباب وفتحتُه.

«أحتاجُ لبضع لحظات. لوحدي.»

«حاولي ألّا تفتقديني كثيرًا يا وادزورث.» جلس توماس إلى الوراء، وتعكّر وجهه قليلاً قبل أن يعود تعبيره مرحًا. لم تصل الخفّة إلى عينيه

تمامًا. «رغم إن ذلك قد يكون مهمة مستحيلة. أنا، على سبيل المثال، أفتقدُ نفسي بشدّة حين أنام.»

«ماذا قلتَ يا عزيزي؟» سألت السيدة هارفي وهي ترمش خلف نظّاراتها.

«قلتُ لك أن تحاولي عدّ الخراف.»

«هل نمتُ مرّةً أخرى؟»

استفدتُ من الإلهاء، لأغلق الباب خلفي وأمسك بتنورتي. لم أرغب بأن يقرأ توماس التعبير على وجهي، التعبير الذي لم أتقِنهُ بعد في حضوره. تجوّلتُ في الممرّ الضيّق، بالكاد استوعبُ العظمة بينما شققتُ طريقي ببطء نحو عربة الطعام. لم أستطع البقاء هنا دون مُرافِق لفترة طويلة، لكنني احتجتُ للهرب. ولو فقط من أفكاري ومخاوفي.

في الأسبوع الماضي، رأيتُ ابنة عمّتي ليزا تصعد درج منزلي. مشهدٌ طبيعي كأيّ شيء آخر، باستثناء إنها غادرت قبل أسابيع إلى الريف. بعد أيام حدث شيء أكثر ظلامًا. أقسمُ أن جثّةً رفعَت رأسها نحوي في مختبر العمّ، ونظرَت إليّ دون أن ترمش، نظرةً مليئة بالازدراء على الشفرة التي في يدي، وفمها مليء بالديدان التي تدفّقَت على طاولة الفحص. عندما رمشتُ، أصبح كلّ شيء على ما يرام.

لقد أحضرتُ بعض المجلّات الطبّية للرحلة، لكن لم تسنح لي الفرصة للبحث في الأعراض التي أعاني منها مع تفحّص توماس لي علانيةً. قال إنني بحاجة لمواجهة حزني، لكنني لم أرغب في إعادة فتح الجرح بعد. ربّما في أحد الأيام.

بعد بضع مقصورات، انفتحَ بابٌ ليعيدني إلى الحاضر. خرج رجلٌ ذو شعر مصفف بعناية من الغرفة، مُتحرّكًا بخفّة أسفل الممر. كانت بدلته سوداء فاحمة مصنوعة من خامة جيّدة، كما اتضح من طريقة التفافها على كتفيه العريضين. عندما سحبَ مشطًا فضيًّا من معطفه، كدتُ أبكي. شيء في صميمي التوى بعنف حتى تصلّبَت ركبتاي. هذا مستحيل. لقد مات منذ أسابيع في ذلك الحادث المروع. أدرك عقلي استحالة ما أرى، مُبتعدًا بشعره المثاليّ وملابسه المُتطابقة، لكنّ قلبي رفض الاستماع.

جمعتُ تنّورتي الكريميّة في قبضتي وركضت. كنتُ سأميّز تلك الخطوات في أيّ مكان. لم يستطع العلم تفسير قوّة الحبّ أو الأمل. لم توجد صيغ أو استنتاجات للفهم، بغض النظر عمّا ادّعاه توماس فيما يتعلّق بالعلم مقابل الإنسانية.

رفع الرجل قبّعته للركّاب الجالسين لتناول الشاي. كنتُ نصف مُدركةٍ لنظراتهم بأفواه مفتوحة بينما قمتُ بالجري وراءه، وقبّعتي تميل إلى أحد الجانبين. اقتربَ من باب غرفة السيجار، وتوقّفَ للحظة، مُنتظرًا فتح الباب الخارجي للتنقل بين العربات. تصاعد دخانٌ من الغرفة واختلطَ بتيار جليديّ من الهواء، برائحةٍ قويّةٍ بما يكفي لجعل أحشائي تتأرجح. مددتُ يدي، مُستعدّةً لجذب الرجل نحوي ورمي ذراعيّ حوله والبكاء. أحداث الشهر الماضي لم تكن سوى كابوس.

«سيّدتي؟»

وخزَت الدموع عينيّ. لم تكن تصفيفة الشعر والملابس للرجل الذي اعتقدتُ إنهم ينتمون إليه. قمتُ بمسح الجزء الأول من البلل الذي انزلقَ على خديّ، ولم أكترث إن لطّختُ الكحل الذي اعتدتُ وضعهُ حول عينيّ.

رفعَ عكّازًا، وحوّلَها إلى يده الأخرى. لم يكن حتى يُمسك مشطًا. كنتُ أفقد الاتصال بما هو حقيقي. تراجعتُ ببطء، مُلاحظةً الثرثرة الهادئة للعربة التي خلفنا. تكاتفَت طقطقة فناجين الشاي، واللهجات المُختلَطة للمُسافرين حول العالم، وتصاعدَت في صدري. صعّبَ الذعر التنفّس أكثر من المشدّ الذي ربطَ أضلاعي. كنتُ ألهث، مُحاولةً سحب ما يكفي من الهواء لتهدئة أعصابي المُتقلّبة. ارتفعَ الصخب والضحك إلى درجةٍ حادّة. تمنّى جزءٌ مني أن تُسكِت الضوضاء النبض الذي يضرب رأسي. كنتُ على وشك التقيّؤ.

«هل أنتِ بخير سيّدتي؟ تبدينَ...»

ضحكتُ دون اكتراث لارتداده عن ثورتي المفاجئة. آه، إن كانت هناك قوّةٌ عُليا، فقد استمتعَت على حسابي. فهمتُ كلامه أخيرًا: تحدّثَ الرجل بلكنةٍ رومانيّة. لم يكن حتّى إنجليزيًا، ولم يكن شعره أشقرًا بل بنّي فاتح.

قلت: «عذرًا،» وأجبرتُ نفسي على الخروج من حالة الهستيريا باعتذارٍ هزيل. «ظننتُكَ شخصًا آخر.»

قبل أن أحرِج نفسي أكثر، أخفضتُ عينيّ وتراجعتُ بسرعة إلى عربتنا الخاصّة. أبقيتُ رأسي منخفضًا، مُتجاهلةً الهمسات والضحكات، رغم أنني سمعتُ ما يكفي. كنتُ بحاجة لجمع نفسي قبل أن أرى توماس ثانيةً. تظاهرتُ بخلاف ذلك، لكنني رأيتُ القلق يتغضّن في جبينه، وفي العناية الإضافية بالطريقة التي يُمازحني أو يُزعجني بها. فهمتُ بالضبط ما كان يفعله في كلّ مرّة يضايقني فيها. بعد ما مرّت به عائلتي، أيّ رجل نبيل كان سيُعاملني كدُميةٍ من الخزف، سهلة الكسر وغير قابلة للتصليح. لكنّ توماس على عكس الشباب الآخرين.

وصلتُ إلى مقصورتي وألقيتُ بكتفيّ إلى الخلف. لقد حان وقت ارتداء المظهر الخارجي البارد للعلماء. جفّت دموعي وأصبح قلبي الآن قبضةً قويّة في صدري. تنفّستُ برويّة. جاك السفّاح لن يعود أبدًا. هذه حقيقةٌ ثابتة. لا قتلة في هذا القطار. حقيقةٌ أخرى.

لقد انتهى خريف الإرهاب الشهر الماضي. من المؤكد أن الذئاب لم تُطارد أحدًا على قطار الشرق السريع. إذا لم أتوخَّ الحذر، سأبدأ في الاعتقاد بأنّ دراكولا قد نهضَ من جديد. سمحتُ لنفسي بأخذ أنفاس عميقة أخرى قبل أن أزيح الباب لأفتحه، طاردةً كل أفكار الأمراء الخالدين عندما دخلتُ للمقصورة.

المحبوب الخالد

قطار الشرق السريع، مملكة رومانيا

1 ديسمبر 1888

أبقى توماس تركيزه ثابتًا بعناد على النافذة، وأصابعه لا تزال تقرع هذا الإيقاع المُزعج. تاب. تاب ـ تاب ـ تاب. تاب.

ليس من المُستغرَب أنّ السيّدة هارفي كانت تُريح عينيها من جديد. أشارَ شخيرها الناعم إلى إنها عادت إلى النوم. حدّقتُ في رفيقي، لكنّه لم يشعر بي أو تظاهرَ بذلك، فانزلقتُ على المقعد المُقابل له. كان منظره الجانبي عبارة عن دراسة للخطوط والزوايا المثاليّة، كلّها مُتحوّلة بعناية إلى العالم الشتائيّ في الخارج. كنتُ أعلم إنه أحسَّ باهتمامي، لأنّ فمه انحنى ببهجة لا تأتي في ذهنٍ شارد.

«هل يجب أن تستمرّ بهذا النقر البائس، توماس؟» سألتُه. «إنه يقودني إلى الجنون مثل أحد شخصيات بو[1] التعيسة. بالإضافة إلى ذلك، لا بدّ إن السيّدة هارفي المسكينة تحلم بأشياء مروّعة.»

---

(1) بو: إدغار آلان بو هو أديب أمريكي شهير عُرِفَ بقصصه القصيرة المُرعِبة والسوداويّة. (المُترجِم)

حوّلَ انتباهه إليّ، وبدا التفكير في عينيه البُنّية العميقة للحظة. كان ذلك المظهر الدقيق ـ الدافئ والجذّاب مثل بقعة من أشعة الشمس في يومٍ خريفيّ بارد ـ هو الذي يعني وجود متاعب. بإمكاني عمليًّا رؤية عقله يُقلّب الأشياء العنيدة وهو يرفع أحد جانبي فمه إلى أعلى. دعَت ابتسامتُه الملتوية إلى أفكار تجدها العمّة أميليا غير لائقة مطلقًا، وأخبرَتني الطريقة التي سقطت بها نظرته على شفتيّ أنه عرفَ ذلك. الشرّير.

«بو؟ هل ستَقطعين قلبي وتضعينه تحت سريركِ إذن يا وادزورث؟ يجب أن أعترف، إنها ليست طريقة مثالية لأدخل بها في مكان نومك.»

«تبدو متيقّنًا للغاية من قدرتِكَ على سحر أيّ شيء، عدا الثعابين.»

«اعترفي بذلك. كانت قبلتنا الأخيرة مُثيرةً إلى حدٍّ ما.» انحنى إلى الأمام، ووجهه الوسيم يقترب كثيرًا من وجهي. يا لهُ من مُرافِق. تسارعَ قلبي عندما لاحظتُ بقعًا صغيرة في قزحيّة عينيه، بدَت كشموسٍ ذهبية تجذبني صوبَها بأشعتها الساحرة. «قولي لي إنك لا تحبّين فكرة قُبلةٍ أخرى.»

ذكّرتُه: «تقصد القبلة الأولى والأخيرة. كان الأدرينالين يتدفق في عروقي بعد أن كدتُ أموت على يد اولئك الوحوش. ليست قوّتك في الإقناع.»

رفعَت ابتسامةٌ شريرة زوايا فمه بالكامل. «إذا وجدتُ موقفًا خطرًا لنا، فهل سيُغريكِ ذلك ثانيةً؟»

«كما تعلم، أفضّلكَ كثيرًا وأنتَ ساكت.»

«آه...» جلس توماس، وهو يستنشق بعمق. «في كلا الحالتين، أنتِ تُفضّلينني.»

كان يجب أن أعرف أن الوغد سيجد طريقة لتحويل حديثنا إلى مثل هذه المواضيع المُعيبة. في الحقيقة، فوجئت بأنّ الأمر استغرق كلّ هذا الوقت ليعودَ إلى وقاحته. كنّا قد سافرنا من لندن إلى باريس مع والدي، حتى يتمكّن من توديعنا في قطار الشرق السريع المثير للإعجاب، وكان توماس رجلاً نبيلاً طول الطريق. بالكاد تعرّفتُ عليه وهو يتحدّث بحرارة مع أبي خلال تناول الكعك والشاي.

لولا الميلان الوقح لشفتيه عندما لم يكن أبي ينظر، أو الخطوط المألوفة لفكّه العنيد، لظننتُه مُنتحلاً. من المُحال أن توماس كريسويل هذا نفس الصبي الذكي المُزعج الذي نما ولعي به منذ الخريف الماضي. دسستُ خصلةً من شعري الغرابي خلف أذني ونظرتُ من النافذة ثانيةً.

«هل يعني صمتُكِ إنّكِ تفكّرين في قُبلةٍ أخرى، إذن؟»

«ألا يُمكنكَ الكفّ عن استنتاج إجابتي يا كريسويل؟» حدّقتُ فيه، وأحد حاجبيّ مرفوعٌ في تحدٍّ، حتى هزّ كتفيه واستمرّ في قرع أصابعه على حافة النافذة.

نجح توماس هذا أيضًا في إقناع والدي، اللورد إدموند وادزورث القويّ، بالسماح لي بحضور أكاديمية العلوم والطب الجنائيّ معه في رومانيا. حقيقةٌ ما زلتُ لا أستطيع قبولها تمامًا. كان أسبوعي الأخير في لندن مليئًا بترتيب الملابس وحزم الأمتعة، الأمر الذي أتاح لهما الكثير من الوقت للتعرّف أكثر، على ما يبدو. عندما أعلن والدي أن توماس سيُرافقني إلى الأكاديمية مع السيّدة هارفي بسبب مرضه، كدتُ أختنق في رشفة الحساء الخاصّة بي، بينما كان توماس يغمز لي.

بالكاد وجدتُ وقتًا للنوم في الليل، ناهيكَ عن التفكير في العلاقة الناشئة بين صديقي المُثير للغضب وأبي الصارم عادةً. تقتُ لمغادرة المنزل الهادئ بشكل مُخيف، والذي جذبَ الكثير من أشباح الماضي القريب. حقيقةٌ أدركَها توماس تمامًا.

«أحلام يقظة بمشرطٍ جديد أم إنّ هذا المظهر يهدُف فقط لإثارتي؟» سأل توماس، ليسحبني بعيدًا عن أفكاري المُظلمة. ارتعشَت شفتاه في إثر عُبوسي، لكنّه كان ذكيًا بما يكفي لعدم إنهاء تلك الابتسامة. «آه. إذن مُعضلةٌ عاطفيّة. مُفضَّلَتي.»

شاهدتُه وهو يتمعّن في التعبير الذي حاولتُ جاهدةً السيطرة عليه، والقفّازات التي لم أستطع التوقّف عن العبث بها، والتصلّب الذي جلستُ به في قسمِنا، والذي لم يكن له علاقة بالمشدّ الذي ربطَ أعلى جسدي، ولا بالمرأة المُسنّة التي شغلَت معظم مقعدي. ثبتَ نظره على عينيّ، بإخلاصٍ وتعاطُف كبير. كان بإمكاني رؤية الوعود والأماني تتشابك في ملامحه، بمشاعرٍ تكفي شدّتُها لجعلي أرتجف.

«متوتّرة بشأن الصفّ؟ سوف تسحرينهم جميعًا، وادزورث.»

كان من المُريح إنه أساء أحيانًا قراءة الحقيقة الكاملة لمشاعري. لِيعتقد إن الارتجاف كان بالكامل بسبب الصفّ وليس لاهتمامه المُتزايد بالخطوبة. لقد اعترف توماس بحبّه لي، لكن كما هو الحال مع العديد من الأشياء مؤخرًا، لم أكن واثقة من إنه حقيقيّ. ربما شعر أنه مدينٌ لي فقط بدافع الشفقة، في أعقاب كلّ ما حدث. لمستُ الأزرار الموجودة على جانب القفازات. «لا. ليس صحيحًا.»

تقوّس حاجبه ولم يقُل شيئًا. حوّلتُ انتباهي من جديد إلى النافذة، والعالم الصارخ في الخارج. تمنّيتُ أن أضيعَ في العدَم لفترةٍ أطول.

تقع أكاديميّتنا الجديدة في قلعةٍ، أعلى سلسلة جبال الكاربات المُتجمّدة. كانت بعيدةً عن المنزل والتمدّن، في حال كون أيّ من زملائي الجُدد سيّئًا. من المؤكد أن يُعتبَر جنسي نقطة ضعف بين أقراني الذكور ـ وماذا لو تخلّى توماس عن صداقتنا بمجرّد وصولنا؟ ربّما سيكتشف مدى غرابة أن تقوم امرأةٌ شابّة بِشقّ الموتى وانتزاع أعضائهم كما لو كانوا خفًّا جديدًا تُجرّبه. لم يهمّني الأمر عندما كنّا نتدرّب في مختبر العمّ، لكن ما يعتقدهُ الطلاب في هذه الأكاديمية المرموقة قد لا يكون تقدُّميًّا.

التعامل مع الجثث بالكاد يُناسب الرجال، ناهيكَ عن فتاة من عائلة نبيلة. إذا تركَني توماس بلا أصدقاء في المدرسة، فسوف أغوص في هاوية عميقة يُمكن ألّا أعود منها أبدًا. كرهَت فتاة المجتمع اللائقة في داخلي الاعتراف بذلك، لكنّ مُغازلاته أبقَتني طافيةً في بحر من المشاعر المُتضاربة. كان الشغف والإزعاج نارًا، نارًا حيّة تضطرم بقوّة وتتنفّس. أمّا الحزن فهو وعاء من الرمال المُتحرّكة ـ كلّما كافحَه المرء زادَ عمقه. أنا أفضّل إشعال النار على أن أدفَن حيّة. رغم أنّ مجرّد التفكير في كوني بوضعٍ مُحرِجٍ مع توماس يكفي لجعل وجهي دافئًا.

«أودري روز،» بدأ توماس، وهو يعبث بأكمام معطفه ثم رفعَ قبّعته قبل أن يُمرّر يده عبر شعره الداكن، وهو عمل غريبٌ حقًّا من صديقي المتغطرس عادةً. تحرّكَت السيدة هارفي، لكنها لم تستيقظ.

«نعم؟» جلستُ باستقامةٍ أكثر، وأجبرتُ مشدّي على البروز كما لو كان

درعًا. نادرًا ما ناداني توماس باسمي الأول ما لم يكُن هناك شيءٌ فظيع على وشك الحدوث. أثناء تشريح جثّة قبل بضعة أشهر، خسرتُ معه معركة دهاء واضطررتُ إلى منحه الإذن باستخدام اسم عائلتي. امتيازٌ سمحَ لي به أيضًا، وندمتُ عليه أحيانًا عندما كان يناديني «وادزورث» في الأماكن العامة. «ماذا؟»

شاهدتُه يأخذ أنفاسًا عميقة قليلة، وتركيزي يتحوّل إلى بدلته المصنوعة بدقّة. لقد ارتدى ملابس أنيقة للسفر. صُمّمَت سترته السوداء لتُلائم بُنيَته بطريقةٍ تجعل المرء يقف ليُعجَب بها وبالشاب الذي ملأها. مددتُ يدي إلى أزراري، ثم أمسكتُ نفسي. قال وهو يتحرّك في مقعده: «هناك شيء أنوي إخباركِ به. أعتقد... إنه من المفروض البوح بهذا قبل وصولنا.»

اصطدمَت رُكبتُه باللوح الخشبي مرّةً أخرى وتردّد. ربّما أدرك بالفعل أن ارتباطه بي سيُشكّل مُعضلةً له في المدرسة. أعددتُ نفسي لذلك، لقصّ الحبل الذي يوصلني إلى عقلي. لن أطلب منه البقاء أو أن يظلّ صديقي. لا يهمّ حتى لو قتلني ذلك. ركّزتُ على أنفاسي، أعدُّ الثواني بينها. ادّعت جدّتي أن العناد يجب أن يُنقَش على شواهد قبور جميع آل وادزورث، ولم أختلف معها. رفعتُ ذقني. جاءت قعقعة عجلات القطار الآن مع كل نبضة مُضخَّمة لقلبي، ما ضخّ الأدرينالين في عروقي. بلعتُ ريقي عدّة مرّات. إذا لم يتكلّم قريبًا، خشيتُ أن أتقيّأ عليه وعلى بدلته الجميلة.

»وادزورث. أنا متأكّدٌ من أنّكِ... ربّما يجب أن...» هزّ رأسه ثمّ ضحك. «لقد امتلكتِني حقًا. سأقوم بنظم قصائد العشق العُذريّ قريبًا.» ترك الشرود ملامحه فجأة كما لو إنه أنقذ نفسه من السقوط في هاويةٍ مُميتة. تنحنح،

وأصبح صوته أنعم بكثير مما كان عليه قبل لحظة. «هذا بالكاد هو الوقت المناسب، لأنّ أخباري هي بالأحرى... حسنًا، قد تكون بمثابة مُفاجأةٍ بسيطة.»

عقدتُ حاجبيّ. لم تكن عندي فكرة عمّا سيقوله. إمّا أن يُعلن أن صداقتنا أبديّة أو يُلغيها إلى الأبد. وجدتُ نفسي أتمسّك بحافّة مقعدي، وراحة يديّ تُبلّل قفّازاتي الساتن.

جلسَ إلى الأمام، وهو يُقوّي نفسه. «والدتي...»

اصطدمَ شيءٌ كبير بباب المقصورة، وكادت القوة أن تكسر الخشب عند الاصطدام. على الأقل بدا الأمر على هذا النحو ـ فقد تمّ إغلاق بابنا الثقيلة لإبعاد الضوضاء الصادرة عن عربة الطعام القريبة منّا. كانت السيّدة هارفي المُبارَكة لا تزال نائمة. لم أجرؤ على التنفس، في انتظار المزيد من الأصوات. عندما لم تصدر أيّة ضوضاء، تقدّمتُ ببطء، ناسيةً تمامًا اعتراف توماس غير المُعلَن، وقلبي ينبض بضِعف سرعته المعتادة. تخيّلتُ جثثًا تنهض من بين الأموات، وتقرع بابنا على أمل شرب دمائنا، و... لا. أجبرت عقلي على التفكير بوضوح. لم يكن مصّاصو الدماء حقيقيّين.

ربّما هو مجرّد رجل انغمس في الكثير من المشروب وتعثّرَ في الباب. وربّما أفلتَت عربة حلوى أو شاي من إحدى النادلات. افترضتُ إنه من الممكن أن تكون حتى امرأةً شابّة فقدت توازن قدميها مع حركة القطار. زفرتُ وجلست. كنتُ بحاجة إلى الكفّ عن القلق بشأن القتلة الذين يُطاردون الليل. أصبحتُ مهووسةً بتحويل كلّ ظلّ إلى شيطانٍ مُتعطّش للدماء، عندما لم يكن الأمر أكثر من غياب الضوء. رغم كوني ابنة والدي.

سمعتُ صوت جلبةٍ أخرى خارج غرفتنا الصغيرة، تلتها صرخةٌ مكتومة، ثمّ لا شيء. وقفَ الشعر مُنتصبًا على مؤخرة رقبتي، مُبتعدًا عن أمان جلدي، بينما زادَ شخير السيّدة هارفي من ثُقل الأجواء المُخيفة.

«ماذا بحقّ الملكة؟» همست، لاعنةً نفسي لأنني لم أحزم مشارطي في صندوق أستطيع الوصول إليه بسهولة. رفعَ توماس إصبعه إلى فمه، ثم أشار إلى الباب، مُوقِفًا أيّة حركات أخرى. جلسنا هناك بينما انقضَت ثوانٍ في صمتٍ مؤلم. مرّت كلّ تكتكةٍ من الساعة كأنّها شهرٌ من المعاناة، بالكاد استطعتُ تحمّل واحدةً أخرى منها.

كان قلبي مستعدًا للخروج من قفصه. الصمت مخيفٌ أكثر من أيّ شيء آخر، لأنه يمدُّ الثواني إلى دقائق. جلسنا هناك، نُركّز على الباب، ننتظر. أغمضتُ عينيّ ودعوتُ ألّا أعاني من أهوالٍ جديدة.

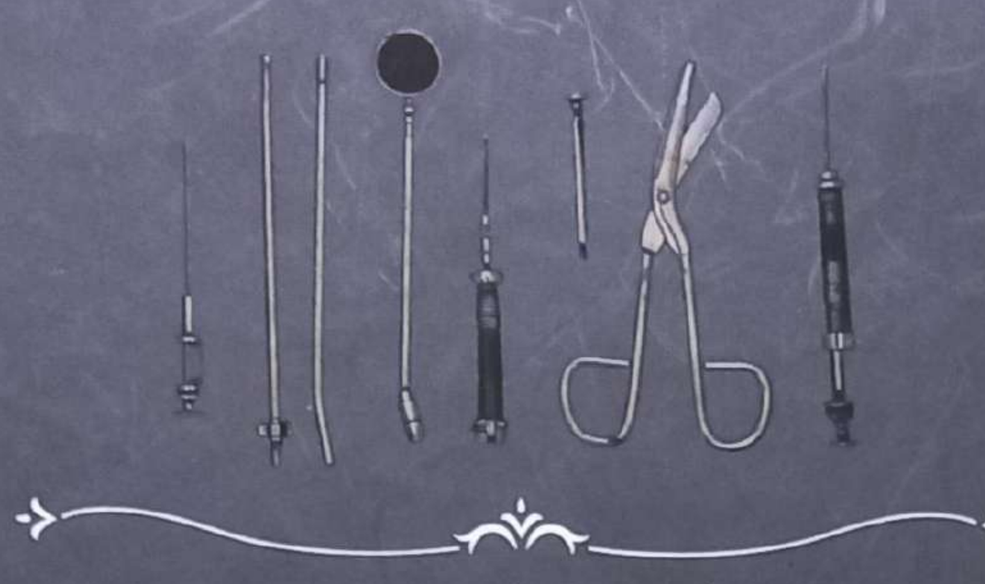
مزّقَت الأجواء صرخةٌ اقشعرّت لها عظامي حتى النخاع. أمسكَ بي توماس عبر المقصورة، وتحرّكَت السيّدة هارفي. أيقنتُ أن هذا ليس من نسج خيالي. كان هناك شيء مُظلمٌ وحقيقيٌّ للغاية معنا على متن هذا القطار.

عن المؤلفة

نشأت كيري مانسكالكو في بيت شبه مسكون خارج مدينة نيويورك، حيث بدأ ولعها بالفنّ القوطيّ بالظهور. في أوقات فراغها تقرأ كلّ شيء تقع عليه يدها، وتطبخ جميع أنواع الطعام مع عائلتها وأصدقائها، وتشرب الكثير من الشاي خلال مناقشتها أجمل قضايا الحياة مع قططها. «مُطارَدة جاك السفّاح» هي روايتها الأولى وأوّل كتاب من أربعة كتب، جميعها حقّقَت أعلى المبيعات وفقًا لنيويورك تايمز وUSA Today. تتضمّن الرواية حبّها لعلوم الطب الجنائي وألغاز التاريخ التي لم تُحلّ بعد.

الفهرس

KERRI MANISCALCO



مُطارَدة جاك السفّاح الرواية الأكثر مبيعًا ورقم 1 بشهادة نيويورك تايمز، هي رواية مُخيفة بشكل مُمتع، قصّتها مستوحاة من جرائم قتل جاك السفّاح الشهير، ولها خاتمة غير مُتوقّعة تقشعرّ لها الأبدان.

وُلِدَت أودري روز وادزورث، البالغة من العمر سبعة عشر عامًا ابنةً للورد، وأمامها حياة مليئة بالثراء والامتيازات. لكنّها بين حفلات الشاي وفساتين الحرير، تعيش حياةً سرّيةً ممنوعة. على عكس رغبات والدها الصارم وتوقّعات المجتمع، غالبًا ما تذهب أودري روز إلى مختبر عمّها لدراسة المُمارسات الشنيعة للطبّ الجنائيّ.

يجرّها عملها في تشريح سلسلة من الجثث المقتولة بوحشيّة إلى البحث عن قاتلٍ مُتسلسِل، وتجلبها تحقيقاتها إلى ثنايا عالمها المحميّ. التقلّباتُ والمُنعطفات المُروّعة للقصّة ستجعل من المستحيل نسيان هذا العمل المُذهل، الأوّل والأكثر مبيعًا وفقًا لنيويورك تايمز، من إبداع الكاتبة الشابّة كيري مانسكالكو، ومن تقديم الكاتب العالمي جيمس باترسون، الذي باعت كتبه ما يزيد على 300 مليون نسخة حول العالم.









